جامعة ابن طفيل
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
القنيطرة



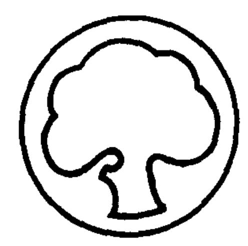
منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالقنيطرة
سلسلة: نصوص ووثائق
رقم 2

رسائل موحدية

مجموعة جديدة

تحقيق ودراسة:
أحمد عزاوي

الجزء الثاني



جامعة ابن طفيل
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
القنيطرة

منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالقنيطرة
سلسلة: نصوص ووثائق
رقم 2

رسائل موحدية

مجموعة جديدة

الجزء الثاني

تحقيق ودراسة:
أحمد عزاوي

رسائل موحدية

الطبعة الأولى 1422- 2001

مقدمة

صدر الجزء الأول من كتاب «رسائل موحدية» خلال سنة 1995 بعناية كلية الآداب والعلوم الانسانية بالقنيطرة، وتقوم الآن نفس المؤسسة ــ مشكورة ــ بنشر الجزء الثاني المتعلق بالدراسة التاريخية لنصوص الجزء الأول، هذه الدراسة لا تعتبر شاملة للعصر الموحدي بقدر ما تطرح قضايا تصرّح بها أو تلمّح اليها الرسائل المذكورة.

وزعت هذه الدراسة على خمسة فصول، كل فصل يشتمل على موضوعين، موضوع أول توضح فيه خصوصيات بعض رسائل الفصل التي لا يحسن دمجها في الاطار السياسي العام، ثم موضوع ثان يتناول الأحداث والقضايا التي تطرحها نفس الرسائل :

فالفصل الأول تناول دراسة الرسائل التي تهم الوضع الداخلي في المغرب الأقصى خلال القرن 6هـ، منها ما يتعلق بمشكلة الثورات وما يتعلق بمسألة الخلافة وولاية العهد وموقف السلطة من الأزمات الاقتصادية والاجتماعية.

والفصل الثاني : اهتمّ بموضوع امتداد النفوذ الموحدي شرقا في المغرب الأوسط وافريقية وما ترتب عنه من صراع مع بعض الأسر الحاكمة قديما مثل بني الرند في قفصة، وبعض العناصر الطارئة على المنطقة خاصة بني غانية المرابطين الذين ركزوا صراعهم مع الموحدين في افريقية لوجود عناصر مساعدة تمثلت في القبائل العربية الحديثة الهجرة إلى المنطقة، والمماليك مرتزقة الدولة الأيوبية بمصر وبدعم رمزي من الخلافة العباسية، وما ترتّب عن كل هذا من توتّر العلاقات بين الموحدين من جهة والأيوبيين والعباسيين من جهة ثانية. كما أنّ وصول الموحدين الى افريقية فرض نوعا من العلاقات بينهم وبين الايطاليين الذين أصبحوا يتحكمون في تجارة البحر المتوسط، فارتبط الموحدون مع بعضهم باتفاقيات تجارية تجنبا لأعمال القرصنة التي وقع الحد منها دون القضاء عليها، وهذا المنهج سلكته الدولة الحفصية التي حلّت محل الموحدين في افريقية خلال النصف الأول من القرن السابع الهجري كما شرحناه مفصّلا في عملنا الذي أنجزناه عن القرنين 7 و8 هـ بغرض تهييء دكتوراه الدولة بعنوان «الغرب الاسلامي من خلال رسائله»

أما ما يتعلق بأمر الأندلس فقد وزع على الفصلين الثالث والرابع لغزارة الرسائل المتعلقة بها ولأهمية موضوعها في تاريخ الموحدين خاصة وفي اطار الصراع بين المسيحية والإسلام في الغرب : **فالفصل الثالث** خصص لظروف استقرار النفوذ الموحدي الذي بدأ يدخل الأندلس قبيل فتح مراكش، ومن خلاله تظهر محاولات الموحدين للاستقرار في المناطق التي

ورثوها عن الدولة المرابطية، والمحاولات الاسبانية لمعاكسة هذا الاتجاه بشكل مباشر أو بواسطة بعض حلفائهم من المسلمين مثل أمير شرق الأندلس ابن مردنيش، وكان العمل الايجابي بالنسبة للموحدين هو عدم استقرار العلاقات بين الممالك الاسبانية وصراعها فيما بينها، وربما كان هذا من العوامل المهمة التي ساعدت على كسب الموحدين الانتصار الكبير في معركة الأرك التي هيّأت استقرار النفوذ الموحدي بالأندلس، وتوازنا بين الطرفين دام حوالي 15 سنة إلى أن حدثت كارثة العقاب سنة 609.

الفصل الرابع، تناول الأوضاع منذ هزيمة العقاب الى نهاية الدولة الموحدية، فهذه المعركة ساعدت على الإخلال بالتوازن الذي استقرّ منذ معركة الأرك، كما ساهمت في كشف تناقضات الحكم الموحدي وفجّرت الصراعات الداخلية، فسقطت الأندلس من يد الموحدين، وتقاسم معظمها الاسبان، وانقسم الشمال الافريقي الى ثلاث مناطق سياسية استقلت عن بعضها البعض — تقريبا — حتى اليوم رغم محاولات المرينيين لإعادة المنطقة تحت نفوذهم.

الفصل الخامس، خصص لبعض المستفادات الحضارية من الرسائل في الجوانب الادارية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية والدينية والمذهبية وحتى في العلاقات الخارجية لتكون نواة لدراسة حضارية مفصّلة لاحقة ان شاء الله.

في نهاية الدراسة أضفنا بعض الملحقات : جداول، خرائط، بيليوغرافيا (منقحة عما ورد ضمن ملحقات الجزء الأول)، إضافة إلى جدول لتصحيح ما أمكن اكتشافه من أخطاء الجزء الأول معتمدين على نباهة القارىء في اكتشاف البقية.

والله الموفّق.

القنيطرة في 2 شوال 1418
31 يناير 1998

تذكير ببعض الرموز المستعملة

(م ر م) :: «مجموع رسائل موحدية»، نشر ليفي بروفنصال

(م ج) : «مجموعة جديدة» هي المجموعة التي نقوم بدراستها

(خ ح) : الخزانة الحسنية بالرباط

(خ ع) : الخزانة العامة بالرباط

(ط) : طبعة

(س) : سفر

(ت) : تحقيق

(ن) : نشر

(م) : مجلد

(ت 5) : التقديم الخامس

(T.C) : ...Tables de Concordance (للموافقة بين التاريخين الهجري والميلادي).

الفصل الاول

الوضع الداخلي في الـمغرب الاقصى الموحدي خلال القرن 6 هـ

تنقسم دراسة هذا الفصل إلى موضوعين :

الأول : يتناول خصوصيات بعض رسائل الفصل الأول.

الثاني : يتناول دراسة تاريخيّة تتجنّب الجزئيات التي أثيرت في الموضوع الأول[1].

رسائل تهم الفصل الأول[2] :

- رسالة عن المهدي إلى المرابطين .... رقمها : 1
- رسالة عن المهدي إلى جماعة الموحدين .... رقمها : 2
- رسالة عن عبد المومن بفتح تارودانت .... رقمها : 3
- رسالة عن عبد المومن إلى جزولة .... رقمها : 4
- رسالة عن أبي حفص الهنتاتي حول مقتل الماسي .... رقمها : 5
- رسالة عن عبد المومن «جامعة لأنواع الأوامر» .... رقمها : 6
- رسالة إلى الثّائر الهسكوري ابن توندوت .... رقمها : 8
- رسالة عن الأمير يوسف حول أحكام الإعدام .... رقمها : 13
- رسالتان عن الأمير يوسف وأخيه أبي حفص حول إخماد ثورة غمارة رقمهما : 14و15
- تجديد بيعة أهل اشبيلية إلى الخليفة يوسف .... رقمها : 17
- تجديد بيعة أهل غرناطة إلى الخليفة يوسف .... رقمها : 18
- رسالة عن والي غرناطة في نفس الموضوع .... رقمها : 19
- رسالة عن الخليفة يوسف إلى غرناطة حول انصراف وفد البيعة رقمها : 20
- بيعة قرطبة بولاية العهد لمحمد (الناصر) .... رقمها : 40
- رسالة والي قرطبة صحبة البيعة المذكورة .... رقمها : 41
- رسالة عن المنصور حول نكبة ابن رشد .... رقمها : 43
- جواب على كتاب الخليفة يعقوب حول الاهتمام بالقرآن والسنة رقمها : 44

(1) سنتّبع هذه الطريقة في الفصول الثاني والثالث والرابع، ومما لاحظناه قلة رسائل الفصل الأول بالمقارنة مع بقية رسائل الفصول الأخرى فلجأنا إلى بقية المصادر للدعم.

(2) تخضع هذه الرسائل للترتيب الزمني ولترقيمها في الجزء الأول من «المجموعة الجديدة» وهو قسم خاص بنصوص الرسائل.

الموضوع الأول :

خصوصيات بعض رسائل الفصل الأول

1 ــ رسالة المهدي إلى جماعة الموحدين ورسالة عبد المومن إلى كزولة : (رقم 2 و4)

تعتبر قبيلة كزولة إحدى القبائل الكبرى التي كانت تمتد مواطنها من سهل سوس إلى الشرق عبر السفوح الجنوبية للأطلس الصغير (جبل كزولة)[3]، وكانت لهذه القبيلة صلات خاصة بالدولة المرابطية فظلت تدعمها ضد الموحدين، ولم تستجب لدعوة هؤلاء إلا بعد هزيمتها أمامهم سنة 533 وظهور ضعف المرابطين. ويبدو أن عبد المومن استغل فرصة تطور الصراع المسلح مع هؤلاء في إطار حملته الطويلة الجبلية لجرهم بعيدا عن عاصمتهم، فحاول استمالة كزولة حتى لا تنحاز من جديد إلى المرابطين، فوجه رسالة إلى هذه القبيلة ومعها نسخة رسالة عن المهدي كان وجّهها إلى «جماعة الموحدين»[4]. وأهم ما يمكن استفادته من الرسالتين :

- التلميح إلى أقدمية الدعوة الموحدية مادامت رسالة عبد المومن مكتوبة بعد 23 سنة من بدء هذه الدعوة، والدولة المرابطية لاتزال قائمة أثناء إنشاء هذه الرسالة، وهناك من يرجِّحُ أن يكون تاريخها هو سنة 537 إذا كانت الدعوة بدأت سنة 514[5].
- التلميح إلى الأواصر بين كزولة والمرابطين دون تحديد ما إذا كانت عرقية أو مذهبية، على أن منشىء الدعوة المرابطية جزولي : «ولو لم تكن إلا الحمية...»[6].
- الإشارة إلى عالمية الدعوة الموحدية بالنسبة لجميع المسلمين : «فما عذر مَن سَمِع بقيام المهدي في المتخلّف عنه ولو كان ببلاد الصين والهند حتى يلحق به ويلتجىء إليه...»[7] وهذه الفكرة كثيرا ما نجد أثرها في الرسائل الموحدية تصريحا أو تلميحا.

---

(3) ابن سعيد، بسط الأرض، ص 58 (ط بيروت 1970)، العبر 517/6 (عن مجالات جزولة).

(4) الرسالتان 2، 4 (م ج).

(5) راجع نص الرسالة رقم (4) وتعليق عمار الطالبي عليها وعلى الرسالة رقم (2 م ج) في أحد منشورات الجامعة التونسية سنة 1979 تحت عنوان «أعمال المؤتمر الأول لتاريخ المغرب العربي وحضارته» ص 95-110.
وهناك من يجعل بدء الدعوة سنة 515، البيذق في «أخبار المهدي ابن تومرت وبداية دولة الموحدين» الرباط 1971.

(6) رسالة عبد المومن رقم (4).

(7) رسالة عبد المومن رقم (4).

ـــ لازال للتفاوت الحضاري تأثير في عقلية المجتمع آنذاك، وعلى هذا يُعيِّر المرابطون بأصلهم : «العراة الحفاة...»، فوجود هذه العقلية مكّن عبد المومن من إثارتها في رسالته.

ـــ يبدو أنه كان يشاع آنذاك أن المصامدة من أصل عربي[8]، فيوصف المرابطون وعصبياتهم «بالبرابر المفسدين»[9].

ـــ الإشارة إلى بعض أساليب المرابطين لإبعاد الناس عن اتّباع الدعوة الموحدية، ومنها الطعن في المهدي نفسه[10].

ـــ تركيز رسالة المهدي على فكرة الجهاد باعتباره فرضا على المؤمن الحقيقي لمحاربة «المجسّمين» والمنحرفين عن الدين.

2 ـــ رسالة عبد المومن بفتح تارودانت (رقم 3) :

بعدما تمت بيعة عبد المومن بالخلافة عمل على مدّ نفوذ الدعوة الموحدية بين قبائل جبلية مثل «صنهاجة الجبل» و«هسكورة الجبل»، ثم أصبح يهدد السوس خاصة مدينتيه تارودانت وايجلي (اللتين جعل ابن القطان فتحهما ضمن أحداث سنة 529)[11]، أو على الأقل أغار الموحدون على قبائل السهل وقراه مما استلزم وصول إمدادات مرابطية إلى المنطقة، وكتب عبد المومن رسالة حول عمليات الموحدين بها[12]، ويمكن أن نستنتج منها ما يلي :

ـــ وصف الموحدين للمرابطين بالكفار (مجسِّمين)، وأيضاً بالبربر[13].

ـــ ذكر أهم منتوج زراعي لِتِيوَنْوِين وهو قصب السكر، وإن سمي فقط في الرسالة بالقصب، فشهرته مذكورة عند الجغرافيين[14].

ـــ ذكر أسماء بعض القبائل التي كانت تقطن السهل أو حواشيه مثل هنكيسة، جزولة، تاجندويت، ورقالة.

ـــ محاولة الموحدين قطع طرق الإمدادات المرابطية إلى المنطقة : «اقتحم (العلج)... في طريق إيغِران تطوف في حالة غفلة من الموحدين... الذين عليها حتى جاز عليهم...».

---

(8) الاستبصار ص 211.

(9) رسالة عن المهدي رقم (2)، ويوجد هذا الوصف أيضا في رسالة فتح تارودانت (رقم 3).

(10) الرسالة رقم (2).

(11) نظم الجمان ص 210 (ط تطوان 1964).

(12) هي الرسالة رقم (3).

(13) انظر خصوصيات رسالتي المهدي وعبد المومن السابقتين (2 و4).

(14) الإدريسي، نزهة المشاق (227، ط القاهرة)، الاستبصار (211–212)، وأيضا ابن حوقل في «صورة الأرض» ص 90، ط 1979 بيروت، والبكري في «المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب» ص 161، ط باريس 1965 (من «المسالك والممالك»).

ــ اعتماد المرابطين في فترة ضعفهم على القوات النصرانية المرتزقة لمواجهة الأوضاع الخطيرة، وكانت هذه القوات التي وصلت إلى السوس بقيادة العلج (الربرتير فيما يبدو)، وأهمية هذه القوات هي التي طمأنت القبائل الفارّة أمام جموع الموحدين فعادت إلى أرضها.

ــ هذه الأهمية تبرز أيضا في صمود مدينة تيونوين التي تَحصَّن بها المرتزقة ولا تصرّح الرسالة باستيلاء الموحدين عليها.

وهكذا يبدو أن عمليات الموحدين خلال سنة 529 لا تمثل فتحا نهائيا لسوس ومدنه.

3 ــ رسالة عبد المومن «الجامعة لأنواع من الأوامر» (رقم 6) :

إن أهم ما يمكن أن نستفيده من هذه الرسالة هو تلميحها أو إشارتها إلى مفاسد العهد السابق (المرابطي)، ومحاولة بعض الموظفين استغلال فترة انشغال الدولة الموحدية بظروف نشأتها وما تواجهه من ثورات لمصالحهم الخاصة، فكان عبد المومن يرى ضرورة قطع تلك المفاسد وإشعار السكان بالاطمئنان إلى الحكم الجديد وتشريعاته :

ــ فابن عذاري يجعل من دوافع كتابة هذه الرسالة تعدِّيَ أخويْ المهدي بإشبيلية على الناس من قتل وإباحة للأموال وانشغال بعض «المشتغلين بها» بالغش في الأمور المالية حتى إنه بعد وصول هذه الرسالة إلى اشبيلية تمّ قتل اثنين من هؤلاء «المفسدين»، فكانت هذه الرسالة «حجة بأيدي الناس ومؤَمِّنةً لهم من الباس»[15].

ــ تشير الرسالة إلى إلغاء التمييز بين من دخل في الدعوة الموحدية قديما ومن دخلها حديثا، وفي هذا تلميح إلى محاولات البعض لاستغلال هذه الأقدمية. ولكن هذه المساواة لا تمنع من بعض الامتيازات للموحدين القدماء، فالرسالة تنصّ على المساواة أمام الشرع وليست مساواة عامة.

ــ تشير أيضا إلى سوء تصرف «الرقّاصين» (البريديّين) وتسلطهم على أموال الناس مما فرض تنظيم تنقلاتهم.

ــ كما أن وضع علامة خاصة في الرسائل الخليفية يؤكد وجود هذه العلامة منذ زمن عبد المومن على الأقل إن لم يكن ذلك منذ عهد المهدي، وعلامة عبد المومن هي : «والحمد لله وحده» كما هي ثابتة في رسالته من ظاهر قسنطينة إلى ولده يوسف بإشبيلية سنة 555[16]، فلاشك أنها هي نفس العلامة التي يذكرها في الرسالة المدروسة، وستظل هذه

---

(15) البيان (ضمن أحداث سنة 513) ص 37، ط بيروت 1985 وننبه القارىء الكريم إلى أن النسخة المعتمدة هي طبعة تطوان إلا في حالات البتر فيها فتقع الإحالة على طبعة بيروت لسنة 1985

(16) الرسالة رقم 9 (م ج)، ويتأكد بذلك ما ذكرته بعض المصادر مثل (المغرب في حلي المغرب) لابن سعيد 138/2 ضمن ترجمة حفصة الركونية، انظر الهامش 6 بعد هذا.

«العلامة» هي نفسها عند ابنه يوسف[17] ثم المنصور[18] وكذلك عند الناصر[19]، ثم المستنصر[20]...

ـــ بالنسبة لتاريخ الرسالة يؤكد صحته ما جاء في «المن» (ص 307) عن مضمون وتاريخ ومكان صدور هذه الرسالة والجهات الموجهة إليها، كما أن هناك إشارة إليها في الرسالة الثالثة من «مجموع رسائل موحدية» (م.ر.م) لبروفنصال.

ـــ ويفهم أيضا من الرسالة أن الإهمال الذي كان يعرفه نظام بيع الإماء (خصوصا بالأندلس) فرض إعادة تنظيمه وفقا للشريعة.

ـــ كما أن إشارة الرسالة إلى المحارم والقبالات... تفيد بوجود أسلوب من أساليب الجباية في أواخر العهد المرابطي، وهو ما يؤكد الإدريسي وجوده بمدينة مراكش[21]، والظاهر أنه كان عامّاً[22].

ـــ في الرسالة أيضا الأمر برفع أحكام الإعدام إلى الخليفة قبل التنفيذ، وهذا فيه مراعاة لجانب العدل من جهة ومن جهة أخرى التقليص من سلطة أشياخ الموحدين في الولايات والتي كانت لاتزال قوية آنذاك.

4 ـــ بعض خصوصيات الرسالتين عن ثورة غمارة (رقم 14-15) :

إن الاشكالية المطروحة هنا هي وجود رسالتين في نفس الموضوع إلى حكومة قرطبة صادرتين عن الأمير يوسف وأخيه أبي حفص وفي نفس التاريخ، فهذه الازدواجية قد تكون راجعة إلى المكانة التي كان يمتاز بها والي قرطبة من كبار شيوخ الموحدين أبو عبد الله بن أبي إبراهيم[23] حيث نجد العملية تتكرر بالنسبة للرسالتين 22 و23 الصادرتين عنهما إلى الشيخ نفسه. ولكن يبدو أن هناك عاملا آخر أكثر أهمية، وهو وجود نوع من الوصاية أو

---

(17) انظر الرسالة رقم 13 (م ج).

(18) انظر رسالته رقم 35 (م ج).

(19) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص 231 (ط الرباط 1973).

(20) انظر الظهير رقم 105 مكرر (م ج)، ويذكر ابن خلدون أن «العلامة» (والحمد لله وحده) اتخذها الموحدون اقتداء بالمهدي إذ وجدوها في بعض مخاطباته وظلت علامتهم إلى آخر دولتهم، العبر 497/6-498. لاحظ الإشارة إلى تقبيل البسملة والعلامة الخليفية في الرسالة رقم 55 (م ج).

(21) وصف افريقية الشمالية (من نزهة المشتاق) مادة مراكش، بيريس، ص 44-45.

(22) انظر التوضيحات التي قدمها عز الدين أحمد موسى حول أنواع الضرائب العامة التي كانت في أواخر العهد المرابطي (النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري)، ص (167-168) ط. دار الشروق، بيروت، القاهرة 1983.

(23) كان أبوه من العشرة أصحاب المهدي انظر الهامش (4) على الرسالة رقم (14).

الاشتراك في السلطة بين الأمير يوسف وأخيه أبي حفص عمر منذ موت أبيهما سنة 558. يتحدث صاحب «المن» عن احتضار عبد المومن ثم يقول : «... والسيّد الأعلى أبو حفص بن أمير المومنين قد ملك الأمر كله مما جعل له أبوه قديما وحديثا، وحكّمه تحكيما وخصّه بوزارته خصوصا للأمر وعموما، وعلم أنه سيحمي الحمى ويحمي الحريما (كذا)، واستوثق وصيته عند السيد الأعلى أبي حفص المذكور»[24]، ويقول صاحب البيان المغرب عن عبد المومن أيضا «استوثق بوصيته... لابنه أبي حفص بتقديم أخيه شقيقه يوسف، وكان أبو حفص المذكور قد ملك جميع الأمور، جعل له أبوه ذلك»[25]، ويذكر أيضا بعد تمام البيعة الأولى له «وتَوالَى استبداد السيد أبي حفص على معنى الوزارة والإمارة بانقياد الأوامر السلطانية على أمره على ما كان عليه عند أبيه على رضى من الأمير أبي يعقوب أخيه واتفاق، وإجماع من شيوخ الموحدين وإصفاق...»[26].

ويظهر أن اتخاذ الأمير يوسف بيده العلامة (والحمد لله وحده) في مراسلاته يشكل أولى مراحل استبداده بسلطته نحو أخيه[27]، كما أن أمره بمنع تنفيذ أحكام الإعدام قبل استشارته يمثل مرحلة مهمة لتقليص سلطة الولاة من إخوانه وأشياخ الموحدين[28]، رغم أن ازدواجية المراسلات استمرت بعد ذلك مدة كما يظهر في الرسالتين عن ثورة غمارة أي إلى شوال 562 بل إلى رمضان 563 حسب الرسالتين 22 و23.

يلاحظ أن اسم الثائر في إحدى الرسالتين المدروستين ابن منخفاد وفي الأخرى ابن منغفاد، ويسميه المراكشي (ص 251) سبع بن حيان، ولعل حيان اسم أحد أجداده مادام البيذق ينسب جبل تيزران (الكواكب) إلى أولاد حيان ويسمي الثائر باسم سبع بن منغ فاد بن حيان[29].

وتظهر أهمية الرسالتين أيضا في تصحيح تاريخ إنهاء ثورة غمارة الذي تختلف حوله بعض المصادر بل وتختلف حول اسم زعيم الثورة نفسه.

---

(24) ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة، ص 221، طبعة بيروت.

(25) ابن عذاري : البيان، ص 55 (ط تطوان).

(26) نفس المصدر، ص 59، لاحظ أيضا ظاهرة الازدواجية في المراسلة في عهد الوصاية على الخليفة المستنصر كما تلمح إلى ذلك الرسالة رقم (102).

(27) الرسالة رقم (13) المؤرخة برمضان 561، انظر أيضا تقديم صاحب المن لهذه الرسالة (ص 302، ط بيروت)، ولا يمكن أن نصدق ما ذكره صاحب القرطاس من أن المنصور هو أول من كتب العلامة بيده فقلّده بقية الخلفاء الموحدين (217).

(28) نفس الرسالة (13).

(29) عبد الواحد المراكشي : المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص 251 (ط. القاهرة 1949)، انظر أيضا البيذق في أخبار المهدي 54، 86.

5 ـ خصوصيات بعض رسائل تجديد البيعة ليوسف بن عبد المومن (17-20) :

تتضمن هذه الرسائل الملاحظات الآتية :

ـ في رسالة الشيخ أبي عبد الله والي غرناطة توجد الإشارة إلى أن عمر بن الخطاب هو أول من تسمّى بأمير المومنين الذي هو لقب الخلافة، وفي هذا محاولة لتبرير انتقال يوسف ابن عبد المومن من التسمي بلقب الأمير إلى «أمير المومنين»[30].

ـ في رسالة أخرى للشيخ أبي عبد الله[31] تغير أسلوب مخاطبته للخليفة يوسف من استعمال ضمير المخاطبين (كُمْ) للدلالة على مرحلة الإمارة في الجزء الأول من الرسالة إلى مخاطبته بضمير الغائبين للدّلالة على الوضع الجديد للخليفة بعد تجديد البيعة له، وهذا الأسلوب الأخير هو المستعمل عادة في الرسائل الموحدية عند مخاطبة الخليفة.

ـ في هذه الرسالة الأخيرة توجد الإشارة إلى توصّل الشيخ أبي عبد الله بنسخة كتاب الخليفة من والي إشبيلية السيد أبي إبراهيم إسماعيل، ويفهم من هذه الإشارة أن إشبيلية أصبحت آنذاك عاصمة للأندلس بدلا من قرطبة[32]، ومما يزيد في ترجيح هذه الملاحظة إشارة أخرى حول تكليف «طلبة» إشبيلية بدفع «البركة» لموحدي غرناطة وموحدي قرطبة وذلك في رسالة من الخليفة إلى الشيخ أبي عبد الله والي غرناطة[33].

ـ تؤكد الرسالة ما تذكره المصادر من تأخر الإجماع حول بيعة يوسف بالخلافة لبضع سنوات من حكمه.

6 ـ بعض خصوصيات رسالتي البيعة بولاية العهد من قرطبة لمحمد الناصر (رقم 40 و41):

يمكن إبراز هذه الخصوصيات في النقط الآتية :

ـ نلاحظ في رسالة بيعة أهل قرطبة[34] أنها من الرسائل الطويلة الصدر مثل بعض الرسائل المتعلقة بأخبار النصر في المعارك[35].

ـ أن تاريخ الرسالة الأولى (40) هو سنة 588، ومن المرجّح أن يكون المنصور عقد البيعة

---

(30) الرسالة رقم 18 (م ج).

(31) الرسالة رقم 19 (م ج).

(32) كان السيد أبو إبراهيم واليا على اشبيلية منذ فاتح ذي الحجة 561، ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة، ص 296. وسينتقل إلى ولاية قرطبة في 22 جمادى الثانية سنة 563 تمهيدا للغزو، الرسالة رقم 21 (م ج).

(33) الرسالة رقم 21 (م ج).

(34) الرسالة رقم 40 (م ج).

(35) مثلا الرسالة رقم 42 (م ج).

لابنه بين أواخر 587 وأوائل 588[36].

ــ في الرسالتين معا لا يسمى الخليفة يعقوب «بالمنصور» أو على الأقل لا يختص بهذا اللقب وحده من بين ألقاب أخرى، لذا فلا يستبعد أن يكون لقب «المنصور بالله» اتخذ بصفة رسمية ونهائية بعد الانتصار في الأرك[37].

ــ مما هو مفروض على السلطة المحلية ــ كما يفهم من الرسالتين ــ إذاعة خبر البيعة وجمع بيعات أهل الناحية.

ــ تظهر الرسالتان التزام أهل الولايات بما التزم به أهل العاصمة[38].

ــ تبين الرسالتان ادّعاء الخليفة يعقوب بأن تقديم ولده لولاية العهد لم يكن برغبة منه، وقد سبق لعبد المومن ــ منشىء نظام الوراثة في الدولة الموحدية ــ أن ادّعى مثل هذا الادعاء[39].

ــ يوجد في بيعة أهل قرطبة[40] مقارنة بين عمل الرسول ﷺ في تقديم أبي بكر للصلاة بالناس أثناء مرضه، وبين تقديم المهدي لعبد المومن وهما من غير القرابة في الحالتين، وهذا ما يدفع إلى التساؤل عما إذا كانت عائلة المهدي لازالت إلى عهد المنصور تطالب بحق وراثتها لمنصب الخلافة ؟

ــ لا يوجد في الرسالتين ذكر الشروط بالنسبة للمبايَع له، أما المبايِعون فعليهم السمع والطاعة...[41].

---

(36) استناداً إلى البيان المغرب (187–188 ط، تطوان)، والعبر 511/6، واستبعادا لرأي صاحب المعجب (307).

(37) وصف عبد المومن من قبل «بالمنصور الناصر لدين الله» في الرسالة 30 (م ج) وكذلك بالنسبة لابنه يوسف «المنصور بالله» (19 م ج)، ووصف يعقوب «بالمنصور الناصر» في هاتين الرسالتين (40 و41) وأيضا في 42 و44 (م ج)، وربما ظل يوصف باللقبين معا إلى أن اتخذ ابنه فيما بعد لقب الناصر.

(38) مع المجازفة يمكن أن نقول أن في هذا نوعاً من المقارنة المقصودة ــ أو غير المقصودة ــ مع ما كان يحدث زمن الخلفاء الراشدين من التزام أهل الولايات بما التزم به أهل المدينة النبوية.

(39) الرسالة 13 (م ر م).

(40) الرسالة رقم 40 (م ج).

(41) نفس الشيء بالنسبة للرسالة 18 عن بيعة غرناطة المجددة للخليفة يوسف، قارن مع رسالة يوسف ابن تاشفين لتقديم ولده لولاية العهد، الحلل 78–79، وصبح الأعشى 161/5 (يذكر شروطا على ولده).

ـ يتضح من الرسالتين أن ولي العهد يدعى له بعد أبيه الخليفة[42].

ـ ولعل أهم نقطة في رسالة حكومة قرطبة (41/م ج) هي الاعتذار عن التأخر في تقديم البيعة لسبب غير واضح في الرسالة فإذا فرضنا أن والي قرطبة آنذاك هو أبو يحيى أخو المنصور المعيّن عليها سنة 579[43]، والذي أقرّه المنصور عليها سنة 580 أي بعد بيعته ـ وليس بعد حملته الأندلسية الأولى كما يفهم من المعجب ـ[44] إذا فرضنا أنه لازال على ولاية قرطبة سنة 586–587 (عكس ما يذهب إليه صاحب القرطاس)[45] يكون عندئذ أبو يحيى هو المسؤول عن التأخير الحاصل في بيعة قرطبة والذي سيترتب عنه قتله بعد شفاء المنصور وتتميم البيعة لولده، خاصة وأن صاحب الذيل[46] يرجع سبب نكبة القاضي ابن رشد بقرطبة سنة 593 إلى صلته الوثيقة بأبي يحيى. وهكذا من المرجّح أن يكون سبب تأخر بيعة قرطبة يدخل في إطار المنافسة بين المنصور وبعض إخوته، وقد عارض بعضهم خلافة المنصور نفسها قبل معارضة تولية العهد لابنه[47].

7 ـ خصوصيات رسالة نكبة ابن رشد (43) :

إن هذه الرسالة صادرة عن المنصور ومن إنشاء ابن عياش، ولكنها مبتورة البداية.

ـ أما بالنسبة لتاريخ الرسالة فهو غير منصوص عليه، ويمكن التوصل إليه كما يلي : فالرسالة محصورة ما بين 586 و595 : السنة الأخيرة هي سنة وفاة المنصور[48]، والأولى تمثّل بداية كتابة ابن عياش له، فقد كان مختفيا منذ مقتل مخدومه أبي حفص عمر الرشيد أخي المنصور سنة 584[49] ثم عفا هذا عنه واستكتبه[50]. غير أن ابن عذاري يجعل نكبة ابن رشد ضمن أحداث سنة 593 حين كان المنصور بقرطبة في أعقاب معركة الأرك، كما

---

(42) قارن مع الرسالة 10 (م ج) والهامش 5 عليها.

(43) البيان 129.

(44) المعجب (280–281).

(45) القرطاس 219، وهو في هذه الحالة مضطرب حيث ينسب تزعم الحملة نحو غرب الأندلس إلى والي قرطبة بدل الخليفة يوسف، مما يشكك في صحة معلوماته هنا.

(46) ابن عبد الملك المراكشي، الذيل س 6/ ص 25 وما بعدها (ت إحسان عباس)، انظر خصوصيات الرسالة (43) بعد هذا.

(47) راجع الفصل الثالث، ص 109.

(48) كان ذلك بعد وفاة ابن رشد في أواخر سنة 594، على خلاف النباهي الذي يجعلها سنة 598 (المرقبة العليا، ص 111، ن بروفنصال).

(49) البيان 171–172، ابن الأبار : إعتاب الكتّاب (100–109، ط. دمشق)، راجع ترجمة ابن عياش (رقم 16) في مقدمة البحث.

(50) البيان 172.

أن صاحب «الذيل» ينص على تحديد هذه السنة[51]. وهكذا تكون رسالة المنصور حول هذا الموضوع صادرة خلال هذه السنة (أي 593).

— تمت نكبة ابن رشد بمحضر الرؤساء والأعيان بمدينة قرطبة[52]، وتنص الرسالة على نبذه ومن معه «نبذ النواة»، بحيث طرد من مجلس الخليفة بعدما كان مقربا إليه، وصدرت الأوامر بإحراق كتبه الفلسفية واعتقال من كان على آرائه، «فمتى عُثر منهم على مجْرٍ في غلوائه، عمٍ عن استقامته واهتدائه، فليعاجَلْ فيه بالتثقيف والتعريف»[53] أي ريثما تصدر الأوامر النهائية بشأنه من طرف الخليفة، و«كتبت عنه الكتب إلى البلاد بالتقدم إلى الناس في ترك هذه العلوم جملة واحدة وبإحراق كتب الفلسفة كلها إلا ما كان من الطب والحساب والفلك»[54].

— ما هي أسباب نكبة ابن رشد ؟ ما يظهر من الرسالة هو الاتهام بالمروق عن الدين باتباع العلوم القديمة المنبنية على العقل، وحدّد صاحب المعجب سببين لذلك، أولهما عندما تحدّث عن الزرافة في بعض تآليفه فذكر مشاهدته لها عند «ملك البربر جاريا في ذلك على طريقة العلماء في الإخبار عن ملوك الأمم وأسماء الأقاليم»، وثانيهما، حسد بعض مناوئيه من أهل قرطبة ممن يدعون الكفاءة معه في البيت وشرف السلف[55]، فأوقفوا المنصور على جملة يحكيها عن بعض قدماء الفلاسفة وهي : «فقد ظهر أن الزهرة أحد الآلهة»[56]. وأضاف صاحب الذيل سببا آخر ربما كانت له صلة قوية بالنكبة وهو أن ابن رشد كان له اختصاص بأبي يحيى أخي المنصور والي قرطبة[57]، ويذكر صاحب المعجب أن أبا يحيى هذا استغل مرض المنصور (587–588) لدعوة الناس إليه ليخلفه بعد موته المنتظر من هذا المرض الطويل فقتله المنصور بعد شفائه[58]. وكان تعيين الخليفة يوسف لأخيه أبي يحيى على

---

(51) البيان 202، الذيل 6/ ص 25، ويجعل عنان تاريخ وفاته سنة 591 دون ذكر مصدره (تاريخ المرابطين والموحدين، 722/2، ط. القاهرة).

(52) المعجب 306.

(53) الرسالة المدروسة رقم (43).

(54) المعجب 306.

(55) ذكر النّباهي واحدا ممن ناصبوه العداء وهو القاضي أبو عامر يحيى ابن أبي الحسن وبنوه، (المرقبة ص 111) وهذا يعني استمرار ضغط فقهاء قرطبة أيام الموحدين وليس فقط في عهد المرابطين، انظر : عزّ الدين موسى في «النّشاط الاقتصادي...» ص 154.

(56) المعجب (305–306).

(57) الذّيل س 6/ ص 26.

(58) المعجب (280–281)، ولعلّ هذا السيّد كان وراء تأخر بيعة قرطبة بولاية العهد لمحمد بن المنصور، (انظر خصوصيات الرسالتين السابقتين رقم 40 و41).

قرطبة سنة 579 بإشارة من ابن رشد فعيّنه آنذاك قاضيا بها[59].

وهكذا تجتمع عوامل المنافسة الشخصية ومعاداة العلوم العقلية من طرف البعض، مع هذه العلاقة بين ابن رشد وأبي يحيى لتؤدي إلى نكبة مؤقتة تمّت تغطيتها بغطاء ديني، على أن هذا لا يعني اضطهاد المنصور للعلوم العقلية، فهو يدعو إلى الاجتهاد في النصوص الدينية بدل التقليد، بل أقبل بنفسه على الفلسفة وعفا عن ابن رشد في السنة اللاحقة، غير أن هذا مات في نفس السنة بعد انتقاله إلى مراكش سنة 594 قبيل وفاة المنصور.

8 ـ بعض خصوصيات الرسالة الجوابية إلى المنصور حول الاهتمام بالقرآن والسنة (44) :

وردت هذه الرسالة ضمن المخطوط الخاص (مجموع) على الصفحات من 305 إلى 308 وهي من إنشاء الكاتب أبي الحسن بن وضاح عن حكومة اشبيلية جوابا على رسالة للمنصور تتعلق بالاهتمام بالقرآن والسنة.

1 ـ مسألة تاريخ الرسالة :

ـ إن هذه الرسالة غير مؤرخة ولكنها تتضمن الدعاء للأمير ولي العهد محمد، وقد نصبه أبوه لهذه الولاية أواخر سنة 587 وتوافدت الوفود المبايعة آنذاك وخلال السنة اللاحقة[60]، بحيث يمكن حصر تاريخ الرسالة الجوابية بين سنة 588 وأول سنة 595 الذي هو تاريخ وفاة المنصور.

ـ وإذا جازفنا بمقارنة الألقاب التي كانت تطلق على الخليفة يعقوب قبل الأرك سنة 591 وبعدها، نجدها في المرحلة الأولى معممة مثلا «نور الحق المشهور، وسيف الله المنتضى أمير المومنين...»[61] ومثل «سيدنا الإمام المنصور الناصر لدين الله تعالى الخليفة المرتضى أمير المومنين...»[62] أو «المنصور المؤيد المعان الموفق المسدد...»[63] أما بعد الأرك فنجد اللقب يقتصر على «المنصور الناصر لدين الله»[64] وهو ما نجده في رسالة ابن وضاح المدروسة هنا، وسيسقط اللقب الثاني تدريجيا ليختص به ابنه وخليفته محمد الناصر لدين الله. فإذا صحت هذه المقارنة أمكن وضع تاريخ الرسالة الجوابية بين 591 وأول 595.

ـ ولعل ما يدعم هذا الافتراض ما ذكره المراكشي من محاربة المنصور لكتب الفلسفة مؤقتا

---

(59) البيان 129.

(60) انظر الرسالتين 40 و41، وأيضا خصوصياتهما (ص 32-33) والبيان 187، والمعجب 308.

(61) الرسالة 40.

(62) الرسالة 40 أيضا، انظر الهامش عليها رقم 4.

(63) الرسالة رقم 41.

(64) الرسالة رقم 42 (م ج).

بعد نكبة ابن رشد سنة 593[65]، هذا العداء المؤقت لعلوم الفلسفة كان يوازيه عداء للمذهب المالكي القائم على علم الفروع لحث الفقهاء على العودة إلى الأصول (القرآن والسنة) مع القياس والاجتهاد، ويذكر صاحب المعجب أنه شاهد بنفسه بفاس أيام المنصور حرق كتب الفروع، وكان آنذاك حديث السن[66]. ومن المحتمل ألا تكون هذه العملية ضد علم الفروع بعيدة زمنيا عن العملية الأولى ضد الفلسفة، وبما أن رسالة ابن وضاح لا تتقدم عن سنة (587–588) فإن المنصور منذ هذه الفترة انشغل بجلب المؤيدين لولاية العهد لابنه فلا يبحث عما يثير الفقهاء المالكيين ضده، بل يتجنب كل إثارة للمشاكل في الوقت الذي كان يستعِدّ للغزو بالأندلس، فهو لم يهتم مثلا بأمر الوشاة ضدّ ابن رشد سنة 590 أو أوائل سنة 591[67]، كما أن أهل الأندلس اشتكوا إليه من معاملة بعض العمال فلم يهتم بذلك إلا بعد نهاية غزواته. بحيث أنه عندما يكتسب النصر العظيم في الأرك سيعطيه قوة معنوية لإظهار ما كان يخفيه هو وربما أيضا أبوه من قبله[68]. والمراكشي الذي شهد عملية حرق كتب الفروع بفاس كان حديث السن في الثمانينيات، بحيث لا يستطيع تمييز كتب الفروع المحروقة التي ذكرها مفصّلة، مما يرجح أن الحرق لم يتم آنذاك وإنما في التسعينيات[69]، أي بالخصوص بعد نكبة ابن رشد وربما خلال سنة 593 أو 594 باعتبار أن الحادثتين تخدمان اتجاها واحدا هو التحريض على الاهتمام بالقرآن والسنة مباشرة والابتعاد عن علوم الفلسفة القديمة التي تطلق المجال للعقل[70]، أي الاتجاه نحو الاعتماد على الظاهر من النص القرآني ومن الحديث[71]، فمن جملة ما أمر به الرعايا في رسالته «معرفة حقيقة دينهم من كتاب الله وسنة الرسول»[72]، وعدم الاشتغال بغيرهما.... فهل كانت الرسالة المجاوَب عنها هي الرسالة المخبرة بنكبة ابن رشد وتلامذته (أي الرسالة رقم 43) ؟

— إذا صح جعل تاريخ هذه الرسالة بين سنة 593 وأول سنة 595 فمن هو والي اشبيلية

(65) المعجب 306، البيان 202، الذيل س 6/ 25–30، انظر أيضا خصوصيات الرسالة السابقة (43).

(66) المعجب (278 و305)، ويذكر المراكشي أنه ولد بمراكش 581 وانتقل إلى فاس وهو في سن التاسعة لقراءة القرآن... (ص 360).

(67) الذيل س 6/ ص 25 وما بعدها، البيان يذكر هذه الاستعدادات منذ أواخر سنة 588 (ص 189 و191 وما بعدها)، وعن أمر الوشاة (ص 202).

(68) يذكر صاحب المعجب حادثة بعد الأرك تدخل في ميدان الاهتمام بالقرآن والسنة قبل كل شيء (292)، انظر أيضا (278–279).

(69) انظر الهامش 7 سابقا.

(70) ليس من المستبعد أن تكون عملية الحرق شملت في نفس الوقت كتب الفلسفة وكتب الفروع.

(71) وقد أوصى المنصور بالكتاب والسنة أيضا عند احتضاره، البيان 206، الاستقصا 200/2.

(72) الرسالة المدروسة (44).

المكتوبة عنه هذه الرسالة الجوابية ؟ إن والي اشبيلية منذ سنة 585 هو السيد أبو حفص يعقوب بن أبي حفص بن عبد المومن[73]، وعند عودة المنصور إلى المغرب سنة 594 ترك على ولاية إشبيلية السيد أبا زيد بن الخليفة[74]، فيكون ابن وضاح كتب عن أحدهما إن لم يكن كتب عنهما على التوالي.

2 ــ ما هي دوافع هذه السياسة عند المنصور ؟

ــ هل تكفيرٌ عن فترة الصبا[75] وبحثٌ عن الشعبية التي اكتسبها فعلا حتى أن العامة وضعت أساطير حول موته ؟[76] يبدو أنه كان مقتنعا حقا ببطلان تعدد المذاهب سواء المالكي (علم الفروع) أو التومرتي حيث لم يكن في قرارة نفسه مؤمناً به[77]، فيرى ضرورة العودة إلى الأصل، خاصة وأن عصره عصر ازدهار العلوم فيجب أن يتنزه عن التقليد.

3 ــ أهمية الرسالة : تظهر في نقطتين أساسيتين :

ــ لا تلمح الرسالة إلى أمر عن المنصور بتدارس المذهب الموحدي[78]، فهل هذه خطوة لتهميش المذهب التومرتي بعد تهميش المذهب المالكي ؟

ــ تشير الرسالة إلى بيعة ولي العهد بالدعاء له بعد أبيه الخليفة، وفي هذا تأكيد لما في المصادر حول عقد هذه البيعة في عهد المنصور.

---

(73) البيان 213، عنان 198/2.

(74) البيان 213، العبر 513/6، وربما هو أبو زيد عبد الرحمان بن عبد المومن، المعروف بابن اللمطية، فقد كان أصغر أو من أصاغر أولاد عبد المومن (البيدق في أخبار المهدي ص 77).

(75) يشير صاحب المعجب إلى سوء صباه (214).

(76) بعض أعماله الاجتماعية في المعجب 285 وما بعدها.

(77) انظر إشارات صاحب المعجب ص 279 و(291–292)، ورسالة المامون رقم 118 (م ج) عن عزم أبيه المنصور على ترك مذهب المهدي.

(78) الرسالة تدعو إلى عدم ترك المجال لدراسة غير القرآن والسنة.

الموضوع الثاني :

دراسة تاريخية

استمرت المواجهة بين الموحدين والمرابطين في المغرب منذ بيعة المهدي ابن تومرت حوالي ربع قرن، هذه المواجهة كانت مع القوات المرابطية النظامية ومع القبائل التي تقف موقفا عدائيا من الحركة الموحدية. ورغم أن الموحدين تمكنوا من القضاء على المرابطين بفتح عاصمتهم مراكش سنة 541 فإنهم سيصطدمون منذئذ ولسنوات أخرى بمعارضة قوية من طرف أهم القبائل المغربية ومن بعض المدن، ويواجهونها بعنف شديد إلى أن تعلن خضوعها. فما هي العلاقة بين الموحدين وهذه القبائل قبل وبعد فتح مراكش ؟

أ ــ العلاقة بين الحركة الموحدية وبعض القبائل :

نحاول التعرف على هذه العلاقة منذ بداية الحركة لعلنا نفهم بعض ظروف المعارضة : فبالنسبة **للمدن** كان تيار الفقهاء المالكيين ــ عضد الدولة المرابطية ــ هو المسيطر عليها خاصة بالأندلس وسبتة حتى أن منهم من استقلوا ببعض هذه المدن عندما شعروا بضعف المرابطين أو نهايتهم. وأما بالنسبة **للقبائل** فالذي يهمنا بالخصوص هي قبائل المصامدة بالجنوب الغربي للمغرب الأقصى، فمنها السابقة إلى قبول دعوة ابن تومرت فأصبحت تحمل اسم «القبائل الموحدية»، ومنها اللاحقة، وأهم القبائل المصمودية هرغة : قبيلة المهدي، وأهل تينملل، وهنتاتة : إحدى القبائل المصمودية الكبرى، وكنفيسة، وبعض قبائل كدميوة[79]. فخلال السنوات الأولى من الحركة (515-518) أي ما بين البيعة للمهدي[80] والاستقرار في تينملل اتسعت دعوته بين مصامدة الجبال : هرغة، مَسْكالة[81]، سجتانة[82]، (أو سكتانة)، هنتاتة، قبائل أهل تينملل وجدميوة الجبل، وهزميرة الجبل، وجنفيسة الجبل، وكذلك أهل

---

(79) من القبائل المصمودية الأخرى : وريكة، ركراكة، هزميرة، هزركَة، حاحة، هيلانة، واختلف في بعض القبائل مثل هسكورة وبرغواطة وكَزولة ودكالة، راجع المعجب (339-341) والعبر 419/6 وما بعدها، (428-435)، (461-462)، مفاخر البربر خ ع/ك، 1275، ص (24-25)، 99، قبائل المغرب (ابن منصور) 331/1.

(80) حول هذه البيعة راجع مقال الأستاذ محمد زنيبر في «المناهل» ع/24 ص 132، (وزارة الثقافة).

(81) مسكالة فخذ من أهل تينملل (المقتبس من كتاب الأنساب، ص 13، الرباط 1971)، وينتمي إليها عبد الله بن سليمان أحد أهل الجماعة (المعجب 194) وهو أول ولاة سبتة.

(82) سكتانة يجعلها صاحب المقتبس فخذا من أهل تينملل (ص 43)، اختلف في موطنها الحالي كل من محقق المقتبس و R. Montagne على الخريطة مقابل الصفحة 24 في :

Les Berbéres et le Makhzen dans le Sud Marocain, Paris 1930

توندوت من هسكورة سنة 517[83]. بينما ظل «مصامدة الفحص» مع المرابطين مثل «دكالة، هسكورة، هزميرة، ركراكة، حاحة وصودة»[84].

ومنذ استقرار المهدي بتينملل سنة 518 أصبح يشكل خطرا أكبر على المرابطين سواء بالمناوشات الحربية معهم أو مع القبائل المؤيدة لهم، هذا زيادة على الحرب المذهبية بين الطرفين : فبينما اعتبر المرابطون الموحدين خوارج على الجماعة الإسلامية اتهمهم المهدي بالشرك بالله وبالانحراف عن سنة نبيه مشهّرا بالمناكر في دولتهم[85]، وادّعى أن الله أمره «بإدحاض حجة الظّالمين» معتبرا أن دماء المرابطين حلال وأموالهم فيىء للموحدين[86]، فجهادهم فرض عين «وأعظم من جهاد الروم وسائر الكفرة بأضعاف كثيرة»[87]. فكان بمثل هذا وغيره يغذي الروح القتالية لأتباعه، ويحثهم باستمرار على فهم عقيدة التوحيد والعبادات والمعاملات بالشكل الذي فسّره لهم ما دام هو «المعصوم» القادر على «فهم» الشريعة، وكل من شك في عصمته كان مصيره القتل. وسيستمر عبد المومن في الإشراف على هذه التربية الروحية وقيادة العمل المسلح ضد المرابطين، بحيث أصبح خطر الدعوة الموحدية يهدد العاصمة المرابطية نفسها إلى أن انهزم الموحدون خارجها في معركة البحيرة سنة 524، فحدث نوع من الركود المؤقت بين تاريخ هذه الهزيمة وموت المهدي من جهة والبيعة العامة لعبد المومن من جهة أخرى[88]، ثم بدأت الحالة في التطور خاصة بعد إخضاع قبائل الجبال المجاورة : ففي سنة 529 انضمت «هسكورة الجبل» إلى الموحدين[89]، واستولى عبد المومن على بعض مدن السوس (تارودانت وايجلي) بعد انهزام المرابطين وحلفائهم بالمنطقة (هنكيسة وكزولة)[90]، بل حدث الاقتراب من مراكش من جديد بعد فتح أغمات. ومنذ هزيمة جزولة 533 ودخولها في دعوة الموحدين[91]، يبدو أن هؤلاء أصبحوا أكثر اطمئنانا للتحرك ليس فقط إلى الغرب

---

(83) البيذق في أخبار المهدي، ص 94.

(84) ابن القطان في نظم الجمان ص 86، ابن عذاري في البيان ج 85/4 (ضمن أحداث سنة 525).

(85) الرسالة رقم (2) م ج.

(86) أخبار المهدي، ص 11 (ن بروفنصال).

(87) الرسالة رقم (2) م ج، وأخبار المهدي ص 9 (بروفنصال)، وخاطب المهدي المرابطين يدعوهم إلى تقوى الله واتّباع السنة (الرسالة رقم 1 م ج).

(88) كان تولي عبد المومن الخلافة — وهو مجرد من أية عصبية تحميه — من شأنه أن يحل مشكل التنافس بين الأشياخ المصامدة حولها، راجع «لوتورنو» في «حركة الموحدين في المغرب في القرنين 12 و13»، تونس 1982 (ص 49-50).

(89) نظم الجمان 196، 210، ويذكر ابن عذاري (سنة 525) أن مصامدة الجبال أصبحوا كلهم تابعين للدعوة الموحدية وقليل من مصامدة الفحص (85/4).

(90) الرسالة رقم 3 (م ج).

(91) نظم الجمان (242-243)، البيان 96/4، البيان (الموحدي) ص 11.

من تينملل وإنما إلى الشرق منها أيضا (تادلة مثلا)، بل الاستمرار في خطة التحرك عبر الجبال لجمع تأييد قبائلها[92] وجرّ المرابطين بعيدا عن عاصمتهم، وهذه الحركة الطويلة ستنتهي بفتح مراكش بعد إخضاع الجبال والسهول والمدن المرابطية.

غير أن الحركة الموحدية عرفت **مشاكل** منذ فترتها الأولى تمثلت فيما سمي «بالارتداد» عن المذهب بحيث اتصفت الحركة منذ أوائلها بسياسة دموية لا هوادة فيها ضد المتشككين في المذهب أو المرتدين عنه أو الذين رفضوا دعوة الدعاة الموجهين إليهم[93]، وهكذا وجّه المهدي حملة ضد غجدامة إحدى بطون «هسكورة الظل»[94] لقتلهم أحد الدعاة[95]، وعندما «ارتد» بنو واوزكيت من أهل تينملل إلى المرابطين أرسل المهدي حملة إليهم وربما صادر أملاكهم[96]. وعندما استقر بتينملل سنة 518 لم يطمئن إلى توحيد «هزميرة الجبل» وهم «هزميرة تينملل» فقتل منهم حوالي خمسة عشر ألف شخص في يوم واحد بتينملل وسبى حريمهم وغنم أموالهم وقسم أرضهم ومساكنهم بين أصحابه، وكان المبرر لذلك — حسب رواية نظم الجمان — أن من عادتهم عدم ترك سلاحهم حتى ولو في اجتماع مع المهدي[97]. ولما انتقد أحد «الجماعة» هذا العمل كان مصيره القتل على أساس أنه شك في عصمة المهدي[98]. غير أن أشهر عملية دموية في عهده هي التي قام بها أبو محمد البشير الونشريسي أحد العشرة بتينملل (ربما سنة 519) وذلك لتمييز «الخبيث من الطيب» و«المؤمن من الفاسق»[99]، فكل من شك في حقيقة اعتقاده في المهدي أمر بقتله؛ هذه العملية يبدو أنها شملت عددا من القبائل التي دخلت في الدعوة[100]. غير أن حركة «الارتداد» اتسعت بعد موت المهدي فظهر أحد المعارضين لعبد المومن من بين «الجماعة» وهو عبد الله بن يعلى المعروف بابن ملوية حيث انضم إلى المرابطين وحاول الهجوم على تينملل، إلا أنه قتل على

---

(92) البيان 12/3.

(93) نظم الجمان 212، أخبار المهدي (94–95)، 71.

(94) المقتبس 53 (غجدامة هسكورية).

(95) هو الشيخ أبو محمد عطية، وذلك سنة 520 (البيذق 94)، قارن مع نظم الجمان (93) وفيه أن غجدامة هؤلاء هم «غجدامة الجبل» 196.

(96) كانوا بايعوا المهدي بعد خروجه من مراكش نحو الجبال (أخبار المهدي 32، نظم (91–92))، العبر 470/6، وعن نسبهم انظر المقتبس (43–44).

(97) نظم (93–94)، البيان 69/4، الحلل الموشية 112، الكامل 296/8.

(98) نظم 93 وما بعدها.

(99) نظم (102–104)، البيان 68/4، البيذق 39، ابن الأثير 8/ (297–298)، النويري (400–402).

(100) أخبار المهدي 39.

يد كنفيسة بعد أن فشل في إثارتها ضد الموحدين[101]. كما أن هناك قبائل كانت تتردد بين الانضمام إليهم والانفصال عنهم : فصاحب نظم الجمان (ص 209) ذكر ـــ ضمن أحداث سنة 526 «توحيد» و«ارتداد» قبائل من هزرجة[102]، وذكر ـــ ضمن أحداث سنة 533 ـــ أن «منانة الجبل» إحدى بطون حاحة وحّدوا ثم ارتدوا ثلاث مرات بعد أن قتل الأمير المرابطي علي بن يوسف أعيانهم، فأقام عبد المومن عليهم بالقتل أكثر من شهر (ص 241). ولم تتوقف عمليات التصفية حتى أثناء الحملة الطويلة لعبد المومن إلى المغرب الأوسط حيث غدر بمن انضم إليه من جزولة بعد تجريدهم من السلاح[104]. فهل كان عمله هذا هو الدافع إلى تذكير جزولة برسالة كان المهدي وجّهها إلى القبائل الموحدية سنة 521 فبعث عبد المومن نسخة منها مع رسالته إليها ؟ أم أنها كانت تحذيرا لم يعط نتائجه فكان تقتيلهم كما ذكر سابقا[105].

على كل بقي بين الموحدين والقبائل التي لم تقبل دعوتهم بسهولة عبء ثقيل يصعب التخلص منه.

ب ـــ الاضطراب العام بعد فتح مراكش، وإعادة إخضاع الموحدين للبلاد (541-544) :

رفعت بعض المدن وكثير من القبائل راية التمرد بعد فتح مراكش من طرف الموحدين[106] (شوال 541)، وأهم المدن : **سبتة التي كانت على رأي قاضيها عياض المالكي** المذهب[107]، الذي سبق له أن بايع عبد المومن سنة 540 فأعلن الآن بيعته لبقايا المرابطين

(101) أخبار المهدي 46، 82، انظر أيضا Merad Ali : Les Annales (A.I.E.O), Alger 1957, p(115-116)

(102) هزركة يوجد بجبلها أجناس من الياقوت المتناهي في الجودة وحسن اللون (البكري 153) ألا تكون هذه الأهمية إلى جانب أرض القبيلة وكونها ممراً تجارياً مما يطمع الموحدين فيها ؟

(103) هذا قبل انضمام هسكورة الجبل إليهم سنة 529، (نظم 196 و210...).

(104) البيذق في أخبار المهدي 57.

(105) الرسالتان رقم 2 و4 (م ج)، الرسالة الأولى سماها البيذق «الرسالة المنظمة» (ص 95)، وفي رسالة عبد المومن (رقم 4) دعوته إلى جزولة للكف عن تأييد المرابطين والإخلاص للدعوة الموحدية وكتبت سنة 537 أو بعدها حسبما يفهم من الرسالة نفسها، مما يدل على عدم ثقة عبد المومن في «توحيدها».

(106) يعلل لوتورنو صمود المدن في وجه الموحدين بما كانت تنعم به من الرخاء في ظل المرابطين وبما كانت تخشاه من زوال هذا الرخاء، ويعلل مقاومة الأندلسيين برفض سيادة البربر عليهم زيادة على صرامة مذهبهم، (حركة الموحدين... ص 63 و65).

(107) انظر مقال عبد الهادي [illegible] في مجلة «المناهل» عدد 19 (دجنبر 1980) عن «القاضي عياض بين العلم والسياسة»، وهو يستنتج من تقلباته أنه قد يكون له طموح سياسي ما، وأن مكانته هي التي منعت عبد المومن من انزال العقاب به. راجع أيضا مقال عبد العزيز بنعبد الله : «سبتة في عصر عياض» بدعوة الحق ماي 1981، عدد خاص بعياض.

بالأندلس، وانتقل إلى المغرب واليهم على سبتة والمناطق التي يمكن أن تحافظ على السيادة المرابطية، وسيظهر عمله أكثر بعد نهاية ثورة الماسي بالجنوب.

ذلك أن تجربة المهدي في ادعاء المهدوية بين قبائل الجنوب أتاحت لمحمد بن عبد الله بن هود السلوي الملقب **بالماسّي**[108] أن يدعي الهداية (سمّى نفسه الهادي) وجمع حوله عددا كبيرا من الأنصار، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على سهولة تقبّل الناس لفكرة المهدي[109]، ويدل من جهة أخرى على عدم الرضى عن الحكم الموحدي والسعي لتحطيمه قبل تركيزه خصوصاً إذا كان ابن هود يظهر الزهد والتعبد[110] والبساطة في الدين، وليس من المستبعد أن يكون من العلماء رغم أن المصادر المكتوبة في العهد الموحدي أو الناقلة عنها تصفه بالشعوذة وبأنه من العامة من أبناء سلا وأن أباه كان دلالاً[111]، وأن المجتمعين حوله من الأشرار والمغترين والمرتدين والكفرة...[112] ولكن الذي لم تستطع هذه المصادر إنكاره ولو تلميحا هو أهمية هذه الحركة ومدى الاستجابة الكبيرة لها من أطراف بعيدة كسجلماسة، ومن قبائل مصمودية كانت تأخرت في قبول الدعوة الموحدية أو كانت مترددة نحوها، وهذه بعض الأمثلة : فقد ورد في الرسالة الخامسة (م.ح) أنه «استمال النفوس بخزعبلاته، واستهوى القلوب بمهولاته... فأتته المخاطبات من بُعدٍ وكَثَب، ونَسلت إليه الرسل من كل حَدَب، واعتقدته الخواطر أعجبَ عجب...» وفي البيان المغرب (ج 26/3) : «فأقبل الناس المغترون به من كل مكان وقبيلٍ إليه، فاجتمعوا بشقاوتهم عليه اجتماعاً طار له الذكر في الآفاق، وتحدث به الرفاق، وكثروا عنده واستندوا له، فقامت بدعواته جموع لا تحصى... وأتته دعوته الكاذبة الغارة في جميع العدوة حتى لم يبق منها إلا مراكش وفاس، وارتدّ سائر البلاد كلها»[113]، ومثل هذا تقريبا ينقله صاحب الحلل الموشية وأيضا ابن خلدون الذي يذكر أسماء القبائل المؤيدة للماسي وهي : أهل سجلماسة، درعة، قبائل دكالة، رجراجة، قبائل تامسنة، هوارة،

---

(108) لعله هو المسمى عند البيدق بـ : عمر بن الخطاب الملقب ببويكندي ونسبه من سلا (ص 67).

(109) لا ننسى أن منطقة سوس وصلتها دعوة الشيعة فانقسم أهلها بين سنيين مالكيين وشيعة جعفريين، الإدريسي 39 (بيريس)، القرطاس 129.

(110) الرسالة رقم 5 (م ج)، وقد وصف البكري رباط ماسة بأنه «رباط مقصود، له موسم عظيم ومجمع جليل وهو مأوى الصالحين»، عند حديثه عن الطريق بين أغمات والسوس (ص 161).

(111) البيان 26/3، العبر 479/6 وما بعدها.

(112) هل الخيرات المتوفرة بإقليم سوس كما تصفها المصادر الجغرافية، مع قداسة رباط ماسة من قديم، وعدم رضى السكان عن الموحدين هي العوامل الأساسية لانتقال الماسي إلى المنطقة وإظهار طموحه تحت ادعاء اصلاح ما أفسده الآخرون ؟ هناك من يتحدث عن العوامل الدينية والطموح الشخصي وعامل التنافس بين قبائل السهول وقبائل الجبال، انظر المقال المذكور لـ Merad Ali : Annales. p. 122

(113) يقتصر ابن عذاري هنا على ذكر أهل نفيس وهسكورة وسجلماسة وبرغواطة (ص 27) زيادة على سلا، وكذلك دكالة كما في بعض نسخ خ خ.

أهل نفيس، هيلانة، هسكورة[114]، وأضاف ابن عذاري مدينة سلا (ج 21/3)، ويقتصر البيذق في أخبار المهدي (ص 67) على ذكر حاحة ورجراجة وهزميرة وهسكورة الوطا[115] ودكالة وبني ورياغل[116]، إلا أنه يضع بعد ذلك لائحة مفصلة بالقبائل والمدن الثائرة بمناسبة حديثه عن تأديب عبد المومن لها في إطار ما سماه «بالاعتراف» سنة 544[117]، فمن القبائل الثائرة جزولة وقبائل وسط وشمال البلاد. ولكن من الصعب القول بأن جميع هذه القبائل ثارت مع الماسي أو مع المرابطين، فليس من المستبعد أن بعضها كانت تعمل من أجل استقلالها[118].

وهناك مسألة تتعلق بالفترة الزمنية لثورة الماسي وصعوبة التغلب عليها :

فابن أبي زرع (ص 190) يذكر أن الماسي ثار سنة 542 وذلك بعد أن حضر مع عبد المومن فتح مراكش وبايعه، بينما يجعل ابن عذاري الثورة في شوال سنة 541 — وهو الشهر الذي فتحت فيه مراكش — وتم القضاء عليها في ذي الحجة من نفس السنة (ص 26). غير أن الرسالة الخامسة تشير إلى قدم وجود الماسي لأعوام في رباط ماسة : «ارتسم برسم الانقطاع عن الناس فيما سلف من الأعوام...»[119] وليس من المستبعد أن يكون قد بدأ ذلك خلال انشغال المرابطين مع عبد المومن في حملته الطويلة نحو المغرب الأوسط بحيث تكون المدة كافية لنشر دعاية الماسي بين قبائل منها القريبة ومنها البعيدة عن المنطقة[120]، كما أن نهاية الثورة يرجح أن تكون في آخر سنة 542 كما هو موضح عند ابن الأبار في ترجمته لابن عطية قبيل ذكره نص الرسالة حيث يجعل انتصار الموحدين يوم الخميس 16 من ذي الحجة سنة 542[121]، كما أن ابن أبي زرع يذكر وصول وفد اشبيلية سنة 542 وأن أعضاءه انتظروا للاتصال بالخليفة مدة سنة ونصف لانشغاله بالماسي، أي أنه صمد في وجه الموحدين أكثر من سنة بعد فتح مراكش، فقد هزم لهم جيشاً وربما جيوشا سابقة، وهذا ما صرَّح به صاحب

---

(114) العبر 6/(480–483)، والحلل الموشية 146.

(115) هكذا يوضح البيذق كلمة هسكورة المعممة في العبر، ويخص من أهل نفيس قبيلة هزميرة وهي التي سبق أن عاقبها الموحدون، راجع الصفحة 38 في هذا الفصل.

(116) وهي قبيلة يسميها ابن خلدون بنيَ ورياكل من صنهاجة، العبر 427/6، انظر أخبار المهدي 68.

(117) أخبار المهدي (69–72).

(118) وخاصة القبائل العظمى مثل جزولة، وقبائل تامسنا، ودكالة، وربما هسكورة أيضا، أي قبائل كان لها اعتزاز بماضي مجيد وبقوتها البشرية...

(119) الرسالة رقم 5 (م ج).

(120) انظر الهامش 105 بهذا الفصل، ونتساءل هل كانت رسالة عبد المومن (4/ م ج) متزامنة مع بدء حركة الماسي ؟ قارن مع البيذق ص 67.

(121) يورد صاحب القرطاس نفس السنة والشهر (ص 190)، بينما يغفل البيذق ذكر التاريخ (ص 67) وينقل ابن خلدون عن ابن عذاري نفس التاريخ.

الروض المعطار[122]، وهو ما يمكن أيضا أن يستنتج من ذكر شخصيتين وجّهتا إلى حرب الماسي قبل الشيخ أبي حفص الهنتاتي، فابن عذاري يذكر إرسال عسكر إليه بزعامة أبي زكرياء أنكمار، ويضيف ابن خلدون أنه المسوفي النازع إلى عبد المومن من إيالة تاشفين بن علي[123] بينما يذكر البيذق (ص 67) إرسال عبد المومن لابن يكيت[124] (وهو أحد أبناء العشرة من أهل تينملل) بأهل السوس إليه، أي أن هناك حملتين على الأقل نحو الماسي وكلتاهما انهزمتا، مما اضطر عبد المومن إلى حشد قوات ضخمة ومتنوعة تشمل قبائل «الموحدين» وأشياخهم والمرتزقة من الروم وغيرهم ويرأس الجميع الشيخ أبو حفص، ونظرا لأهمية هذه الحملة فقد خرج الخليفة بنفسه إلى ظاهر مراكش لتوديعها. وبلغ عدد المقاتلين اثني عشر ألفاً نصفهم من الفرسان[125]، بينما قدّرت قوات الماسي بستين ألف راجل وسبعمائة فارس[126]. وحتى في حالة اعتبار هذا الرقم مبالغا فيه فإن رسالة أبي حفص تعترف بضراوة المعركة التي استماتت فيها أتباع الماسي للدفاع عنه ولم ينهزموا إلا بعد مقتله[127]. ويبدو أن حسن تنظيم الجيش الموحدي، وقتاله لبعض قبائل العدو منفردة كانا من العوامل المساعدة على انتصاره[128]. وكان لابد من إشعار الخليفة بهذا الانتصار، فبعث الشيخ أبو حفص إليه بالخبر قبل أن يكتشف أبا جعفر بن عطية ليكتب رسالته[129] التي وصل بفضلها إلى مرتبة الكتابة ثم الوزارة لدى عبد المومن[130].

هل التاريخ يعيد نفسه ؟ فقبل سنوات لم يتحرك الموحدون في حملتهم الطويلة إلا بعد أن اطمأنوا إلى طاعة قبائل سوس وخاصة جزولة، والآن أيضا سيشرع الموحدون في تأديب القبائل الثائرة مع الماسي بعد هزيمته ومنها قبائل جزولة، فبعد استراحة الشيخ أبي حفص بمراكش

---

(122) الروض المعطار، ص 522 (ماسة)، ت إحسان عباس.

(123) البيان ص 26، العبر 6/ 480.

(124) هو ابن أبي يحيى أبي بكر ابن يكيت، المقتبس 31، نظم (76-77)، وعنان 270/1 وهو يجعل أبا زكرياء وابن يكيت قائدين لحملة واحدة.

(125) البيان 26/3، وفي الحلل الموشية 146 : «استعد الموحدون للقائه غاية الاستعداد».

(126) الاستقصا 211/2.

(127) هذه الإشارة في جزء من الرسالة الخامسة وردت في الروض المعطار دون المصادر الأخرى. ويبدو أن المعركة دارت غير بعيد من البحر حيث أن النهر الذي جرت المعركة بجانبه متأثر بالمد والجزر (انظر الرسالة). وعن استمرار الفكرة المهدوية برباط ماسة انظر الحسن الوزان : وصف افريقيا 90/1 ط 1980.

(128) مما ورد في الرسالة «وحملت كل قبيلة على من يليها...»، ويتحدث البيذق (67) عن هزيمة قبيلة هزميرة على يد أبي حفص قبل أن يهزم جزولة التي اعتمد عليها الماسي أولا.

(129) ورد في الرسالة «وقد تقدمت بشارتنا به جملة حين لم تعط الحال بشرحه مهلة».

(130) انظر رسائله الأولى في مجموع بروفنصال، وانظر ترجمته (رقم 1) في مقدمة البحث.

«خرج غازيا إلى القائمين بدعوة الماسي بجبال درن فأوقع بأهل نفيس[131] وهيلانة... حتى أذعنوا بالطاعة... ثم خرج إلى هسكورة... وافتتح معاقلهم وحصونهم ثم نهض إلى سجلماسة فاستولى عليها ورجع إلى مراكش ثم خرج... إلى برغواطة...»[132]. وهكذا وبهزيمة جزولة تمكن الموحدون مؤقتا من إعادة نفوذهم على الجنوب، وبقي أمر الوسط الغربي والشمال الغربي.

ففي الشمال الغربي توجد مدن خارجة عن السلطة الموحدية، **فطنجة** لم تخضع بعد[133]، **ومكناسة** أيضا، وكان يشدّد الحصار عليها من حين لآخر[134]، وسلا التي سبق لعبد المومن أن فتحها بعد فاس[135] ثارت على عامله بقيام ثورة الماسي في الجنوب، ونصبت والده في مكان العامل الموحدي، كما أن **سبتة** ــ التي سبق لها أن بايعت عبد المومن بموافقة القاضي عياض سنة 540 ــ ثارت على عامله[136] برأي عياض[137] مبايعا لبني غانية من بقايا المرابطين بالأندلس الذين وجهوا الصحراوي ــ حاكم فاس سابقا ــ واليا على سبتة وعلى ما يمكن أن يسترجعه من الموحدين.

أما قبائل الوسط الغربي فأهمها مجموعتا برغواطة ودكالة، وإذا كانت هذه (حسب البيذق 63) وحّدت توحيدها الأول عند وصول عبد المومن إلى مدينة أزمور قبل أن تثور أثناء ثورة الجنوب، فإن برغواطة لم تدخل بعد في الطاعة، وإنما غزاها الشيخ أبو حفص أثناء تحرك عبد المومن من سلا نحو مراكش[138] ربما لاشغالها عن عرقلة تحرك جيش الخليفة أو للتعرف على مدى قوتها وفي نفس الوقت لجمع المؤونة للجيش[139]. وهكذا لما انتهى عبد المومن من مشكلة الماسي وقبائل الجنوب وجه الشيخ أبا حفص إلى قتال برغواطة، فانهزم وذهب لحصار

---

(131) يبدو أن المقصود قبيلة هزميرة (البيذق 68).

(132) العبر 6/ (483–484)، انظر أيضا البيان 27/3 والبيذق 67.

(133) البيان 21/3، والبيذق 67.

(134) راجع الهامش 56 (بعد).

(135) حسب ابن عذاري 3/ (20–21) وابن الأثير 300/8 والنويري 409، وأشار صاحب «التعريف بالقاضي عياض» إلى لقائه مع عبد المومن بسلا قبل انصرافه لفتح مراكش (تحقيق الأستاذ محمد بنشريفة) ص 12.

(136) هو يوسف بن مخلوف التينملي، البيان (قسم الموحدين)، ص 32، ط 1985.

(137) القرطاس 191، البيان (قسم الموحدين) ص 32، ط 1985.

(138) البيان 21، ط. تطوان.

(139) يختلف كل من البيذق وابن عذاري حول طريق عبد المومن من مكناسة نحو مراكش هل هو مباشرة أم مرورا بسلا، وإذا حاولنا التوفيق بين الروايتين يمكن ترجيح حركة عبد المومن من سلا إلى تادلى عبر مكناسة، بينما تحرك أبو حفص من سلا نحو قبائل تامسنا ربما لاشغالها ولمعرفة مدى قواتها، ثم يكون اللقاء مع الخليفة بأزمور أو ناحيتها.

مكناسة[140] إلى أن استسلمت سنة 543[141]. ولعل هذه الهزيمة أمام برغواطة هي التي شجعت الصحراوي على الخروج من سبتة بقواته نحوها فأخذ سلا من يد والد الماسي وعاقب أنصاره[142]، ورغبت برغواطة في بقائه معها إلا أنه استقر بين قبائل دكالة فالتفت حوله أيضا رجراجة وحاحة[143]، أي أنه أصبح يهدد مراكش لأن هذه القبائل تحيط بها من الشمال والغرب.

أما رد عبد المومن فهو إرسال فرقة سريعة ضربت خلفية الصحراوي ففتحت سلا ثم طنجة وحاصرت سبتة فعادت إلى النفوذ الموحدي، وساهمت هذه الفرقة أيضا في فتح مكناسة... بينما كان الخليفة يهيّىء لحملة كبرى يجمع عساكرها من مختلف المناطق المؤيدة استعدادا لمواجهة الصحراوي في دكالة بعد عودة الفرقة الموحدية المذكورة من الشمال. وهكذا اصطدم عبد المومن مع دكالة فانهزمت[144] وفر الصحراوي إلى الصحراء، ودخلت برغواطة في الطاعة خصوصا بعد أن قضى الموحدون على ثائر آخر بأرض تامسنا هو بومزكيدة، كل هذا سنة 543 أو سنة 544[145].

وبهذا يكون الموحدون قد تغلبوا على الثورات التي واجهتهم بعد فتح مراكش وأصبحت تهددهم بزوال ملكهم الفتي، فعمل عبد المومن على تأديب القبائل والمدن الثائرة بتهييء لوائح تشمل أعداد المحكوم عليهم بالإعدام من هذه المجموعات، وقد أورد البيذق تفاصيل ذلك، حيث شمل الإعدام مدنا وقبائل من جهات مختلفة[146]، وهذا ما يذكر بعملية التمييز الدموية

---

(140) البيذق 67، البيان 27/3 (طبعة تطوان)، العبر 484/6.

(141) ساعده في حصارها القائد يصلاسن بعد حملته العسكرية إلى أقصى الشمال «فوحّد» واليها المرابطي «آك لكوط» (البيذق 68)، ولعله هو نفسه يدر بن ولكوط الذي هزم أول فرقة موحدية كان عبد المومن بعثها من خارج فاس إلى مكناسة (البيذق 62، البيان 19/3)، راجع أيضا عن فتح مكناسة الروض المتون (9-10)، القرطاس 191، النويري 409.

(142) وجده الصحراوي «على غير الاستقامة معهم فأخذه وضرب عنقه.... وفيّاً فنزارة الذين أطاعوا الخياط» (والد الماسي)، البيذق 67. ويجعل الوزان فنزارة على بعد 10 أميال من سلا (ص 165).

(143) البيذق 68.

(144) انظر وصف هزيمة دكالة في الحلل الموشية 147 مع ضرورة الانتباه إلى ما ورد في النسختين المطبوعتين، ففي تحقيق زكار وردت فيها الجملة «وكان أهل دكالة لا رأي عندهم»، وفي تحقيق علوش (121) : «...لا رامي عندهم»، انظر أيضا النويري 412.

(145) البيذق (68-69) و83، القرطاس (191-192)، الحلل الموشية 147، كذلك البيان حيث يجعل، حملة عبد المومن على دكالة وبرغواطة، سنة 542 لأنه يجعل القضاء على الماسي سنة 541 (البيان — قسم الموحدين — ص 31، 37، ط 1985).

(146) أخبار المهدي (70-72)، ويلاحظ فيه عدم ذكر أية قبيلة من القبائل السابقة إلى الدعوة الموحدية، كما يلاحظ فيه ارتفاع قتلى قبائل جزولة جنوبا وكذلك قبائل الأطلس المتوسط من زناتة، وصنهاجة، =

التي قام بها البشير في عهد المهدي وغيرها من العمليات التي تطبع العهد الموحدي الأول بالخصوص بطابع دموي، فهل أعطت هذه السياسة ثمارها ؟

سنرى ذلك بعد أن نتساءل عن **طبيعة الثورات السابقة وأسباب فشلها**، فنلاحظ أولا نوعية العلاقات بين الأطراف الثائرة، فهناك القاضي **عياض** وبقايا المرابطين بالأندلس، هل عياض كان مخلصا لهؤلاء ؟، فلماذا بايع إذن لعبد المومن سنة 540 ثم نقض البيعة إلى المرابطين ثم عاد إلى بيعة عبد المومن رغم أن القوات الموحدية لم تقتحم مدينته سبتة ؟ هل كان له طموح سياسي شخصي ؟ ومع هذا فإن عبد المومن لم يعامله كما عامل غيره من الثوار ظاهريا على الأقل[147] ولعل هذا راجع لمكانته بين الناس بل إن سبتة لم تشملها لائحة الإعدامات المذكورة من قبل، فهل تردُّده بين الاحتفاظ بمكانته العلمية وبين المغامرة السياسية هو الذي أفشل طموحه ؟[148] أم أن ولاء غرب الأندلس للموحدين هو الذي حال دون ذلك ؟ وهل كانت **للماسي** علاقة بالمرابطين ؟ لا يبدو ذلك، والدّليل هو اتخاذه لقب الهادي مثلما اتخذ ابن تومرت لقب المهدي كما سيفعل آخرون في غمارة وسوس[149]، ودليل آخر هو أن الصحراوي قائد المرابطين استولى على سلا من يد والد الماسي لأنه «وجده على غير الاستقامة معهم»[150]، أي أنه يؤيد سياسة ابنه، فالماسي كان له فيما يبدو طموحه الخاص دون ارتباط بالمرابطين، فهل يناقض هذا الاستنتاج موقف القبائل التي كانت ثائرة وراء الماسي ثم أصبحت مع الصحراوي مثل قبائل تامسنا وما جنوبها ؟

من الصعب وضع مختلف القبائل في إطار واحد بالنسبة للزعامات التي اتبعتها **ولدوافع** ثورتها ضد الموحدين : فبالنسبة للنقطة الأولى، يصعب القول بتبعية كل القبائل والمدن الثائرة للماسي أو الصحراوي، وبالنسبة للنقطة الثانية هناك عوامل ترجع للموحدين أنفسهم وعوامل ترجع للثائرين :

فالمذهب الموحدي يتميز بالتعقيد على عكس المذهب المالكي ــ مذهب المرابطين ــ الذي

= وكانت المعارك قد حصدت الكثير من أبناء برغواطة ودكالة، فهل هذه سياسة تدخل في نطاق اضعاف العصبيات غير المصمودية، وان نفس السياسة ستؤدي إلى توطين القبائل العربية قرب هذه القبائل (منطقة تامسنا وتادلا).

(147) هناك من يشك في أن يكون عبد المومن سمّ القاضي عياض كما أن هناك من يركز على إخلاص عياض للمذهب المالكي، راجع «التعريف بالقاضي عياض» ص 13 ومقال الادغيري بمجلة «الاعتصام» مارس 1982 ص 77 وما بعدها.

(148) انظر مقالا للأستاذ عبد الهادي التازي بمجلة «المناهل» ع 19 ص 472 وما بعدها.

(149) سيأتي بيان ذلك في فصول لاحقة.

(150) انظر التعليق 142 آنفا، ويذكر أيضا الناصري أن عياضا لم يأخذ بدعوة الماسي لأنه ثائر بدوره على السلطة الشرعية الأصلية، الاستقصا 115/2.

كان المذهب الشعبي، وهنا نتساءل ألم يكن هناك ـــ على غرار ما حدث بمدن الأندلس وسبتة ـــ دور للفقهاء المالكيين لإذكاء الثورة بين أهل المدن والقبائل ؟ ليس هذا مستبعداً.

كما تميز الموحدون **بالسياسة الدموية** منذ بداية الدعوة، وهذا قد يدل من بعض الجوانب على صعوبة تقبل فكرة المهدي عند البعض، وإن أمكن قبول عصمة المهدي فهي عصمة لا يرثها عبد المومن... أي أنه حدث نوع من انعدام أو نقص الثقة بين «القبائل الموحدية» السابقة إلى الدعوة وبين غيرها. كما أن أغلبية القبائل الجنوبية التي ترددت أو امتنعت عن قبول الدعوة الموحدية هي قبائل السهول القريبة من الجبال أو قبائل المنحدرات الهامشية للأطلس الكبير الغربي ومنحدرات الأطلس الصغير، بينما بقية المصامدة السابقين إلى الدعوة هم جبليون، وربما كان اندفاعهم وراء الحركة الموحدية يهدف إلى التوسع على حساب المجموعة الأولى لضمان الاستفادة من التكامل المعيشي بين الجبل والسهل[151]. ومن الملاحظ أيضا أن عددا من قبائل المجموعة الأولى كانت تقع على الممرات التجارية الرئيسية التي يسعى الموحدون لمراقبتها وذلك بين جنوب الأطلس الكبير وشماله كمجموعة هسكورة الواقعة على الطريق التجاري بين مراكش من جهة ودرعة وسجلماسة من جهة أخرى وأيضا بين مراكش وأغمات من جهة وفاس من جهة ثانية. ومثل قبيلتي هزميرة الجبل ووزكيتة (آيت واوزكيت) المنسوبتين إلى قبائل أهل تينملل[152] اللتين كانتا تستفيدان من استقرارهما حول وادي نفيس فلاحيا وتجاريا (ممر بين مراكش وتارودانت)، وقبيلة منانة الجبل من حاحة على الطريق الغربي بين الحوز وسهل سوس، وكذلك جزولة في الأطلس الصغير حيث تراقب بعض الممرات التجارية نحو الصحراء... فهذه القبائل كانت علاقتها مع الموحدين منذ الأوائل متوتّرة : فهزميرة الجبل (هزميرة تينملل) قتل المهدي عددا من أبنائها ووزع أملاكهم على الموحدين[153]، وتعرضت آيت واوزكيت[154] لضغوط مختلفة للتخلي عن أرضها بوادي

(151) انظر أحمد التوفيق في رسالته عن اينولتان «مساهمة في دراسة المجتمع المغربي في القرن 19» ج 1 ص 80 وما بعدها، ومقال الأستاذ محمد زنيبر في المناهل ع 24 ص (136–137)، و«لوتورنو» في الصفحة 65.

(152) انظر الهامش 102 في هذا الفصل والبيذق 43 ونظم (91–93) والبيان 69/4، ط. بيروت، غير أن البيذق (64) يذكر مرة أخرى آيت ووزكيت كفخذ من هنتاتة، ويبدو أن الموحدين أبعدوا قسماً مهما من قبائل وادي نفيس ووزعوها على القبائل الموحدية الكبرى كهنتاتة ولعل هذا ما يفسر وجود بعض القبائل في أكثر من منطقة، انظر الحسن الوزان (1/ ص 138) عن أحد أشكال الطرد الموحدي لبعض القبائل من أرضها، انظر أيضا الهامش 178 بعد قليل.

(153) انظر الصفحة 26 من هذا الفصل.

(154) بنو ووزكيت ارتدوا في عهد المهدي عن مذهبه وسلطته فعاقبهم، وثاروا على عبد المومن بعد سنة 548 (البيذق 77) وستتجدد ثورتهم في عهد الخليفة يوسف بجبل سيروان محاولين السيطرة على معدن جبل زكندر (البيذق 90).

نفيس...[155] فكل قبيلة فرض عليها الموحدون سيادتهم عنوة تعتبر فيئا لهم، وهذا ما وقع أيضا لمكناسة الزيتون حيث فتحت عنوة وخُمِّست أملاكها[156]، فمعظم القبائل والمدن عوملت على هذا الأساس...[157]. هذا إلى جانب ما يتمتع به «الموحدون» من امتيازات عامة على غيرهم، فالطبقية موجودة في تنظيمهم لتمييزهم فيما بينهم وتمييزهم عن غيرهم : فهناك الموحدون وهناك الرعية[158].

وبالنسبة **للقبائل** يمكن التساؤل حول نوعية علاقاتها مع الحكم السابق كوجود علاقات عرقية (مع جزولة ولمطة مثلا)، أو اشتغال بعضها كجابية للضريبة أو في الجندية أو إحساس القبائل المهامشة لجبال «الموحدين» بخطورة تحرك القبائل الجبلية على حساب أرضها مستندة إلى دعم الحكم الجديد، وربما أيضا تفضيل بعض القبائل لحكم مرابطي ضعيف المركزية تحقّق معه قدراً مهمّاً من استقلالها الذاتي معنويا وماديا خصوصا بالنسبة للقبائل الكبرى، وبالتالي هي ترفض أية سلطة مركزية قوية على القبيلة كمركزية الموحدين، ومثل هذه القبائل جزولة وهسكورة ودكالة وخاصة برغواطة : فجزولة تعددت ثوراتها ولو وراء زعامات غير محلية (الماسي، القحطاني...) وكذلك برغواطة نلاحظ أنها مع الماسي[160] ثم مع الصحراوي على شرط «أن يقعد معهم»[161] فلما انصرف إلى دكالة بايع برغواطة أو بعضهم شخصا آخر هو بومزكيدة[162]...

ويمكن استنتاج أن فشل هذه الثورات أساسا راجع إلى تكتّل «القبائل الموحدية» وانضباطها، مقابل انقسام أعدائها لاختلاف أهدافهم وغلبة الروح القبلية لديهم فلم يقع تنظيم الثورة بإحكام، وتمكن الموحدون من القضاء عليها ولو مؤقتا[163]، وتبع ذلك أو رافقه حملة تأديبية

---

(155) راجع الهامش 152 قبل.

(156) القرطاس 190، الروض الهتون (9-10)، ووقع ما يشبه هذا عند فتح مدينة تونس (التجاني 344...)، وسيفرض عبد المومن الخراج على بلاد المغرب على أساس أنها فتحت عنوة (القرطاس 198-199).

(157) هذا بالإضافة إلى سوء استغلال المناصب ولو في مطلع عهد الدولة كما يفهم من الرسالة رقم 6 (م ج)، انظر البيان ص 37-38، ط 1985.

(158) المعجب 339-341، لوتورنو ص 56 و(124-125).

(159) مثلا كانت ضمن جيش الملثمين حشود حاحة في أكثر من مناسبة (نظم الجمان 90).

(160) البيان 27/3.

(161) البيذق 68.

(162) البيذق 69 و83، والقرطاس (191-192) قارن مع «النشاط الاقتصادي (135-136) و(169-170).

(163) يحاول الموحدون التغلب على ذلك بجلب العرب كعنصر موازن للقبائل المغربية وجلب عناصر من كومية للموازنة مع العرب.

زادت من تعميق الهوة بين الموحدين والقبائل خاصة الجنوبية منها بحيث ستتحرك عن قريب عندما تتاح لها الفرصة[164].

ج ــ ثورة قبائل الجنوب عامة وهسكورة خاصة حوالي سنة 550 : (انطلاقا من الرسالة 8 م ج)

كان ذلك في الفترة الفاصلة بين الحملة الموحدية إلى المغرب الأوسط وبين الحملة إلى إفريقية التي انتهت بفتح المهدية، إذ يبدو أن الحملة الأولى التي انتهت بفتح مملكة بني حماد والانتصار على قبائل العرب بسطيف ساعدت على إحداث ــ أو زيادة ــ الخلل في العلاقات بين عبد المومن وبعض قبائل المصامدة[165]، فهو بدلا من أن يعاقب العرب أكرمهم وأخذ يقرّبهم[166]، فشعرت هذه القبائل بأن عبد المومن يسعى لتخفيف ضغطها ومراقبة أشياخها عليه من أجل الاستبداد بسلطته. ويذكر ابن عذاري قدوم وفد إشبيلية إلى مراكش سنة 547 واقتراح أحد أعضائه تقديم الأمير محمد بن الخليفة وليا للعهد[167]. وهكذا أخذت ملامح الامتعاض تظهر بين «الموحدين»[168]، وهذا ما ذكره البيذق ضمن أحداث سنة 548[169] وأشارت إليه الرسالة الحادية عشرة من مجموع بروفنصال، فثارت هرغة وأهل تينملل، فنفى عبد المومن أخوي المهدي إلى فاس بتهمة اشتراكهما في الحركة المضادة له[170]، وبعد هذا قام عبد المومن بتعيين ابنه محمد وليا للعهد معتمدا على دعم القبائل العربية التي حضرت

---

(164) يذكر ابن الأثير استمرار سنوات الشدة والغلاء «بالمغرب» فيما بين سنة 537 وسنة 543 وخاصة التي قبلها، فهل هي حالة مرتبطة بالظروف المناخية بالمغرب ككل ؟ أو هي حالة خاصة بافريقية وبالخصوص عندما يجعلها ابن الأثير من أسباب سقوط المهدية بيد النورماند ؟ أو هي حالة ناتجة عن الأحداث العسكرية منذ حملة عبد المومن الكبرى ضد المرابطين وما تبعها من ثورات بعد فتح مراكش ؟

(165) أخذ الصراع يتطور بين عبد المومن وعائلة المهدي منذ قتله يصلاسن (من قرابة المهدي) بعد العودة من الحملة إلى بجاية سنة 546، البيذق 75، وانظر ابن خلدون 580/6 (ويجعل سبب قتله رفضه اسناد ولاية العهد لمحمد بن عبد المومن).

(166) البيذق 76، الكامل 41/9 (أي عكس ما فعله مع قبائل المغرب).

(167) البيان المغرب (قسم الموحدين) ص 48، ط 1985.

(168) أي الامتعاض من التدخل الخارجي في دعم سياسة عبد المومن : اقتراح من الأندلس بالتحول إلى الملك الوراثي، وكذلك القوة العملية التي يمكن الاعتماد عليها لتطبيق ذلك هي خارجة عن إرادة قبائل المغرب الأقصى أي القبائل العربية.

(169) البيذق ص 76.

(170) فهل يكون عبد المومن يهدد الثائرين بواسطة العرب الذين وصلوا إلى مراكش قبل أن يرافق هؤلاء إلى سلا حيث ستتم البيعة لمحمد ؟

وفود منها معه بسلا بعد مرافقتها للخليفة من مراكش[171]، وكثر تردده على سلا في هذه الفترة بين 548 و553 ولعله كان يعتزم بناء رباط الفتح[172] ويهدد المصامدة باتخاذها عاصمة جديدة بعيدا عن أرضهم، وليس من المستبعد أن يكون قد تم في نفس الفترة (بين 548 و550) توزيع الولايات بين أبناء عبد المومن مادامت وفود القبائل لم تعد بعد إلى مواطنها بالمغرب الأوسط وحتى يمكن استعمالها للضغط عند الحاجة[173].

هذا الاتجاه الجديد في سياسة عبد المومن نحو الوراثة في السلطة ساعد على انفجار الوضع من جديد لدى القبائل الموحدية وعلى رأسها أخوا المهدي اللذان فرّا من فاس إلى مراكش (والخليفة بسلا) لإحداث الانقلاب هناك. غير أنه فشل، وقتل معهما عدد من المتورطين بمراكش[174]، وربما كان هذا الوضع من أهم العوامل التي دفعت عبد المومن لإعادة التنظيم الاجتماعي للقبائل الموحدية، وهو تنظيم يدمج ضمنها قبيلة كومية ويوسع دائرة الطبقة الأولى بشكل يخفف من ضغط من بقي من جماعة العشرة وأهل الخمسين[175]، وسيستمر جو التوتر إلى حين جولة عبد المومن بين قبائل الجنوب الغربي فيما بين شعبان وشوال سنة 552[176].

---

(171) ادعى عبد المومن أن التعيين تم باقتراح قبائل العرب ورضي به الشيخ أبو حفص المرشح سابقا للخلافة بعد عبد المومن، الرسالة 11 (م ر م)، والبيان 48-49 (ط 1985) البيذق 78، ابن الأثير (ضمن أحداث 551).

(172) البيذق (78-79)، أما قصبة الرباط فترجع لعهد سابق، وكان عبد المومن أمر بالبناء في الرباط عند حركته نحو بجاية : البيذق 73، المن 548 (وسيحاول المنصور اتخاذ الرباط عاصمة له : بسط الأرض لابن سعيد 72).

(173) إن الرسالة 13 (م ر م) حول تعيين محمد وليا للعهد يرجح بروفنصال في دراسته لها (هيسبريس 1941) أنها كتبت سنة 551 استنادا إلى ابن الأثير وإلى الرسالة 14 (م ر م) المؤرخة بربيع الأول 551 عن توزيع الولايات بين أبناء عبد المومن. غير أن هذه الرسالة الأخيرة لا تؤكد وقوع هذين الحدثين سنة 551 وإنما هي تذكر بما حدث، اما روايات البيذق (77) والبيان (خ ح)، والقرطاس (194) فكلها تقدم ذلك إلى سنة 548 أو 549 فيكون هذا العمل مبررا لتحرك أخوي المهدي وانصارهما في الجنوب والمحاولة الانقلابية بمراكش، بينما يحدث في سنة 550 زيارة عبد المومن إلى تينملل وأمره بإصلاح المساجد في البلاد... أي إحداث ما يصرف الناس عن المشاكل السياسية خاصة مسألة وراثة الحكم.

(174) البيذق 78، والبيان المغرب (قسم الموحدين) ص 50-52، ط 1985. وستظهر محاولة لقتل عبد المومن من طرف عائلة المهدي سنة 555 (المعجب 233-234، القرطاس 199).

(175) الرسالة 12 (م ر م).

(176) الرسالة 17 (م ر م)، وعندئذ يطمئن على الوضعية الداخلية ويتهيأ للحركة إلى افريقية (بين 553 و555).

هذا الانشقاق وسط المجموعة الموحدية جعل قبائل أخرى في الجنوب تجدد ثورتها[177] : فإلى جانب ثورة بعض القبائل المصمودية ثارت جزولة ولمطة والكسْت[178]، وظهر من جديد يحيى الصحراوي المرابطي في المنطقة حيث التفّت حوله هذه القبائل[179]، وإلى جانب القيادة العامة للصحراوي كان يقود القبائل زعماؤها الخاصون كزعيم لمطة[180] الذي قتل في المعركة أمام الشيخ أبي حفص قائد الحملة الموحدية الكبرى ضد الثائرين. ويبدو أن عدم الاستقرار في هذه المنطقة استمر إلى سنة 552 حيث مات الثائر أبو بكر بن عمر[181] الذي كان بجزولة، وقدم الصحراوي ومعه بنو ييغز[182] وأشياخ كزولة إلى الخليفة بسلا تائبين فعفا عنهم[183]. غير أن البيذق أهمل اشتراك هسكورة وصنهاجة في هذا التمرد، وهذا ما تفيدنا عنه ــ ولو بإشارة خفيفة ــ الرسالة السابعة عشرة من مجموع بروفنصال من مراكش بتاريخ ثامن شوال سنة 552 حول جولة الخليفة ببلاد السوس والمصامدة، واتصال قبائل المنطقة به معلنة عن توبتها وقبولها «العهد»[184]، ومن هذه القبائل جزولة ولكست وصنهاجة وهسكورة.

وهسكورة هذه لم تكن ذات علاقات خالصة الود مع المهدي وعبد المومن، وقد اختلف في نسبها : فهناك من يجعلها من المصامدة ربما على أساس الجوار، ومنهم من يربطها مع صنهاجة برباط الأخوة....[185] ومن ناحية الموقع كانت القبيلة أو الاتحاد القبلي لهسكورة تستوطن

---

(177) البيذق يجعل ذلك بعد سنة 548.

(178) من الثائرين أيضا آيت واوزكيت بجبل سيروان فعمل قائد الحملة الموحدية الشيخ أبو حفص على توزيعهم بين أهل تينملل وهنتاتة (البيذق 77)، انظر عن مثل هذا الأسلوب الهامش 152.

(179) انظر البيذق ص 77 و79 و85.

(180) يسميه البيذق تارة محمد امركال (ص 77) وتارة أهوكار سلطان لمتونة (نفس الصفحة)، وتارة أخرى محمد أهوكار القائم بلمطة (ص 84)، ويبدو أن قبائل «للكست» كانت تقطن الأطلس الصغير ومنها جزولة لكست.

(181) يضطرب البيذق بشأن الثائر بجزولة أبي بكر بن عمر، فيقول مرة قتله الحافظان واليا جزولة (ص 77) ومرة «مات الثائر الذي بجزولة المسمى بأبي بكر بن عمر...» (ص 79) وثالثة يقول : «أبو بكر بن عمر القائم بجزولة خرج إليه أبو حفص ومات الشقي موته فوحدت جزولة...» (ص 84).

(182) هم فخذ من هنتاتة (المقتبس 44)، هل هم كذلك عرقيا أم مضافون إليهم نتيجة لسياسة تهجير بعض القبائل عن مواطنها تأديبا لها ؟

(183) البيذق 79.

(184) لعل المقصود قبول ولاية العهد لمحمد، الشيء الذي كان سببا في التنافر بين المصامدة وعبد المومن.

(185) راجع الهامش (79) في هذا الفصل (ص 24)، وأحمد التوفيق حول اختلاف أنماط العيش بين هسكورة الظل وهسكورة القبلة وأثره في موقف كل منهما من الدعوة الموحدية (المجتمع المغربي في القرن 19، ج 1، ص 71 وما بعدها).

ـ في الفترة الموحدية ـ المنطقة ما بين صنهاجة شرقا ومصمودة غربا وما بين تادلى شمالا ووادي درعة جنوبا[186]. وتقسم جغرافيا إلى مجموعتين : هسكورة الظل أو هسكورة الوطاء شمالا، وهسكورة القبلة أو هسكورة الجبل جنوبا[187]، وتتكون هذه من سبعة أفخاذ منهم آيت واورت المعروفون **بأهل توندونت** نسبة إلى موقعهم الجغرافي[188]. وذكر ابن خلدون أن بعض الهساكرة دخلوا في الدعوة المهدوية قبل فتح مراكش و لم يستكملوا الدخول فيها إلا بعده، ولذا لا يعتبرون من «السابقين»[189]، ولا توجد هسكورة ضمن الطبقات الموحدية إلا جزئيا[190] والسابقون إلى الدعوة هم أهل توندوت وذلك منذ سنة 517[191]. فالذين دخلوا الدعوة من هسكورة وأصبحوا من أهل الخمسين هم أربعة أشخاص حسب المقتبس (ص 35) أو ثلاثة حسب نظم الجمان (ص 31) منهم في المصدرين معا : أبو عبد الله بن أبي بكر ابن توندوت. وعندما اندلعت الثورات بعد فتح مراكش اشتركت فيها هسكورة[192] وشملتها الحملة التأديبية بإعدام 2500 شخص منها، وأشرف أبو عبد الله المذكور على قتل ألف شخص من أهل توندوت[193]، ولما حدث الاضطراب داخل القبائل الموحدية وثارت قبائل الجنوب مرة أخرى حوالي سنة 550، اشتركت فيها هسكورة كما يتضح من الرسالة رقم 17 (م ر م) ورسالة العتاب المدروسة هنا[194]، هذه الرسالة الأخيرة تسمي المرسل إليه أبا بكر بن توندوت وتجعله من أبناء أهل الجماعة، والمفهوم أنه هو الذي تزعّم ثورة هسكورة. لكننا لا نجد في المصادر المعروفة ـ حسب علمنا ـ هذا الاسم ضمن

---

(186) يذكرها صاحب الذيل في نفس المنطقة (س 6/ ص 288 وما بعدها) بحيث تمتد شرق مراكش في المجال المذكور، ويجعل الحسن الوزان الحدود الشمالية لهسكورة هي واد العبيد (وصف افريقيا 129/1).

(187) انظر الهامش (185) قبله.

(188) العبر 419/6، نظم الجمان 84، المعجب 339–341، المقتبس 52، مفاخر البربر ج/1، الورقتان 8–9 (خ ع/1020،د).

(189) العبر 419/6، بل يبدو أن هسكورة دخلت في الدعوة قبل فتح مراكش (البيذق 60 و63 و64 البيان 24/3) أما كونها من غير السابقين فالراجح أنه بسبب تأخر هذا الدخول نسبيا وبسبب ارتداد هذه القبيلة أو بعض بطونها خاصة هسكورة الشمال التي ظلت مع المرابطين إلى حوالي 530 أو بعدها، أما ملاحظة ابن خلدون فتفسر بثورة هسكورة بعد الفتح مرتين على الأقل، ثم خضعت بعد ذلك. انظر أيضا الهامش 191 بعد قليل.

(190) نظم 28، الحلل 109، المعجب 340.

(191) البيذق 94، ثم في سنة 529 انضمت هسكورة الجبل إلى الموحدين (نظم 196) وهناك قبائل من هسكورة لم تخضع أو ارتدت، (نظم 196).

(192) انظر الصفحة 30 من هذا الفصل وما بعدها.

(193) البيذق 72.

(194) الرسالة رقم 8 (م ج).

الجماعة أصحاب المهدي التي تسمى بالعشرة أحيانا[195]، وإنما نجد اسم ابن توندوت مع «الخمسين» وهو أبو عبد الله محمد بن أبي بكر المذكور سابقا[196]، هذا الثائر الهسكوري يبدو أنه هو الذي تشير إليه الرسالة رقم 15 (م ر م) المؤرخة بجمادى الثانية سنة 551 فهي لا تذكر اسمه، ولكن تجعل «إلى جانب الموحدين انتسابه، وعليه لا عليهم سعيه واكتسابه»، كما تلمّح إلى تخلي أنصاره عنه، فاستحضر الخليفة شيوخ الموحدين وأعيانهم وطلبتهم وعُمّالهم في «محفل عظيم أبدوا فيه الخجل مما حدث». وفي الرسالة رقم 17 (م ر م) المؤرخة بشوال 552 يدور الحديث عن حركة عبد المومن بين شعبان وشوال عبر قبائل جنوب مراكش مع زيارة ايكليز وتينملل للتبرك بآثار المهدي، وأثناء ذلك استقبلته وفود القبائل معلنة توبتها عما حدث منها وهي على الخصوص كزولة والكست وصنهاجة وهسكورة، وكأنّ هسكورة بعملها هذا تكون قد تبرأت من ابن توندوت كما تذكر الرسالة (8 م ج)، وإذا صح هذا يمكن تحديد الإطار التاريخي للرسالة بين أواخر سنة 552 — أو على الأبعد سنة 551 —[197] وأوائل سنة 553 قبل أن يتحرك الخليفة من مراكش نحو سلا ثم افريقية أي بعد أن يطمئن على الوضع بالمغرب الأقصى، ومما يدعم هذا الاستنتاج أن المصادر لا تحدثنا بعد هذا عن ثورة لهسكورة تعاونت فيها مع «أهل اللثام» على الأقل قبل سنة 621[198] (وهو تاريخ بداية الفتنة بين الموحدين سادة وأشياخ). أما أثناء ثورتها حوالي سنة 542 فإن الزعامة في أهل توندوت كانت للشيخ أبي عبد الله بن أبي بكر المذكور وليس لأحد «من أبناء أهل الجماعة» وهو أبو بكر كما يفهم من رسالة العتاب (رقم 8 م ج)، فوالد الثائر أبي بكر كان ناصحا للدولة الموحدية[199]، وكذلك الابن قبل ثورته[200].

هذه الفترة التي كتبت فيها الرسالة (8 م ج) — افتراضا — تمثل نهاية الكاتبين الأخوين أبي جعفر وأبي عقيل ابني عطية[201]، فهل كانت الرسالة المذكورة إخوانية تحمل طابع النصيحة فقط ؟ أم أنها كانت إيحاءا من الخليفة إلى أحد الكتاب وهو «ابن عبد الحميد»[202]

---

(195) «العشرة هم المهاجرون الأول الذين أسرعوا إلى إجابته وهم المسمون بالجماعة» المعجب 188.

(196) المقتبس 35، نظم 31 ويسميه (ابن يندوس).

(197) وهو تاريخ الرسالة 15 (م ر م).

(198) الثورة التي تشير إليها الرسالة 8 (م ج) لا يرجح حدوثها قبل فتح مراكش، وإلا لماذا يلجأ ابن توندوت إلى الصحراء بدلا من مراكش المرابطية، وبعد سنة 553 لم تذكر المصادر ثورة بهسكورة إلى سنة 621، وإذا كان بنو غانية بافريقيا من «أهل اللثام» فلا علاقة لهم بهسكورة نظرا للبعد الجغرافي.

(199) تكرر الرسالة رقم (8) ذكر أعماله وأنه كان من أهل الزعامة في قومه.

(200) تركز الرسالة (8) على مكانته المرموقة قبل ثورته.

(201) اعتقلا أواخر 552 ثم قتلا في صفر 553 (البيان 35).

(202) انظر الترجمة رقم 4 في مقدمة البحث.

ــ وهذا هو المرجح ــ فتتخذ بذلك صفة رسمية أو شبه رسمية لمحاولة إبعاد ابن توندوت عن التعاون مع الصحراوي وأنصاره قبل استسلامهم للموحدين[203] ؟

وأخيرا إذا كان الموحدون قد تخلصوا من ثورات القبائل الجنوبية في مطلع 553 ليتفرغوا لافريقية والأندلس، فليس معنى هذا أن الرضى والقبول صدرا عن هذه القبائل، فهي قد قبلت الأمر الواقع مؤقتا وستتحرك مرات أخرى سواء في الأطلس المتوسط (أي فازاز وصنهاجة)[204] أو في الريف من طرف غمارة[205]، أو في سوس خاصة كزولة[206]، وفي كثير من الأحيان وراء المدّعين للتنبؤ أو الهداية، أي نفس تجربة المهدي، ولعل هذا يمثل الرفض لأسلوب حكم الموحدين وعقيدتهم الغامضة، هذا زيادة على المشاكل التي سيواجهونها في افريقية والأندلس. والنتيجة النهائية التي يمكن الخروج بها من دراسة الرسالتين 5 و8 (م ج) هي أن ثورة الماسي تناولتها المصادر بشكل مقتضب ومشوه فيما يبدو، فثورته هو وابن توندوت مظهر من مظاهر رفض السلطة الموحدية مهما كانت الأشكال التي اتخذها هذا الرفض.

د ــ جوانب من السياسة الداخلية للخلفاء الموحدين الأوائل :

هذه النقطة لن أشير فيها إلى جوانب متعددة، وإنما سأقتصر على ذكر مسألتين : الأولى تتعلق بسياسة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والثانية حول موضوع الخلافة.

1 ــ بالنسبة لموضوع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :

لما كانت الحركة الموحدية أصلا حركة إصلاحية تسعى لإسقاط الحكم المرابطي «المنحرف» عن الإسلام الحقيقي والمنغمس في المظالم والمناكر في رأي الموحدين[207]، فإن مسألة الدعوة إلى الارتباط بالقرآن والسنة ومحاربة المناكر ستظل الركيزة المذهبية التي يستند إليها الحكم الموحدي، بحيث نلاحظ أن المهدي والخلفاء من بعده يوجّهون رسائل بهذا المعنى إلى الولايات خاصة في أوقات الأزمات السياسية والاجتماعية[208] :

---

(203) لا نعلم شيئا عن مصير ابن توندوت إلا إذا كان هو أبا بكر بن عمر الثائر بكزولة (الهامش 181) انظر أيضا الترجمة رقم 4 المذكورة. ومن جهة أخرى فالذي يرجح أن الرسالة بإيعاز من الخليفة إلحاحها على التوبة والتهديد بالقوة، وأيضا ضمان العفو.

(204) البيذق (84-85).

(205) انظر خصوصيات الرسالتين عن ثورة غمارة ص 15-16 وما سياتي في الفصلين الثالث والرابع.

(206) سنرى ذلك في الفصل [illegible]ابع خلال عهدي الناصر والمستنصر.

(207) لاحظ اتهامات المهدي في ر[illegible]سائله مثل الرسالة رقم 2 (م ج).

(208) انظر الدعوة إلى الكتاب والسنة ضمن الوصايا للمقدمين على الجهات خاصة القضاة (في الملحق الأول بنصوص الرسائل).

وهكذا نجد رسائل المهدي تركز على الجهاد ضد المرابطين، وتحثّ أتباعه على اتباع القرآن والسنة، وهذا يفرض تعلّم التوحيد الصحيح والعبادات وعلى رأسها الصلاة وتجنّب المحارم...[209] ونجد الخليفة عبد المومن أيضا ــ وهو يواجه ثورات الجنوب ويقوم بحملة جبلية سنة 543 لتأكيد فرض طاعته على القبائل التي كانت ثارت مع الماسي[210] ــ يوجه من المدينة «المقدسة» تينملل رسالته الحاملة لمجموعة من الأوامر منها ما يهمّ السلطة مباشرة لتقوية مركزها كتنظيم البريد الرسمي والأمر بعدم تنفيذ أحكام الإعدام قبل مراجعة الخليفة... ومنها ما يهم مباشرة مصالح الرعية كإلغاء المكوس من الأسواق ــ وكانت شائعة حتى بمراكش نفسها ــ[211] ومنع الخمور، والعدل بين الناس على السواء وبدون تمييز بين من «وحّد» قديما أو حديثا...[212] بحيث كان عبد المومن يظهر أو يريد أن يظهر بمظهر الخليفة المصلح الملتزم بأوامر المهدي وبتطبيق ما نادى به، ولعل من شأن هذا أن يكسبه محبة من الرعية، فتشعر مع الحكم الجديد بما هو جديد لمصلحتها، وفي هذا أيضا إغراء للجهات التي كانت لاتزال ثائرة على الموحدين أو لم تخضع بعد لنفوذهم. وبعد إحداث عبد المومن لولاية العهد لولده محمد وتوزيع الولايات على أبنائه وإنهاء ما صاحب ذلك من معارضة بين المصامدة، جدّد في رسالة مؤرخة بسنة 553 أمره بالتريّث في الأحكام والتشاور فيها وبأخذ رأي الخليفة[213]. وفي سنة 556 كانت أقاليم جديدة ضمّت إلى الدولة الموحدية كإفريقية ــ وكان مقر واليها الموحدي آنذاك هو بجاية ــ فوجّه عبد المومن إليها رسالته المسماة برسالة الفصول[214] التي تحث على «إقامة الحدود وحفظ الشرائع»، ومن ذلك الحضّ على أداء الصلاة والزكاة والكشف عن اللصوصية ومحاربة الخمور ومنع المكوس والغرامات... ووجّهت مع هذه الرسالة رسالة أخرى كان المهدي كتبها في محاربة المنكرات[215].

وهكذا كان عبد المومن يحاول تحقيق هدفين أساسيين فيما يبدو : الأول هو التحول من

---

(209) توجد رسائله في أول كتاب البيذق المنشور بعناية بروفنصال، انظر أيضا الرسالة رقم 2 (م ج).

(210) راجع مثلا في رسالة النصر على الماسي (5 م ج) كيف تنظر الجهات الرسمية للثائرين عليها.

(211) يعترف الإدريسي بوجودها وأن الموحدين هم الذين أزالوها (الإدريسي : نزهة 235-236، ط. القاهرة).

(212) الرسالة رقم 6 (م ج) وخصوصياتها في الفصل الأول، هذه الرسالة موجهة إلى الأندلس، ولكن هناك إشارة إلى أن نسخا منها وجهت إلى الجهات الأخرى، هذه الإشارة في الرسالة المذكورة نفسها وفي الرسالة رقم 3 (م ر م).

(213) الرسالة رقم 18 (م ر م).

(214) الرسالة رقم 23 (م ر م).

(215) ويصف ابن الأثير عبد المومن بقوله «جمع الناس بالغرب على مذهب مالك في الفروع وعلى مذهب أبي الحسن الأشعري في الأصول، وكان الغالب على مجلسه أهل العلم والدين، المرجع إليهم والكلام معهم ولهم» الكامل 82/9 (ضمن أحداث سنة 558).

العنف الدموي للسلطة إلى التربية المذهبية، فتتحد القبائل تحت السلطة المركزية وتتناسى الخلافات القديمة، وهذا من شأنه أن يمنعها من الثورات ويسهّل قيادتها في العمليات العسكرية خاصة بالأندلس... والثاني هو محاولة تقوية السلطة المركزية على حساب سلطة الولايات التي كان نفوذ الأشياخ الموحدين بارزا فيها رغم إسناد رئاستها أحيانا إلى أبنائه.

ونجد **الخليفة يوسف** في مطلع عهده يفتح مجلسه لسماع شكاوى المتظلمين فيفدون إليه أحيانا من الأقاليم البعيدة حتى أصبح بعضها ليس في مستوى العرض بمجلس الخليفة[216]، كما أنه في سنة 561 ــ بعد القضاء على ثورة مرزدغ الغماري ــ[217] يوجه رسالة تحمل أوامره بمنع تنفيذ أحكام الإعدام قبل مراجعة الخليفة[218]، والتركيز على تطبيق أحكام القرآن والسنة. وهنا أيضا تعتبر السلطة الثائرين ضالين أشقياء ومنحرفين عن الجماعة «ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا»[219].

وأما **يعقوب المنصور** فقد ابتدأ عهده أيضا بالجلوس للمظالم[220]، وكتب إلى الولايات في الحث على التمسك بالقرآن والسنة لمعرفة حقيقة الدين، بعد أن كان أخذ البيعة لولده محمد (الناصر) بولاية العهد، وهذا ما يفهم من رسالة جوابية كتبت إليه من الأندلس[221]، وكان قبل هذا في سنة 575 قد استدعى العلماء ورواة الحديث وأمر بتدريس حديث النبي[222]»، وربما يدخل في إطار هذه السياسة أيضا نكبة ابن رشد[223] تلبية لضغط الفقهاء المعادين لأفكاره الفلسفية ومسايرة من المنصور للاتجاه الذي كان يريده أن يكون متعلقا بالمذهب المهدوي وإن خالفه هو في عقيدته الشخصية[224] باعتبار أن العامل المذهبي هو أحد الأركان الأساسية لقيام الدولة الموحدية واستمرارها[225]، وسيظل أمر الخلفاء بمراعاة القرآن والسنة منصوصا عليه في مختلف الرسائل وعلى الخصوص رسائل تقاديم القضاة على الأقاليم إلى العهد الأخير من الدولة الموحدية[226].

---

(216) رسالتا شكوى من إنشاء ابن مبشر (العطاء 135-136)، (137-138)، انظر الملحق الثاني في قسم الرسائل.

(217) راجع الهامش 229 الآتي بعد.

(218) انظر الرسالة رقم 13 (م ج) والمن 302.

(219) انظر الرسالة 15 (م ج).

(220) حتى أصبحت تعرض على مجلسه قضايا تافهة، المعجب 285، البيان 144-145.

(221) هي الرسالة رقم 44 (م ج).

(222) الاستبصار 210، انظر البيان 206 والمعجب (278-279).

(223) انظر الرسالة رقم 43 (م ج) وأيضا البيان (202) والمعجب (305-307).

(224) المعجب (291-292) حول عقيدته.

(225) ان التربية المذهبية كانت تمارس باستمرار حتى في خطب الجمعة (المعجب 343-344).

(226) سنجد المستنصر سنة 617 عندما تشتد أزمة المجاعة يوجه رسالة في الأمر بالمعروف والنهي عن =

2 ــ بالنسبة للموضوع الثاني المرتبط بالخلافة :

هذا الموضوع لاشك أنه أثار جدلا منذ البداية فيما بين أنصار المهدي إثر موته، وقد يكون ذلك سببَ تأخير الإعلان عن وفاته وتأخير البيعة العامة لخلفه عبد المومن. غير أن هذا حوّل نظام الخلافة من نظام «اختياري» إلى نظام وراثي في سلالته كما رأينا سابقا بتقديم ولده محمد لولاية العهد وما أثاره ذلك من مشاكل[227]، وعندما خلعه أبوه من الولاية قبيل موته تولاها يوسف بدون إجماع حتى من إخوته[228]، ثم بعدما تقوّى مركزه تدريجيا بالتقرب إلى العامة وبالعطاءات للأجناد وخاصة بكسبه الانتصار على ثورة سبع بن منخفاد الغماري[229]، بعد ذلك اتخذ اللقب الخلافي «أمير المومنين»، وبويع من جديد كما تشهد على ذلك بعض رسائل المن بالإمامة[230]. وكان قد مهّد لهذا العمل أيضا سنة 561 ــ لجسّ النبض فيما يبدو ــ بكتابته «العلامة» الخلافية بنفسه، وبتقليص سلطة ولاة الأقاليم في تنفيذ بعض الأحكام كحكم الإعدام[231]. ولم ينظم يوسف ولاية العهد لابنه يعقوب على الأقل رسميا ربما لموته المفاجىء في غزوة شنترين[232]، فصادف الخليفة يعقوب معارضة من بعض قرابته خاصة بعض الإخوة[233]، ثم إنه استغل عودته ظافرا من بعض غزواته بالأندلس سنتي 585 و586 ــ وخاصة بعد أن وقع مريضا ــ فعقد البيعة لابنه محمد (الناصر) بولاية العهد، كما تؤكد ذلك رسالتان من قرطبة حول تقديم أهلها للبيعة[234]. ولا نجد بعد هذا رسالة تحدثنا عن بيعة أخرى بولاية العهد لمن تبقّى من الخلفاء الموحدين ما عدا رسالة بيعة قدّمت للخليفة الرشيد بعد دخوله مراكش منتصرا سنة 630[235].

ومما هو ملاحظ في شروط البيعات أن المهدي قدّم عبد المومن وأمر بطاعته «مادام سامعا مطيعا لربه...»[236] وفي تقديم عبد المومن ابنه لولاية العهد بويع «على حدود الشرع

= المنكر (الرسالة 106 م ج)، ثم يوجه المامون رسالة في نفس الموضوع أمام تفشي الانقسام الداخلي (الرسالة رقم 118 م ج)، انظر الملحق رقم 1 حول الوصايا بالكتاب والسنة في تقاديم القضاة.

(227) انظر الصفحة 36 وما بعدها.

(228) وهذا يدل على أن نظام ولاية العهد لم يكن مضبوطا وإنما يشترط الكفاءة بين الأبناء.

(229) القرطاس (209–210)، البيذق 86، المن (307–309) والرسالتان 19 و20 (م ج).

(230) الرسائل 17 و18 و19 و20 انظر خصوصياتها في الصفحة 17.

(231) الرسالة 13 (م ج)، وانظر عن «العلامة» خصوصيات الرسالة (6 م ج) ص (14–15).

(232) هذا إذا لم نأخذ برأي صاحب المعجب (261)، انظر خصوصيات الرسالة رقم 34 (م ج) في الصفحات 103–105).

(233) انظر في الفصل الثالث الصفحتين 131–132.

(234) هما الرسالتان 40 و41 (م ج).

(235) هي الرسالة رقم 121 (م ج).

(236) المعجب 196.

ورسومه»[237]، بينما لا نجد أية إشارة لذلك في رسالة تجديد البيعة ليوسف بإسميّة «أمير المومنين» وإنما بويع على السمع والطاعة في المنشط والمكره والعسر واليسر... أي ذكر الشروط على المبايعين فقط[238]، وكذلك في رسالتي البيعة عن قرطبة لولي العهد محمد (الناصر)[239]، إلا إذا كان وقع ذكر الشروط على الولي في الرسائل الأصلية الصادرة من مركز الخلافة وهي لاتزال في عداد المفقودة[240].

وهكذا بعد أن كانت دعامة الدولة الموحدية هي مذهبها الأصلي وعصبيتها المصمودية فإن الجانب المذهبي سيتحول شيئا فشيئا إلى الإطار الشكلي (الرسمي) لا غير، وأما العصبية المصمودية كقوة عسكرية فستقل أهميتها تدريجيا باعتماد بني عبد المومن على قبيلتهم كومية وعلى قبائل العرب الذين أخذوا يوطّنون بسهول المغرب الأقصى، وهذا العنصر الأخير لم يكن دائما مأمونا بحيث أن هناك مؤشرات على فشل السياسة الموحدية نحو العرب منذ عهد الناصر[251].

وعلى العموم إذا كان جانب القوة العسكرية كأساس للدولة سينكسر في معركة العقاب، فإن جانب القوة المذهبية كأساس آخر للدولة كان يسير نحو الضعف إلى أن يوجّه إليه المأمون الضربة القاضية بالتنكر لعقيدة المهدي. وإذا كان هذا الموضوع سيعالج في الفصل الرابع فإن بعض مظاهر القوة الموحدية تتضح لنا في الفصلين الآتيين الثاني والثالث قبل مرحلة الضعف.

---

(237) الرسالة 13 (م ر م).

(238) الرسالة رقم 17 (م ج).

(239) هما رقما 40 و41 (م ج)، راجع خصوصياتهما في ص (17–19).

(240) يذكر صاحب المعجب بعض الشروط على المستنصر حين مبايعته بالخلافة (326).

(241) الرسالة رقم 55 (م ج) عن تأديب بعض القبائل العربية. بل ان المنصور نفسه ندم على ادخالهم إلى المغرب (البيان 208، القرطاس 230).

وهناك عناصر أجنبية اعتمد عليها الموحدون أيضا أهمها الغزّ في العهد الأول والاسبان في العهد الأخير.

الفصل الثانـي

الوجود الموحدي في المغرب الأوسط وافريقية، والعلاقات مع الأيوبيين والإيطاليين

الرسائل التي تهم هذا الفصل :

- رسالة عن الخليفة عبد المومن من ظاهر قسنطينة إلى إشبيلية رقم 9 (م ج)
- رسالة القاضي أبي موسى عن معركة تنس .... رقم 10 (م ج)
- رسالة عن الخليفة يوسف إلى «طلبة» افريقية .... رقم 25 (م ج)
- رسالتان من قفصة حول إعادة فتحها .... رقما 30و31 (م ج)
- رسالتان من بيشة إلى الخليفة يوسف .... رقما 32و33 (م ج)
- رسالة عن المنصور إلى بيشة (اتفاق تجاري) .... رقم 35 (م ج)
- رسالة عن والي افريقية السيد أبي زيد عبد الرحمن إلى تجار بيشة رقم 36 (م ج)
- رسالتان عن صلاح الدين الأيوبي إلى الخليفة المنصور .... رقما 38و39 (م ج)
- رسالة عن ناظر ديوان افريقية إلى حكومة بيشة .... رقم 46 (م ج)
- رسالة عن والي افريقية السيد أبي زيد إلى حكومة بيشة... رقم 47 (م ج)
- رسالة صاحب ديوان تونس والمهدية إلى أحد كبار تجار بيشة رقم 48 (م ج)
- رسالة عن سبتة بأمر من الناصر إلى حكومة بيشة .... رقم 49 (م ج)
- رسالة عن ناظر ديوان تونس إلى حكومة بيشة .... رقم 50 (م ج)
- رسالة (شهادة) بأسماء الشهود حول اعتداء البيشانيين على سفن بخليج تونس .... رقم 51 (م ج)
- رسالة عن السيد أبي زيد إلى حكومة بيشة .... رقم 52 (م ج)
- رسالة عن والي تونس إلى حاكم بيشة حول الامتناع عن التعاون مع ابن عبد الكريم بالمهدية .... رقم 53 (م ج)
- رسالة عن والي اشبيلية حول «شقّي ميورقة» .... رقم 56 (م ج)
- رسالة عن الناصر (من افريقية) بفتح المهدية .... رقم 57 (م ج)
- رسالة عن الأمير الحفصي عبد الواحد حول معركة شبرو رقم 59 (م ج)
- رسالة جوابية حول «تردد الموحدين بالغرب الأوسط» .... رقم 60 (م ج)
- رسالة عن الأمير الحفصي عبد الواحد حول معركة وادي أبي موسى .... رقم 61 (م ج)
- رسالة عن الأمير الحفصي عبد الواحد إلى صاحب بيشة (حول اتفاق بين الطرفين) .... رقم 62 (م ج)

ملاحظة : وضعت هذه اللائحة حسب الترتيب الزمني للرسائل كما هو في القسم الأول من البحث.

الموضوع الأول :

خصوصيات بعض رسائل الفصل الثاني

1 ـ رسالة القاضي أبي موسى[1] حول معركة بحرية قرب تنس (رقم 10 م ج) :

توجد هذه الرسالة ضمن الزوائد الملحقة بمخطوط العطاء الجزيل، وهي تحمل بعض الجوانب الغامضة فيما يتعلق بتاريخها ومرسلها والمرسلة إليه :

ـ عن تاريخ الرسالة :

إن التاريخ المسجل في نهايتها هو يوم 16 رجب سنة 567 أي في عهد الخليفة يوسف (558-580). إلا أن هناك بعض العناصر التي ترجح عدم صحة هذا التاريخ :

• إن صيغة **الدعاء** المألوفة في الرسائل الموحدية الموجهة إلى الخليفة أو أحد كبار الموظفين هي أن يدعى فيها للخليفة الحاكم[2]، فهنا «الدعاء لمولانا أمير المومنين» أي الخليفة عبد المومن، ولا نجد صيغة «أمير المومنين بن أمير المومنين» أي الخليفة يوسف ابن عبد المومن، فالرسالة فيما يرجّح ترجع إلى عهد عبد المومن (541-558).

• ومما يزيد هذا ترجيحا وجود الدعاء لولي العهد «السيد أبو عبد الله» وهو محمد أكبر أبناء عبد المومن[3] (الذي خلع قبيل وفاة أبيه أو بعدها بأيام على اختلاف الروايات)[4]، بينما لم يكن للخليفة يوسف ولي عهد يحمل هذه الكنية[5]، مما يرجح أن يكون تاريخ الرسالة بين حوالي 550 و558 أي فترة ولاية عهد أبي عبد الله محمد بن عبد المومن.

• يوجد في الرسالة ربط بين الانتصار في المهدية بفتح الموحدين لها والانتصار في معركة تنس، بحيث يرجح ألا يكون الفرق الزمني بين الحدثين كبيرا وإلا فإن انتصارات أخرى قد

---

(1) انظر عنه الترجمة رقم (5) في مقدمة البحث.

(2) وعلى العكس إذا كانت صادرة عن الخليفة لا تحمل الدعاء له وإنما تقف بالدعاء عند سلفه.

(3) عند تعيينه وليا للعهد أمر عبد المومن بذكر اسمه في الخطبة بعده وكتب بذلك إلى جميع عمله، القرطاس 194.

(4) عن تنصيبه وليا للعهد انظر الرسالة 13 (م ر م)، وعن خلعه انظر المن 221، والبيان 55، والمعجب 236، ووفيات الأعيان 7/130-138 (ضمن ترجمة يوسف بن عبد المومن. وينسب خلعه إلى يوسف، ويذكر أن ولي العهد كان اسمه ينقش على الدنانير).

(5) لم يكن له أي ولي للعهد على أغلب الروايات، أما ابنه يعقوب فكنيته أبو يوسف ولا تتفق الروايات على تنصيبه وليا للعهد، انظر الصفحة 44 والهامش بها 232.

تنسي انتصار المهدية. أي أن تاريخ الرسالة يمكن حصره بين سنة 555 وهو تاريخ فتح المهدية وسنة 558 وهو تاريخ وفاة عبد المومن ونهاية ولاية عهد السيد أبي عبد الله.

• وهناك عنصر آخر قد يطعن في صحة تاريخ سنة 567 ويتعلق بكاتب الرسالة، فإذا كان فعلا هو القاضي أبو موسى عيسى ابن عمران المشهور خاصة في عهد الخليفة يوسف[6] — وهذا هو الراجح — فإنه كان في السنة 567 مع هذا الخليفة في حركته بالأندلس التي بدأت بالخروج من مراكش يوم 4 رجب 566 واستمرت إلى 571 على أغلب الروايات وأصحها[7] خاصة رواية ابن صاحب الصلاة المرافق لهذه «الحركة»، فهو يصف أبا موسى «بقاضي المحلة والجماعة» و«قاضي الخليفة»، ولما خرج الخليفة من اشبيلية يوم الاثنين 11 شوال سنة 567[8] في حركته إلى غزوة وبذة كان معه أيضا أبو موسى «قاضيه»[9].

وهكذا فإن تاريخ الرسالة لا يتقدم عن سنة 555 ونرجح ألا يتأخر عن 558، فهل هناك إمكانية للتحديد أكثر ؟

• قد يمكن الوصول إلى ذلك من خلال معرفة ظروف هذه الفترة : فالموحدون أصبحوا يدعمون نفوذهم تدريجيا بجنوب شرقي الأندلس منذ فتحهم مالقة سنة 548، ثم استيلائهم على المرية (552) من يد النصارى القشتاليين بالخصوص[10]. هذا التحرك الموحدي شرقا كان له ردّ فعل قوي من طرف أمير شرق الأندلس ابن مردنيش حليف النصارى، فاستولى على قرمونة بضواحي اشبيلية (ربيع الأول 555) ثم مدينة غرناطة — عدا القصبة — سنة 557، ولم تفلح حملة السيد أبي سعيد بن عبد المومن والي غرناطة في استخلاص المدينة، إذ انهزم في معركة مرج الرقاد. ولما توصّل بمعونة جديدة من المغرب يقودها أخوه يوسف استطاعا معا أن يهزما ابن همشك التابع لابن مردنيش في معركة السبيكة[11] خارج غرناطة وذلك في يوم الجمعة 28 رجب 557، فتراجع ابن مردنيش — الذي كان قدم لنجدة تابعه في قوات عمادها الأساسي فرقة من النصارى — فأعيدت غرناطة إلى النفوذ الموحدي مع المناطق الموجودة حولها، وستستمر الأعمال العسكرية ضد ابن مردنيش إلى وفاته سنة 567. فالظروف كانت متوترة بين الموحدين وبين ابن مردنيش وحلفائه النصارى (قشتاليين

---

(6) كان أول اتصال له بالخلفاء الموحدين فيما يبدو سنة 547 أو 548 حين قدم مع وفد اشبيلية لتهنئة عبد المومن بفتح بجاية، وهو الذي اقترح تولية العهد لمحمد البيان 48 (ط 1985).

(7) يخالف صاحب المعجب الروايات يذكر رجوع الخليفة إلى مراكش سنة 569 (ص 251).

(8) انشغل الخليفة سنة 567 بالأعمال العمرانية باشبيلية قبل خروجه لهذه الغزوة، المن 461 وما بعدها، البيان 96، القرطاس 211.

(9) المن 504.

(10) انظر الرسالة رقم 7 (م ج) وخصوصياتها في الفصل الثالث (ص 98–100) وكذلك الصفحة 109 وما بعدها).

(11) عن المعركتين انظر المن (190–199) والبيان (51–53).

وأرغونيين)، فهل تدخل المعركة البحرية عند تنس في مخطط نصراني على الأقل لاكتشاف مدى قوة الموحدين، مثلما يمكن أن يكون لهؤلاء مخطط «للغزو» في البحر (أو القرصنة) جسبما يفهم من الرسالة المدروسة «لغزو إن اتفق» ؟ وهل عملية تنس هي عملية إشغال للموحدين واستطلاع على أحوالهم بالمغرب الأوسط، أم أنها مجرد قرصنة حرة وصلت إلى ساحل هذه المنطقة حيث سقط في أيدي النصارى مجموعة من الأسرى أنقذوا بعد هزيمة القطعتين النصرانيتين ؟

ونعود مرة أخرى إلى تاريخ الرسالة، فإذا افترضنا أن النسّاخ أخطأوا في الرقم العشري لتاريخ الرسالة فكتبوا (سبع وستين) بدلا من (سبع وخمسين) فإن الموقع الزمني ليوم المعركة بتنس وهو الجمعة 7 رجب يكون سابقا ليوم معركة السبيكة (28 رجب) بثلاثة أسابيع بالضبط، ويكون موقع الجمعتين بالنسبة لبعضهما مطابقا لأيام الشهر : أي الجمعة 14 رجب ثم الجمعة 21 رجب ثم الجمعة 28 رجب (يوم السبيكة). وهكذا نتساءل ألا يكون تاريخ الرسالة هو يوم 16 رجب 557[12] ؟

ـ مصدر الرسالة ومنتهاها :

• مصدر الرسالة «الطلبة الذين بفلانة» ! ويستبعد أن يكون هؤلاء «الطلبة» ـ أي القادة الموحدون إداريا وعسكريا ـ في مدينة تنس وهذا ما يفهم من الرسالة التي تنص على أن المعركة كانت يوم 7 رجب، وفي يوم 16 منه «وصل الغزاة المفتوح عليهم» وهو نفس يوم كتابة الرسالة، فنستنتج أن تكون الرسالة مكتوبة من مكان ساحلي أو قريب من الساحل (والراجح أنها بالمغرب الأوسط مثل تلمسان) بحيث يصل الخبر من الساحل إلى المدينة المكتوب منها في نفس اليوم. والمفهوم من الرسالة ـ تلميحا ـ أن هذه المدينة لم يكن بها آنذاك «سيد» من أبناء عبد المومن وإلا لماذا يوجّه «الطلبة» بهذه الرسالة إلى «السيد أبي فلان» ؟ فالمدينة فيما يبدو ليست بجاية التي كانت مقر ولاية السيد أبي محمد عبد الله المشهور بصاحب بجاية فيما بين حوالي 550 و560[14] (وسيخلفه عليها أخوه أبو زكرياء منذ سنة 561، أما في سنة 567 فسيكون أبو زكرياء بالأندلس مع الخليفة بعد أن يترك أخاه السيد أبا عمران نائبا بمراكش)[15]. وأما تلمسان فكان واليها هو السيد أبو حفص عمر بن عبد المومن إلى

---

(12) ان معركة تنس وقعت ـ حسب نص الرسالة ـ يوم الجمعة 7 رجب غير أن سابع رجب سنة 567 لا يقع في يوم جمعة، وعلى العكس من ذلك إذا افترضنا أن السنة الحقيقية هي سنة 557 فإن سابع رجب يصادف يوم الجمعة وكذلك أيام 14 و21 و28 (يوم معركة السبيكة)، انظر جدول الموافقة في (T.C).

(13) انظر عنها الهامش 11 على الرسالة المعنية (أي رقم 10 م ج).

(14) اختلف في تاريخ توزيع الولايات على أبناء عبد المومن، راجع الصفحة 37 والهامش بها 173.

(15) انظر البيان 99/3.

سنة 555 حيث أصبح منذئد وزير أبيه الخليفة، وبقيت هذه المدينة بدون «سيد» إلى عهد الخليفة يوسف فيما يبدو[16]، فهل «طلبة» تلمسان هم موجّهو هذه الرسالة ؟ إن الإجابة على هذا تقتضي التعرف على كاتب الرسالة القاضي أبي موسى[17]، فقد رأيناه يصل إلى مراكش سنة 547-548[18]، ويصاحب عبد المومن في حملته الافريقية... ثم لا يذكر بعد ذلك[19] إلا سنة 566 وهو مرافق للخليفة يوسف في حركته إلى الأندلس، فهل عند عودة عبد المومن من فتح إفريقية إلى المغرب بقي أبو موسى بمسقط رأسه تلمسان[20]؟، وبأيّ صفة يكون قد كتب هذه الرسالة ؟

• إلى من كُتِبت الرسالة ؟ إنها موجهة إلى «السيد الأسنى أبي فلان بن سيدنا ومولانا أمير المومنين» ! فإذا كان تاريخ الرسالة محصورا في الفترة بين 555 و558 وهذا هو المرجّح[21]، وإذا كان مصدر الرسالة هو مدينة تلمسان ــ افتراضا ــ فقد تكون موجهة إلى السيد أبي حفص عمر ــ وزير أبيه الخليفة ــ باعتباره «صاحب تلمسان» أصلا، خصوصا وأنه لم يخلفه عليها أي سيد آخر في هذه الفترة. ويبدو أن الفقرة الأخيرة فيها نوع من الإيحاء إلى السيد أبي حفص الملازم لمجلس الخليفة «المجلس الأعلى»، وهذه مهمة الوزير الذي يكون متصلا بالخليفة، وكان السيد أبو حفص عندما عاد مع أبيه إلى المغرب وزيرا له جاء معه كاتبه أبو الحسن بن عياش[22] الذي اتخذه عبد المومن كاتبا، فهل كان غياب الوالي وكاتبه *دافعا «الطلبة» تلمسان لاختيار «القاضي أبي موسى» لكتابة الرسالة لشهرته الأدبية ؟*

وأخيرا يمكن تلخيص **أهمية الرسالة** فيما يلي :

* إغفال المصادر لذكر هذه المعركة (حسب المقروء منها لحد الآن).
* تلميح الرسالة إلى سوء العلاقة بين أرغون والموحدين واستمرار القرصنة بين الطرفين.
* في الرسالة نوع من الاعتراف بتفوق النصارى في القوة البحرية، فهم «الكفار الذين عرفوا بالنجدة، ووصفوا بالشدة، واتخذوا هذا البحر جملا ذلولا يركبون جنابه، ويضربون عبابه،

---

(16) سيعين عليها الخليفة يوسف أخاه أبا عمران موسى، وسيبقى بها إلى أن يعود مع أخيه صاحب بجاية بعرب افريقية قبيل حركة الخليفة يوسف الأولى إلى الأندلس (البيان 90-91).

(17) إذا كان هو فعلا القاضي أبو موسى عيسى بن عمران.

(18) راجع الهامش 6 بهذه الفقرة، وأيضا ترجمة القاضي أبي موسى رقم 5 في مقدمة البحث.

(19) حسب المصادر التي أمكن الاطلاع عليها.

(20) كتب التراجم لا تذكر عن حياته بتلمسان إلا النشأة والتعلم، فهل اشتغل في هذه الفترة الأخيرة بالقضاء فكتب الرسالة بصفته قاضيا ؟ انظر ترجمته والمصادر المعتمدة لتحضيرها.

(21) أما إذا كان تاريخها هو سنة 567 ــ وهذا غير مرجح ــ فإن الرسالة قد تكون موجهة إلى السيد أبي عمران موسى صاحب تلمسان الذي كان حينئذ بمراكش نائبا عن أخيه الخليفة المتغيب بالأندلس.

(22) انظر عنه الترجمة رقم (3) في مقدمة البحث.

عرضا وطولا...»[23].

2 ــ رسالة الخليفة يوسف إلى «الطلبة الغزاة بافريقية» (رقم 25)[24] :

توجد هذه الرسالة ضمن زوائد العطاء الجزيل، وتحمل بعض الإشارات التي تتطلب التوضيح :

ــ تشير الرسالة إلى أخبار **الفتوح بالأندلس وبغيرها**، وفي هذا تعبير عما واجه الخليفة يوسف منذ بداية حكمه من صعاب منها عدم رضى البعض على تولّيه السلطة ومنها الثورات سواء في الأطلس المتوسط[25]، أو الريف كثورة غمارة، ومنها أيضا القضاء على ثورة طبيرة بالأندلس سنة 563، وكان يوسف وهو وال على اشبيلية عجز مرتين أيام هذه الثورة التي كانت اندلعت سنة 546[26]. أي أن التاريخ الذي كتبت فيه الرسالة يُمثل بالنسبة للمغرب عودة إلى الهدوء مما يساعد على استغلال جو التوتر القائم بين الممالك الاسبانية للقيام «بحركة» إلى الأندلس وخاصة لإنهاء مشكل ابن مردنيش، وقد سبق أن انهزم أمام الجيش الموحدي الذي كان يتضمن مجموعة من العرب المستقدمين من افريقية، ولعل بروز أهميتهم القتالية في «معركة الجلاب» شجعت على الاستمرار في هذا المخطط الذي كُلِّف به ولاة وعمال افريقية وبالخصوص والي بجاية في هذه الآونة وهو السيد أبو زكرياء يحيى بن عبد المومن (561-566).

ــ إن ضغوط ابن مردنيش من شرق الأندلس وضغوط البرتغاليين من غربها... كانت وراء الطليعة العسكرية التي بعثها الخليفة إلى الأندلس في أواسط سنة 564 برئاسة الشيخ أبي حفص في انتظار جواز الخليفة بنفسه[27]، غير أن المرض الذي أصابه من فاتح سنة 565 إلى منتصف ربيع الأول 566 أخّر هذا الجواز[28]، وكان قد سبق له أن استدعى العرب من افريقية برسالة وبقصيدة شعرية سنة 563[29]، وهذا يتطابق مع تاريخ الرسالة رقم (25) المدروسة إن صحّ أن المهمة المطلوبة من قادة الموحدين بإفريقية هي **استدعاء بني رياح وبني**

---

(23) انظر بعض الملاحظات في إطار مقارنة بين القوة البحرية للموحدين والبحرية المسيحية في الحوض الغربي للبحر المتوسط في أواخر هذا الفصل (ص 84-88).

(24) الرسالة في زوائد العطاء الجزيل (16-18) مؤرخة بأول رجل 564 ومن إنشاء أبي القاسم القالمي (انظر الترجمة رقم 2 في مقدمة البحث).

(25) انظر البيذق 85 والمن 360 و363، والصفحتين 113 ــ 114 من الفصل الثالث.

(26) البيان 77.

(27) انظر الرسالة 24 (م ج).

(28) لا ندري هل هو مرض حقيقي أم تمارض في انتظار وصول العرب المستنفرين من افريقية.

(29) القصيدة الأولى من إنشاء ابن طفيل فلما أبطأوا وجه إليهم قصيدة أخرى من إنشاء ابن عياش، المن (409-419) والبيان 88-90.

عدي، فيجيبون الخليفة بما فعلوا مع بني عدي وما سيفعلون مع بني رياح كما تشير إلى هذا الرسالة الجوابية الصادرة عنه. ويبدو أن هناك مهمة أخرى للموحدين بالمنطقة وهي **غزو قفصة** التي ثارت على العامل الموحدي عمران بن موسى الصنهاجي بزعامة علي بن عبد العزيز الرندي الذي كان منفيا ببجاية، حيث يذكر ابن خلدون أن الخليفة يوسف أغزى أخاه السيد أبا زكرياء سنة 563 مدينة قفصة فقضى على ثورتها، وإذا صحت رواية ابن خلدون هذه فإنه يكون قد انفرد بذكر هذا الحادث بقفصة[30]. لكن لماذا تأخر قدوم العرب وتكرر استدعاء الخليفة لهم، هل السبب هو «وفور الخيرات... وانصرام المحل والجدب» وذلك في السنة السابقة أي سنة 563[31]، حيث انشغل العرب عن الاستنفار بوسيلة أخرى للعيش (أي توفر المرعى)؟ أم يرجع تأخرهم إلى كونهم مترددين في التبعية لأية سلطة مركزية؟[32] يبدو أن هذا هو الأرجح، ولذا فإن الرسالة تشير إلى مسألة إثبات قوات موحدية دائمة في إفريقية لتتمكن من إفشال المحاولات التمردية أو غارات العرب البدو على المستقرين.

ــ **من هو المخاطب في الرسالة ؟** يبدو أن الشخص الرئيسي في افريقية وشرق المغرب الأوسط هو السيد أبو زكرياء يحيى بن عبد المومن، فهو «السيد» الوحيد بالمنطقة ــ باستثناء تلمسان ومنطقتها التي كان مكلفا بها أخوه السيد أبو عمران موسى ــ ومما يرجّح هذا ما تتضمنه الرسالة من عبارات تمجّد المخاطب[33] : «أدام الله عزتكم وكرامتكم بتقواه»، «أعزكم الله وأكرمكم»، «وبعث الكتب إلى سائر أنظاركم»، «وكافة مَن قِبَلكم». بل إن صاحب المن عندما يذكر ــ ضمن أحداث سنة 564 ــ توبة شيخ بني رياح جبارة بن أبي العينين يقول : ««جمع قبيله» ولحق بهم أولا إلى السيد الأسنى أبي زكرياء يحيى بن الخليفة (عبد المومن) بمدينة بجاية مستلقيا عليه مستعفيا لديه...» وبعدما اجتمعت القبائل العربية تحرك السيد أبو زكرياء من بجاية نحو مراكش، «ووصل أيضا الأمناء والعمال بإفريقية أبو محمد أقوسقور صاحب

---

(30) العبر 339/6، إلا أن يكون ابن خلدون خلط بين ثورة ابن الرند في هذه السنة والثورة حوالي 575.

(31) الرسالة الخليفية (25) مؤرخة بفاتح رجب 564 وهو يوافق 31 مارس 1169م، فهي إذن تتحدث عن نتائج الموسم الفلاحي الفارط الذي يقع ضمن سنة 563 فيما يبدو (انظر جدول المطابقة في T.C).

(32) انظر مثل هذا التردد في المن (417–418) عن موقف جبارة أحد زعماء رياح، وفي «الكامل» (ضمن أحداث 568) عن موقف مسعود بن زمام أحد زعماء رياح أيضا والأمثلة متعددة منذ معركة سطيف سنة 548.

(33) ان الرسالة تنص على أنها موجهة إلى «الطلبة»، ويعتبر السادة من أبناء عبد المومن من الطلبة أيضا، ويسميهم صاحب الحلل (151) حفّاظا، والحفاظ هم صنف من الطلبة. والملاحظ أن الرسائل الموجهة إلى الولايات لا تحمل في العادة اسم الوالي وإنما عبارة «الطلبة والموحدين والأشياخ... ولعل في هذه الصيغة نوعا من محاولة إظهار أن الحكم غير فردي وإنما هو جماعي. وهكذا يكون المخاطب هنا ــ فيما يبدو ــ السيد أبو زكرياء أولا ثم معاونوه.

تونس وأنظارها وأبو زكرياء يحيى أقصور الهنتاتيان... بهؤلاء العرب والأموال والخيل[34] ولهذا يرجّح أن المراسلات كانت بين الخليفة والسيد أبي زكرياء حينما كان ببجاية أو في عمليات خارجها، فإحدى هذه الرسائل كتبت إلى الخليفة من ظاهر قسنطينة كما نفهم من الرسالة الجوابية التي ندرسها، والجواب عليها أيضا موجه إلى افريقية وليس إلى بجاية.

ـــ يمكن إبراز **أهمية الرسالة كما يلي** :

* لمّا كانت الرسالة جوابية فإنها تلخص ما جاء في الرسالة المجاوب عنها والموجهة من إفريقية إلى الخليفة وهي مفقودة، ومما أشارت إليه هذه : توصل طلبة افريقية بأخبار «الفتوح» بالأندلس والمغرب، وأعمالهم الماضية والمستقبلة تجاه العرب من بني رياح وبني عدي. وتبليغ أخبار الانتصارات من شأنه أن يرفع الروح المعنوية لموحدي افريقية.

* وأشارت الرسالة المفقودة أيضا إلى ظاهرة الجفاف بافريقية في السنة السابقة (563) (أي الموسم الفلاحي 1167-1168)،[35]، بينما تحسّنت الأحوال خلال السنة المؤرخة في الرسالة الجوابية (564).

* تفيد الرسالة أن هناك اتصالا مستمرا بين السلطة المركزية والسلطة الجهوية بافريقية.

* وتشير الرسالة إلى تثبيت السلطة الموحدية بإفريقية عن طريق إقرار الحاميات بها.

3 ـــ رسالتان حول فتح قفصة على يد الخليفة يوسف (رقما **30 و31**) :

أ ـــ إن الرسالة الأولى هي من إنشاء أبي الحكم بن عبد العزيز (ابن المرخي)[36]، وردت في زوائد العطاء الجزيل على الصفحات (4-7)، والرسالة الثانية من إنشاء أبي علي بن نارار[37] (كذا)، وردت على الصفحات (3-7) و(14-16) من نفس «الزوائد». وكلتا الرسالتين صادرتان عن الخليفة يوسف من داخل قفصة إلى حكومة إشبيلية معلمتان بالفتح وتحملان نفس التاريخ أي «عقب رجب سنة 576».

ب ـــ إذا حاولنا المقارنة بين مضامين الرسالتين نجدهما تتفقان على الحركة إلى قفصة وتشديد الحصار عليها إلى حين استسلامها، وإن كانت الرسالة الثانية أوضح : إذ تشير مثلا

---

(34) المن (417-418) والبيان (90). وفكرة جلب العرب إلى الأندلس تعود إلى ما قبل فتح المهدية، فحسب البيان (37-38) أنه في ربيع 552 انهزم السيد يوسف في موقعة زغبولة «فوصل الخبر إلى عبد المومن فنظر في استجلاب العرب وحماية الجزيرة من الحرب والنوب».

(35) المقصود من هذا الفترة الممتدة من خريف سنة 1167 إلى بداية صيف 1168.

(36) راجع ترجمته (رقم 11) في مقدمة البحث.

(37) ترجمته (رقم 12) في مقدمة البحث، والرسالة المشار إليها هي نفسها رقم 20 في (م ر م) المنسوبة في إنشائها إلى أبي الحكم بن المرخي موجهة إلى قرطبة، مع بعض الاختلاف في بعض الكلمات أو تجاوز بعض الجمل.

إلى استدعاء الثائر بها **للعرب والأكراد**. وتذكر الرسالة الأولى تقديم الخليفة في الطليعة «لعساكر هذه البلاد مع طلبتها»، وتوضح الرسالة الثانية أنهم «طلبة» بجاية وعساكر الموحدين ببجاية وافريقية. وتنفرد الرسالة الثانية بالإشارة إلى جلب النصارى «للعود» من بلادهم إلى افريقية والذي منه صنعت آلات الحصار[38]، وتعلل لماذا قبل الخليفة أن يؤمّن أهل قفصة مشيرة إلى أنهم كانوا مغلوبين على أمرهم، وتذكر اعتراف الخليفة بأن أخبار قفصة لم تكن تصل إليه على حقيقتها خصوصا من حيث حصانتها[39]. وتتفق الرسالتان في ذكر حصانة المدينة وأهمية زراعتها ونظام الريّ بها[40]. هذه الأهمية سوف لن يرد ذكرها في رسالة المنصور بفتح قفصة سنة 583[41] أي أنها أصبحت معروفة، مما يرجّح أن قفصة لم يرها خليفة موحدي قبل يوسف سنة 576. وتتحدث الرسالتان عن العرب، فهؤلاء كانوا حلفاء **لقراقوش الغزّي** بالمنطقة منذ انتقاله إلى إفريقية بدعم عرب رياح ثم تمكن من الاستيلاء على قابس ومدن أخرى[42]، غير أن هؤلاء العرب عندما وصل الخليفة إلى إفريقية بادروا إلى الطاعة فقبلها منهم وصرفهم مؤقتا. وعندما ينتهي من فتح قفصة سيحاول اجتذابهم لقبول الحركة معه إلى المغرب ثم الأندلس، وهذه الفكرة التي تلمّح إليها الرسالتان وخاصة الثانية منهما توضّحها بصفة أفضل الرسالة رقم 26 (م ر م) المؤرخة بشوال 576 الصادرة عن الخليفة من تونس، مما يبيّن فعلا أن حركة يوسف الافريقية كانت على الخصوص بسبب قفصة ولأجل استدعاء العرب[43].

تمتاز الرسالة الأولى بتلميح مهمّ وهو أن هذه الثورة بقفصة ليست هي الأولى، إذ «طالما لم تصرف عنانا إلى طاعة»، مما يرجّح صحة رواية ابن خلدون عن ثورتها سنة 563 أيضا كما سبق ذكر ذلك[44].

تفيدنا الرسالتان معا في بعض الفنون القتالية وفنون التحصين من استعمال بعض أدوات

---

(38) لا تحدد الرسالة من هم هؤلاء النصارى، ولاشك أنهم تجار إيطاليون حيث تؤكد رسائل أماري وجود علاقات مع البيشانيين في هذه الفترة (الرسالة رقم 1 في مجموعته والرسالتان 32، 33 م ج)، ويذكر ماص لاطري وجود علاقات مع جنوة منذ ما قبل هذه الفترة :

Mas-Latri : Relations et commerce... p. 88

(39) هل هذا مجرد تبرير لطول مدة الحصار ؟ فهو يذكر أيضا عدم الاستعداد لمثل هذا الحصار، راجع ابن الأثير (سنة 576)، والروض المعطار (مادة قفصة).

(40) قارن مع الاستبصار (150–151)، والروض المعطار (477–479)، ومعجم البلدان 382/4–383)، وصبح 107/5.

(41) هي الرسالة رقم 31 (م ر م).

(42) ابن الأثير في الكامل (سنة 568)، التجاني 111.

(43) البيان (الموحدي) 112.

(44) راجع الصفحة 55 قبل.

الحصار ومطاولته واعتماد المدينة على حصانة أسوارها والخندق حولها ووجود عيون داخلية تستفيد منها المدينة وقت الحصار، ولذا ربما كان التهديم الذي أصاب بعض الأبراج والأسوار هو الدافع إلى الاستسلام وليس الجوع والعطش وهذه حالة نادرة[45].

توجد في الرسالتين إشارة إلى أن الخليفة وجّه رسالة أو رسائل سابقة معلما بدواعي الحركة إلى إفريقية : من فتنة الأعراب والأكراد وثورة ابن الرند بقفصة مستعيناً بهم، وقد وجهها من افريقية عندما وصل إليها، ووصف توفّر خيراتها ! وطاعة العرب بواسطة أشياخهم. فهل هذا يدخل في نطاق طمأنة الأندلسيين بعد تكرار استنجاداتهم، خاصة وأن الرسالتين معا موجهتان إلى اشبيلية ؟

هناك تناقض يبرز في الرسالتين وهو : كيف يمكن التوفيق بين ذكر خلو المخازن وحالة الجفاف التي تعيشها المنطقة[46]، وبين توصل الموحدين بما يحتاجونه من «مرافق»، فهل كانوا يستفيدون فقط من بساتين قفصة الخارجة عن الأسوار[47]، أم كانوا يوجّهون البعوث إلى مختلف جهات منطقة الجريد لجمع المؤونة، أم **كان الأسطول** الموحدي يرافق الحملة ويحمل المؤونة فتتصل به البعوث الموحدية في السواحل لسحبها ؟ ربما كان هناك تكامل بين مختلف هذه الجوانب.

ج ــ ان الرسالة الثانية (من إنشاء ابن نارار) وقع الخطأ في ترتيب أوراقها عند ترميم المخطوط فأصبحت على الصفحات 7 و8 و9 ثم 14 و15 و16، والذي يؤكد هذا هو سياق الكلام بين جزءي الرسالة المتباعدين، وأشكال تأثير الأرضة على أوراق الرسالة والمسافات فيما بينها في هذين الجزأين، كما أنها هي نفس الرسالة التي أوردها بروفنصال في مجموعه تحت رقم (20)، ولا تختلف عنها إلا في بعض الكلمات (وهي أحيانا خاطئة في مجموعه على ما يبدو)[48]، كما تختلف عنها في توجيهها إلى قرطبة (عوض اشبيلية)، وفي نسبتها إلى أبي الحكم بن عبد العزيز بدلا من أبي علي ابن نارار. وتختلفان في نقطتين أساسيتين : فرسالة بروفنصال مبتورة الآخر فلم يرد بها تاريخ انهاء الرسالة، كما أنها صادرة عن «أمير المومنين» (بدلا من أمير المومنين بن أمير المومنين)[49] وهذا ما جعل بروفنصال ينسبها إلى الخليفة عبد المومن، مما أدى به إلى الاعتقاد بأن عبد المومن حضر فتح قفصة سنة 554

---

(45) سنرى المنصور خلال حصاره لها يقطع كل يوم ألف نخلة فيضطر أهلها للاستسلام (التجاني 138).

(46) يذكر ابن الأثير أيضا الجدب في هذه المدة بافريقية فتعذر على العسكر القوت والعلف للدواب، فسار يوسف إلى المغرب بسرعة (الكامل 152/9).

(47) تتفق على أهمية زراعتها المصادر الجغرافية مثل الاستبصار (150-151)، الروض المعطار (477-479)، معجم البلدان 382/4-383، صبح 107/5.

(48) نسخة «العطاء الجزيل» المعتمدة خالية من الأخطاء مما يرجّح أنها عتيقة لم تحمل أخطاء النسخ المتكرر.

(49) كما هي في العطاء، أي أمير المومنين يوسف بن أمير المومنين عبد المومن.

أثناء حصار الجيش الموحدي للمهدية، وهذا شيء لا تنص عليه المصادر التي أمكن الاطلاع عليها[50].

وإذا حاولنا تلخيص **أهمية الرسالتين** 30 و31 (م ج) نجدها كما يلي :

* تلمّحان إلى وجود علاقات تجارية مع النصارى (مسألة جلب «العود» لصناعة «الأبراج» الحربية).
* توضحان أهمية موقع قفصة وتحصيناتها وبعض منتوجاتها وأسلوب الري بها، فتتكاملان بذلك مع ما ورد في المصادر الجغرافية بالخصوص.
* تكملان وتصححان الرسالة رقم 20 (م ر م) لبروفنصال وتؤكدان أنها صادرة عن الخليفة يوسف وليس عن عبد المومن كما ذهب إلى ذلك بروفنصال.
* تتفقان مع ما في بعض المصادر من العفو عن زعيم الثورة ابن الرند على عكس رأي صاحب القرطاس الذي يذكر أنه تمّ قتله.

4 ـــ خصائص بعض رسائل مجموعة أماري :

• ان الرسائل المعاد نشرها في هذا البحث هي التي تتخذ طابعا رسميا، بحيث يجد القارىء رسالتين موجّهتين من حكومة بيشة (بيزا) إلى السلطة الموحدية، ومجموعة من الرسائل موجهة من هذه السلطة إلى تلك. ويمكن تصنيف رسائل هذه المجموعة كما يلي :

- رسالتان في موضوع شكاية من حكومة بيشة إلى الخليفة يوسف حول انتهاك شروط المعاملة التجارية بين الدولتين في كل من طرابلس وبجاية (فيما بين سنتي 576 و578) وهما الرسالتان 32 و33 (م ج).
- اتفاقية تجارية وسلمية بين المنصور وحكومة بيشة سنة 582 أو هو ظهير من المنصور يحدّد شروط التعامل بين الدولتين[51]، تجدّد في عهد الخليفة الناصر سنة 607 (الرسالة رقم 62 م ج).
- رسائل تجمع بين ظاهرتين : الأولى تشير إلى اعتداء البيشانيين على سفينة إسلامية بخليج

---

(50) انظر دراسته لهذه الرسالة في هسبيريس 1941 ص 47 (عدد وحيد)، ومن دلائل خطإه في الاستنتاج أيضا ورود كلمة «الغز» في رسالة مجموعه، وهؤلاء لم يظهروا بافريقية قبل سنة 569 أو على الأبعد قبل عهد يوسف، كما أن رسائل عبد المومن الأخرى في (م ر م) وحتى رسائل المن في أوائل عهد يوسف لا ذكر فيها لاسم «الغز»، بل إن الرسالة (19) (م ر م) المؤرخة بـ20 من ذي القعدة 554 صدرت عن عبد المو ن بظاهر المهدية وأشار إلى وصول الخبر بفتح قفصة في فقرة استدراكية بآخر الرسالة، فنفهم منها أن ر الفتح وصله بظاهر المهدية بعد الانتهاء من كتابة الرسالة (19)، انظر أيضا الفقرة الأولى من الدراسة التاريخية بهذا الفصل. ص 60 وما بعدها.

(51) الرسالة رقم 35 (م ج).

تونس، والثانية تحرّض تجار بيشة على التحرك نحو إفريقية مع إعطاء الضمانات لهم بتأمينهم. (36، 46، 47، 48، [وربما 49]، 50، 51، 52، 53) م ج.

ــ رسالة إلى حكومة بيشة (وملحقاتها) تحذر من التعامل مع الثائر بالمهدية ابن عبد الكريم وهي الرسالة رقم 53 م ج.

• ويمكن إبراز **أهمية رسائل «أماري»** التي تهم البحث كما يلي :

أ ــ ان الرسالتين المتعلقتين بالشكاية حول تصرف حاكم طرابلس والمشرف المالي لبجاية يمكن أن تدلاّ على تخلخل النظام في المدينتين في أواخر عهد الخليفة يوسف بسبب تحركات المماليك «الغز» حول طرابلس، وربما نفوذ بعض الأسر الكبرى ببجاية غير المرتاحة للسلطة الموحدية[52].

ب ــ أن اتفاقية المنصور مع بيشة تعطي مجموعة من الإفادات :

ــ فهي تحدد بالتقريب مجال نفوذ دولة بيشة على جزء من الساحل الإيطالي وبعض جزره خاصة كورسيكة وسردينية.

ــ وتفيد بمنع القرصنة بين الدولتين وتعويضها بالتعامل المنظم في إطار اتفاقيات ومنها هذه الاتفاقية التي تمتد على مدى 25 سنة.

ــ وهي تحدد الرسوم على الواردات البيشانية بـ 10 % في حالة بيعها بالموانىء المحددة في الاتفاقية، وفي هذا استمرار لما كان بين بيشة وبين بني خراسان بتونس[53].

ــ تحدد أربع موانىء في الشمال الافريقي فقط للتبادل التجاري مع بيشة هي تونس وبجاية ووهران وسبتة (أي أنها تمنع البيشانيين من الاتصال بالأندلس)، كما تمنع هؤلاء من حمل المسلمين على سفنهم.

ــ وفي الاتفاقية تلميح إلى أهمية مدينة ألمرية في الصناعة البحرية والامكانيات الفلاحية حيث يمكن للتجار البيشانيين النزول بها قصد الإصلاح والتزود بالحاجيات ليتمكنوا من متابعة السير.

ولا يتضح ما هو المبرّر لهذا المنع، هل تركت موانىء الأندلس كامتياز لدولة أخرى مثل جنوة ؟ أم تركت للأندلسيين حماية لهم من المنافسة التجارية الايطالية ؟ أم لمجرد الخوف على عورات المسلمين بالأندلس ؟ ومثل هذه التساؤلات نضعها أيضا حول منع «المسلمين» من ركوب السفن البيشانية.

---

(52) انظر الفقرة الأخيرة في هذا الفصل حول العلاقات مع بيشة (ص 81–83).

(53) ظاهرة الاستمرار تلاحظ أيضا في اعفاء البضاعة البيشانية من الرسوم إذا لم يتم بيعها أو إذا تبايعها النصارى فيما بينهم داخل سفنهم، (قارن رسالة المنصور رقم 35 (م ج) مع الرسالة الأولى في مجموعة أماري).

ج ــ وبالنسبة لمجموعة الرسائل التي يدور موضوعها حول الاعتداء البيشاني على مركب للمسلمين بخليج تونس، يتضح أن المسؤولية في الأحداث لم تعد تنسب للدولة التي ينتمي إليها المعتدون، وإنما هي مسؤولية محدودة تتطلب عقاب المعتدين، فلا يؤثّر هذا في العلاقات القائمة، ولذلك فالرسائل تحث البيشانيين على القدوم للمتاجرة مع أهل افريقية مع تأمينهم وفي نفس الوقت تحث دولتهم على احترام المواثيق ومعاقبة الجناة. وتفيد هذه الرسائل في ذكر أسلوب من أساليب تعويض المتضررين من عملية الاعتداء، وذلك مثلا ببيع مادة القمح التي يمتلكها تجار بيشة بحضورهم وتقديم قيمتها للمتضررين ريثما يتلقى هؤلاء البيشانيون من بلدهم تعويضا يأخذونه من المعتدين بواسطة حكومتهم. وتفيد هذه الرسائل أيضا في ذكر بعض مسيّري مرسى تونس : فنجد الوالي هناك وناظر الديوان والعدول والتراجمة والكتاب[54].

د ــ إن الرسالة رقم 52 (م ج) من والي تونس إلى حكومة بيشة بشأن الامتناع عن التعامل مع الثائر بالمهدية تفيد بأن التجار الأجانب (ومنهم البيشانيون) لم يكونوا يهتمون بالجانب السياسي أي أنهم لا يميّزون بين من يسيطر على المدن الساحلية التي يتاجرون معها، ومن جهة أخرى تؤكد هذه الرسالة الفترة التي ثار فيها ابن عبد الكريم بالمهدية والتي استمرت إلى ما بعد تاريخ الرسالة أي رجب 598، كما تؤكد حصار قطع من الأسطول الموحدي للمهدية، بينما ذكر التجاني قطعتين موحديتين فقط حاصرتا المهدية دعْما لابن غانية (ص 345)[55]، وتفيد أيضا بأن حاكمين في منطقتين من سردينيا لهما اختلاف في سياستهما نحو الموحدين، وتلمّح الرسالة إلى تبعيتهما لبيشة، ولذا قد تكون هذه التبعية شكلية وخاصة في إطار العلاقات التجارية.

هـ ــ وهناك مجموعة من الرسائل التجارية بين كبار تجار تونس أو المسؤولين التجاريين وبين بعض كبار تجار بيشة[56] يمكن أن تفيد في بعض الجوانب مثل أساليب المعاملة بين تجار البلدين (مبدأ الثقة في المبادلات، وبعض مواد التبادل)، وذكر أسماء بعض التجار من البلدين.

5 ــ خصوصيات رسالتي صلاح الدين الأيوبي إلى المنصور الموحدي[57] (38 و39 م ج) :

وردت الرسالة رقم 38 ضمن الجزء السادس من صبح الأعشى، ورقم 39 ضمن الجزء الثاني من كتاب الروضتين.

---

(54) قد يكون التراجمة «دلاّلين» في «الحلقات» التجارية، انظر الرسالة رقم 25 في مجموعة أماري.

(55) انظر أيضا الصفحة 78 في الدراسة التاريخية لهذا الفصل.

(56) وهي الرسائل من رقم 14 إلى رقم 21 وكذلك رقم 25 في مجموعة أماري، ولم يتكرر نشر هذه الرسائل في المجموعة الجديدة لكونها لا تتخذ صبغة رسمية.

(57) لم أهتم هنا بمسألة الكاتب لأن الرسالتين تخرجان عن نطاق النماذج الموحدية، بل ان إقحام هاتين الرسالتين ضمن المجموعة يعتبر استثنائيا، ولذا لا وجود لترجمة القاضي الفاضل ضمن تراجم الكتّاب في مقدمة البحث بالقسم الأول.

أ ــ هل هما رسالتان أم رسالة واحدة ؟

ــ هناك مصادر لا تذكر أكثر من رسالة كتبت عن صلاح الدين إلى المنصور الموحدي : فالمصادر المغربية تتحدث عن سفارة أيوبية إلى البلاط الموحدي[58]، كما أن «كتاب الروضتين» يلمّح إلى ذلك في بعض العبارات مثل : «فصل في نسخة الكتاب إلى ملك المغرب»، ومثل قول صاحبه : «وقعتُ على كتاب فاضلي يشعر بأن الرسالة المغربية لم تكن برأي الفاضل...»[59] فلو كانت أكثر من واحدة لميّز بينها، وهو لا يسرد إلا نص رسالة واحدة، ومن الإشارات التي يمكن أن توحي بأحادية الرسالة ما ورد في نص رسالة الروضتين مثل : «... سلام مودّة ما وفد الغربَ قبلها مثلُها»، وفي نفس الرسالة عبارة : «ولم تتأخر المكاتبة إلا ليتمم الله ما بدأ من فضله» (من الفتوح)[60].

ــ لكن هناك أيضا ما يفيدنا **بوجود مراسلتين مع المنصور** : فصاحب صبح الأعشى أرّخ الرسالة التي أوردها بسنة 585[61]، بينما تحمل رسالة الروضتين في نصها تاريخ 28 شعبان 586. وفي هذه الرسالة إشارة إلى استنجاد سابق كما في العبارة : «ولما استُبطِئت [المعونة] ظُنّ أنها [الدولة الموحدية] توقفت على الاستدعاء، فصرخنا به في هذه التحية...» وتتضمن رسالة الروضتين أيضا العبارة «هذه التحية الطيبة الكريمة الصيبة الواجبة الردّ..» فإذا كان هناك ردّ فلابد أن هناك رسالة تطلّبت هذا الرد. ومن حيث المحتوى نجد رسالة صبح الأعشى تتوقف أحداثها قبل الأحداث التي تنتهي عندها رسالة الروضتين : فالأولى تكتفي بذكر وصول الكفار إلى جهات القسطنطينية بقصد المسير نحو الشام، بينما الثانية توضح أن هؤلاء هم الألمان بقيادة ملكهم، وأنه وصل إلى أنطاكية فغرق في نهرها، وحاول ابنه ــ وريثه في الملك ــ تقديم الدعم لنصارى عكّا المحاصرين لها[62].

فهل تكون رسالة صبح الأعشى مجرد تسويد عوّضته الرسالة الواردة في الروضتين ؟ إن المقارنة بين مضامين الرسالتين لا تمكن من ترجيح هذا الافتراض.

---

(58) البيان (183-184)، العبرة 513/6-514، الاستقصا 181/2-183.

(59) الروضتين ص 171 و174 على التوالي (الجزء الثاني).

(60) بينما رسالة صبح الأعشى ذكر أنها وجهت سنة 585 أي بسنة قبل رسالة الروضتين.

(61) نفس التاريخ يذكره ابن خلدون 514/6، وكان صلاح الدين يقاتل الفرنج على عكا منذ شعبان 585.

(62) يذكر صاحب الروضتين أن عدد هؤلاء حسبما هو شائع حوالي مئتي ألف لم يبق منهم بعد دخولهم الشام إلا ما دون الخمسة آلاف (ص 177)، بينما يتحدث ابن الأثير عن عددهم عند بداية دخولهم الشام بنيف وأربعين ألف لم يبق منهم الوباء والموت إلا نحو ألف رجل غرقوا بعد إقلاعهم عن عكا (الكامل 207/9، انظر أيضا المقريزي في الخطط 234/2).

ب ــ **مضامين الرسالتين :**

ــ تضمنت رسالة صبح الأعشى الإشارة إلى قيام الدولة الأيوبية بمصر وتطهيرها من الشيعة، والقيام بالفتوح وعلى رأسها تحرير بيت المقدس من الصليبيين[63]، وهذا ما تضمّنته رسالة القاضي الفاضل إلى الأمير ابن منقذ ليذكر ذلك إلى ملك المغرب[64]، وتتفق الرسالتان ضمنيا على انتقال القوات الفرنجية إلى حصار عكا برا وبحرا وحصار صلاح الدين لها من جهة البر لمنعها من اقتحام المدينة دون أثر مهم بسبب الامدادات البحرية المستمرة لفائدة هؤلاء الفرنج رغم تمكّن بعض القطع المصرية من إيصال المؤونة في بعض الأحيان إلى سكان المدينة[65]. وهذه أيضا من الأشياء التي طلب القاضي الفاضل ــ بأمر صلاح الدين ــ شرحها لملك المغرب.

ــ تذكر الرسالة الأولى (صبح) ثغرا واحدا بيد الإفرنج وهو مدينة صور ، ويبدو أن المقصود أهمّ الثغور الباقية التي تذكرها رسالة الروضتين وهي طرابلس وصور وأنطاكية، وقد انطلق الفرنج المحاصرون لعكا من صور برا وبحرا.

ــ تحدّد الرسالة الأولى المطلوب من الموحدين وهو إمداد بلاد الشام بالقطع البحرية لمواجهة الأساطيل الصليبية، وكذلك اعتراض أسطول صقيلية (الذي كان يلعب دورا مهما في نقل الصليبيين إلى الشرق)، أما رسالة الروضتين فهي تعمّم طلب الإمدادات البحرية، بل إن التوجيهات المقدّمة للسفير ابن منقذ هي عدم حصر طلب المعونة في الأساطيل «فالمعونة ما طريقها واحدة، ولا سبيلها مسدودة ولا أنواعها محصورة، قد تكون تارة بالرجال وتارة بالمال» هذا إذا تعذرت الإعانة بالأسطول[66].

ــ تعرّف رسالة الروضتين بالسفير وكذلك بالهدية الموجهة إلى المنصور، بينما تغفل ذلك رسالة صبح الأعشى.

---

(63) كان ذلك سنة 583 بعد هزيمة الفرنج عند حصن حطين هزيمة شنعاء (الكامل 176/9 وما بعدها، العبر 649/5-694).

(64) الروضتين 170/2.

(65) كانت مدينة عكا قد سقطت من يد الفرنج (سنة 583) ضمن المواقع المحررة (ابن الأثير 179/9) انظر تفاصيل حصار النصارى لعكا وما صاحبه من مناوشات بينهم وبين جيش صلاح الدين في الكامل 186/9 وما بعدها.

(66) الروضتين 171/2، وفي هذا تلميح إلى المعاناة من الضعف المادي الذي كانت تعانيه الدولة الأيوبية آنذاك، والذي كان أحياناً سببا في فشل الخطط العسكرية لصلاح الدين، أنظر ابن الأثير وتلميحاته لذلك في 204/9 في فك حصار صور وخلال حصار عكا، وفي الصفحة 209 حول تقديم المؤونة من بيروت وصيدا لنصارى عكا، ويعترف صاحب الروضتين بهذا الضعف المادي لقلة المداخيل وركود التجارة في مقابل النفقات الكثيرة (ص 176 و177).

ج ـ أسلوب المخاطبة :

تكثر في رسالة صبح الأعشى تعابير التبجيل للخليفة الموحدي فتصفه تارة باسم (سيدنا) وأحيانا بلقب أمير المومنين، وأمير المسلمين، وتصف المرسِل أحيانا بالخديم[67]، وهناك من يطعن في هذا معللا أن الرسالة المحمولة إلى المغرب لم تكن تحمل طابع صلاح الدين[68].
أما رسالة صاحب الروضتين فهي تحمل تعابير حذِرة تراعي مكانة الطرفين باعتدال، فرغم أنها تجرّد صلاح الدين من الألقاب الفخمة وتصفه «بالفقير إلى رحمة ربه يوسف بن أيوب»، فإنها لم تعترف للمنصور الموحدي بلقب الخلافة وإن استعملت بعض الصيغ مثل «معلي الموحدين على الملحدين» و«سلطان الإسلام»، فلهذا قيل إن المنصور رفض تقديم الدعم للأيوبيين !

د ـ الأهمية التاريخية للرسالتين :

ـ يفهم من مسألة الألقاب في الرسالتين وجود عداوة كامنة بين الطرفين أو على الأقل رفض الأيوبيين لسياسة الدولة الموحدية في ادعائها بأحقية خلافتها على جميع المسلمين، فالأيوبيون تابعون شكليا للخلافة العباسية ويمارسون في الواقع استقلالا عنها.

ـ تفيد الرسالتان في أن تحرير بيت المقدس كان له دور مهم في تدفّق الإمدادات الصليبية نحو الشام برا عبر البلاد البيزنطية وكذلك بحرا[69]، وهناك إشارة إلى الدور الذي كان يلعبه الأسطول الصقيلي في نقل هذه الإمدادات.

ـ تفيد الرسالتان في الاعتراف بضعف البحرية الأيوبية سواء بالنسبة للبحريات الصليبية أو الموحدية، بحيث تشيران إلى كثرة أساطيل النصارى وتلمّحان إلى قوة أساطيل الموحدين : «فإن عددها واف وشطرها كافٍ... ويمكنه (أي المنصور) أن يمد الشام منه بعدٍّ كثيف... ويمكنه أن يكفّ شطراً لأسطول طاغية صقيلية...»[70] «وكان المتوقع... أن يمدّ غرب الإسلام المسلمين بأكثر مما مدّ به غرب الكفار الكافرين فيملأها عليهم جواري كالأعلام»[71].

---

(67) هذا إن لم تكن الرسالة تعبر عن كاتبها أولا خاصة وأنه كتبها بمصر بينما صلاح ا لدين يحاصر عكا (راجع الهامش رقم 68).

(68) يناقش صاحب الروضتين هذا الموضوع في الصفحات (174–177).

(69) كانت هذه هي الحملة الصليبية الثالثة سنة 1189/585 التي قادها ملوك ألمانيا وانكلترا وفرنسا، وضغط هذه الحملة هو الذي فرض على الأيوبيين طلب المعونة من المغرب.

(70) رسالة صبح الأعشى.

(71) رسالة الروضتين، انظر العلاقات بين الموحدين والأيوبيين في أواخر هذا الفصل (80–84).

6 ــ رسالتان عن الشيخ عبد الواحد الحفصي حول انتصاره على ابن غانية (59 و61 م ج):

توجد الرسالتان معا في كتاب «الإعتاب» لابن الأبار أوردهما كنموذجين لفن الكتابة عند ابن نخيل أثناء الترجمة له[72].

الرسالة الأولى (59) : كتبها عن الشيخ عبد الواحد والي افريقية حول معركة شبرو بنواحي تبسّة التي انتصر فيها على يحيى ابن غانية وحلفائه من العرب وبعض البربر، وهي رسالة غير مؤرخة، وقد اكتفى ابن الأبار باقتباس بعض الفصول منها دون ذكر نصها كاملا، وهذا البتر للرسالة أغفل ذكر التاريخ والجهة المرسَلة إليها، وربما يعلل هذا تعاطف ابن الأبار مع الحفصيين خاصة إذا كان صدر الرسالة يشير إلى الخليفة الموحدي وتمجيده والتبعية له كما هي عادة الرسائل الموحدية. وبالنسبة لتاريخها ذكر ابن الأبار أنه منتصف صفر سنة 604[73] وهي نفس السنة في مصادر أخرى مع اختلاف في الشهر أو إغفاله[74].

والرسالة ــ أو على الأقل ما بقي منها ــ لا تعطي توضيحا عن ظروف المعركة، وإنما تتحدث عن النتيجة وهي هزيمة ابن غانية وفراره جريحا، ويعطينا صاحب الروض المعطار (في مادة شبرو) التوضيح الآتي : فبعد عودة الناصر إلى المغرب من افريقية كاتب الميورقيّ القبائل واستنفر الأعراب ووعدهم، فاجتمعت له جموع كثيرة[75]، بينما كاتبهم صاحب افريقية (الحفصي) ولم يصله منهم إلا القليل، فلما التقى الجمعان هجم ابن غانية على قلب معسكر الموحدين، ثم طعنه رجل من «عبيد المخزن» بالرمح في فخذه، وحملت ميمنته على ميسرة الموحدين... وكاد الخلل يظهر في صفوفهم، فلما رجع يحيى مطعونا حملت ميسرة الموحدين على ميمنته فهزموها، وحمل الشيخ (الحفصي) ــ وكان في القلب ــ على قلب جيش ابن غانية وتمّت الهزيمة عليه وفرّ جريحا، وفقد في المعركة نحو خمسمائة من أنصاره ونحو مائتي فرس ونحو ألفي جمل بحمولتها.

هذه الهزيمة ــ إضافة إلى فقدان ابن غانية لجزيرة ميورقة ومداخيلها المالية ــ جعلته يبحث عن موارد مالية جديدة بالتحرك عبر مدن الواحات إلى أن يصل في نهبه إلى سجلماسة سنة 605، فكان هدفه جمع كميات هامة من الأموال لتساعده على استمالة أعداد كبيرة من العرب ومن بقايا الغز ليخوض بهم معركة أخرى مع الشيخ الحفصي، هذه المعركة هي موضوع الرسالة الثانية رقم 61.

---

(72) انظر عنه الترجمة رقم 23 في مقدمة البحث.

(73) مخطوط خ ع يجعل تاريخها سنة 606 وهذا لا تتفق عليه النسخ الأخرى (انظر الهامش 74 بعده).

(74) يكتفي بذكر سنة 604 ابن خلدون (548/6) والزركشي (ص 19)، ويحدد صاحب الروض المعطار شهر ذي القعدة 604 (مادة شبرو) انظر أيضا برانشفيك في «تاريخ إفريقية في العهد الحفصي» ج 1/ 46 (بيروت 1988).

(75) يذكر الزركشي أنهم عرب الدواودة، بينما كان مع الشيخ الحفصي بنو عوف من سليم (ص 19)، انظر أيضا العبر 403/6.

الرسالة رقم 61 : كتبها ابن نخيل أيضا عن الشيخ عبد الواحد الحفصي بعد انتصاره على ابن غانية في معركة وادي أبي موسى، أورد ابن الأبار بعض فصولها فأغفل أيضا تاريخها وإن كان ذكر في تقديم الرسالة أنه سنة 606 أي نفس التاريخ الوارد في مصادر أخرى[76]، كما أن الجهة الموجّهة إليها غير مذكورة، وإن كان من غير المستبعد هو الخليفة الناصر بمراكش، فلجأ ابن الأبار إلى حذف صدرها الذي يظهر التبعية لهذا الخليفة، فصاحب البيان يقول : «وصل البشير إلى الحضرة المراكشية بهذه البشارة، وقرئت بجامعها الكتب السارّة، وجلس الناصر للتهنئات... (ص 232). وتذكر الرسالة مرور ابن غانية بأرض الزاب قبل وصوله إلى قفصة، مما يرجّح أن ذلك كان أثناء عودته من حملته إلى سجلماسة خلال سنة 605، وربما كان في قفصة ينتظر بعض حلفائه من ناحية طرابلس ليهاجم بهم عمق بلاد إفريقية[77]، ولما تأخر هؤلاء في الوصول، وتحرّك الجيش الموحدي نحوه غيّر اتجاهه نحو الأراضي الصحراوية فالتقى معه الموحدون في وادي أبي موسى عند جبل نفوسة، وكانت معركة شديدة : فالرسالة تلمّح إلى كثرة الأعداء، ويذكر ابن عذاري ضغط عرب ابن غانية على ميسرة الموحدين ــ وكان بها الأغزاز وبعض الأعراب ــ فانهزموا، بينما تقرر مصير المعركة بثبات الشيخ عبد الواحد ومن معه في «قلب الساقة»، وفرّ ابن غانية. وكان معظم من هلك في المعركة من بني رياح[78]، ويصف ابن عذاري أهمية هذه المعركة بقوله : «وأتت هذه الوقعة على أشتات المفسدين، ولم تلمح لهم بعد بارقة ولا تلوح إلى يوم الدين» (ص 232).

ويمكن أن تبرز **أهمية الرسالة** في الجوانب العسكرية بالخصوص كما يلي :

ــ أسلوب القتال عند العرب بإحضار أموالهم وعيالهم لتشتد حماستهم في القتال، ومن خدعهم أن يجعلوا النساء في هوادجهن وخلفهن الإبل التي يختفي وراءها النبّالون لاستهداف من يقصدهن.

ــ استعمال بني غانية للمحاربين من الصنفين : الفرسان والرجّالة.

ــ تفضيل العرب لقتال صنفهم «وزعموا أنهم حديد العرب، ولا يفلح الحديد إلا بالحديد» (ص 159)، فحارب بنو رياح من صف ابن غانية عربَ عوف والشريد من أنصار الموحدين.

---

(76) البيان ص 231، العبر 6/403-404، ويجعل صاحب الروض المعطار المعركة في 24 ربيع الثاني سنة 605 (عوض 606) (مادة وادي أبي موسى).

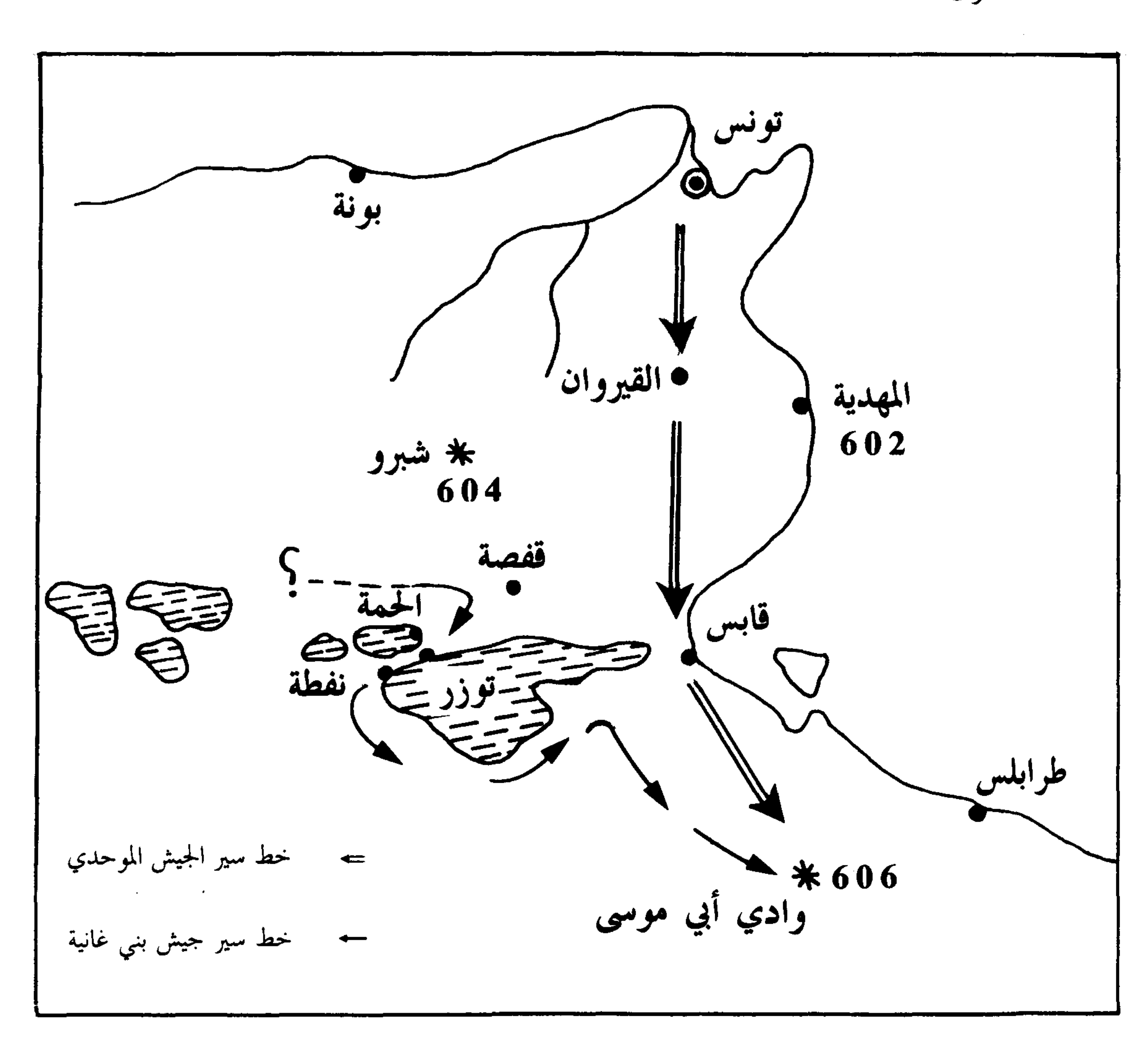
(77) العبر 6/ 403-404، الروض المعطار (نفس المادة).

(78) يذكر صاحب الروض المعطار القبائل التي التفت حول ابن غانية، ويذكر اشتداد المعركة : الميمنة مع الميسرة والميسرة مع الميمنة والقلب مع القلب، ويذكر بعض الأعيان من القتلى في صف ابن غانية كما يذكر فراره مع بني رياح وغيرهم (نفس المادة ص 604).

ـ اتّباع أسلوب المماطلة من طرف العدو قبل الاصطدام في المعركة لكي تنفذ مؤونة الجيش الموحدي في أرض صحراوية.

ـ ترسم الرسالة خريطة لتحركات جيش العدو وتحركات جيش الموحدين قبل المعركة.

ـ تؤكد الرسالة نجاة ابن غانية فرارا بنفسه وفي قلة من أنصاره، وتتفق في هذا مع مصادر أخرى.



رسم لتحرك الجيشين الموحدي والغاني قبيل الاصطدام في معركة وادي أبي موسى

الموضوع الثاني :

دراسة تاريخية لرسائل الفصل الثاني

ينطلق الموضوع كما هي العادة من الرسائل التي تهمّ هذا الفصل مستفيدا من مصادر أخرى، ويشمل على العموم وضعية المغرب الأوسط وافريقية منذ وصول النفوذ الموحدي إليهما من أواسط القرن السادس إلى أوائل القرن السابع حيث ظهرت نواة الدولة الحفصية، ويشمل هذا الموضوع أيضا تأثير هذه الوضعية على العلاقات بين الموحدين وكل من الأيوبيين والإيطاليين.

أ ــ المغرب الأوسط وافريقية بين الموحدين والقوى المنافسة لهم :

يمكن تقسيم فترة تبعية المنطقة للموحدين إلى المراحل الآتية : المرحلة الأولى هي التي تمّت حوالي سنة 540 في القسم الغربي من المغرب الأوسط أي المنطقة الموروثة عن العصر المرابطي، ثم المرحلة الثانية التي تواجه فيها **الموحدون مع الدولة الحمادية** وبعض الأسر الحاكمة في بعض مدن افريقية، ومع عرب المنطقة زيادة على النرمانديين في الساحل، وقد امتدّت هذه المرحلة على العموم من سنة 547 إلى حوالي 568 عندما بدأ عنصر الغزّ يدخل افريقية، وهنا تبدأ المرحلة الثالثة **بظهور العنصر الأجنبي** ومعه بنو غانية ــ القادمون من جزر شرق الأندلس ــ مدعّمين بعناصر بربرية وعربية، هذه المرحلة تمتد إلى عهد حملة المنصور إلى إفريقية سنة 583 حيث أصبحت الدعوة للعباسيين تنافس الدعوة للموحدين فتقلصت سلطة هؤلاء عن شرقي إفريقية الملتف حول قراقوش زعيم الغز وعن «الجريد» الذي سبق أن التفّ حول أسرة بني الرند أمراء قفصة منذ أواسط القرن الخامس ثم خضع لابن غانية الميورقي المرابطي. وبعد حملة المنصور الافريقية (سنة 583) وعودته إلى المغرب الأقصى عمل ابن غانية على إقصاء كل منافس في المنطقة حتى أصبحت البيعة له من طرابلس إلى بونة بما فيها مدينة تونس سنة 600، مما فرض تحرك الخليفة الناصر إلى إفريقية لإبعاد بني غانية عنها، وكان من النتائج البعيدة لهذه الوضعية قيام الدولة الحفصية بالمنطقة :

1 ــ إن السلطة الموحدية كانت تواجه في شرق المغرب الأوسط وإفريقية تعدد العناصر المعارضة أو المنافسة، فهناك **القبائل العربية** التي كانت تمثل العنصر المتغلب منذ أواسط القرن الخامس الهجري، فبعضهم مثلا كانوا يقتسمون مع بني حماد بالمغرب الأوسط الجبايات مناصفة[79]، ولذا حاولوا منع الجيش الموحدي من الاستقرار أو التوسع بالمنطقة بعد القضاء

(79) المعجب (224–225)، ويشير ابن الأثير إلى تخوف عرب المنطقة من امتداد النفوذ الموحدي، ويذكر القبائل العربية التي كانت مجالاتها بين طرابلس والمغر الأوسط وهي : بنو هلال ورياح وزغب وغيرهم، الكامل 41/9، راجع أيضا العبر 491/6.

على مملكة بني حماد[80] فاصطدموا مع جيش عبد المومن في سطيف سنة 548، ودارت الهزيمة عليهم[81]، فقبل بعضهم الدخول في خدمة الدولة الموحدية، وسيتعزز انتصار عبد المومن في سطيف بانتصار آخر على عرب افريقية خلال حملته لفتح المهدية[82].

وسيحاول عبد المومن ثم أبناؤه من بعده تكرار التجربة التي سبقهم إليها بنو زيري وبنو حماد وهي استعمال هؤلاء العرب جندا لهم[83]، واستدراج عدد منهم نحو المغرب الأقصى والأندلس، وكان المبرر عادة هو «الجهاد»، غير أن هناك هدفا آخر وهو التخفيف من ضغط هذه القبائل العربية على ولاية بعيدة كافريقية[84]، والأهم من هذا أن عبد المومن كان يشعر بضعفه أمام المصامدة وأشياخهم، بل دبّر بعضهم في أكثر من مرة الإطاحة بحكمه أو اغتياله[85]، فنجح في استمالة العناصر العربية لتقوية سلطته ولدعمه في تحويل الخلافة إلى ملك وراثي في ذريته، وفي تقسيم الولايات بين أبنائه[86]. وفي عهد يوسف كانت هناك عمليات لنقل عدد أكبر من عرب رياح وغيرهم من الهلاليين من افريقية لإعادة الهدوء إليها ولمواجهة الضغط المسيحي على الأندلس[87]، واستمرت العملية في عهد المنصور لتشمل إلى جانب الهلاليين عناصر من سليم اتجهت إلى المغرب الأقصى سنة 588[88].

---

(80) الرسالتان 7 و8 (م ر م)، البيذق 73 وما بعدها، الكامل 9/30-31، البيان 32 وما بعدها في (خ ح 3/336)، وكان للاثبج الدور الأساسي في مواجهة عبد المومن لتعاونهم مع الصنهاجيين الذين جعلوا الرئاسة لهم، العبر 6/34 وما بعدها و491، خريدة القصر وجريدة العصر للعماد الأصفهاني، ط تونس 1966، (قسم شعراء المغرب فيه رسالة للأمير الحمادي يستنجد بعرب هلال بعد فراره من بجاية، ج 1/180).

(81) الرسالة رقم 9 (م ر م) تاريخها أول ربيع الآخر سنة 548 يصحّح الخطأ الذي وقع فيه كل من البيذق (ص 74) وابن خلدون (6/491) الذين جعلا سنة 546 هي سنة سطيف.

(82) الرسالة رقم 9 (م ج) وإشارة في الرسالة رقم 19 (م ر م)، البيان 39 ط. تطوان، وقبل حصار الموحدين للمهدية كانت لهم محاولتان فاشلتان سنة 552 بحرا و553 برّا، انظر الكامل 9/65، البيان 1/316، ط. بيروت، المعجب 228، وتلميح في الرسالة رقم (1) في مجموعة أماري (المحاولتان المذكورتان كانتا لفتح مدينة تونس).

(83) المعجب 225، العروي في «تاريخ المغرب» (184-185) ط. بيروت 1977.

(84) مما أوصى به عبد المومن بعض أولاده هو إخلاء إفريقية من العرب وجلبهم إلى المغرب والأندلس، العبر 6/580.

(85) البيذق (76-77)، المعجب 233، القرطاس 149 و199، البيان 28، انظر أيضا في الفصل الأول (ص 36-37).

(86) الرسالتان 13 و14 (م ر م)، ابن الأثير 9/50-51، ونفس صفحتي، الفصل الأول.

(87) الرسالة 26 (م ر م)، وربما يدخل في هذا الإطار أيضا موضوع الرسالة 25 (م ج).

(88) البيان 188، ويذكر ابن خلدون أسماء بعض القبائل التي وطنها المنصور بالمغرب (6/45).

ورغم هذا كله لم ينقطع عيث العرب بافريقية سواء من بعض الهلاليين المترددين بين الطاعة والتمرد[89]، أو من بني سليم الذين كانوا حول طرابلس وما شرقها غير مستقرين على الطاعة غالبا[90]، فكان الثائرون بالمنطقة يجدون الدعم من هؤلاء العرب سواء ابن الرند الثائر بقفصة أو قراقوش الغزّي وأتباعه، أو بنو غانية، أي سواء كانوا من الثوار المحليين أو من الأجانب :

2 ــ فمن الأسر المحلية التي كان لها نفوذ قبل الموحدين نجد **أسرة بني الرند بقفصة**، إذ كان جدهم عبد الله بن محمد بن الرند عاملا لبني زيري الصنهاجيين بقفصة وما حولها، فلما عاث العرب بالمنطقة منذ أواسط القرن الخامس استبد بقفصة وبايعه أهلها وأهل الجريد «وصالح العرب على الإتاوة»[91] وكذلك فعل ابنه المعتز «ولم يزالوا بخير إلى أن نازلهم عبد المومن»[91] !

كان خضوع قفصة للموحدين أثناء حصار عبد المومن للمهدية أواخر سنة 554[92]، حيث كان من معسكره يوجه البعثات العسكرية لفتح مدن افريقية، فوصله وفد قفصة لتقديم الطاعة، ذلك أن أهلها «لما رأوا تمكّن عبد المومن أجمعوا على المبادرة إلى طاعته، فتوجّه إليه صاحبها يحيى بن تميم بن المعز ومعه جماعة من أعيانها»[93]. ويتضح من هذا أن عبد المومن لم يحضر فتح قفصة، ولا وجود لنص صريح بحصاره لها وفتحها على يديه عكس ما ذهب إليه بروفنصال عندما ظن أن الرسالة الصادرة عن الخليفة يوسف من قفصة سنة 576 (رقم 31 م ج) هي رسالة صادرة عن الخليفة عبد المومن[94]، وحتى عبارة ابن خلدون التي اعتمدها بروفنصال لتأكيد استنتاجه لا تعني فرضا حضور عبد المومن في «منازلة» قفصة[95].

---

(89) يذكر ابن خلدون أن العرب عندما اقتسموا إفريقية للمرة الثانية أيام الصنهاجيين كان لهلال من قابس إلى الغرب (العبر 34/6) والراجح أن هذا التقسيم ظل قائما خلال القرن السادس. ومن العرب المترددين بين الطاعة والتمرد قبيلة الدواودة الرياحية مع شيخها مسعود البلط حيث خرج عن طاعة الموحدين إلى التحالف مع قراقوش ثم عاد إلى طاعتهم بعد فتح قفصة سنة 576 (الكامل 576/9)، والرسالة 26 (م ر م).

(90) انظر الرسالة 30 (م ر م) عن سليم، و33 (م ر م) عن طاعة عوف والشريد من سليم، وفي المجموعة الجديدة (59 و61) عن حلفاء الميورقي من العرب، وانظر في العبر علاقة شيخ رياح مع الثائر الركراكي بالمهدية ثم مع ابن غانية (517/6).

(91) العبر 338/6–340 (فصل عن بني الرند).

(92) انظر الصفحتين 58–59 والهامش 50 في هذا الفصل.

(93) الكامل 63/9–64 (ضمن أحداث 554)، النويري في «نهاية الأرب» ص 432–433.

(94) انظر الصفحتين 58–59 والهامش 50 في هذا الفصل.

(95) الرسالة 19 (م ر م) من ظاهر المهدية ألحق بها عبد المومن في آخرها خبر وصول فتح قفصة، كما أن ابن خلدون يعمم المسألة هنا حيث لا يهتم بالتفاصيل.

بعد خضوع هذه المدينة عيّن عليها عبد المومن عامله نعمان بن عبد الحق الهنتاتي، ولما عزله عيّن مكانه ميمون الكنفيسي ثم خلفه عليها عمران بن موسى الصنهاجي الذي قيل إنه «أساء إلى الرعية فبعثوا عن علي بن عبد العزيز بن المعتز من بجاية... وثاروا بعمران الصنهاجي عامل الموحدين فقتلوه وقدّموا علياً بن عبد العزيز... وأغزاه يوسف بن عبد المومن سنة **563** أخاه السيد أبا زكرياء[96]، فأعاد السلطة الموحدية إلى قفصة. وربما كان هذا الموقف من أهلها هو أحد العوامل الأساسية لإثبات قوات موحدية دائمة في افريقية لمنع التمرد وغارات الأعراب الذين كان الخليفة يوسف يحاول استنفارهم معه إلى الأندلس[97].

ومنذ سنة **568** خرج جماعة من الأغزاز (التركمان) نحو إفريقية بزعامة قراقوش ــ مملوك تقي الدين ابن أخي صلاح الدين ــ فاستولى على طرابلس وقابس بدعم عرب منطقتها محوّلا الدعوة للعباسيين والأيوبيين[98]، مما شجّع أحد أعقاب بني الرند ببجاية وهو **المعروف بابن الرند** على الثورة في قفصة على الموحدين سنة **572** داعيا للعباسيين، وتلقّب بالناصر لدين النبي[99]. ولم تساعد الظروف الخليفة يوسف على «الحركة» نحو افريقية إلا سنة **576** حيث أشرف بنفسه على حصار قفصة وضربها «بالآلات الحربية» المختلفة نظرا لحصانتها، وصنعت بعض هذه الآلات من خشب أوصله النصارى إلى إفريقية، فتمكّن الخليفة من فتحها في رجب **576**، بعد أن استسلم صاحبها طالبا العفو[100]، فنفاه إلى مراكش ثم ولاه «أعمال» سلا (أي أشغالها المالية) إلى وفاته بها[101]. هذه الثورة وجدت الدعم من الأغزاز بزعامة منافس آخر لقراقوش كما يذكر ذلك ابن الأثير[102]، وتشير الرسالتان **30** و**31** (م ج) أيضا لهذا الدعم. كما وجدت الثورة تأييدا من عرب المنطقة (المنافسين لسليم أنصار قراقوش) وهم العرب

---

(96) العبر 339/6، انظر خصوصيات الرسالة 25 في الصفحة (54-56).

(97) راجع الرسالة 25 (م ج)، وخصوصياتها (ص 54-56).

(98) يجعل التجاني فتح إفريقية على يد قراقوش سنة 569 ص (60) ولعله يقصد طرابلس وقابس، راجع الرسالتين 30 و31 (م ج)، والهامش 99 بعد، وقارن مع برانشفيك في «تاريخ إفريقية...» ج 36/1 (معرّب) وألفرد بيل في Les Banu Ghanya هامش ص 62.

(99) التجاني 111 وما بعدها، العبر 394/6-395 (نقلا عن التجاني)، ابن الأثير 151/9-152 (ضمن أحداث سنة 576)، المقريزي في السلوك (أحداث 573، 574 و577)، وذكر اللقب صاحب المعجب (252).

(100) الرسالتان 30 و31 تصححان تاريخ الفتح، إذ يجعله صاحب البيان مثلا في رمضان (ص 114).

(101) انظر عنه الرسالتين 30 و31 (م ج) المذكورتين، وابن الأثير في أحداث سنتي 568 و576، البيذق 86، المعجب 252، البيان (113-115)، الاستبصار (150-151) العبر 502/6، الروض المعطار (477-479)، الزركشي 14 (ط تونس)، القرطاس 212 (وهو يذكر مقتل ابن الرند).

(102) الكامل (أحداث 576).

الهلاليون[103]، فالرسالة رقم 30 (م ج) حول فتح قفصة تشير إلى طاعة العرب وتوبتهم قبل حصار الخليفة يوسف للمدينة[104]، وتنص الرسالة رقم 26 (م رم) المؤرخة بشوال 576 (أي بعد فتح قفصة) على اجتماع جميع أشياخ عرب رياح مع الخليفة وقبولهم الحركة إلى المغرب الأقصى، بينما ظلت سليم بمنطقة طرابلس في موقف الحذر.

غير أن قفصة ستثور مرة أخرى مع بلاد الجريد عندما يصلها بنو غانية سنة 581، وسيجدون من يدعمهم من العرب والغز إلى أن يفتحها المنصور بعد انتصاره على هؤلاء في معركة الحمّة قرب قابس[105] وتشديد الخناق على قفصة. وسيستمر دور هذين العنصرين في دعم بني غانية ضد الموحدين لفترة تمتد على مدى نصف قرن تقريبا حيث سيكون هذا الوضع من الأسباب الرئيسية لقيام الدولة الحفصية. غير أن هذا الدور للعنصر الأجنبي لا يغفل دور العنصر المحلي في التحرك السياسي : فثورة ابن المعز (ابن الرند) كان يدعمها أيضا قريبه ببجاية علي بن المنتصر الذي اكتشفت مراسلاته مع العرب لتحريضهم على دعم الثورة، فعاقبه الخليفة يوسف عند وصوله إلى بجاية بمصادرة أملاكه[106]، ومثل هذا الموقف العدائي نحو الموحدين ظهر أيضا عند بعض الأسر الكبرى ذات النفوذ ببجاية كبني حمدون وبني القائد، وهم من أعيان الدولة الحمادية سابقا، فهناك من يذكر أنهم هم الذين استدعوا بني غانية من ميورقة ومهّدوا لهم السبيل لاحتلال بجاية[107].

ويذكر ابن الأثير أن ابن غانية جمع بقايا الحماديين وأضافهم إلى من معه من الملثمين الذين اجتاز بهم[108]، ويقول ابن عذاري (146) : «وكان في البلد من أرباب الأمر ما لو شاء الله لمنعوهم من الاستيلاء...» وعن احتلال بني غانية لمدينة توزر بالجريد سنة 582 يذكر التجاني أنه «لولا المخامرة من أهلها لما دخلوها» (ص 162). كما أن أهل قفصة دخلوا في طاعة بني غانية طوعا حسب صاحبي الاستبصار والمعجب[109].

---

(103) انظر الهامش 89.

(104) يجعلهم صاحبا البيان والعبر عرب رياح، والرياحيون من قبائل هلال (ص 114 و502/6).

(105) الرسالة 30 (م ر م).

(106) البيذق 86، البيان 114، العبر 502/6.

(107) (المعجب 270)، ويضيف الدكتور أبو ضيف أسرة أخرى متواطئة مع بني غانية هي أسرة بني الحكيم (أثر القبائل العربية... ص 76)، انظر أيضا البيان 146 وما بعدها والعبر 505/6 وما بعدها.

(108) الكامل (أحداث سنة 580)، وعن بني حماد انظر الرسالة 7 (م ر م) ودراستها في هسبريس 1941 وانظر أيضا A. Bel : Les banou Ghânya (p. 42).

(109) في الاستبصار : «أدخلوه البلد وملكوه عليهم» (150–151)، وفي المعجب «انتقضت عليهم (الموحدين) مدينة قفصة ونزع أهلها أيديهم من طاعتهم ودعوا للميورقيين» (274)، وقد اقتنع بتواطؤ أهل بجاية مع الميرقيين كل من برانشفيك في «تاريخ افريقية» ج 37/1 و A. Bel ص 73.

هل كان لفقهاء المذهب المالكي دور في الأحداث ؟ يمكن أن نفهم من بعض التراجم الواردة عند الغبريني — وإحداها واردة في المعجب — أن هناك بعض الفقهاء الذين كانوا بتعاطفون مع ابن غانية[110]، وهناك من يرى في صمود حركة بني غانية — والموحدون في أوج قوتهم — أنها كانت تجد الدعم من قبل الرأي العام في المدن المتأثرة بعلماء المذهب المالكي ضد مذهب الموحدين[111]. والملاحظ أن المذهب السني (وهو أيضا مذهب الموحدين في ميدان التشريع) كان في مرحلة انتعاش بحيث زالت الدولة الفاطمية من مصر وما حولها، وتحوّلت الدعوة إلى الخلافة العباسية التي أخذت تمتد غربا إلى إفريقية مع قراقوش وبني غانية، وستدخل إلى الأندلس مؤقتا وشكليا إبّان ضعف الدولة الموحدية.

لكن هل كان الرأي العام في مختلف مدن افريقية وقراها وبالمغرب الأوسط مؤيدا لحركة بني غانية وحلفائهم ؟ إن المصادر الموحدية لا تميّز بين أتباع بني غانية، إذ تسميهم سوقة وفسّاقا أو أوباشا وغوغاء[112]، وقد يكون من الأصح التمييز بين موقف العامة والأعيان، فهؤلاء كان لبعضهم طموح سياسي خصوصا أعيان المدن[113] (كما لاحظنا ذلك بالنسبة لأعيان بجاية وقفصة)، كذلك موقف بعض الفقهاء المالكيين بدافع الغيرة المذهبية فما يبدو ضد مذهب الموحدين[114]، ثم هناك العامة في المدن والتي لا ترى فائدة في استبدال السلطة

---

(110) «عنوان الدراية»... ترجمة أبي علي المسيلي رقم 2 وترجمة عبد الحق الازدي الاشبيلي (رقم 3) (والمعجب ص 271–272)، وترجمة أبي الطاهر الشريف الحسني، ويبدو أن الغبريني كان يكتب بحذر فلا يظهر المعارضين للموحدين بشكل واضح فهو يكتب في ظل الدولة الحفصية الموحدية أصلا. وإذا كانت معارضة هؤلاء مذهبية على الأقل ظاهريا فإن هذا لا ينفي العلاقات التجارية بين بجاية وميورقة (الترجمة 4 عند الغبريني) التي لا يستبعد أن يستفيد منها أيضا بعض الفقهاء.

(111) عبد الله العروي «تاريخ المغرب» (190–191)، برانشفيك يقسم المعارضة ضد الموحدين إلى ثلاثة : فقهاء المراكز الحضرية، النرمانديون، العرب الرحل La Berbérie... 1/4, أو افريقية الحفصية 32/1.

(112) «داخل أوباشا ممن كان ببجاية فيسّروا له...» ص 171 من الرسالة 29 (م ر م)، انظر أيضا البيان 146 و147 و149 ويبدو أن مثل هذه الروايات نقلها ابن عذاري عن مؤرخين موحدين خاصة ابن صاحب الصلاة.

(113) يذكر ماص لاطري أن اتفاقية الموحدين مع جنوة سنة 556 حددت الرسوم على بضاعة تُجّارها بـ 10 % في بجاية وبـ 8 % فقط في المراسي الأخرى (Relations p. 89)، هذا النظام لصالح المراسي الأخرى على حساب بجاية هل استمر بعد عهد عبد المومن وهل له أثر في غضب أرباب التجارة ببجاية فاستدعوا بني غانية ؟ راجع الهامش 110 أيضا.

(114) كان المذهب المالكي لايزال قويا خاصة في ظرفي الدولة الموحدية (الأندلس وافريقية)، ولكن الغيرة المذهبية لا تنفي وجود بعض الطموحين الذين ادعوا الهداية وجمعوا الأتباع حولهم مثل الثائر الأشل بالزاب سنة 589 (البيان 189–191)، وقبله بالمغرب الأقصى الثائر الجزيري وقبلهما وبعدهما آخرون.

الموحدية بسلطة قد تكون أقسى منها وخاصة باعتماد هذه على عناصر أجنبية كالغز وقبائل العرب البدوية التي جرّب السكان عيثها، فابن عذاري يذكر مساهمة العامة ودعمهم للجيش الموحدي ضد بني غانية وأنصارهم في مدن المغرب الأوسط أثناء الحملة الموحدية لاسترداد المنطقة (150–151)، كما أن التجاني ذكر صمود أهل توزر ضد بني غانية[115] رغم وجود بعض المؤيدين لهم، وكان تغريمهم فادحا لكل مدينة فتحوها عنوة[116].

والواقع أنا نجد نوعين من الروايات : نوعا يتّهم سكان المدن (قفصة وبجاية وغيرهما) بالتواطؤ ضد الموحدين سواء لصالح بني الرند أو بني غانية كما ذهب إلى ذلك صاحبا المعجب والاستبصار[117]، ونجد نوعا آخر من المصادر يتضح منها أن بعض هذه المدن كقفصة وتوزر لم تستسلم لبني غانية بسهولة : فابن خلدون يذكر تعاون ابن غانية وقراقوش لفتح مدن الجريد عنوة خلال سنتي 581 و582[118]، ويقول التجاني عن فتح توزر على يد بني غانية أنهم «سالموا من باطنهم على فتحها واستصفوا أموال الآخرين، فمن وجد مَن يفديه نجا، ومن لم يَجد أُلقِي به في بئر سمي بئر الشهداء»[119]، وهؤلاء الذين لم يجدوا من يفديهم يشكلون العامة بطبيعة الحال.

إنه من الصعب القول بأن السلطة الموحدية غيّرت بلاد المغرب الأوسط وافريقية من وضع فاسد إلى وضع حسن وإنما الأمر نسبي : فمن الإجراءات التي تهم أغلبية أفراد المجتمع إلغاء المكوس والقبالات التي كانت قبل عهدهم، زيادة على فرض الأمن النسبي (بعدما طال عيث القبائل العربية بالمنطقة) لتنتعش الحياة الاقتصادية، وهذا ليس من شأنه أن يكسب الموحدين عداوة سكان المنطقة أو على الأقل أغلبيتهم.

3 ــ لقد كان للعنصر الأجنبي عن المنطقة دور مهم في انعدام الاستقرار بها، وهو عنصر الأتراك أو الأكراد (الغزّ) وبنو غانية إضافة إلى القبائل العربية التي دخلت المنطقة قبل مدة قرن : فبالنسبة **للأكراد**[120] أو الترك أو التركمان أو الغز حسب اختلاف التسميات المطلقة

---

(115) انظر الهامش 118 بعد.

(116) تغريم أهل قابس ستين ألف دينار سنة 591 (العبر 399/6–400)، وكان تغريم أهل تونس سنة 600 مائة ألف دينار (الروض المعطار، مادة تونس).

(117) راجع الهامش 109 قبل.

(118) عن قفصة يقول «ظاهره قراقوش وافتتحها عنوة ثم رحل إلى توزر وقراقوش في مظاهرته فافتتحها أيضا» العبر 396/6.

(119) رحلة التجاني 162، وفي الروض المعطار أيضا : «وكان (علي بن غانية) انتقم من أهلها سنة 582 وحصرها مدة وضيق عليها» (144).

(120) وردت هذه الصفة في الرسالة 31 (م ج)، وفي رأي (هوبكنز) أن الأكراد لم يكونوا دخلوا المنطقة بعد، وأن الغزّ هم أتراك وليسوا أكرادا، «النظم الإسلامية في المغرب في القرون الوسطى» تعريب أمين الطيبي، تونس 1980 (ص 149–155).

على هؤلاء المماليك من خدّام الدولة الأيوبية الناشئة بمصر[121]، فقد خرج جماعة منهم من مصر سنة 568 القائد قراقوش كما رأينا، واستولى على عدد من الواحات في طريقه نحو افريقية، واستمال إليه العرب المنتشرين في المنطقة من سليم، وكذلك شيخ الدواودة من عرب رياح مسعود بن زمام البلط الخارج عن سلطة الموحدين، فتمكّن قراقوش من السيطرة على طرابلس ثم قابس، وربما استولى على بلاد الجريد وطمع في افريقية كلها[122]. ويذكر المقريزي أن زعيما آخر من زعماء الغز اسمه «إبراهيم سلاح دار» لحق بقراقوش سنة 573 ففتحا مدينة الروحان (كذا) وأغرماها أربعة عشر ألف دينار ثم غدامس وأغرماها اثني عشر ألف دينار، وملك إبراهيم جبال نفوسة إلى بلاد السودان ! «ووجه رسالة بفتح هوارة وزواوة ولواتة وجبل نفوسة وغدامس...» وأنه خُطب على منابرها للسلطان (صلاح الدين) وضربت السكة باسمه[123] ! وربما ظهر تنافس بين قراقوش وإبراهيم بن قراتكين سلاح دار المذكور حيث استعان هذا بمن معه من المماليك وبعض عرب افريقية الهلاليين وشجعوه على الاستقلال كما فعل قراقوش «وساروا معه إلى قفصة فاستولى على جميع منازلها، وأرسل إلى بني الرند رؤساء قفصة فمكّنوه من البلد لانحرافهم عن بني عبد المومن وحبهم في الخطبة العباسية التي ألفوها، فدخلها إبراهيم وخطب فيها للخليفة العباسي ثم لصلاح الدين»[124]. ثم أصبح علي ابن الرند سيد قفصة بدعم هؤلاء المماليك الغز والعرب الهلاليين وأهل المدينة[125]. أي أن قسما مهما من افريقية أصبح خارجا عن نفوذ الموحدين، مما استلزم تحرك الخليفة يوسف إليها واستعادة النفوذ على مدنها خاصة قفصة سنة 576[126]. ولم يمكث طويلا بافريقية ربما لقلة المؤن[127]، ولكنه استطاع استدراج بعض الغز والعرب لاستعمالهم كجند نظامي ضمن بقية

---

(121) في سنة 567 ألغى صلاح الدين الأيوبي الدعوة للفاطميين وحوّلها للعباسيين، كتاب الروضتين 193/1 و216، و«منتخبات التاريخ» من تأليف تاج الدين شاهنشاه بن أيوب وهو ملحق بكتاب «النوادر السلطانية» لابن شداد المنشور تحت عنوان «سيرة صلاح الدين» ص 266.

(122) الكامل (سنة 568)، التجاني 111، الروضتين 215/1، سيرة صلاح الدين 266، العبر 5/(629-630) و666 و6/(393-395).

(123) السلوك للمقريزي، أحداث سنوات 573 و574 و577. راجع الهامش 98.

(124) رحلة التجاني 111 وما بعدها، ونقل عنه صاحب العبر 6/(394-395).

(125) الكامل (سنة 576) والرسالتان 30 و31 (م ج).

(126) إذا صح التاريخ المذكور في الترجمة الإيطالية للرسالة 32 (م ج) فإن طرابلس قد تكون خضعت مؤقتا للخليفة يوسف، غير أن سيدها الحقيقي كان هو قراقوش منذ سنة 568 فيما يبدو.

(127) الكامل 152/9، وما يؤكد قلة المؤن ما ورد في الرسالة 32 من نقل القمح الصقيلي إلى طرابلس؛ قد يكون نقص المؤن ناتجا عن «انحباس المطر» (كما في الرسالة 30) وقد يكون أيضا ناتجا عن عدم الاستقرار الذي عرفته المنطقة في هذه الفترة، انظر البيان (144) عن حركة يوسف.

الأجناد الموحدين وخصّص لهم راتبا شهريا مع الاقطاعات لزعمائهم[128]. ويذكر المراكشي أن أول دخول للغز إلى بلاد المغرب كان في عهد الخليفة يوسف ثم كثروا في عهد المنصور[129]، لكن هذا لم يشمل إلا جزءا من أولئك المماليك، أما الباقون في افريقية وعلى رأسهم قراقوش بالخصوص فإنهم سيتحالفون مع بني غانية عند دخولهم افريقية سنة 581، فيكون للمماليك من قابس إلى الشرق ولبني غانية ما غربها[130]. وبعد نهاية حملة المنصور إلى إفريقية سنة 583 وخصوصا بعد موت صلاح الدين الأيوبي سنة 589[131] اتّبع يحيى بن غانية خطة جديدة وهي إقصاء حلفائه الغز من المنطقة والاستئثار بها، ودشّن ذلك باحتلال قابس عاصمة قراقوش سنة 591، وربما كانت هذه الظروف هي التي ساعدت المنصور على استمالة عدد أكبر من المماليك لتجنيدهم ضمن قواته.

4 ــ **بنو غانية (الميارقة أو الموارقة)** : هم بقية العنصر المرابطي الذي انتقل من غرناطة إلى جزر شرقي الأندلس وخاصة ميورقة، فلما قضى الموحدون على إمارة ابن مردنيش بالشرق الأندلسي حاول بنو غانية أحيانا إبعاد الموحدين عنهم بتقديم الهدايا لهم، وربما كانت قيمة هذه الهدايا مما نبّه الموحدين إلى أهمية السيطرة على الجزر[132]، إضافة إلى كونها تحت التبعية الاسمية للعباسيين. ونظرا لضعف الاستقرار في إفريقية[133] وضعف معنوية الموحدين بعد الفشل في حصار شنترين، وأمام الانشغال بتنصيب الأمير يعقوب خليفة بعد أبيه، قرّر بنو غانية نقل المواجهة مع الموحدين إلى المغرب الأوسط وافريقية معتمدين على عصبيتهم الصنهاجية بهما[134]، ومستميلين ذوي النفوذ من أهل المدن والعناصر الأجنبية كالمماليك الغز والعرب

---

(128) كان الموحدون يأخذون الجامكية ثلاث مرات في السنة والغز مرة في الشهر مع الاقطاعات لزعمائهم (المعجب 289).

(129) في الصفحة 256 من المعجب يذكر دخول الغز إلى المغرب سنة 574، وفي الصفحات 289 إلى 291 يجعل دخولهم المغرب سنة 582 أو 583، ولعله كان يقصد دخولهم إلى إفريقية سنة 574 ثم بعد ذلك دخولهم في جيش يوسف ثم المنصور، انظر الرسالتين 31 و33 (م ر م) والبيان 164.

(130) إبان حملة المنصور سنة 583 كانت قابس خالصة لقراقوش دون ابن غانية، العبر 397/6.

(131) العبر 517/5 وما بعدها، الروضتين 211/2–212 (عن موت صلاح الدين وما نتج عنه من نزاع على السلطة).

(132) انظر المعجب 269.

(133) يرجع البعض وجود خطة عباسية لاحياء الدولة المرابطية قبل وصول بني غانية إلى افريقية، انظر مصطفى جواد في مقاله «المنصور الموحدي والناصر العباسي، صراح خفي» بدعوة الحق، عدد أبريل 1969، ص 57.

(134) إلى جانب صنهاجة إفريقية والمغرب الأوسط لحق بابن غانية «فلّ قومه من لمتونة ومسوفة من أطراف البقاع»، العبر 395/6.

البدو[135]، وسيتّبعون أسلوب الكر والفر أي التحرك في المنطقة عندما ينشغل الموحدون بمشاكل الأندلس، ثم التوغل في الصحراء عند تحرك الحملات الموحدية الكبرى نحوهم أو عندما يفشلون في مواجهتها، وسيصبح خطرهم أقوى في التسعينيات ثم سيواجههم الحفصيون إلى القضاء النهائي عليهم في أوائل عهد إمارتهم[136]، وهكذا يمكن تقسيم وجود بني غانية بافريقية إلى ثلاث مراحل :

• مرحلة أولى امتدت من انتقالهم من ميورقة إلى بجاية[137] حتى حوالي سنة 586، وقد تميّزت **بالتحالف بين زعماء المماليك وبني غانية** : فقبل حملة المنصور على افريقية كان علي بن غانية في منطقة الجريد متحالفا مع قراقوش صاحب قابس وما شرقها مقيمين معا الدعوة العباسية بمنطقتيهما، فقد أعان ابن غانية قراقوش مثلا على فتح قابس، وأعان قراقوش ابن غانية على فتح الجريد[138]، وتشهد الرسالة رقم 30 (م ر م) على هذا التحالف الغزي الميورقي المدعّم بالعرب، وقد انتصر هذا الحلف على الموحدين في معركة عمرة بأحواز قفصة قبل أن ينتصر المنصور عليهم في معركة الحمة قرب قابس «فكانا (الحليفان) يجتمعان في أكثر حروبهما»[139]. لكن بعد نجاح حملة المنصور وخاصة باسترداده قفصة وقابس وبلاد الجريد «أظهر قراقوش الإنابة وهاجر إلى الموحدين وذلك سنة 586»[140] وكان والي تونس الذي لجأ إليه قراقوش هو السيد أبو زيد عبد الرحمن بن أبي حفص بن عبد المومن، وهكذا أصبحت إمارة قراقوش بما فيها عرب منطقته تحت السيادة الموحدية مؤقتا، كما سقطت منطقة الجريد بيد الموحدين بعد توغّل ابن غانية في الصحراء[141].

---

(135) استمال ابن غانية كافة سليم ومن في مجالاتهم إلى برقة، وكل من كان منحرفا عن الموحدين من هلال مثل جشم ورياح والاثبج ماعدا زغبة فكانت مع الموحدين، العبر 393/6-395، الكامل (أحداث سنة 581).

(136) الرسالة 37 (م ر م)، الرسالتان 59 و61 (م ج)، العبر 6/(519-520) و(596-597).

(137) اختلف في تاريخ استيلائهم على بجاية، فهناك من يجعل ذلك في شعبان 580 (الكامل 166/9، المعجب 266-267، وفيات الأعيان 18/7-19، الفردبل 42 «بنو غانية») ويجعل البعض ذلك في مطلع سنة 581 مثل صاحب البيان (144)، انظر أيضا حول احتلال بجاية الكامل 171/9-172، الزركشي 16 ط. تونس، العبر 505/6 وما بعدها، القرطاس 218-219.

(138) العبر 396/6.

(139) التجاني 103، العبر 395/6.

(140) التجاني 103، تذكر الرسالة رقم 31 (م ر م) رغبة القائدين الغزيين قراقوش وأبي زيان في تقديم الطاعة للموحدين بعد فتحهم الجريد وحصارهم قفصة (وأبو زيان هذا كان استبد بطرابلس عن قراقوش)، فهل هذه الطاعة متزامنة فقط مع استنجاد صلاح الدين الأيوبي بالمنصور أي بتخطيط مع صلاح الدين ؟ يذكر التجاني هجرته إلى الموحدين مخادعا (بعدما ثارت عليه طرابلس) ص 103 و243.

(141) انظر حركة المنصور في البيان (157-170)، وتذكر الرسالة 33 (م ر م) طاعة عوف والشريد =

• غير أن قرقوش تراجع عن هذه الطاعة واستولى على مدينتي قابس وطرابلس من يد الموحدين وهنا تبدأ المرحلة الثانية لوجود بني غانية والقوى الأساسية بالمنطقة، ذلك أن قراقوش أصبح ينافس بني غانية في الجريد في وقت ساءت علاقته بالعرب حلفائه القدماء (حسب التجاني 156)، وربما أيضا أهل المدن مثل طرابلس (التجاني 243) فكانت سياسة الزعيم الغاني الجديد يحيى[142] بن غانية ترمي إلى **الاستئثار بالمنطقة كلها على حساب قراقوش** (والموحدين أيضا) «فوقع بينه وبين الميورقي تغيّر... فهُزم قراقوش عند طرابلس ودخلها الميورقي وعاد لفتح قابس[143]، «وكان قراقوش تخلّى عنها وأرسل الموحدون إليها قوة دخلتها، غير أن ابن غانية استطاع احتلالها بعد حصارها وضربها بالمنجنيق سنة 591[144]. وظلت بيده إلى عهد حركة الناصر إليها سنة 602[143]. وهكذا أمكن لابن غانية إزاحة منافسه الغزي واستعادة الجريد إلى نفوذه، ثم اتسعت إمارته لتمتد من طرابلس وما شرقها إلى مدينة بونة خصوصا بعد استيلائه على المهدية سنة 598 من يد ابن عبد الكريم الركراكي المتمرد بها على والي الموحدين بتونس سنة 595، والذي نافس ابن غانية واتخذ اللقب الملوكي[145]. وحاولت حكومة تونس الموحدية فرض حصار تجاري على المهدية دون نتيجة[146]، بل استطاع ابن غانية أن «يخدع» والي تونس باظهار تحالفه معه أو تبعيته له فدعّمه بحريا لأخذ المهدية، وبعد استيلاء ابن غانية عليها طمع في تونس نفسها فاحتلها في سابع ربيع الثاني سنة 600 بعد حصار دام أكثر من أربعة أشهر[147]. أي أن افريقية حوالي هذه السنة سقطت

= من سليم للمنصور وهو بالمهدية، ولعل أحداث افريقية في هذه الفترة أضعفت التجارة معها (انظر الرسالة 36 م ج إلى بيشة).

(142) تولى أمر بني غانية بعد موت أخيه علي آخر سنة 584 (الاستبصار 131)، انظر رواية أخرى عند ابن خلكان 7/18-19.

(143) التجاني 103.

(144) التجاني أيضا 105 وما بعدها.

(145) هو المتوكل على الله حسب التجاني (ص 352)، وهو يذكر حصاره لمدينة تونس، ويذكر ابن الأثير سبب تمرد ابن عبد الكريم بأنه شخصي راجع لسوء العلاقة مع عامل المهدية (الكامل 245/0-246)، انظر البيان 214، والنويري 444 (ويشير إلى طاعة ابن عبد الكريم وتسليم المدينة لمبعوث من الناصر !)، انظر أيضا الرسالة 53 (م ج) ويتضح منها أنه لازال ثائرا بالمهدية في رجب 598 (تاريخ الرسالة).

(146) الرسالة المذكورة 53.

(147) التجاني (ول المهدية)، العبر 402/6، والملاحظ أن ميورقة سقطت بيد الموحدين في ذي الحجة سنة 599 أي نفس الشهر الذي بدا فيه ابن غانية حصار تونس، واغرم ابن غانية أهل تونس مئة ألف دينار حسب الروض المعطار (مادة تونس) 113-114، وفي القرطاس تاريخ آخر لفتح ميورقة (232).

كلها تقريبا من يد الموحدين نحو التبعية الاسمية للعباسيين[148]، حتى أن هناك من أشار على الخليفة الناصر بمسالمة ابن غانية[149].

• الفترة الثالثة والأخيرة لوضعية افريقية بين بني غانية والموحدين تنطلق من حملة الناصر (ما بين 601 و603) لاسترجاع المنطقة، بحيث تتبّع الموحدون ــ بزعامة الشيخ عبد الواحد الهنتاتي ــ الميارقة في مشارف الصحراء، وفرضوا عليهم هزيمة في جبل نفوسة (بتاجرا في نواحي قابس) وذلك في 12 ربيع الأول سنة 602[150]، بينما كان الناصر يشدّد الخناق برا وبحرا على المهدية واستعمل مختلف الأسلحة كالأبراج والمجانيق «وسهام الحريق»[151]، إلى أن استسلم عامل ابن غانية بها وابن عمه علي بن الغازي في 27 جمادى الأولى سنة 602، ووجّه الناصر إلى أنحاء دولته رسائل الفتح مؤرخة بـ 22 جمادى الآخرة سنة 602 من منزل أبي نصر بعد انتقاله من المهدية[152]. وعندما استقر بتونس «سرّح أخاه أبا إسحاق بن المنصور لتتبّع المفسدين إلى ما وراء طرابلس ومشارف أرض سرت وبرقة وانتهى إلى سويقة بني مذكور»[153].

هذه الحملة إلى افريقية حققت بداية النهاية لإمارة بني غانية، ولكنها كلفت أموالا باهضة[154]، كما ساهمت في ظهور الإمارة الحفصية : ذلك أن الناصر قبيل عودته من تونس في رمضان سنة 603 عقد للشيخ أبي محمد عبد الواحد الهنتاتي الولاية المطلقة على افريقية، بحيث أصبح واليا مفوّضا وبقوات عسكرية مهمة اختارها بنفسه للاستمرار في تكسير تحركات ابن غانية[155]. ومن أهم المعارك التي خاضها معه بعد معركة تاجرا المذكورة معركة شبرو بنواحي تبسة سنة 604 حيث انهزم فيها يحيى ابن غانية مع أتباعه من العرب وبعض البربر،

---

(148) بحيث لم يبق بيد الموحدين غير بجاية وقسنطينة (المعجب 317، البيان 218).

(149) العبر 518/6، الاستقصا 215/2.

(150) الرسالة 37 (م ر م)، التجاني 357-358، العبر 519/6 و581، البيان 219 وما بعدها، الزركشي 17 ط. تونس.

(151) الرسالة 57 (م ر م) وهي لا تظهر ما عاناه الموحدون من الحصار، على عكس ما أشار إليه ولو باختصار صاحب البيان (220-221) و(223-224)، انظر أيضا التجاني (357-358) والمعجب (317-318).

(152) التجاني 360.

(153) العبر 512/6-520، الزركشي 18 ط. تونس.

(154) قدّرها المراكشي بـ 120 حمل من الذهب (المعجب 318).

(155) في «الإحاطة» أن الناصر «بسط يده في الأموال وجعل إليه النظر في جميع الأمور» سنة 603 (312/1) فمن الشروط التي اشترطها لقبول هذه الولاية حرية تصرفه في تعيين أو عزل العمال. انظر الشروط عند التجاني 360، وابن خلدون 583/6، والبيان 272، الزركشي 18، ط. تونس.

وفرّ جريحا إلى الصحراء، ثم معركة أخرى حاسمة في «وادي أبي موسى» عند جبل نفوسة سنة 606[156] بعدما جمع جموعا من العرب من بلاد الزاب إلى طرابلس وخاصة من بني رياح ومن البربر وبقايا العجم (الغز)[157]، فكانت معركة حاسمة ضعف بعدها يحيى ابن غانية عن الطمع في المعمور من أرض افريقية[158]. وستستمر تحركاته اليائسة من أجل نهب الواحات من إفريقية إلى سجلماسة حتى موته سنة 631 أو 632[159]، وهي بالتقريب الفترة التي سيعلن فيها الحفصيون انفصالهم عن حكومة مراكش.

أي أن النتيجة بالنسبة لهذه الولاية البعيدة هي الانفصال مهما كانت الأسرة الحاكمة بها (أي بنو غانية أو بنو حفص). وإذا كان خطر الميارقة قد زال فإن عيث القبائل العربية لن يزول وستظل صاحبة النفوذ في البوادي خصوصا في فترة ضعف وانقسام الحفصيين.

ب ــ تأثير وضعية افريقية على العلاقات مع الأيوبيين :

1 ــ العلاقات مع الأيوبيين :

في سنة 567 وضع صلاح الدين الأيوبي نهاية للدولة الفاطمية بمصر بتحويله الدعوة للعباسيين[160]. وإلى جانب ما كان يقوم به من مواجهة للصليبيين في السواحل المصرية[161]، أخذ يضم إليه الشام الداخلي بعد موت سيده نور الدين محمود زنكي، وذلك

---

(156) الرسالة 59 (م ج) عن شبرو والرسالة 61 (م ج) عن وادي أبي موسى، انظر عن الرسالتين خصوصياتهما (65–67)، وانظر عن المعركتين أيضا البيان 231–232، العبر 403/6، و404 و(605–607)، المركشي 18–19 ط. تونس.

(157) أهم أنصاره من البربر كانوا من مغراوة الزناتية، ومن العرب الدواودة الرياحيين، ودباب وغيرهم من بني سليم (راجع الهامشين 5 و20 على الرسالة 61)، وهذا بالنسبة لمعركتي تبسة ووادي أبي موسى بالخصوص، زيادة على عصبيته الصنهاجية.

انظر أيضا G. Marçais : Les Arabes en berberie du 11e au 14e s. p. 216. Paris 1913

(158) عن نتاظج المعركة انظر الهامش 30 على الرسالة 61 (م ج) أو العبر 47/6 و404 و586 والروض المعطار 604.

وعمل الشيخ بعد المعركة الأخيرة على استمالة شيوخ العرب وإقرارهم بالعاصمة أو قريبا منها (العبر 405/6) ولن يظهر ابن غانية بإفريقية إلا بعد وفاة الشيخ عبد الواحد سنة 618 ذلك أنه زاحم قراقوش في فزان بعد أن كُلف عامل طرابلس بأمر ابن غانية، التجاني 110، البيان 230، أثر القبائل العربية 83، الفردبل : بنو غانية 205.

(159) البيان 234–235، العبر 6/(589–590) و592 و596، وفيات ابن خلكان 18/7–19.

(160) راجع الهامش 121.

(161) الروضتين ج 1 (234–235)، مثلا ما وقع في نهاية 569 وأول 570، السلوك (حوادث سنة 569).

ابتداءا من سنة 570، وقبلها بقليل كان قد وجه بعض الحملات إلى بلاد النوبة[162]، وفتح بلاد اليمن[163]، وفي هذه الفترة توجّه قراقوش مملوك تقي الدين بن أخي صلاح الدين إلى غرب مصر فاستولى على برقة وطرابلس وغيرهما[163]، الشيء الذي سيؤدي إلى توتر العلاقات بين الأيوبيين والدولة الموحدية. فما هو الهدف من وراء هذا التحرك غربا، وبعبارة أخرى هل هذا العمل يعبّر عن رغبة صلاح الدين وبأمر منه، أم أنه اكتفى بأن تكون نتيجة هذا التحرك لصالحه دون أن يأمر بذلك ؟

نفهم من بعض الروايات أن هذا العمل يدخل في إطار محاولة لإيجاد مناطق نفوذ يمكن لصلاح الدين اللجوء إليها والاعتماد عليها بسبب المنافسة بينه وبين نور الدين صاحب دمشق والذي سبق لصلاح الدين أن فتح مصر باسمه، وكان يدعو له في الخطبة بعد الخليفة العباسي، وأدت المنافسة بينهما إلى محاولة عزل صلاح الدين[164]، وفي المناطق التي فتحها قراقوش خطب فيها لصلاح الدين ولتقي الدين بعده (وهو سيد قراقوش)[165]، غير أن هذه المنافسة انتهت بموت نور الدين سنة 569، فبدأ صلاح الدين يضم إليه الشام الخارج عن نفوذ الصليبيين.

لكن هناك روايات تظهر قراقوش منذ بداية تحركه غربا على أنه صاحب مصلحة شخصية يحاول أن ينشيء لنفسه كيانا خاصا وهذا ما يميل إليه أيضا سعد زغلول[166]، ومع ذلك يمكن تقسيم تطور موقف كل من صلاح الدين وقراقوش إلى مرحلتين :

مرحلة أولى يعتبر فيها عمل قراقوش فيما يبدو بأمر صلاح الدين إلى أن تثبت له الأمور، فهذه إحدى رسائل صلاح الدين من إنشاء القاضي الفاضل إلى الخليفة العباسي سنة 570 أوردها صاحب الروضتين ومن بين ما جاء فيها «.. ونحن بحمد الله قد تملّكنا مما يجاورنا (من ملك بني عبد المومن) بلادا تزيد مسافتها على شهر، وسيّرنا إليها عسكرا بعد عسكر،

---

(162) السلوك (حوادث 569)، الروضتين 215/1 و216، الكامل (سنة 570) العبر 5/(634-635).

(163) الكامل (سنة 568)، العبر 630/5 و6/(291-292)، الروضتين 215/1، انظر أيضا الصفحتين 70 و71.

(164) السلوك ج 1 ق 1 ص 55 (أحداث 569).

(165) التجاني يذكر الوحشة بين الطرفين واحتياط صلاح الدين لنفسه وتردده بين اختيار اليمن والمغرب (111)، انظر أيضا السلوك (سنة 569) والعبر 627/5-628.

(166) في الكامل (سنة 568) : «وحدثته نفسه بالاستيلاء على جميع افريقية» وفي الروضتين ورد أنه أخذ الثلث من واحات منطقة برقة مقابل حمايتها من العرب (260/1 ضمن سنة 571)، انظر أيضا السلوك (سنوات 571 و572 و573)، والعبر 629/5-630، وسعد زغلول في مقاله «العلاقة بين صلاح ا لدين والمنصور الموحدي» ابتداء من الصفحة 94 بمجلة كلية الآداب جامعة الاسكندرية سنة 1953.

فرجع بنصر بعد نصر، ومن البلاد المشاهير والأقاليم الجماهير، برقة، قفصة، قسطيلية، توزر، كل هذا تقام فيه الخطبة لمولانا المستضيىء بأمر الله أمير المومنين... وينفذ فيها الأحكام بعلمها وعلامتها...»[167]. غير أن استقرار الحكم لصلاح الدين أخذ يثير منافسة من طرف أخيه تقي الدين (سيد قراقوش) فأخبر تقي الدين بأهمية الاستيلاء على برقة، فأرسل إليها مملوكه قراقوش الذي «وجد من حدّثه عن بلاد الجريد... وضعف أهلها..»[168].

وعرفت الثمانينات دخول عنصر جديد إلى افريقية هم بنو غانية حيث تمكن علي بن إسحاق بن غانية من الحصول من خليفة بغداد على الشرعية التي تجعله يحمل لقب أمير المسلمين، وأمر صلاح الدين بالتعاون معه بواسطة قراقوش وأتباعه، فالتف حول ابن غانية عرب سليم وكثير من بني رياح والترك (الأغزاز) «وكل مفسد في المنطقة» واتسع نفوذه حتى لم يبق خارجا عنه غير المهدية وتونس[169]، وهذا ما سبّب حركة المنصور إلى إفريقية سنة 583. في هذه الفترة تطلع تقي الدين إلى اللحاق بمماليكه بإفريقية للاستقلال بها دون أن ينجح في ذلك[170]. أما التحالف بين قراقوش وابن غانية فقد انتهى بعد حملة المنصور المذكورة، حيث التحق قراقوش مؤقتا بالموحدين[171]، وعندما تراجع عن هذا الموقف لم يستطع الصمود في وجه قوة وأطماع يحيى بن غانية، حيث تمكّن من إقصائه عن المنطقة واكتساب بعض أتباعه لدمجهم ضمن جنده، وكان قسم مهم منهم قد التحق بالخدمة في الجيش الموحدي... فهل في هذا الوقت لم يعد صلاح الدين راضيا عن سياسة قراقوش لكونه شعر بما بينه وبين ابن أخيه ومنافسه من تعامل خاص، أو شعر بأنه يسعى لتكوين منطقة نفوذ خاصة به، أم لأن صلاح الدين أصبح همّه هو تحرير ما بقي من المدن بيد الصليبيين ولا يريد إبقاء التوتر مع الموحدين، أم لاجتماع هذه العوامل وتداخلها مع بعضها ؟ إننا نجد صلاح الدين بعد فتح بيت المقدس سنة 583 يوجه رسالة إلى المنصور الموحدي يطلب دعمه لمواجهة

---

(167) كتاب الروضتين 242/1، وقد أورد صاحب صبح الأعشى (13/81–90) رسالة صلاح الدين كاملة يطلب فيها تقليده (من الخليفة العباسي) على ما بيده وما سيفتحه، وقد أورد ناشر كتاب ابن واصل «مفرج الكروب» نص الرسالة المذكورة ضمن ملاحق الجزء الثالث، وذكر مضمونها أيضا صاحب «السلوك»، (سنة 570)، وفي خطط المقريزي أن صلاح الدين ندب قرقوش لفتح بلاد المغرب ج 233/2، انظر أيضا التجاني (114) عن علامة قرقوش، والعبر (5/629–630) حول إقامته دعوة مواليه. اما مدة خلافة المستضيىء العباسي فهي بين 566 و575.

(168) الروضتين 260/1، راجع أيضا الصفحات (74–76) والهامش 123 عليها بهذا الفصل.

(169) الكامل (سنة 581) انظر النويري 435.

(170) الكامل (أحداث 581 و582)، السلوك (أحداث 580 و582 وفي هذه السنة أرسل تقي الدين مملوكه زين الدين بوري مقدمة ليلحق به إلى المغرب (ص 91–92).

(171) تظهر الرسالة 31 (م ر م) رغبة قراقوش وأبي زيان زعيمي الغز في الطاعة للمنصور (أي سنة 583) راجع الهامش 140.

التحركات المسيحية التي أثارها هذا الفتح، وقد وردت الرسالة في صبح الأعشى، ولما لم يحصل على المرغوب (فيما يبدو) وجّه إليه رسالة أخرى مؤرخة بشهر شعبان سنة 586 يحملها الأمير ابن منقذ[172]، ومن التعليمات التي أوصاه بها ليبلغها إلى المنصور إن سأله بشأن أعمال المملوكين قراقوش ويوزيا[173]، أن يخبره أنهما ليسا من الأولياء «وإنما كسدت سوقهما، وتبعتهما ألفاف أمثالهما... ولا كان هذان ممن إذا غاب أُحضِر، ولا ممن إذا فُقِد افتُقِد... ومعاذَ الله أن نأمر مفسدا بأن يفسد في الأرض»[174]. فإما أن صلاح الدين مُحق في قوله، وإما أنه يمارس سياسة مزدوجة : فحين يخاطب العباسيين يتحدث عن اتساع الرقعة التي تدعو لهم فتشمل افريقية، وحين يخاطب الموحدين يعتذر عن أعمال أتباعه مدّعيا أنهم أصبحوا خارجين عن سلطته، ولكن ما يثير الانتباه هو دخول قراقوش في الطاعة للموحدين سنة 586 وهي نفس السنة التي وصل فيها ابن منقذ سفيرا عن صلاح الدين إلى المنصور، ولا يتضح ما إذا كان الدافع لتحول قراقوش شخصيا أم أنه مرتبط بالهدف من السفارة الأيوبية خصوصا وأنه انحرف بعد ذلك عن الموحدين.

ويبدو أن هناك عاملا آخر من عوامل التوتر في العلاقات الأيوبية الموحدية مصدره هذه المرة الطرف الموحدي، وبالضبط الدعاية الموحدية بمصر، فالموحدون باتخاذهم لقب الخلافة كانوا يعتبرون أنفسهم أحق بتسيير العالم الإسلامي خصوصا وأن الخلافة العباسية كانت في مرحلة انهيار[175]، وربما كان الأيوبيون يحسون بالخطر الموحدي أكثر من غيرهم، وهذا تلميح في رسالة صلاح الدين إلى المستضيىء العباسي : «..إن بني عبد المومن قد اشتهر أن أمرهم قد أمِر، وملكهم قد عمر، وجيوشهم لا تطاق، وأوامرهم لا تشاق...»[176] والأهم من هذا ما ذكره المراكشي عما كان يصرّح به المنصور من نية الرحلة إلى المشرق وتنديده بالمناكر والبدع في البلاد المصرية وأن تطهيرها يكون على يد الموحدين..[177] ويذكر ابن جبير في رحلته أن أهل مصر والحجاز لهم اعتقاد بقرب وصول الموحدين إلى بلادهم، وهو يصف أيضا المناكر والبدع بالشرق ويدّعي أن لا إسلام إلا ببلاد الموحدين...[178].

---

(172) الرسالة الأولى في صبح الأعشى 526/6–530 وهي رقم 38 (م ج)، والرسالة الثانية رقمها 39 (م ج) انظر خصوصياتهما بهذا الفصل ص (61–64).

(173) اسمه في الروضتين «يوزيا» (171/2)، وفي الكامل «يوزابة» (171/9)، وفي الاستبصار «أبوزبا الفارسي» (111)، وفي الرسالة 20 (م ر م) «أبو زيان».

(174) الروضتين 170/2–171.

(175) في كثير من الرسائل الموحدية نجد التمني للاستيلاء على «ما زوي لنبينا... مما بين المشرق والمغرب» انظر مثلا الرسالة 30 (م ج)، والصفحتين (235 ـــ 236) والهامش 194 لاحقا.

(176) صبح الأعشى 86/13 والروضتين 242/1.

(177) المعجب 284.

(178) رحلة ابن جبير 63 و69–70 ط. بيروت، القاهرة (دار الكتاب اللبناني ودار الكتاب المصري).

وهكذا فإن المنصور لم يستجب ــ فيما يبدو ــ لطلب صلاح الدين حول الدعم البحري ضد الصليبيين، وقد يرجع هذا إلى مشاكل إفريقية الموحدية وتورط الأيوبيين فيها، وربما يرجع بالأساس أيضا إلى حاجة الموحدين لقطع الأسطول لمواجهة الضغوط المستمرة من طرف نصارى الجزيرة الإيبيرية والصليبيين المدعّمين لهم، بحيث لا يبدو أن الأسطول الموحدي كان قادرا على العمل في جبهتين في وقت واحد أي الجبهة الايبيرية وسواحل الشام، وعرقلة تحرك الأساطيل الصليبية في وسط البحر المتوسط وخاصة أسطول صقيلية الذي وصف بالقوة والكثرة في أكثر من مناسبة(179)، مما يتطلب دراسة خاصة عن البحرية الموحدية ومقارنتها بالبحرية المسيحية في حوض البحر الأبيض المتوسط، ويمكن إعطاء بعض الملاحظات في هذا الموضوع بصورة بسيطة :

2 ــ بعض الملاحظات حول البحرية المغربية والبحرية المسيحية في غرب البحر المتوسط في القرن السادس (هـ) :

استنادا إلى السجلات البحرية التاريخية في المتاحف بأوربا عن القرن الثاني عشر (6هـ) يظهر تفوّق المغاربة على غيرهم في بناء دور الصناعة وسائر أنواع المراكب المقاتلة(180). هذه القوة البحرية جعلت الموحدين يساهمون في حماية التجارة بالبحر المتوسط من القرصنة بين الأطراف المتعاهدة(181). ويتحدث ابن خلدون عن أهمية البحرية الموحدية في عهد الخليفتين يوسف والمنصور بأنها بلغت درجة لم تصلها من قبل ولا بعد(182). ومع هذه العموميات عن أهمية البحرية الموحدية نحاول وضع بعض المقارنات بين هذه القوة البحرية الموحدية بالخصوص والبحرية المسيحية بحوض البحر المتوسط الغربي :

ففي أواخر القرن الحادي عشر الميلادي (5هـ)، بينما كان **الفاطميون** يملكون أقل من مئة قطعة بحرية (75 شيني و10 مسطحات و10 حمالات) كان أسطول **البندقية** (سنة 1084م) يتكون من سبعين سفينة (منها تسعة أبراج) ــ أو على الأقل ــ هي القطع التي واجهت بها جمهورية البندقية مملكة النورمانديين **بصقيلية** وجنوب إيطاليا وانتصرت بها على أسطولهم

---

(179) هناك مثلا مناسبة الحملة الصقيلية على الاسكندرية في آخر 569، الروضتين 1/234-235 ثم 259، ابن شداد في النوادر ص 38، العبر 5/633، ابن جبير 233 (الطبعة المذكورة).

(180) أحمد الغربي في مقاله «الموحدون سادة البحر» دعوة الحق يناير 1972، انظر عبد العزيز بنعبد الله في مقاله «البحرية المغربية..» مجلة تطوان سنة 1960، وجوليان في «تاريخ افريقيا الشمالية» 2/162 (معرب).

(181) بنعبد الله 63 (المقال السابق)، راجع الرسالة 35 (م ج) وماص لاطري Mas - Latri : Relations et commerce 70, 89

(182) العبر 1/450-454 (أي المقدمة).

المكوّن من مئة وعشرين سفينة، وهذا قبل أن تصبح صقيلية قوة بحرية هامة[183]. وعندما اجتمعت قطع الأسطول من **بيزة وجنوة ومملكة البابا** لتهاجم المهدية بإفريقية سنة 1087م (حوالي 479هـ) بلغ مجموع القطع أربعمئة قطعة، واستطاعت أن تفرض على الأمير الزيري عدم التعرض للسفن الإيطالية بالمياه الافريقية[184]، أي أن هناك ظهوراً لإيطاليا الغربية في الميدان البحري بحيث استطاعت أن تحدّ من الاحتكار التجاري البندقي، وتجعل التيار التجاري يتحرّك بين شرق البحر المتوسط وغربه بواسطة سفن إيطالية غربية على الخصوص، كما قلّصت نشاط القرصنة في المنطقة[185]. وهكذا ومنذ حوالي 1100م أصبح الغرب اللاتيني يملك السيادة على معظم جهات البحر المتوسط فيما بين شواطىء الأندلس والشام، وأصبحت مدن إيطاليا وصقيلية هي الواسطة بين تجارة الشرق والغرب، وانتعشت بذلك أوربا الغربية[186].

وفي أواسط القرن السادس الهجري (12م) ورث **الموحدون** عن المرابطين حوالي مئة قطعة بحرية، أضيف إليها في أواخر عهد عبد المومن زهاء مئتي قطعة حسب صاحب المن بالإمامة[187]، وورث ابنه يوسف هذا الأسطول وزاد في تقويته مما جعل ابن خلدون يعتبر عهد يوسف والمنصور عهد القمة بالنسبة للأسطول المغربي، فهل هذا صحيح بالنسبة لهذا الأسطول بالمقارنة مع نفسه عبر التاريخ أم بالمقارنة آنذاك مع الأساطيل المسيحية بالحوض الغربي للبحر المتوسط ؟ الظاهر أنه يميل إلى تأييد النقطتين معا[188]، لكن إذا كان هذا مقبولا بالنسبة للنقطة الأولى إلى عهد ابن خلدون، فإنه يحمل بعض الشكوك بالنسبة للنقطة الثانية في حالة التعميم :

فمرسى مدينة **بيزة** وحدها أصبح في إمكانها (قبل سقوط المرابطين) تسليح ما بين مئة سفينة ومائة وخمسين سفينة[189]، بينما لم يترك المرابطون للموحدين إلا حوالي مئة سفينة[190]، وفي سنة 516 جمعت مملكة **صقيلية** وحدها ثلاثمئة قطعة بحرية تحمل 1000

---

(183) أرشيبالد لويس : «القوى البحرية والتجارية بالبحر المتوسط» ص 371، ترجمة أحمد عيسى ط. القاهرة 1960.

(184) نفس المرجع والصفحة، وتكرر الهجوم سنة 517 بـ 300 مركب و30000 راكب و1000 فرس، البيان 67/4-68، ط. بيروت، رحلة التجاني ص 14 (الأحاسي).

(185) تاريخ الحضارات العام، م 311/4 (الطبعة العربية).

(186) المرجع السابق، وارشيبالد لويس ص 393.

(187) المن ص 214 (بيروت). يجعل ابن أبي زرع عددها 400 قطعة (القرطاس 201). ويمكن ترجيح رواية صاحب المن المعاصر للفترة. ولعل هذا النقص البحري هو الذي جعل منشىء الرسالة رقم 10 (م ج) يعترف (تلميحا) بتفوق النصارى في البحر، راجع خصوصياتها ص (50-54).

(188) العبر 1/(450-454).

(189) ماص لاطري «العلاقات ص 68..... Relations.

(190) ابن خلدون، المصدر والصفحات.

فارس و1000 فرس لغزو افريقية[191]، كما أن هذه المملكة واجهت الموحدين بمئة وخمسين شيني غير الطرائد في بحر المهدية، بينما لم يكن مع **عبد المومن** آنذاك غير سبعين **قطعة** ما بين شيني وطريدة وشلندي[192] وهذا يشكل ــ على الأقل ــ معظم قطع الأسطول، لأن المفروض أن يكون الأسطول كله أو معظمه مع الخليفة مادام الأمر يتعلق بفتح مدينة حصينة في شبه جزيرة كالمهدية[193]، وربما كان هذا من دوافع عبد المومن لتقوية الأسطول.

نعم تزايدت أهمية الأسطول الموحدي فيما بعد، حتى أن **الناصر** استطاع فتح ميورقة في آخر سنة 599 بواسطة أسطول من ثلاثمئة جفن، منها 70 غراب و30 طريدة و50 مركب كبار، وقوارب متنوعة[194]، لكن قريبا من هذه الفترة كان أسطول صقيلية وحلفائها من المدن الإيطالية في هجوم على الساحل المصري عند الاسكندرية في نهاية سنة 569 ومطلع 570 تبلغ قطعه ستمئة (600) ما بين شيني وطرادة وبسطة وغير ذلك، تحمل خمسين ألف مقاتل، والنصيب الأوفر من قطع هذا الأسطول كان **لصقيلية** التي اجتهد ملكها وليام الثاني في تهييئه طيلة خمس سنوات[195]، فأشرك معه **البنادقة والبياشنة والجنويين** حتى اجتمع له ما لم يجتمع لجده روجار الثاني، وكان يقود الحملة ابن عم الملك[196]. أي أن مجموع قطع أسطول الدويلات الإيطالية كان يعادل أو يفوق الأسطول الموحدي[197]. وربما كان هذا

---

(191) الكامل 312/8.

(192) الكامل 63/9-64، النويري 421-422 و424، العبادي في «البحرية الإسلامية» ص 252 والهامش بها.

(193) انظر الجغرافيين عن وصف المهدية، وعن توضيح أسماء بعض القطع البحرية انظر تأليف الأستاذ محمد المنوني «ورقات عن الحضارة المغربية» ص (78-79)، وأبو ضيف في هوامش الصفحة 422 من «نهاية الارب» (من تحقيقه).

(194) الروض المعطار (مادة ميورقة).

(195) ذكر ابن جبير سنة 580 (وهو مارّ بصقيلية) أن ملكها جمع خلال هذه السنة 300 قطعة ما بين طرائد ومراكب و100 سفينة للطعام، ولعله سيتجه بها إلى القسطنطينية (233-235).

(196) ابن الأثير (سنة 570)، النوادر السلطانية ص 38، الروضتين 1/(234-235) و259، المقريزي في السلوك 1/ ق 1 ص 55-56 (ط 1934).

وتفصيل هذا الأسطول كما يلي : 200 شيني يحمل الواحد منها 150 رجلا.

(حسب هذه المصادر) 36 طريدة تحمل 1500 من الخيل مع الفرسان.

6 سفن حاملة لآلات الحرب.

40 مركبا حاملة للأزواد والرجال.

فيكون المجموع 50000 راجل و1500 فارس.

(197) الاعتبار هنا للكم أي عدد القطع وقدرتها على حمل أكبر عدد من المقاتلين والخيل. وبالنسبة لأهمية أسطول صقيلية يقول صاحب الروضتين : «أمر ذلك الأسطول كان قد اشتهر وروع به ابن عبد =

الوضع مما يجعل النصارى يتجرأون أحيانا على قرصنة المراكب التجارية الموحدية في المياه الإقليمية خارقين بنود المعاهدات كما حدث ذلك في خليج تونس سنة 596[198]، هذا زيادة على توسع نفوذ بعض المدن التجارية في الجزر المتوسطية[199]. ويلاحظ أرشيبالد لويس صحوة الغرب الإسلامي خلال العهدين المرابطي والموحدي وتجديد قوة الأسطول، ولكنه يستدرك أن هذه القوة لم تزحزح المدن الإيطالية والغرب اللاتيني عن السيطرة على البحر المتوسط، وأن الذي أصبح ينافس المدن الإيطالية ليس هم المسلمون بل المراكز الجديدة مثل برشلونة ومونبليي ومرسيليا منذ مطلع القرن الثاني عشر، ولكن ظلت المدن الإيطالية ذات الحظ الأوفر في البحر المتوسط إلى القرن السادس عشر[200].

إذا كان هناك تكافؤ — على الأكثر — في القوة البحرية الموحدية مع البحرية الإيطالية مجموعة (لاكدويلات) فما هو الوضع بالنسبة لمملكة أرغون ؟ هذه المملكة الناشئة من اتحاد أرغون وكطلونيا في النصف الأول من القرن السادس الهجري يبدو أنها لم تكن تملك قوة بحرية هامة رغم نموّها تدريجيا، فقد أخذت تدخل الميدان البحري فقط في النصف الأخير من القرن الحادي عشر الميلادي[201]، أي بعد انتهاء الدولة الأموية بالأندلس وضعف الأسطول الإسلامي بها، بحيث أن هناك بعض الإشارات التي نفهم منها أن الأسطول الأرغوني لم يصل بعد خلال القرن الثاني عشر (6هـ) إلى مستوى مهم :

— فحِلْف الإمارات الاسبانية لم يستطع السيطرة على ألمرية سنة 542 (أكتوبر 1147) إلا بالإمدادات البحرية الإيطالية، أي بحملة صليبية[202]، ثم سقطت في يد الموحدين بعد الحصار سنة 552 (1157) حينما لم تصلها إمدادات بحرية من خارج ايبيريا.

— ان بني غانية بالبليار كانوا يقومون باستمرار بعمليات قرصنة في مياه وسواحل مملكة أرغون

= المومن في البلاد المغربية، وهدد به في الجزائر الرومية صاحب قسطنطينية» (234/1)، فإذا صح هذا فما هو موقف القائلين بأن الأسطول الموحدي كان «أسطورة البحار»؟ (انظر بحث الأستاذ عبد الهادي التازي حول الأسطول المغربي في «البحث العلمي» ع/ 33).

(198) انظر الرسائل 46 و47 و48 و50 و51 و52 (م ج)، يبدو أن الضعف الموحدي كان فصليا وجغرافيا حيث تتجمع معظم قطع الأسطول على السواحل الأندلسية الشرقية ومنطقة البوغاز ولا تتحرك في أعمال الدورية أو عند الحاجة — عادة — إلا في فصل هدوء البحر، بحيث كثيرا ما يجد الإيطاليون شبه فراغ للبحرية الموحدية بإفريقية (انظر مثلا الرسالتين 46 و50 م ج).

(199) الرسالة (الاتفاقية) رقم 35 (م ج) فيها اعتراف بسيادة بيشة (بيزة) على عدد من الجزر أهمها كرسيكة وسردينية.

(200) القوى البحرية، ص 399.

(201) وذلك بإحداث قانون بحري سنة 1074.

(202) عنان «عصر المرابطين والموحدين»، 1/(346-347) و508.

(203) الرسالة 16 (م ر م)، العبر 492/6، عنان 1/346-347.

وما جاورها وتعود بغنائم مهمة(204).

ــ وهذا لم يمنع من دعم الأركونيين لبني غانية عندما أصبح يهددهم أسطول المنصور أو الناصر، ففي سنة 583 راسل بنو غانية ملك برشلونة ليدعمهم ضد أسطول المنصور، فأجابهم إلى ذلك، وتراجع الأسطول الموحدي عن ميورقة(205). وليس من المستبعد أيضا دعم أرغون لهم ضد الناصر في آخر سنة 599 دون نتيجة، بحيث أمكن للموحدين فتح الجزر من يد بني غانية(206). وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على المصالح البحرية لأرغون من وراء دعمها لبني غانية ودفعها للزحف الموحدي، ولكن أرغون لم تستطع رد الأسطول الموحدي آنذاك بينما سيعرف أسطولها تطورا مهما في الفترة اللاحقة.

ولا ننسى أن هناك أسطولا آخر ناشئا في الغرب هو الأسطول البرتغالي. أما قشتالة فلم تدخل بعد في الميدان البحري.

وهكذا يبدو أن الأسطول الموحدي الحربي قد يمثل قوة بحرية كبرى، ولكن بالمقارنة مع كل دولة غربية بالبحر المتوسط على حدة ــ ربما باستثناء صقيلية ــ وذلك بالخصوص في عهد يوسف والمنصور والناصر، أما في عهد عبد المومن فلازال الأسطول محدود القوة فيما يبدو. ومرة أخرى هل يصح الحديث عن تفوق الأسطول الموحدي مقارنا بالأساطيل المسيحية بغرب البحر المتوسط، أم فقط تصح مقارنته بالأساطيل المغربية عبر الفترات التاريخية ؟ وهل كانت عبارة الرسالة العاشرة (م ج) ذات مدلول حقيقي حينما عبرت عن أهمية البحر عند النصارى واتخاذهم له «جملا ذلولا يضربون عبابه عرضا وطولا»، وذلك في أواخر عهد عبد المومن وربما أيضا في مطلع عهد يوسف ؟ يبدو أن الدولة الموحدية ــ على عكس الدويلات الإيطالية البحرية ــ لم تكن تشعر بضرورة تكوين قوة بحرية ضخمة، فهي تعتمد على البر ولا تحتاج إلى الأسطول إلا في حالات محددة.

3 ــ تأثير وضعية افريقية والمغرب الأوسط على العلاقات مع الإيطاليين :

لقد أثرت الوضعية في إفريقية والمغرب الأوسط على علاقات الموحدين مع قوتين أساسيتين في إيطاليا هما مملكة صقيلية النرماندية وجمهورية بيزة (بيشة)(207)، زيادة على استمرار الدور التجاري لجنوة :

---

(204) المعجب 269.

(205) العبر 516/6، العبادي وسالم في «تاريخ البحرية الإسلامية» 252، ميراندا في Historia politica T2/396، ويذكر ألفرد بيل تدعيم صقيلية لابن غانية ضد المنصور (Les Banou Ghanya : 71) قارنه مع البيان 156 و(215–216).

(206) في الرسالة الخليفية رقم 37 (م ج) «أن الفتح فيهم (بني غانية) فتح في النصرانية وظهور على ممالكها الساحلية، ولأخذ ميورقة على صاحب أرغون وبرشلونة أشد من رشق النبل».

(207) لاحظ علاقتها التجارية مع تونس أيام بني خراسان في الرسالة الأولى من مجموعة أماري.

فبالنسبة **لمملكة صقيلية** ظهر التوتر في العلاقات بينها وبين الموحدين منذ زحفهم نحو افريقية، وربما منذ فتحهم لبجاية، فالنرمانديون كانوا يحتلون بعض سواحل افريقية وخاصة المهدية[208]، فحاول ملك صقيلية أن يعرقل زحف الموحدين بعرض مساعدته على عرب افريقية حتى يشكلوا حاجزا بريا قويا في وجه الموحدين[209]. غير أن عبد المومن انتصر عليهم في سطيف، وتمكن فيما بعد من اقتحام افريقية وتحرير المهدية وما حولها من الوجود النورماندي خلال حملته سنتي 554 و555. ويتحدث المقريزي عن لجوء الوصي على عرش صقيلية إلى الموحدين مما يدل على استمرار التوتر بين الدولتين[210]. وعندما تأكدت قوة الموحدين بإفريقية بعد إعادة فتح قفصة سنة 576 عقدت صقلية اتفاقاً بواسطة سفير عنها مع الخليفة يوسف مدّته عشر سنوات[212]، وربما شمل الاتفاق أيضا تنظيم التجارة بين البلدين بالسماح للصقليين ببناء متاجرهم بزويلة والمهدية[212]. وهذه الهدنة كانت تخدم مصلحة الطرفين : فبالنسبة للموحدين يتجنبون كل ما يخلق مشاكل لهم في ولاية بعيدة تضاف إلى مشاكلهم بالأندلس خاصة، زيادة على إنعاش الحركة التجارية التي تفيد سكان إفريقية بالخصوص في مادة قمح صقيلية[213]، ومن دوافع اتجاه صقيلية نحو الهدنة ـــ زيادة على أهمية المواد التجارية الإفريقية ـــ انشغال ملكها بالمشاكل الداخلية ليس فقط بين المسلمين والفرنج ولكن أيضا بين الأهالي الأصليين والنرمانديين الوافدين، كما كان هناك نزاع حاد بين صقيلية والدولة البيزنطية حسبما يذكره ابن جبير الذي كان بصقيلية سنة 580[214]، ولعل هذه الاتفاقية هي التي شجعت سكان الجزيرة من المسلمين على تحويل الدعوة من العباسيين إلى الموحدين، وهذا ما لم يرض حكومة صقيلية[215]. ومن المحتمل أن تكون الحرب الأهلية التي قامت بين

---

(208) انظر المدن التي سقطت بيد النرمانديين في البيان 312/4 وما بعدها (ط. بيروت).

(209) الكامل 41/2 (سنة 548).

(210) السلوك (سنة 569).

(211) الكامل (سنة 576)، البيان 114-115، وقال صاحب المعجب «وأرسل (ملك صقيلية) إليه الإتاوة بعد أن خافه خوفا شديدا فقبل منه ما وجه به إليه وهادنه على أن يحمل إليه في كل سنة مالا اتفقا عليه» (252)، وفسّر عز الدين موسى الاتفاق بأنه تحالف ! (275). انظر الهامش بعده.

(212) ماص لاطري : Relations... 96، ويجعل تاريخ الاتفاق في غشت 1181 (وهو يوافق ربيع الأول أو ربيع الثاني 577هـ، TC)، هذه الهدنة كانت لاتزال قائمة في أواخر سنة 580 (ربيع 1185) كما يذكر ذلك ابن جبير الموجود بصقيلية آنذاك (ص 233 و237).

(213) الإشارة إليه في الرسالة 32 (م ج)، ولعل المشار إليه أيضا في الرسالة 46 (م ج) مجلوب من صقيلية وتعترف الرسالتان 30 و31 (م ج) بقلة المطر في هذه الفترة، وكذلك ابن الأثير يلاحظ قلة المؤن خلال حملة يوسف (الكامل 9/ سنة 576).

(214) ابن جبير 233-235.

(215) ابن جبير 230 و236.

المسلمين والفرنج بالجزيرة وتدخلت فيها السلطة لصالح هؤلاء قد أثّرت على العلاقات بين الدولتين الصقيلية والموحدية.

وبالنسبة **لبيشة (بيزة)** فقد كانت لها علاقات تجارية مع افريقية وخاصة مدينة تونس قبل وصول الموحدين إليها حسبما يتضح من الرسالة الأولى في مجموعة أماري[216]، ومن المواد التي كانوا يحملونها منها **الشّب** (حسب نفس الرسالة)، **والأصواف** وخاصة **الجلود** كما تشير إلى ذلك الرسائل 14 و15 و17 و18 و19 و20 في مجموعة أماري، وكذلك مادة **النحاس** (حسب الرسالتين 15 و18 من نفس المجموعة)[217]. ومن المواد التي كان يحملها البيشانيون إلى مراسي إفريقية[218] مادة **القمح** وخاصة الصقيلي لكثرته بالجزيرة ولحاجة بلاد افريقية له للظروف المناخية السيئة أحيانا ولعدم الاستقرار والأمن في كثير من الأحيان. والرسائل التي تشير لمادة القمح في البضاعة البيشانية هما الرسالتان 32 و46 (م ج)[219]، فبالنسبة للرسالة رقم (32) هي عبارة عن شكاية من حكومة بيشة إلى الخليفة يوسف بشأن مركب بيشاني حامل للقمح من صقيلية متّجه إلى طرابلس تعرض للنهب بأمر من «مقدّم» هذه المدينة وأُسِر ركابه[220]، وتذكر الرسالة بضرورة تطبيق الاتفاق حول السلم والتجارة بين الدولتين مع عدم مطالبة البيشانيين بغير «العشر المعتاد»، ويتضح من هذا أن هناك اتفاقا سابقاً على هذه الحادثة الواقعة في أواخر سنة 576 على الأرجح (مادام النص اللاتيني للرسالة يحمل تاريخ 23 أبريل 1181 أي 6 من ذي الحجة 576)، فإذا صح هذا التاريخ فإن الحادثة تكون قد وقعت بعد فتح الخليفة يوسف لقفصة في رمضان 576 وتطهيره للجهات الأخرى من افريقية قبل عودته إلى المغرب[220]، ولا تحدثنا المصادر عن توجيه حملة إلى طرابلس، ولعل حاكمها كان هو قراقوش أو نائب عنه، فلما نجح الموحدون في فتح قفصة قد يكون اضطر إلى الفرار من طرابلس خوفا من وصول القوات الموحدية إليها، وهذه الحالة لا تجعل مثل هذا الحاكم في منأى عن النهب خاصة بالنسبة لمادة غذائية كالقمح يتزود بها مع جماعته وهو يتوغل في الصحراء، أو قد يكون النهب حدث في المرحلة الانتقالية قبل وصول الوالي الموحدي إلى طرابلس. واشتكى أيضا حكام بيشة إلى الخليفة يوسف من «خرق» آخر للاتفاق بين

---

(216) وهي عن ابن خراسان أمير تونس إلى حكومة بيشة، مؤرخة بآخر جمادى الأولى 552.

(217) هذه الرسائل بعثها بعض كبار تجار تونس إلي أمثالهم في بيشة، بحيث أن الرسائل من رقم 14 إلى 20 لم يتكرر نشرها ضمن (م ج).

(218) ورد في الرسالة 31 (م ج) ذكر جلب النصارى «للعود» حيث صنعت منه بعض «الأبراج» لحصار قفصة سنة 576، ولم تحدد الرسالة من هم النصارى الذين جلبوه إلى إفريقية.

(219) وهما الرسالتان 2 و6 في مجموعة أماري.

(220) تاريخ فتح قفصة مأخوذ من الرسالتين 30 و31 (م ج)، وتاريخ الوصول إلى فاس وهو صفر 577 وارد في البيان (خ ح/ 3/336) (اما ط، تطوان فخاطئة إذ فيها : صفر 576، وكذلك في ط. 1985).

الطرفين في بجاية برسالة مؤرخة بشهر يونيو 1182 (أي صفر 578)، وتحمل التذكير مرة أخرى باحترام المواثيق[221] وعدم مطالبة تجار بيشة بغير «العشر المعتاد» أخْذه منهم وتحمل هذه الرسالة رقم 33 (م ج)[222].

وفي عهد الخليفة المنصور نظمت المبادلات مع بيشة باتفاقية طويلة الأمد تمتد إلى خمس وعشرين سنة بشأن السلام والتجارة بين الطرفين[223]، وكان المنصور إذاك (583-584) بإفريقية يحاول تطهير المنطقة من بني غانية وحلفائهم من العرب والغز. هذه الاتفاقية تعطي للبيشانيين حق المتاجرة في أربع مراسي بالمغرب دون الأندلس وهي سبتة ووهران وبجاية وتونس مقابل أداء العشر على سلعهم، ولا ينزلون بمرسى ألمرية إلا لإصلاح سفنهم أو التزود بالحاجيات لمتابعة سفرهم[224]. وسيتجدد هذا الاتفاق أو يعقد اتفاق جديد في أيام الناصر سنة 607[225].

ويبدو أن النشاط التجاري للبيشانيين لم يكن منتظما إما بسبب الأحوال الداخلية بإفريقية أو بسبب عدم ارتباطهم باحترام الاتفاقات المبرمة، بحيث نجدُ في الثمانينيات رسالة موجهة من السيد أبي زيد بن الخليفة يوسف إلى حكومة بيشة يؤكد على حماية تجارها وتأمينهم ويحرضهم على القدوم إلى افريقية[226]. كما تتكرر المراسلات سنتي 596 و597 من طرف والي تونس السيد أبي زيد بن عبد المومن أو كبار المسؤولين عن مرساها إلى حكومة بيشة لتحريض تجارها أيضا على الوفود إلى افريقية وتأكيد التأمين لهم رغم ما وقع من اعتداء من بعض

---

(221) تسمي الرسالة هذا الاتفاق «بالرسم المكتوب»، فهل الاتفاقات بين الموحدين وبيشة كانت شفوية في البداية ؟ انظر رأي ماص لاطري في Relations... p. 76 (وهو يعتمد في تاريخ الرسالة على الترجمة اللاتينية لها أي 1181 بينما في النص العربي 1182، انظر الهامش 24 على الرسالة 33 (م ج).

(222) يرجح عز الدين موسى أن سبب هذه المضايقة من طرف الموحدين لتجار بيشة راجع إلى عدم إقلاع هؤلاء عن القرصنة وأن هذا الأسلوب جعل المنصور يقسو في شروطه التجارية في اتفاق 582 مع البيشانيين (النشاط التجاري 276).

(223) هي الرسالة رقم 35 (م ج).

(224) تشير الرسالة إلى الجهات التابعة لحكومة بيشة، وتركز على منع القرصنة بين الطرفين اما قيمة الرسوم التجارية فهي استمرار لعهد بني خراسان، قارن الرسالة مع الرسالة الأولى في مجموع أماري.

(225) تشير إلى ذلك الرسالة 62 (م ج)، وغير واضح ما إذا كان لمعاهدة 607 نفس شروط معاهدة 582 أم أنها مغايرة، والمرجّح أنها اتفاقية جديدة : فالحاكم في بيشة لم يكن هو نفسه خلال المدة الفاصلة بين الاتفاقيتين (قارن بين أسماء الحكام المذكورين في عدد من الرسائل بين المدتين)، كما أن العبارة في الرسالة 62 : «ما عقدتموه من التمسك بعهد الأمر الأعظم» قد تفيد أنه اتفاق جديد مع ظروف جديدة تطلبت تغيير الشروط السابقة. ونفس الرأي عند ماص لاطري (Traités. 65).

(226) الرسالة 36 (م ج).

سفنهم على بعض مراكب المسلمين بخليج تونس في شوال سنة 596، مع الإلحاح على ضرورة احترام العهود بين الطرفين[227]، بل هناك مراسلات حرة من تجار تونس إلى أمثالهم في بيشة تتضمن مواضيع تجارية مع تحريض البيشانيين على التردد إلى إفريقية[228].

أما بالنسبة **لجنوة**، فهي من أقدم المدن الإيطالية في التعامل مع الموحدين، إذ نظمت العلاقات بين الطرفين باتفاقية سنة 548 (1153–1154)، وتجددت بعد فتح المهدية (1160–1161/ 556–557)، فأصبح للجنويين حق المتاجرة مع سواحل الدولة الموحدية مع امتياز خاص وهو أداء ضريبة 8 % على سلعهم ماعدا في بجاية فهي 10 %[229]، وانتظمت التجارة مع موانىء مهمة مثل طرابلس وتونس وبجاية وسبتة[230]. وكانت المهدية أيضا تستقبل سفن الجنويين، فقد أشار صاحب الروضتين خلال أحداث سنة 586 إلى وصول مراكب بالبضاعة الجنوية إليها «فباعت بها وتزودت منها وقصدت الشام خيب الله قصدها !»[231].

ويبدو أن الخبرة التجارية الطويلة الأمد علّمت الجنويين كيف يحترمون الاتفاقات مع الغير، ومعاقبة حكامهم لكل من يخرق هذه الاتفاقات، وهذا ما تعترف به رسالتان موحديتان إلى بيشة لحض حكومتها على أن تحذو حذو جنوة في معاقبة من لا يحترمون العهود[232].

إن التجار الإيطاليين (وخاصة البيشانيين) لم يهتموا كثيرا بالإطار السياسي أي أنهم يتعاملون مع المسيطر على المنطقة الساحلية حيث تقع المدن التجارية التي تهمهم، فمعاهدة المنصور مع بيشة سنة 582 تمت قبل أن يركز المنصور نفوذه بالمنطقة، بل وقبل إعادته فتح قفصة

---

(227) الرسائل 46، 47، 48، 50، 52، 53 (م ج).

(228) وهي الرسائل من رقم 14 إلى 20 في مجموعة أماري المذكورة سابقا.

(229) هل هذا الأسلوب ناتج عن كون الجنويين كانوا يركزون على التجارة مع بجاية وأن الدولة الموحدية تسعى لموازنتها مع المراسي الأخرى ؟ يذكر عز الدين موسى أن الجنويين أخذوا يهتمون بمراسي المغرب الأقصى إلى سلا وخاصة سبتة «النشاط الاقتصادي» 291. (الموافقة الهجرية من T.C).

(230) خلال المدة بين الاتفاقيتين تقريبا تأسست بجنوة 30 مؤسسة لتنظيم التجارة مع بجاية و15 مؤسسة مع تونس وسبتة وثلاث مؤسسات مع طرابلس انظر (ماسكاريلو) في «Quelques aspects des activités Italiennes dans le Maghreb médiéval» بمجلة «تاريخ وحضارة المغرب» من منشورات كلية الآداب بالجزائر عدد 5، يوليو 1968، ص 65–66.

انظر أيضا ماص لاطري في : Relations... (88-89) وبنعبد الله في مقاله عن البحرية المغربية بمجلة تطوان ع 3–4 (1958–1959) ص 59 وما بعدها.

(231) الروضتين 177/1، هناك امتعاض من التجارة والأمان للنصارى بإفريقية لا مبرر له، فالموحدون يعطون أهمية للمصلحة التجارية مثلما كان الأيوبيون (الذين يتعصب لهم صاحب الروضتين) يتاجرون مع أعدائهم باعتراف المؤلف (ص 241–242) سنة 570، انظر أيضا ابن جبير عن الشام (201).

(232) الرسالتان 46 و47 (م ج)، وهما عند أماري في ص 133–134.

والجريد من يد بني غانية. وعندما تمرد ابن عبد الكريم الكومي بالمهدية على والي تونس ترددت السفن التجارية البيشانية إلى المهدية حسبما يفهم من التهديد الذي وجهه والي تونس إلى بيشة من مغبة التعامل مع هذا الثائر، وكان هذا التحذير موجّها أيضا بواسطة حكومة بيشة إلى أحد حكام سردينيا التابع لها بشكل ما[234]. وعندما أصبحت إفريقية سنة 600 بيد ابن غانية تبادل المراسلات مع بيشة وواليه على المهدية علي ابن الغازي[235]، وبعودة النفوذ الموحدي إلى إفريقية تستمر العلاقات مع الإيطاليين وتنظم بصفة أكثر في العهد الحفصي، وسنعود إلى ذكر هذه النقطة في الفصل الرابع[236].

---

(233) تعمدت إغفال تجارة البندقية مع إفريقية وبلاد الموحدين نظرا لانعدام أية رسالة ضمن المجموعة الجديدة يمكن أن تكون مبررا لاقحام هذا الموضوع هنا.

(234) الرسالة 53 (م ج).

(235) يتضح هذا من الرسالة الواردة عند أماري تحت رقم 24 مؤرخة بـ 15 رمضان سنة 600.

(236) راجع الصفحة 209 من الفصل الرابع والهامش عليها رقم 352.

الفصل الثالث

ظروف استقرار الوجود الموحدي بالأندلس

ينطلق هذا الفصل أساسا من الرسائل الآتية :

ـ رسالة الشيخ أبي حفص حول فتح مالقة .... رقم 7 (م ج).
ـ رسالة حول انهزام ابن مردنيش وانحصاره بمرسية (حجة 560) رقم 12 (م ج).
ـ رسالة حول إبعاد قوات ابن مردنيش عن أحد الحصون شرقي غرناطة (حجة 562) .... رقم 16 (م ج).
ـ رسالة جوابية حول توجيه العساكر إلى الأندلس (منتصف جمادى 2، 563) .... رقم 19 (م ج).
ـ رسالة حول توجيه السيد أبي اسحاق مع قوات موحدية وعربية (22 جمادى 2، 563) .... رقم 21 (م ج).
ـ رسالتان حول انتصار على قوات كراندة (رمضان 563) ... رقم 22و23 (م ج).
ـ رسالة حول توجيه طليعة عسكرية إلى الأندلس... (ربيع الآخر 564) .... رقم 24 (م ج).
ـ رسالة حول طاعة ابن همشك للموحدين (رمضان 564) ... رقم 26 (م ج).
ـ رسالتان حول معركة «فحص هلال» (شعبان 568) .... رقم 27و28 (م ج).
ـ رسالة حول الهدنة مع بعض الممالك الاسبانية [569] ...... رقم 29 (م ج).
ـ رسالة حول الحركة إلى وادي تاجه الغربي (سنة 580) .... رقم 34 (م ج).
ـ رسالة جوابية من أمير مرسية إلى ملك قشتالة (قعدة 584) رقم 37 (م ج).
ـ رسالة حول الانتصار في معركة الأرك .... رقم 42 (م ج).
ـ رسالة إلى الناصر حول مقتل «الشقي» وهزيمة «أهل اللثام» .. رقم 54 (م ج).

الموضوع الأول :

خصوصيات بعض رسائل الفصل الثالث

1 ـــ رسالة حول فتح مالقة (رقم 7 م ج) :

هذه الرسالة مؤرخة بـ 17 ربيع الأول سنة 548، وردت في مخطوط «فقهاء مالقا وأدبائها» على الصفحتين 173-174، وجهها الشيخ أبو حفص عمر الهنتاتي إلى أهل مالقة بعد ثورتهم على أميرها ابن حسون واستدعائهم للقوات الموحدية القريبة منهم[1]. **والشيخ أبو حفص** هو أحد أعضاء «الجماعة» أصحاب المهدي، وقبيلته من أعظم القبائل الموحدية المصمودية بالأطلس الكبير. وكان أبو حفص اليد اليمنى للخليفة عبد المومن، ونكتفي ببعض الإشارات إليه بواسطة المصادر : فعن دوره أيام المهدي نرى مثلا البيذق في كتاب «أخبار المهدي» ص 31 و37 وغيره من المصادر، وعن دوره في إخضاع القبائل الثائرة بعد فتح مراكش والتي التف بعضها حول الماسي نرى البيان المغرب (الموحدي) ص 27 والبيذق في «أخبار المهدي» ص 67، ونرى أيضا الفصل الأول من هذا البحث. وبالنسبة لدوره في إخماد ثورات الجنوب الغربي للمغرب الأقصى حولي سنة 550 نجده أيضا عند البيذق ص 77 وفي الفصل الأول من البحث. أما أعماله في فتح الجنوب الشرقي للأندلس فنرى عنها «فقهاء مالقا، ص 173-174، والقرطاس 193، والمن 138، وعن علاقته بمسألة وراثة الحكم في سلالة عبد المومن بتعيين هذا لابنه محمد وليا للعهد هناك إشارات عند ابن الأثير (ج 9/ سنة 551)، والبيذق (81-82). وأبرز أعماله العسكرية في سنواته الأخيرة هي تلك التي سبقت حركة الخليفة يوسف الأولى إلى الأندلس وخاصة لإنهاء وجود إمارة ابن مردنيش (المن 379)، ثم تزعُّمه الحملة التي تعقبت فرسان «آبلة» إلى فحص هلال قرب قلعة رباح حيث دارت المعركة التي قتل فيها زعيم هذه المجموعة كما سيأتي في الفقرة الثانية. وانتهت حياة أبي حفص بالطاعون سنة 571 وظل لأبنائه دور ممتاز في الدولة، وسيرثون ولاية إفريقية وينشئون بها الدولة الحفصية التي طال عمرها أكثر من عمر الدولة الموحدية.

والشخص الثاني الذي تضعه الرسالة أمامنا هو **الأمير أبو الحكم الحسين ابن الحسين الكلبي** والمعروف **بابن حسون**، وهو من أسرة قضائية بمالقة منذ ما قبل العهد المرابطي[2]،

---

(1) كاتب الرسالة مجهول وقد يكون هو الشيخ أبو حفص نفسه، فالرسالة قصيرة وتنقصها التكاليف البلاغية على عكس رسالة ابن عطية عنه حول الانتصار على الماسي (رقم 5 م ج)، كما أن صاحب «فقهاء مالقة» ألحق الرسالة بترجمة الشيخ أبي حفص ربما على أساس أنها من إنشائه.

(2) من أقدم الأسماء : حسين بن عيسى بن حسين الكلبي قاضي مالقة ويكنى أبا علي ويعرف بابن حسون، كان فقيه مالقة وكبيرها وأصله من جراوة وتوفي صدر سنة 453 (ابن بشكوال: الصلة 1/ع 323). انظر أسماء أخرى لبني حسون في تكملة ابن الأبار 1/ ص 222 (تح. الهراس) وفقهاء مالقة ص 7، 151-153، 158-159.

وبعد الثورة عليه ومقتله سنة 548 لم تسقط مكانة أسرته في ظل الحكم الموحدي، فمثلا سيأخذ القائد أبو عامر محمد (ابن أخيه علي) الولاية على مالقة في عهد الخليفة الناصر سنين طويلة[3] وهو أسلوب ليس غريبا عند الموحدين في استمالة الأسر المشهورة كما حدث مع ابن الرند من زعماء قفصة، وكما سيحدث مع بني مردنيش[4].

أما عن تاريخ الرسالة فإننا نجد في التقديم الذي وضعه لها صاحب (فقهاء مالقا) أن فتح المدينة كان في عهد الخليفة أبي يعقوب، مع أن الرسالة تحمل تاريخ سنة 548، ولاشك أنه أخطأ (هو أو النساخ) في اسم الخليفة، فهو عبد المومن لأن هناك عدة دلائل تبرهن على أن مالقة كانت مفتوحة في السنوات الأخيرة لحكمه، فالإشارات نجدها في الرسالة رقم 14 (م ر م) المؤرخة بسنة 551، وفي المن ص 147 والمعجب ص 213 والبيان المغرب ص 51، هذا زيادة على التاريخ الذي تحمله الرسالة المدروسة، وكذلك ما ذكره صاحب فقهاء مالقا (ص 166–167) عن قتل ابن حسون سنة 548، وحدد صاحب الذيل ذلك في شهر ربيع الأول (س 238/6)، وهكذا يمكن أن نطمئن إلى صحة التاريخ الوارد في آخر الرسالة.

تظهر **أهمية الرسالة** فيما يلي :

— تبرز دور أحد أشهر شيوخ الموحدين الأوائل خلال سنة 548، في الوقت الذي كان جيش عبد المومن يخوض المعارك مع بني حماد والعرب في المغرب الأوسط، بينما لا تبين أغلبية المصادر التاريخية دور أبي حفص في هذه الفترة[5].

— تصحح الرسالة الخطأ الذي وقع فيه محمد عنان بتقديمه تاريخ الثورة بمالقة إلى سنة 547[6]، وتملأ جزءا من الفراغ الذي تركته جل المصادر التاريخية حول موضوع فتح مالقا، بينما تؤكد المعلومات التي وردت عن هذا الفتح في «أعمال الأعلام» (القسم الأندلسي ص 254–255، بروفنصال)[7].

---

(3) وهو المتوفى سنة 614 بعد أن تولى على مالقة نحوا من عشرين سنة (فقهاء مالقة 31) انظر اسماء اخرى لبني حسون في تكملة ان الابار 1/ ص 222 (ت. الهراس)، وفقهاء مالقة ص 7، (151 — 153)، (158 — 159).

(4) ومن المصادر التي تتحدث عن ابن حسون : اعمال الاعلام (خ ع)، 1552/د، الورقتان 209 و210، الذيل س 238/6 وس 165/8، الروض المعطار 518 (مادة مالقة) خ ع، 1705/د، انظر أيضا التفاصيل في الموضوع الثاني من هذا الفصل.

(5) نستثني من المصادر المطلع عليها بالخصوص كتاب الكامل 9/ ص 30.

(6) وهو يجعل دخول الموحدين إليها بعد سنة من الثورة، عصر المرابطين والموحدين 1/318–320 والإحاطة في هامش ج 444/2.

(7) أو مخطوط خ ع/ 1552، د.

ـــ تؤكد الرسالة أن انضمام مالقا إلى الموحدين تمّ صلحا، بعد الثورة على أميرها وقد كان جيشهم قريبا من المدينة وهذا ما يجعلنا نتساءل : هل كان للموحدين دور ما في ثورة المدينة على ابن حسون ومرتزقته ؟

2 ـــ رسالتان حول معركة «فحص هلال» (رقم 27 و28 م ج) :

تحمل الرسالتان معا تاريخ 24 شعبان سنة 568، الأولى من إنشاء أبي الحكم بن عبد العزيز (ابن المرخي) وردت في زوائد مخطوط العطاء الجزيل على الصفحات (1–3) والثانية من إنشاء أبي الحسن بن زيد (الاشبيلي)[8] وردت في الزوائد المذكورة على الصفحات (19–21)، والرسالتان معا كتبتا عن الخليفة يوسف بإشبيلية إلى مراكش[9]، فلم هذه الازدواجية في كتابة الرسائل، وهل الأمر هو مجرد اختلاف الرواة في نسبة إحدى الرسائل لغير كاتبها ؟ هذا مستبعد بالنسبة لهاتين الرسالتين إذ هما تتفقان في الجوهر وفي ترتيب المعلومات، ولكنهما تختلفان في العبارات، بل إن التقديم الذي يضعه أبو الحكم ابن عبد العزيز في رسالته يتكرر في رسالة أخرى تتعلق بفتح قفصة[10]، فنجد عبارة «أما بعد فإنا نحمد إليكم الله...» ولا يذكر التصلية إلا بعد الحمدلة الثانية : «والحمد لله... والصلاة...» أما في تقديم رسالة أبي الحسن بن زيد فنجد العبارة «أما بعد فإنا نحمد إليكم الله... ونصلي.. والحمد لله.. وصلى الله...». فمن المحتمل أن يكون الهدف من هذه الازدواجية هو الحرص على وصول إحدى الرسالتين إن تعرضت الأخرى لأخطار الطريق (وهذه الحالة ستتكرر في موضوع فتح قفصة سنة 576)، وهناك احتمال آخر أكثر قبولا وهو أن كاتب الخليفة أبا الحسن بن عياش توفي في أول جمادى الآخرة من سنة 568[11] فكان الخليفة في مرحلة البحث عن كاتب آخر، وقبل أن يستقر رأيه على أبي الحسن علي بن زيد النجار الاشبيلي كلفه مع أبي الحكم ابن المرخي بكتابة رسالة النصر كل بأسلوبه.

تتميز رسالة أبي الحكم (27 م ج) ببعض التوضيح فيما يتعلق بالجماعة التي قامت بالغارة، فهم من «آبلة وإلْبه وطلبيره والإفريريين وغيرهم»، وفيما يتعلق بتحركات هذه الجماعة جنوبي الوادي الكبير فهي تحددها شرقي اشبيلية ثم الابتعاد إلى قبلي قرطبة وتذكر كلمة «الكتبانية» (.. كاف تاء باء ألف نون ياء..) حيث يفهم أنها في منطقة استجة ثم انصرافهم إلى قبلي قرطبة في «كنبانيتها» (كاف نون باء ألف نون ياء تاء..)، أما رسالة أبي الحسن بن زيد (28 م ج) فتقتصر على ذكر نهب جهة استجة ثم الانصراف إلى قبلي قرطبة مرورا بالموضع المعروف

(8) انظر ترجمتهما على التوالي رقم 11 و10 في مقدمة البحث.

(9) هناك رسالة ثالثة في نفس الموضوع هي رقم 22 (م ر م) نسب انشاؤها إلى أبي القاسم القالمي.

(10) الرسالة رقم 27 (م ج).

(11) راجع ترجمة ابن عياش (رقم 3) في مقدمة البحث.

بـ«الكنباتية»[12] (... كاف نون باء ألف تاء...). كما أن رسالة أبي الحكم توضح الفرقة الموحدية المتعقبة لهم من حيث عناصرها وهم «الموحدون والعرب»، وقادتها «إخواننا وأشياخ الموحدين والحفاظ»، بينما تقتصر رسالة أبي الحسن على ذكر «العساكر مع الطلبة وأشياخ الموحدين». وتتميز أيضا رسالة أبي الحكم بانفرادها بالإشارة إلى نوايا الخليفة في مسالمة من رغب من النصارى في ذلك للتفرغ إلى غيرهم، ويبدو أنه تكهن في محله نظرا للنزاعات بين الإمارات الاسبانية وهذا ما سيتضح في رسالة تالية.

إن رسالة أبي الحسن (28 م ج) هي نفس الرسالة الواردة في مجموع بروفنصال (رقم 22) والتي رتبها ضمن الرسائل الصادرة عن الخليفة عبد المومن قبل أن يتراجع عن خطإه أثناء دراسته للرسائل ويربطها بأحداث سنة 568، وسبب خطإه في البداية هو البتر الذي أصاب صدر الرسالة الذي يوضح — في الأصل — أنها صادرة عن «أمير المومنين بن أمير المومنين»، كما تنقص في رسالة بروفنصال المؤخّرة التي تتضمن تاريخ إنشائها على عكس رسالة العطاء[13]، ثم إن إنشاء رسالة بروفنصال منسوب إلى الكاتب أبي القاسم القالمي رغم أنها مع رسالة أبي الحسن تتشابهان بنفس الكلمات إلا في بعضها، فالأولى حذفت منها بعض الكلمات والجمل وتحمل بعض الأخطاء التي تبرهن على تكرر نسخها، بينما الثانية أكثر دقة وصحة في شكل الحروف كباقي رسائل مخطوط العطاء، مما يرجّح قدمه وقربه من المخطوط الأصلي إن لم يكن هو الأصل نفسه، ولذا فليس من المستبعد أن تكون نسبة الرسالة إلى القالمي خطأ مثلما وقع الخطأ في نسبتها إلى عهد الخليفة عبد المومن في مجموع بروفنصال.

وتظهر **أهمية الرسالتين** فيما يلي :

- تلمح الرسالتان إلى أهمية مكانة الشيخ أبي حفص في القيادة العسكرية رغم وجود بعض السادة في هذه الحملة.
- أن الأحداث المشار إليها في الرسالتين تتكامل مع ما يذكره صاحب المن بالإمامة على الخصوص وكذلك صاحب البيان، أما ابن خلدون[14] فقد أشار في جملتين لهذا الحدث مع خطإه في جعل الحملة الموحدة تحت رئاسة الخليفة يوسف بنفسه، ومن جهة أخرى فإن إحدى الرسالتين تصحح وتكمل ما ورد من خطأ أو نقص في الرسالة نفسها الواردة ضمن (م ر م) فيتأكد بذلك تاريخها والخليفة الصادرة عنه، أما المصادر النصرانية فلا

(12) يسميها ابن جبير «قنبانية قرطبة» (ص 231)، انظر أيضا :
Maurice Lombard : L'Islam dans sa première grandeur (VIII - XI^{e} s) p. 161, Flammarion 1971
ويبدو أن الاسم الوارد في رسالة أبي الحسن غير صحيح على عكس ما في رسالة أبي الحكم.

(13) راجع الرسالة رقم 28 م ج (وهي مقارنة مع رقم 22 م ر م).

(14) المن ص 518 وما بعدها والبيان (98−99) والعبر 6/500−501).

تتحدث بشيء عن هذه المعركة[15].

ـــ تتحدث الرسالتان عن العمل العسكري الغير النظامي الذي قامت (أو كانت تقوم) به مدينة آبله ومدن أخرى أو حصون في إطار الجمعيات العسكرية الدينية كما يدل على ذلك اسم الفريريين (أو الافريريين) مما يجعل اعتداءها ضد المسلمين مستمرا رغم الاضطرابات الداخلية في الممالك الاسبانية أو في حالات الهدنة مع المسلمين، فهل يمكن القول أن من أهم عوامل إنشاء مثل هذه الجمعيات تغطية المشاكل الداخلية لهذه الممالك، وبعبارة أخرى لا ترتبط هذه الجمعيات بالسياسة الرسمية بقدر ما ترتبط بالكنيسة وحركة الفروسية ؟

3 ــ رسالة الخليفة يوسف بشأن الهدنة مع النصارى (رقم 29 م ج) :

إن هذه الرسالة تطرح مشكلة تأريخها حيث لا يذكر في نهايتها، ولذا نحن في حاجة للبحث عن التاريخ المناسب لها : فكاتب هذه الرسالة هو أبو الحسن علي بن زيد النجار الإشبيلي الذي سبق أن كتب عن الخليفة يوسف الرسالة رقم 28 (م ج) المؤرخة بـ24 شعبان سنة 568، ثم كتب عنه هذه الرسالة (المدروسة) من إشبيلية إلى «طلبة» مراكش[16]، أي أنه أصبح كاتبا للخليفة منذ سنة 568 إلى وفاته سنة 571 أو 572[17]، بمعنى أن تاريخ الرسالة يبقى محصورا بين سنة 568 وسنة 571 التي هي سنة عودة الخليفة يوسف من الأندلس إلى المغرب[18].

ونفهم من الرسالتين السابقتين عن معركة فحص هلال (27 و28 م ج) ومن المن (525–526) ومن البيان (100 وما بعدها) أن الجو كان متوترا بين الموحدين **والقشتاليين** خصوصا سنة 567 حيث فشل الموحدون في حصار وبذة، وكان التوتر أيضا بين الموحدين والبرتغاليين حيث كان هؤلاء يهددون بطليوس ويضربون حصون الغرب، بل احتلوا **مؤقتا** باجة قاعدة الغرب في محرم سنة 568 مما فرض على الخليفة توجيه حملة لدعم بطليوس والإغارة أيضا على جنوب قشتالة. أما **ملك ليون** فكان على سلم مع الموحدين منذ سنة 563[19]

---

(15) وذلك حسب اشباخ في تاريخ المرابطين والموحدين ص 320.

(16) وقع الخطأ في ترتيب أوراق المخطوط أثناء ترميمه، أما تصحيح هذا الترتيب فهو كما يلي : يوجد أول الرسالة على الصفحة 21 من زوائد المخطوط ويقع الباقي على الصفحتين 10 و11 كما هو في قسم الرسائل، انظر الهامش رقم (4) على الرسالة 29 (م ج).

(17) راجع الترجمة رقم 10 في مقدمة البحث.

(18) يوجد في الرسالة أيضا تلميح يجعل تاريخها محصورا في فترة حركة الخليفة الأولى إلى الأندلس (566–571) وذلك بالإشارة إلى «توحيد» الجزيرة على «كلمة السواء» ولاشك أن المقصود هو إنهاء مشكل ابن مردنيش بشرق الأندلس سنة 567.

(19) المن (370–371) والبيان 78.

ثم جدده سنة 566[20]، وتؤكد الرسالة المدروسة استمراره على السلم.

وعندما يتحدث صاحب المن عن بعوث النصارى الراغبين في «السلم» يذكر وفد صاحب طليطلة ثم وفد صاحب قلمرية (البرتغال)، بمعنى أن ملك ليون لازال لم ينقض الهدنة على الأقل إن لم يجددها، ويذكر ابن صاحب الصلاة أيضا أن الوفود وصلت إلى اشبيلية في ذي الحجة سنة 568 وبقيت شهرين إلى أن تمت الهدنة على «شروط معينة» وإلى «وقت محدود» وهذا ما تؤكده الرسالة، ولهذا يمكن اعتبار تاريخها هو سنة 569 خاصة في أولها إذا كانت هذه الهدنة هي التي ذكرها ابن صاحب الصلاة (ص 526) وهذا هو الراجح، ولا يمكن أن يصل تاريخ الرسالة إلى أواخر سنة 569 لأن ملك ليون نقض الصلح في هذه الفترة[21] وهو الذي كانت «بُلَّت به يداه» ومكنه من النجاة من ضربات الموحدين سنة 568 «ورأى أنه استصرف به رداه»[22]، إذن فليس من المستبعد أن يكون توقيع الهدنة في شهر محرم أو صفر 569 وليس شهر ذي الحجة 568 كما ذكر ذلك عنان (ج 90/2).

وهكذا تظهر **أهمية هذه الرسالة** على الخصوص فيما يلي :

- تشير إلى حاجة الطرفين الموحدي والاسباني إلى الهدنة رغم أنها تصرح بأن المبادرة كانت من الطرف الأخير.
- لم تكن شروط الهدنة كلها متساوية بين كل من الموحدين والقشتاليين والموحدين والبرتغاليين... بينما ظلت أركون في حالة العداء مع الموحدين.
- تسدّ هذه الرسالة النقص في معلومات المصادر حول هذه الهدنة بل إنها تصحح الخطأ الذي وقع فيه صاحب المن ومن اعتمد عليه في جعل قشتالة أول من أرسل وفد المفاوضة[23]، مع أن الرسالة تجعل وصول وفد البرتغال قبل الوفد القشتالي.

4 ــ رسالة عن «السيد» محمد إلى أهل مرسية (34 م ج) :

وردت هذه الرسالة في زوائد العطاء الجزيل على الصفحات 31 إلى 33 وهي مؤرخة بـ 21 [ربيع] الآخر سنة 580، هذه الرسالة تطرح مسألة تأريخها وعلاقته بتاريخ وفاة الخليفة يوسف وهو تاريخ مختلف فيه ربما لأنه لم يعلن في وقته. فالملاحظ في الرسالة الدعاء للخليفة الثاني «أمير المومنين بن أمير المومنين»، فيفهم منه أن الخليفة يوسف لازال حيا في هذا التاريخ أي في ربيع الآخر أو جمادى الآخر سنة 580 ــ مادامت كلمة (ربيع) أو (جمادى) غير واضحة في نهاية الرسالة في المخطوط ــ وهذا يظهر عاديا إذا صح التاريخ الذي يضعه المراكشي

---

(20) المن 401.

(21) البيان 104.

(22) انظر نص الرسالة المدروسة، وأيضا البيان 104.

(23) المن 526، عنان 89/2-90.

لوفاة الخليفة يوسف وهو 7 رجب 580[24]. غير أن الرسالة رقم 27 (م ر م) المؤرخة يوم سابع جمادى الأولى سنة 580 تتحدث عن أخذ البيعة ليعقوب باشبيلية[25] فهي تسقط من الاعتبار التاريخ الذي قدّمه صاحب المعجب لوفاة الخليفة يوسف كما تسقط إمكانية تأريخ الرسالة المدروسة بجماى الثانية[26]، وهكذا يكون تاريخ الرسالة الصحيح هو 21 ربيع الآخر 580.

فهل في هذا التاريخ لازال الخليفة يوسف حيا كما يبدو من الرسالة ؟ إن أغلبية المصادر تجعل وفاته في شهر ربيع الأول أو ربيع الثاني[27]، وإذا تتبعنا حركته من إشبيلية إلى شنترين نجدها استغرقت حوالي عشرين يوما : كان الخروج من إشبيلية في 26 صفر وكان وصول مقدمة الجيش إلى شنترين في يوم 16 ربيع الأول[28] واستمر حصارها حوالي عشرين يوما[29]، ويلمح ابن عذاري لطول مدته بقوله «وطال لغير طائل الثواء»[30]. وتلته بعض العمليات شمالي شنترين في أواسط شهر يوليوز أي النصف الأول من شهر ربيع الثاني قبل أن يأمر الخليفة بالرحيل إلى إشبيلية عن طريق يابرة، وتوفي قبل الوصول إليها (يابرة). ويمكن أن نطمئن إلى تاريخ الوفاة وهو يوم السبت 18 ربيع الثاني سنة 580 كما في كتاب القرطاس وأيضا البيان الذي اعتمد صاحبه في الغالب على رواية ابن صاحب الصلاة المرافق للحملة،

---

(24) المعجب (260–261) ويوافقه المقريزي في السلوك ضمن أحداث سنة 580 والنويري ص 434 (ويبدو أنهما نقلا عن المراكشي).

(25) وكذلك البيان 141 والقرطاس 216.

(26) في يوم 7 جمادى الثانية كان وداع أهل الأندلس وولاتها ليعقوب في عودته إلى المغرب وكان عبور المجاز في نفس اليوم، البيان 142.

(27) تعتبر أغلبية المصادر وقوع الوفاة في أحد الشهرين، فمن المصادر التي تذكر ربيع الأول : الكامل (580)، الروض المعطار (مادة شنترين)، وفيات الأعيان 7/130–138، الذيل س 1/ ص 221. ومن المصادر التي تذكر الوفاة في ربيع الثاني : مفاخر البربر خ ع، 2/ ص 26، البيان ص 138، القرطاس 215، أعمال الاعلام الورقة 212ب، رقم 1552د، خ ع، الاستقصا 156/2.

(28) في يوم 16 وصلت طليعة الجيش الموحدي إلى شنترين ثم وصلها جيش الخليفة، البيان 133.

(29) ذكر صاحب الروض المعطار مدة الحصار 20 يوما (شنترين)، ويجعل ابن الأثير الحصار شهرا (ج 9/ سنة 550).

(30) البيان 136.

(31) البيان (136–137) ويلاحظ ابن عذاري حصار حصن طرش وتوجيه سرايا في المنطقة لجمع الأقوات، وتجعل بعض الروايات الاسبانية هذه العمليات في أواسط شهر يوليوز 1184 وهي توافق النصف الأول من شهر ربيع الثاني (T.C) والرواية أوردها دوزي (Dozy) في كتابه ...Recheches 2/476.

(32) القرطاس 215، البيان المغرب 138 و139 وميراندا في الموسوعة الإسلامية (بالفرنسية) مادة (أبو يعقوب يوسف 166/1)، ط 1975، مفاخر البربر 26/2 (خ ع).

وهو التاريخ الذي أخذ به ويسي ميراندا أيضا ويوافق يوم 29 يوليوز 1184، ولم يعلن آنذاك عن وفاته. وكان الوصول إلى اشبيلية بثلاثة أيام قبل نهاية ربيع الثاني أي بعد حوالي عشرة أيام من موت الخليفة. ولما تلاحقت القوات واطمأن الأمير يعقوب بن يوسف على خلافته للمنصب أعلن للعامة عن وفاة والده، وتلقى البيعة العامة يوم 1 و2 جمادى الأولى بعد أن كان تلقى البيعة الخاصة والسرية إثر وفاة والده مباشرة[33].

وإذا كانت الوفاة يوم 18 ربيع الثاني وتاريخ الرسالة هو يوم 21 ربيع الثاني فهل الأمير محمد لم يكن يعلم بوفاة والده ؟ يذكر ابن عذاري أن الوفاة علم بها السادة وشيوخ الموحدين، واتفقوا على الأمير يعقوب كخليفة، ولكن كتموا موت يوسف[34] ربما لقربهم آنذاك من بلاد العدو، ولذا يبدو أن الرسالة تمويهية ــ في تلميحها لبقاء يوسف حيا ــ مادام الإعلان الرسمي عن وفاته لم يتم.

وهناك ملاحظة أخرى وهي اختلاف المصادر حول ولاية العهد ليعقوب في حياة أبيه، فالمراكشي مثلا يثبت ذلك وابن الأثير ينفيه[35]، والرسالة التي تحت الدرس ليس فيها دعاء لولي العهد[36] إلا إذا سبق إحداثها شفويا ولم تكن تمّت بعد على المستوى الرسمي.

وهكذا تظهر **أهمية هذه الرسالة** فيما يلي :

ــ تؤكد التمويه بإخفاء موت الخليفة يوسف قرب يابرة في أرض تحت حكم العدو.

ــ يتبين من الرسالة أن يعقوب لم يكن ــ رسميا على الأقل ــ وليا للعهد مادام اسمه لم يذكر فيها بعد اسم أبيه، وهذا من شأنه أن يقطع الخلاف في الروايات.

ــ تتكامل الرسالة في معلوماتها مع المعلومات التي أوردها ابن عذاري عن الحملة إلى شنترين والتي أخذها على الأرجح من كتاب المن لابن صاحب الصلاة المرافق للحملة[37].

5 ــ رسالة جوابية حول معركة «الأركو» (رقم 42 م ج) :

هذه الرسالة كتبها أبو الحسن القلني[38] عن أهل مراكش وقد أوردها صاحب العطاء الجزيل ضمن الزوائد الملحقة به على الصفحات 12 و13 ثم 30 و31، وهناك نقطتان حول هذه الرسالة هما الطرف المكتوب إليه وتاريخ الرسالة : فهي جوابية من «طلبة» مراكش إلى

---

(33) البيان 141–142.

(34) البيان 141.

(35) المراكشي في المعجب ص 261 و265، ابن الأثير 9/ (سنة 580).

(36) على عكس رسالة القاضي أبي موسى (10 م ج) وعلى عكس رسالة ابن وضاح عن طلبة اشبيلية (44 م ج) ففيهما معا الدعاء لولي العهد.

(37) عن الحركة إلى شنترين انظر الموضوع الثاني بهذا الفصل ص (116–130).

(38) انظر في مقدمة البحث الترجمة رقم 13.

الخليفة الثالث المعبر عنه «بالمنصور الناصر لدين الله أمير المومنين بن ... أمير المومنين بن ... أمير المومنين[39] ونقش خاتمه «أمير المومنين بن أمير المومنين بن أمير المومنين»[40] **فهو إذن** يعقوب المنصور حفيد عبد المومن (580-595). ونجد في الرسالة الدعاء للمهدي ثم «للخليفتين» أي عبد المومن ويوسف ثم «للمنصور» و«نجله.. أبي عبد الله» وهو محمد ولي عهده منذ أواخر سنة 587[41]. وتساعدنا حادثة تولية العهد على وضع تأريخ للرسالة فيما بين سنتي 587 و595، فالمنصور ـــ وهو خليفة ـــ جاز إلى الأندلس مرتين : الأولى من سنة 586 إلى 587[42] وانشغل أثناء وجوده بالأندلس بالحرب مع البرتغال بينما كانت قشتالة في هدنة معه آنذاك[43]، وكان الجواز الثاني بين سنتي 591 و594[44] بعد الاعتداءات المتكررة من القشتاليين على أراضي المسلمين، وعبارة الأذفونش طاغية النصارى في الرسالة تشير إلى ملك قشتالة الفونسو الثامن[45]، وتتحدث بعض الروايات عن نهاية الصلح مع قشتالة سنة 590 فكثرت اعتداءاتها على المسلمين[46]، فالأمر إذن يتعلق بقشتالة لا بغيرها، وبما أن الرسالة تتحدث عن الانتصار الذي تبعه افتكاك أسرى «الأركو» وعن أهمية النصر وذيوعه في الآفاق وما ترتب عنه من تحرير عدد من المعاقل كان العدو قد سيطر عليها... فإن هذه الصفات تنطبق على المعركة المعروفة بالأرك[47] التي أعادت نوعا من التوازن العسكري بشبه الجزيرة الايبيرية ولو مؤقتا.

تظهر **أهمية الرسالة** فيما يلي :

ـــ تأكيد الرسالة على أن الأمير محمد ابن المنصور كان وليا للعهد بصفة رسمية آنذاك كما تذكر المصادر التاريخية.

---

(39) انظر صدر الرسالة المدروسة (42).

(40) البيان 141.

(41) انظر خصوصيات الرسالتين 40 و41 في الصفحات 17-19.

(42) البيان 177-185، والرسالة 34 (م ر م).

(43) الرسالة 34 (م ر م).

(44) البيان 192-204.

(45) اما ملك البرتغال في الرواية العربية والرسائل الرسمية فيسمى عادة ابن الرنك أو ابن الريق، وهو في هذه الفترة سانشو الأول (581/1185هـ - 607-608/1211هـ)، اشباخ 293، عنان ج 2 (609-610)، T.C.

(46) المعجب 282، البيان 191-192.

(47) الأرك أو الأركو نسبة إلى الحصن القريب من ساحة المعركة، ويسميها صاحب الذيل «معركة الأركة» (س 6 ص 24-25)، ويقول الناصري «حصن الأرك ويقال له الأركو بزيادة الواو في آخره» (الاستقصا 189/2)، وسماه كذلك الشيخ محيي الدين بن عربي الحاتمي في كتاب الفتوحات المكية عند قوله «فتح الله قلعة رباح والاركو وكركرا !» (الاستقصا 193/2-194).

ـ تنوع غنائم الموحدين ومنها أعلام ملك قشتالة.

ـ اشتراك الهيئات الدينية والجمعيات العسكرية في المعركة إلى جانب الجيش النظامي القشتالي.

ـ يتضح من الرسالة أن المعركة كانت ـ بصفة رسمية ـ بين الموحدين والقشتاليين دون اشتراك الممالك الاسبانية الأخرى بجيوش نظامية.

6 ـ رسالة جوابية[48] إلى الناصر حول هزيمة «أهل اللثام» (رقم 54 م ج) :

إن هذه الرسالة تطرح مشاكل عدم ترتيب أجزائها وكثرة البتر بها، وبالتالي عدم وضوح مضمونها ثم عدم التصريح بمرسلها وتاريخها :

فصدر الرسالة يوجد على الصفحة 25 من زوائد المخطوط وهي مصابة بالبتر في بعض الكلمات بل وبعض الأسطر في أسفلها، ولما كان الجزء الموجود على هذه الصفحة لا يمثل إلا صدر الرسالة، وأن الصفحة 26 بعدها تبدأ في أولها رسالة جديدة، فمعنى هذا أن هناك خلط في ترتيب أوراق المخطوط أثناء عملية ترميمه، وتبيّن أن الرسالة المبتورة من أولها والموجودة على الصفحة 28 (من الزوائد)[49] هي التي تتممها على الأرجح، غير أن هذا الجزء هو نفسه مصاب بالبتر في أسفل الصفحة، بل إن الصفحة 29 بعدها بيضاء في المخطوط. على كل فإن المقارنة بين جزأي الرسالة تجعلنا نرجح أنهما من رسالة واحدة أجاب بها والي اشبيلية على رسالة وصلته من الخليفة الناصر مبشرة بفتح من الفتوح.

فما هو هذا الفتح ؟ جاء في الرسالة على الصفحة 25 الدعاء للمهدي ووصفه بأنه «الصادق العزم، الموصل للحزم في تطهير البلاد وإراحة العباد من رجس **أهل اللثام**، وتنزيه الشريعة عن تحكم الطغاة اللئام...» والعادة أن مقدمة الرسالة الموحدية تحمل تلميحا لمضمونها. وجاء في الصفحة 28 «وقد ورد على عبد نعمتها (الحضرة)... كتابها المعظم الكريم... في أوفق ساعة من الجمعة وأفضل حين، مضمّنا ما صنع الله لأمرها العزيز في **قتل الشقي** [... وقـ]ـتل أتباعه من الصنع الجميل... فهز الأرض بهذا النبأ السارّ طربا، وأنطق بالإقرار بعزة هذا الأمر عجما من الأمم [وعربا، وأرعب] **النصرانية** رعبا ورهبا...». فإذا افترضنا أن هذا النصر كان على الميورقي بإفريقية فإن هذا لم يقتل وإنما تراجع داخل الصحراء[51]، وإذا افترضنا أنه ابن الفرس الذي ادعى أنه القحطاني فإن ثورته لم تطل ولا علاقة لها بكون القضاء عليها يرعب النصرانية[52]، وأخطر ثورة بدأت في عهد الناصر بالمغرب الأقصى هي ثورة

---

(48) انظر الترجمة رقم 19 في مقدمة البحث.

(49) وهذه لا علاقة بها بالرسالة الموجودة على الصفحة 27 من الزوائد.

(50) ما بين معقفين غير واضح في المخطوط، فقد تقرأ الكلمة الثانية : وأرهب.

(51) راجع خصوصيات الرسالتين 59 و61 م ج على الصفحتين 65–67 والدراسة التاريخية ص 78–80 في الفصل الثاني.

(52) راجع في الفصل الرابع الصفحة 163 وما بعدها.

الجزولي بالجنوب، لكن لم يقض عليها إلا في أوائل عهد المستنصر[52]. يبقى أمامنا ترجيح كون «الشقي» المذكور هو ابن غانية صاحب ميورقة، حيث استطاع الأسطول الموحدي في نهاية ذي الحجة 599 أو مطلع شهر محرم سنة 600 افتتاح الجزيرة بعد حصار لمدة أسبوع[53]، ومما يدعم هذا الترجيح وجود نوع من الارتباط ــ ولو أنه محدود ــ ما بين بعض الإشارات في الرسالة الجوابية والرسالة الإخبارية التي هي رسالة الناصر بفتح ميورقة[53] حيث جاء في هذه «أن الله استأصل شر الأنام، ورعاء الإبل... **أهل اللثام**، طهر منهم المغربين و لم يبق منهم إلا من كان بجزيرة ميورقة... ثم أجلى ذلك الموطن عن **قتل الشقي** وأتباعه...[54] ثم إن الفتح فيهم **فتح في النصرانية** وظهور على ممالكها الساحلية...»[55] وهكذا تجتمع في الرسالتين الإخبارية والجوابية الإشارة إلى أهل اللثام ومقتل الشقي[56] وتأثير ذلك على النصارى.

إذا صح هذا يكون تاريخ الرسالة الجوابية هو أوائل سنة 600، ويكون مرسلها هو الوالي أبو عبد الله بن أبي يحيى أو خلفه السيد أو إسحاق إبراهيم بن الخليفة يوسف الذي عين على ولاية اشبيلية في ربيع الأول سنة 600، واستمر في هذه الولاية إلى سنة 601[57].

تظهر **أهمية الرسالة** في كونها تربط بين الانتصار على «الشقي» وعلاقة هذا الانتصار بموقف النصارى، فإذا كان «الشقي» هو حاكم ميورقة فإن النصارى المعنيين هم الأرغونيون، وستثبت الأحداث ردّ فعلهم على هذا التقدم الموحدي في شرقي الأندلس، مما يؤكد صدق الرسالة في تلميحها لأهمية المنطقة بالنسبة للأرغونيين[58].

---

(53) انظر الرسالة 36 (م ر م) حول الاعلام بفتح ميورقة.

(54) نفس الرسالة (م ر م) ص 243-244.

(55) نفس الرسالة (م ر م) ص 247.

(56) تتفق مصادر أخرى على مقتل صاحب ميورقة عند فتحها، مثلا الروض المعطار (مادة ميورقة).

(57) انظر البيان ص 218-219.

(58) انظر هذا الموضوع في مطلع الفصل الرابع ص 178.

الموضوع الثاني :

دراسة تاريخية
لرسائل الفصل الثالث

أ ـ الوجود الموحدي في الساحل الجنوبي للأندلس (فتح مالقة) :

أخذ النفوذ الموحدي يتسرب إلى بلاد الأندلس من جنوبها الغربي منذ سنة 539[59]، ودخلت مدينة قادس في الدعوة الموحدية أول عام 540 وكانت آنذاك مقر الأسطول المرابطي الذي يتزعمه القائد ابن ميمون، ودخلت اشبيلية في هذه الدعوة قبيل فتح مراكش، وتوقف نفوذ الموحدين عند مدينة قرطبة فيما بين سنتي 542 و544[60]، وذلك لأسباب منها الثورات الحاصلة في المغرب ضدهم[61]، وضغوط قشتالة على سهول الوادي الكبير ومنها محاولتها احتلال قرطبة[62]، وأيضا استيلاء النصارى على مدينة ألمرية، ووجود بقايا من المرابطين في الجنوب الشرقي للأندلس وكذلك بعض الزعامات المحلية التي تلقى دعما مباشرا أو غير مباشر من طرف قشتالة وأرغون مثل ابن مردنيش أمير شرق الأندلس وابن حسون أمير مالقة.

هذا الوجود **لابن حسون** مدعما بمرتزقته مع وجود ألمرية في يد النصارى كان مما دفع الموحدين إلى القيام بتحركات برية وبحرية في منطقة الجنوب الشرقي للأندلس : فقد قاد أبو محمد عبد الله بن سليمان صاحب أسطول سبتة حملة بحرية فشلت في فتح ألمرية، وفي الطريق نحوها حاول هذا الأسطول فتح مدينتي مالقة والمنكب دون جدوى[63]، وهذا ما نستنتجه من الرسالة الجوابية للخليفة عبد المومن إلى «طلبة سبتة»[64]. إن هذه الرسالة ليست مؤرخة

---

(59) يذكر ابن عذاري أن مارتلة كانت أول مدينة تبايع للموحدين في 17 ربيع الأول 539 ثم تبعتها طلياطة ثم بقية الغرب، البيان 105/4 و107.

(60) البيان (قسم الموحدين) ص 33 وما بعدها (ط. 1985).

(61) راجع الدراسة التاريخية للفصل الأول ص 27–41.

(62) البيان (قسم الموحدين) 40–41 (ط. 1985).

(63) تقع المنكب إلى الشرق من مدينة مالقة على بعد ثلاث مراحل (المعجب 371)، ويبدو أن المنكب كانت آنذاك تحت حكم أبي الحسن علي أخي الأمير ابن حسون صاحب مالقة (فقهاء مالقة ص 166–167 في ترجمة أبي الحسن علي المذكور).

(64) الرسالة 5 (م ر م).

ولكن بروفنصال[65] يضع تاريخها بين سنتي 543 و546 استنادا إلى ما يعرفه عن أبي محمد عبد الله بن سليمان، فحسب البيذق[66] عيّنه الخليفة على سبتة بعد دخول القاضي عياض وأهل المدينة في طاعة الموحدين سنة 543، ثم دفع إليه في السنة التالية «جريدة لأهل غمارة» لتأديبهم ضمن ما سماه البيذق «بالاعتراف»، ثم وجه إليه سنة 546 ــ عندما كان الخليفة في حملته ضد بني حماد والعرب ــ الأمر بالقبض على يصلاسن (أو يصلاتن) قريب المهدي ثم جاءه الأمر بقتله...، ولكن أخبار عبد الله بن سليمان لم تنقطع بعد، فمثلا توجد في البيان المغرب[67] ضمن أحداث سنة 550 الإشارة إلى السيد أبي عثمان والي سبتة وعبد الله بن سليمان صاحب أسطولها[68]، بل استمرت أخباره كقائد لأسطول سبتة إلى سنة 552[69]. وهكذا يمكن أن نضع المحاولة المذكورة في رسالة بروفنصال بين تاريخي 543 و548 الأول تاريخ تعيين ابن سليمان على أسطول سبتة والثاني تاريخ فتح مالقة.

يذكر صاحب «فقهاء مالقة وأدباؤها» عند ترجمته للشيخ أبي حفص الهنتاتي أن الخليفة وجهه إلى مالقة «حين كان ابن حسون بها[70] فأقام عليها أياما ثم أقلع عنها بخطاب ابن حسون ملك طليطلة»[71]. ويمكن أن نتساءل : هل هذا الحصار المشار إليه كان محاولة ثانية بعد المحاولة البحرية المذكورة من قبل، أم كان هناك في آن واحد حصار بري بقيادة الشيخ أبي حفص وبحري بقيادة ابن سليمان ؟ إن رسالة الخليفة التي تتحدث عن الهجوم البحري المذكور[72] لا تشير إلى أي عمل بري آنذاك، ويتضح من القرطاس والكامل أن الخليفة عبد المومن بعث سنة 546 الشيخ أبا حفص إلى الأندلس وبعث معه السيد أبا سعيد عثمان بعشرين ألف فارس «برسم غزو الروم واستنقاذ ألمرية منهم»[73] ففشلت المحاولة آنذاك بسبب الغلاء

---

(65) انظر دراسته للرسالة الخامسة المذكورة ضمن تحليله لرسائل مجموعه في مجلة هسبريس 1941.

(66) أخبار المهدي (68-75).

(67) البيان 32/3 (تطوان).

(68) اشتركا معا في الأعمال العسكرية بجنوب شرق الأندلس كفتح غرناطة وحصار المرية سنة 550 ثم فتحها سنة 551، (البيان ص 33).

(69) البيان 316/1 (بيروت).

(70) من المصادر التي ترجمت لابن حسون صاحب مالقة : أعمال الأعلام ص 254-255 (ق 2) المنشور تحت عنوان «تاريخ اسبانيا الإسلامية» بعناية الأستاذ بروفنصال، فقهاء مالقة (166-167)، الذيل س 6/ ص 238، الروض المعطار 518 (مادة مالقة) الذيل س 8/ ص 165 (خ ع).

(71) ترجم المؤلف لأبي حفص لكونه أحد الداخلين إلى مالقة (ص 173-174).

(72) الرسالة رقم 5 (م ر م).

(73) روض القرطاس 193، انظر أيضا الكامل 30/9 (سنة 546) يذكر فشل الموحدين في حصار مرسية لقدوم قوات برشلونة لنجدة ابن مردنيش، وفشل حصارهم لمدينة المرية بعد شهور لاشتداد الغلاء في معسكرهم فعادوا إلى اشبيلية وفي هذه السنة جرت محاولة لفتح غرناطة من طرفهم.

في المعسكر حسب ابن الأثير. وكان من الزعماء المحليين المستقلين ببعض جهات المنطقة ابن ملحان بوادي آش وبسطة حيث كان من الثائرين على المرابطين بوادي آش ثم توسع شرقا واستولى على بسطة، أي أنه كوّن إمارة شرق منطقتي غرناطة ومالقة، غير أن جاره القوي ابن مردنيش زحف على إمارته واستولى عليها سنة 546 فلما «خرج إليه أبو حفص وحّد له»[74]. نستنتج مما سبق أن الشيخ أبا حفص كان موجودا بالأندلس منذ سنة 546 وربما لم يعد منها قبل أواخر عام 548، أي أنه في الفترة التي كان عبد المومن منشغلا ببني حماد والعرب بالمغرب الأوسط[76] كان الشيخ أبو حفص يقوم بمهمة إخضاع الجنوب الشرقي للأندلس، وربما كانت أعماله هناك هي التي أوصلت الدعوة الموحدية إلى أهل بلنسية ولورقة مما اضطر ابن مردنيش إلى عقابهم ثم استنكار الخليفة عبد المومن لهذا العمل في رسالة إلى ابن مردنيش يدعوه إلى الطاعة مرهّبا ورغّبا[77].

ولما كانت **مالقة** مدينة تجارية تقصدها المراكب والتجار «حتى تضاعفت عماراتها وأصبح ما حولها من البلدان كالبادية لها»[78]، ألا تكون سياسة «الحصار» التجاري ضدها خاصة فيما بينها وبين سبتة[79]، ثم تسرّب النفوذ الموحدي شمالها وشرقها ــ وهو مما يعزز هذا الحصار ــ قد أضر بها وقلّل مداخيلها فأحس أهلها بالضيق من جهة، وازدياد إلحاح ابن حسون في جمع المال لإرضاء مرتزقته من النصارى[80] من جهة أخرى فتكون النتيجة هي الثورة عليه ؟ إن **ابن حسون** يمثل إحدى الزعامات الدينية السياسية المحلية التي ظهرت في إطار الحركات الانفصالية في نهاية عهد المرابطين، وأسرته مشهورة في ميدان القضاء طيلة العهد المرابطي على الأقل، وقد تولى هو أيضا قضاء مالقة سنة 538، واسمه أبو الحكم الحسين ابن الحسين ــ أو الحسن ــ الكلبي وعرف بابن حسون، وخلال تولّيه القضاء دعا لنفسه

---

(74) البيذق ص 88، انظر أيضا الكامل نفس الجزء والسنة، واعمال الاعلام خ ع/ 1552، د الورقتان 211ب و212أ، عنان 320/1 (نقلا عن ابن الخطيب)، المقصود في عبارة البيذق هو ابن ملحان.

(75) يتحدث البيذق (77) عن خروج أبي حفص إلى تهدئة قبائل الجنوب الغربي للمغرب الأقصى التي ثارت بعد عام 548، فيكون قد عاد إلى المغرب في أواخر سنة 48 أو أوائل 549.

(76) الرسالة رقم 9 (م رم)، وهنا نطرح السؤال الآتي : هل كان توجيه أبي حفص إلى الأندلس ناتجا عن تخوف عبد المومن من بقائه بعده بالمغرب الأقصى أكثر من حاجته إلى تدخله في جنوب شرق الأندلس ؟ أم لأنه كان يرى ضرورة الاهتمام بالمغرب الأوسط والأندلس في آن واحد ؟

(77) الرسالة رقم 10 (م ر م) بتاريخ جمادى الثانية 548.

(78) معجم البلدان للحموي 43/5.

(79) هذا الإجراء شدد عليه عبد المومن في الرسالة الخامسة (م ر م).

(80) هؤلاء النصارى استعملهم بسبب الضغط عليه من طرف المرابطين الذين كانوا حول إمارته، أعمال الاعلام، المخطوط المذكور الورقة 209.

سنة 539[81] حيث ثار على أبي علي منصور بن محمد بن الحاج داوود اللمتوني[82] «وحصر اللمتونيين بالقصبة إلى أن أنزلهم منها بعد ستة أشهر وتملك القصبة وانتقل إليها وتسمى بالأمير، وأقام سالكا طريقة القضاء مع الإمارة، وقلد أخاه أبا الحسن (علي)[83] جيشه وولاه بلد قرطبة وما إليها... وواصل من حوله من المرابطين الغارة عليه حتى ألجأه ذلك لاستدعاء جيوش الروم ولزمه المال فأضاق الرعية بما كرهوه لأجله، وشرعوا في التدبير عليه فداخلوا رجلا شهما من خدّامه.. يدعى اللوشي وثاروا عليه، وتغلب المذكور على الأبواب وملك القصبة، وسدّ ابن حسون على نفسه القصر... فلما أيقن الهلكة ــ وقد قتل أهل البلد أخاه[84] عند الهيج والثورة... ــ قتل نفسه... وذلك يوم السبت 11 من ربيع الأول عام 548[85] وصلبت جثته وحمل رأسه إلى مراكش واستولى الموحدون على مالقة بعده»[86]. حدث هذا في الوقت الذي كان الشيخ أبو حفص الهنتاتي بمحلته في «فج قامرة»[87]، فخاطبه أهل مالقة يطلبون الأمان والدخول في الطاعة، فوجه إليهم رسالته بالأمان ثم وصل بعدها إلى مالقة وأقام بها أياما ثم انتقل عنها[88].

ومن النتائج المترتبة عن فتح مالقة مع بعض المدن الساحلية شرقها كالمنكب :

ــ أن المرابطين بغرناطة أصبحوا يشعرون بتضييق الموحدين عليهم من الشمال والجنوب مما سيجعلهم يستسلمون طوعا سنة 550 أي أثناء الحصار الموحدي لألمرية[89].

ــ وأن فتح مالقة من شأنه أن يهدد ابن مردنيش الذي كان نفوذه وصل إلى وادي آش، بل أصبحت الدعوة الموحدية تهدد بالظهور في بلنسية ولورقة ضمن مناطق نفوذه كما سبقت الإشارة إلى ذلك.

---

(81) وذلك حسب إحسان عباس في تعليقه على كلمة (مالقة) في الروض المعطار ص 517.

(82) الذيل س 8 ص 165 (خ ع).

(83) الإضافة من (فقهاء مالقة) ص 166-167.

(84) كان أخوه أبو الحسن قدم من المنكب فيما يبدو لدعمه، فقتل في الجامع بمالقة (سنة 548) نفس المصدر والصفحتين في الهامش السابق.

(85) ابن الخطيب : اعمال الاعلام (الأندلس)، وهو ينقل عن ابن خميس في تاريخه كما يعترف بذلك، وهو نفس المصدر الذي ينقل عنه أو يتممه ابن أخته ابن عسكر في «فقهاء مالقة».

(86) أعمال الاعلام (الأندلسي) ص 254-255 من المطبوع أو الورقتان 209 و210 من المخطوط (خ ع) انظر الذيل س 8 ص 165 (خ ع)، والتكملة ع 737 ط. القاهرة، وفقهاء مالقة 166-167 (خ ح).

(87) انظر الهامش 8 على الرسالة السابعة (م ج).

(88) فقهاء مالقة ص 174، ويجعل عنان تقدم الموحدين إليها من انتقيرة وكذلك من الفرنتيرة، وتقع انتقيرة شمال مالقة بحوالي 60 كلم : عصر المرابطين والموحدين 336/1.

(89) البيان 32/3.

ـ كما أن هذا الفتح يؤمّن التحرك البحري الموحدي من أجل حصار ألمرية من البحر[90] زيادة على الحصار البري ومنع الإمدادات إليها ثم فتحها بعد الحصار (550-551) وإخراج النصارى منها، بحيث يبقى المشكل الأساسي في الشرق الأندلسي هو ابن مردنيش الذي يمكن الاستعداد لمواجهته منذ الآن مع من كانوا يدعمونه[91].

ب ـ ضم إمارة شرق الأندلس والاصطدام مع النصارى :

منذ انهى عبد المومن مسألة المهدية سنة 555 أخذ يهيء لحملة هامة إلى الأندلس للقضاء على انفصال ابن مردنيش وضغوطه المستمرة، وعلى ضغوط النصارى على الوسط الأندلسي التي بلغت أوجها خلال الحملة الموحدية إلى إفريقية، حيث تعرضت قرطبة واشبيلية للحصار من طرف جيوش ابن مردنيش وصهره ابن همشك في أواخر سنة 554 ومطلع 555، فأرسل الأمير يوسف من إشبيلية إلى أبيه مستغيثا[92]، فأجابه بالعزم على الجواز إلى الأندلس بعرب إفريقية[93]. وقد كانت فكرة الاعتماد على العرب في معارك الأندلس قبل الحملة إلى إفريقية على الأقل منذ سنة 552 حين انهزم السيد يوسف والي اشبيلية أمام النصارى في نواحيها «فنظر عبد المومن في جلب العرب إلى الأندلس»[94]، أي أنه مرت أكثر من عشر سنوات على دخول النفوذ الموحدي إلى الأندلس دون أن يستقر أو يتسع كثيرا. ولذا فإن الخطة التي فكر فيها عبد المومن هي القيام بحملة ضخمة إليها بعد تهييء الظروف المناسبة، وهي صنفان برية وبحرية : فالبرية هي حشد العرب من إفريقية إلى جانب القوات الموحدية[95]، والبحرية تشمل تقوية الأسطول بإنشاء قطع جديدة ووفيرة في عدد من المراسي، وإنشاء مدينة جبل طارق كقاعدة للإنزال والتموين العسكريين[96]، إلا أن وفاته أجلّت إنجاز مشروعه.

واجه الخليفة الجديد يوسف (558-580) بعض المشاكل التي أخرت جوازه إلى الأندلس وخاصة **المشاكل الداخلية**، فمنها ما كان متعلقا **بمعارضة** بعض الإخوة لتوليه الخلافة[97] ،

---

(90) كانت حكومة مالقة سابقا أيام ابن حسون هي التي أطلعت المرية على تحرك الأسطول الموحدي نحوها (الرسالة 5 م ر م).

(91) انظر الرسالة 16 (م ر م) عن سقوط المرية ومدن أخرى بيد الموحدين بعد فشل ابن مردنيش وحلفائه القشتاليين.

(92) المن 115 وما بعدها، البيان (40-42).

(93) الرسالة رقم 9 (م ج)، انظر في الرسالة 21 (م ر م) والبيان 43 والمن 144 الإشارة إلى ارتحال أعداد كبيرة من العرب مع عبد المومن إلى المغرب الأقصى، وفي المنّ (172-173) الإشارة إلى إدماجهم في عسكره لجهاد النصارى.

(94) البيان 37.

(95) الرسالة رقم 9 (م ج) ورقم 19 (م ر م) والمن 144.

(96) الرسالة 19 (م ر م)، المن (137-144) و(214-215)، البيان 42، القرطاس 201.

(97) البيان (59-60)، القرطاس (208-209).

أو على الأقل تحفظهم منها (ترددهم) حتى أنه ظل يلقب بالأمير لمدة خمس سنوات[98]، ومنها ما كان متعلقا **بالثورات** ضد الحكم كثورة **غمارة وحُلفائها** بزعامة مرزدغ سنة **559**[99]، ثم بزعامة سبع بن منخفاد التي لم يقض عليها إلا بحملات قاد آخرها **وأهمها** الأمير يوسف بنفسه سنة **562**[100]، فالثورة بهذه المنطقة كانت تهدد الربط بين المغرب والأندلس زيادة على إمكانية انتشارها بين الصنهاجيين، **فهناك** إشارات إلى ثورتين أخريين سنة **563** ذكرهما صاحب المن (في الصفحة **360**) هكذا : «القضاء على تشغيب أهل جبل تاسررت»[101]، وفي الصفحة **363** «فتح بوقعة كانت على المرتدين بالمغرب»، ويذكر أن الفتن لم تهدأ بالمغرب إلا في أول سنة **564** (ص **375**)[102]، ثم هناك **الوباء** الذي ضرب مراكش سنة **564** والذي أصاب كثيرا من الناس وبعض السادة أيضا[103].

وبالنسبة **لوضعية الأندلس** في بدء دولة يوسف فإنها تتلخص فيما يلي :

ـ النزاع بين ملك ليون والوصي على عرش قشتالة نونيو دي لارا[104]، وكذلك النزاع بين ليون والبرتغال حول مناطق توسعهما (بصفتهما دولتان حديثتا النشأة»، وذلك في جليقية وفي الجنوب على حساب الأراضي الإسلامية[105] فحصل ملك ليون على تحالف مع الموحدين ضد العدوين المشتركين قشتالة والبرتغال. هذا النزاع لم يستطع الموحدون استغلاله نظرا للمشاكل الداخلية المذكورة ولعناصر التهديد الأخرى[106].

---

(98) الرسائل 12، 14، 15، 16 (م ج) يلقب فيها يوسف بالأمير، أما التي بعدها فيلقب فيها بأمير المومنين.

(99) الرسالتان 14، 15 (م ج)، البيذق 86، القرطاس (209-210).

(100) الرسالتان 14، 15 (م ج)، البيان (69-71)، القرطاس (20-210)، البيذق 86، المعجب 251 (ذكر تاريخا مغايرا لثورة غمارة)، ويحدد الإدريسي غمارة فيما بين حصن تطاون ومدينة بادس (نزهة المشتاق 531-533، ط. القاهرة)، راجع الهامش 15 على الرسالة 14 (م ج).

(101) ذكر صاحب التشوف (ضمن ترجمة أبي العباس السبتي) أنّ أهل داي طرأ عليهم طارىء الجلاء عن بلدهم عام 559 (ص 465-466، ت أحمد التوفيق)، فهل هذا ناتج عن عقوبة من الموحدين لثورة ببلدهم ؟ أما جبل تاسررت المذكور فقد يكون بأرض صنهاجة شمال ممر تازة.

(102) البيذق 85، وفي الرسالة 24 (م ر م) الإشارة إلى حركة ضد المرتدين من صنهاجة، ويعلّل الخليفة في رسالته تأخر الجواز بالفتن.

(103) المن ص 395.

(104) كان هناك منازع آخر لنونيو هو فرناندو «صاحب ترجاله» القشتالي، البيان (78)، المن (368-372)، اشباخ ص 276، عنان 508/1 (عن موت السليطن) و516 وما بعدها عن صراع ليون وقشتالة، راجع أيضا الفقرة (ج) الآتية (ص 119-123).

(105) كانت هناك عمليات غير رسمية لمهاجمة الأراضي الإسلامية منطلقة من جنوب قشتالة أو ليون مثل جماعة الكونت خمينو (أبو بردع) الذي طال عيثه بالأراضي الأندلسية (المنّ 518).

(106) اشباخ 278-280.

ـ فهناك البرتغاليون أو على الأقل جماعة مسلحة كانت تعمل لحساب ملك البرتغال وعلى رأسها القائد جيرالدو الجليقي (جراندة) الذي كان يهدد حصون ومدن الغرب وخاصة ما بين نهري تاجه ويانه، بل وصل إلى مدينة بطليوس سنة 564، فتدخّل ملك ليون آنذاك لمنعها من السقوط بيد أعدائه البرتغاليين وذلك قبل وصول قوات الموحدين إليها[107]. وكانت غارات جيرالدو تصل أحيانا إلى جنوب الأندلس ومنه إقليم غرناطة كما حدث سنة 563[108].

وهناك مشكل أمير شرق الأندلس **ابن مردنيش** الذي كان يمنع تسرّب النفوذ الموحدي إلى الشرق، بل يهدد هذا النفوذ بإقليمي قرطبة وغرناطة. غير أن الحملات الموحدية المتكررة أخذت تضعفه منذ هزيمته في موقعة «الجلاّب» خارج مرسية في آخر سنة 560، وبدأت منطقة نفوذه تتقلّص تدريجيا[109] وخاصة مع تزايد الإمدادات من مراكش كتلك التي وصل بها والي قرطبة الجديد السيد أبو إسحاق أخو الخليفة إلى مقر ولايته في أواسط سنة 563[110]، ثم الإمدادات التي قادها الشيخ أبو حفص الهنتاتي في أواسط 564 لمواجهة ابن مردنيش والضغط البرتغالي على مدن المغرب[111]. هذه الضغوط المستمرة من الموحدين على إمارة ابن مردنيش، وتزايد اعتماده على المرتزقة القشتاليين والأرغونيين، وبالتالي ازدياد ضغطه على الرعية...[112] شجّع أتباعه على التخلي عنه تدريجيا ومنهم صهره وحليفه القديم ابن همشك صاحب منطقة جيان الذي دخل في طاعة الموحدين[113]، غير أن مجاورة منطقته لابن مردنيش جعلتها أكثر عرضة لضرباته، فاستنجد بالموحدين، فكانت حركة السيد أبي حفص أخي الخليفة ووزيره بإمدادات جديدة لمواجهة أحوال الشرق والغرب في انتظار تمكّن الخليفة من العبور بنفسه إلى الأندلس[114].

---

(107) المن (375-376) و380 وما بعدها، البيان (78-81)، اشباخ (279-283).

(108) انظر الرسالتين 22، 23 (م ج).

(109) انظر الرسالتين 12، 16 (م ج) والمن 269 وما بعدها.

(110) انظر الرسالة 21 م ج والمن 354، والعبر 499/6، وكذلك الرسالة 19 م ج.

(111) الرسالة 24، والمن 375، والبيان 79 وما بعدها.

(112) عدد الفرسان النصارى المشاركين في معركة الجلاب مثلا 8000 أغلبهم من ارغون (المن 280 والبيان 64)، وحاول كل من عبد المومن ويوسف استمالة ابن مردنيش دون نتيجة (الرسالتان 10 و25 م ر م)، ويذكر اشباخ أنه أعلن تبعيته إلى ملك قشتالة سنة 1167 (562-563) ص 287.

(113) انظر الرسالة 26 (م ج)، انظر عن ابن مردنيش أيضا المعجب (248-249)، القرطاس 210، 211 و266 وعنان 33/2-57، الإحاطة 310/1، 2/ 123-125)، ثارت على ابن مردنيش لورقة (العبر 6/ 499-500، المن 409-408) كما ثار عليه ابن عمه بالمرية سنة 565 (العبر 500/6) وأخوه ببلنسية وصهره بجزيرة شقر، وقام عليه صاحبا شبرب وشاطبة (البيذق 88-89).

(114) المن 399 وما بعدها، والبيان 85 وما بعدها.

وهكذا بعد أن استقرت الأوضاع بالمغرب وإفريقية[115]، وأتمّ الخليفة استعداداته باستقباله على الخصوص لأعداد هامة من فرسان العرب من إفريقية، يقودهم السيد أبو زكرياء بن عبد المومن[116]، وكانت تجربة استعمالهم في معارك الأندلس قد أعطت نجاحا هاما سواء في مواجهة ابن مردنيش أو في التخفيف من الضغط البرتغالي على بطليوس...[117] بعد هذا تمّت حركة الخليفة إلى الأندلس، وستدوم من سنة 566 إلى 571، والخطة دائما هي «محاربة الأعداء مجسّمين أو روم»[118].

ما هي أهم نتائج الحركة ؟

— النتيجة الحاسمة هي إنهاء مشكل ابن مردنيش وانضمام الشرق إلى الدولة الموحدية سنة 567، فاجتمعت الجزيرة الأندلسية «على كلمة السواء، واستقامت الأمور بها بعد اعوجاجها»[119].

— القيام بحصار مدينة وبدة في منطقة وادي الحجارة ربما من أجل إفساد خطة التحالف القشتالي الأركوني المدعّم سابقا لابن مردنيش، فالمدينة تقع غرب إمارته سابقا وجنوبي غربي أرغون وجنوب شرقي قشتالة، هذا الحصار انتهى بالفشل[120].

— دعم المراكز الموحدية في الثغور الشمالية الغربية للتخفيف من ضغط البرتغاليين عليها.

ما هو الرد النصراني ؟

كانت للقوات الرسمية عدة انشغالات داخلية وخارجية فمملكة البرتغال لها جبهة طويلة مع مملكة ليون وكان النزاع بينهما حول مناطق متعددة فهما دولتان حديثتان لكل منهما طموحات للتوسع على حساب الأخرى وعلى حساب الأراضي الإسلامية جنوبهما كما سبق الذكر، فكانت العلاقات فيما بينهما عدائية عموما. كما أن ملك ليون فرناندو الثاني[121] (الببوج) كان يطمع في وضع يده على قشتالة التي كان ملكها ابن أخيه صغيرا وهو الفونسو

---

(115) المن 375.

(116) انظر الرسالة رقم 25 م ج، والفصل الثاني من هذا البحث ص (55-56) و(68-70) المن 417-419، والبيان 90.

(117) المن (269-270)، والرسالة 12 م ج.

(118) الرسالة 24 م ج، والمقصود بالمجسمين : الخارجون عن السلطة الموحدية، أي ابن مردنيش هنا.

(119) الرسالة رقم 29 م ج، انظر أيضا المن (402-408)، والبيان 85 وما بعدها.

(120) من عوامل هذا الفشل الغلاء في المعسكر الموحدي (المن 501، الكامل 120/9) والاشاعة باستعداد ملك قشتالة وتحركه لانقاذ المدينة (المن 502، ميراندا في الموسوعة الإسلامية (بالفرنسية) م 165/1، ط. 1975).

(121) فترة حكمه (1157-1188/ 552-583).

النبيل[122]، وكان النزاع قد حدث بين أسرتين كبيرتين للوصاية عليه، وهما أسرة (دي كاسترو) وأسرة دي لارا، وأدى فوز هذه الأخيرة بتلك المهمة إلى إفشال مسعى ملك ليون وقيام الحرب بين الدولتين بل الحرب الأهلية داخل قشتالة نفسها ولجأت المعارضة من آل كاسترو وأنصارهم إلى التحالف مع ليون ومع الموحدين خلال الستينيات[123]، هذا زيادة على النزاع بين قشتالة ونبارا حول الأراضي الحدودية بالخصوص. ويبدو أن هذا النوع من «الفراغ» العسكري على المستوى الرسمي لمواجهة الموحدين بحزم هو الذي ساعد على ظهور أو تطور جماعات دينية عسكرية تعمل بعيدا عن التقلبات السياسية[124]، أو الارتباطات بالمعاهدات الرسمية، بعضها تبنّتها الدولة كما حدث في البرتغال ومن ذلك جماعة القائد جيرالدو، ومن هذه الجماعات أيضا في قشتالة فرسان قلعة رباح، وكذلك الجماعة التي تزعمها الكونت خمينو «صاحب آبلة» الذي تكرر خروجه لبلاد المسلمين والإضرار بها، فقد سبقت له «فتكات ببلاد المسلمين... في فتوته وكهولته وشيخوخته...»[125] فبعد فشل الموحدين في حصار وبذة توجهت بعض وحداتهم للغارة على أطراف قشتالة[126] «حتى أقلق ذلك النصارى بآبلة... فاجتمع منها جمع ذميم خرجوا مع زعيمهم... شان مينوس.. إلى جهة اشبيلية وقرطبة»[127]، مستغلين تسريح أغلبية الجيوش الموحدية أثناء عودتها من حصار وبذة، ولم يبق من القوات المجتمعة فيما يبدو غير القوات النظامية التي تمثل حاميات المدن وحرس الخليفة[128]، وكان تسريح الجيوش في هذه الفترة بسبب نقص المؤونة وربما أيضا بسبب اقتناع الخليفة بسوء تنظيم هذه الجيوش وضعف العزيمة القتالية كما يفهم ذلك من عبارة صاحب المنّ «فسدت النيات في الجهاد» (497)، ولتأخذ فترة من الراحة استعدادا لغزوة منظمة كما يفهم ذلك من الرسالة (29 م ج)، وأعقب هذا التسريح إقرار مجموعة عربية وأخرى بربرية

---

(122) مدة حكمه (1166–1212/ 560–610).

(123) المن 368–372، البيان 78، اشباخ 279–282، عنان 593/1 وما بعدها والهامش 37 من هذا الموضوع.

(124) اشباخ 266.

(125) المن 518، البيان 98.

(126) المن 516–517، القرطاس 211–212، هذه الغارات كانت بعد تسريح أغلبية الجيوش في صفر 568 ربما من أجل رفع المعنوية المنهارة نتيجة الفشل في حصار وبذة، وسيأتي النصر على الجماعة النصرانية في فحص هلال ويعطى تضخيما لتعويض الفشل المذكور.

(127) انظر الرسالتين 27، 28 (م ج) والرسالة 22 (م ر م) والمن 518–525، البيان 98–99، القرطاس 211–212، والعبارة مأخوذة من المن 517.

(128) في هذه الفترة احتل جرالدو باجة وسلمها لملك البرتغال في محرم 568 فهدم أسوارها وأسر أهلها وتركها (البيان 102).

في المنطقة الشرقية[129]. وهذا الوضع شجّع «صاحب آبلة» بمجموعته[130] على شنّ غارة سريعة في شعبان 568 على جنوبي الوادي الكبير ما بين استجة وقرطبة واستولى على خمسين ألف رأس من الغنم ومائتين من البقر وأزيد من مائة وخمسين أسيرا[131]، ثم عبر الوادي الكبير عائدا على طريق قلعة رباح، فوجّه الخليفة نحوه يوم الخميس 13 شعبان فرقة خفيفة يرأسها أخوه السيد أبو زكرياء يحيى مع أخيه أبي إبراهيم إسماعيل[132] وبعض كبار أشياخ الموحدين والعرب على أن يتعاون معهم الشيخ أبو حفص الهنتاتي بحامية قرطبة، بل وربما أسندت إليه الرئاسة[133]. فأدرك الموحدون الجماعة النصرانية بناحية قلعة رباح «بفحص هلال» أو فحص كركوي[134] حسب ما ذكره صاحب المن بعد أن تركوا في حصن بطروج ــ على الطريق بين قرطبة وقلعة رباح ــ الثقلة والضعاف[135]، وكان الأدلاء يتحركون قبلهم للتجسس على أخبار العدو. وحاول النصارى الاعتصام بجبل هناك، إلا أن الموحدين اقتحموه عليهم وتقاتلوا معهم (يوم 19 شعبان)، وقطع رأس زعيمهم «أبي بردع» أو «الأحدب»، وهزم النصارى، وكان السيد أبو سعيد صاحب غرناطة قد تحرك ليلحق بالفرقة الموحدية، إلا أن انتصارها تم قبل وصوله[136].

نتائج المعركة :

ــ هزيمة النصارى ومقتل عدد منهم، يبالغ صاحب القرطاس فيجعلهم 36 ألف[137].

ــ إنقاذ أسرى المسلمين وإعادة الأسلاب إلى أصحابها، هذا زيادة على ما غنم من النصارى المنهزمين.

---

(129) البيذق 89.

(130) إلى جانب أهل آبلة كان يوجد في هذه المجموعة أهل إلبة وطلبيرة والافريريون وغيرهم (الرسالتان 27، 28 م ج)، والملاحظ أن آبلة واقعة ضمن مملكة ليون المهادنة للموحدين (المن 308)، وسمي ملكها «صاحب مدينة السبطاط وآبلة وليون وسمورة» (المن 380).

(131) المن 519، البيان 98 (وفيه ألفا رأس من البقر).

(132) هما السيدان الأخوان أبو زكرياء وأبو سعيد حسب البيان (98)، أما الرسالتان 27 و28 (م ج) فلا تحددان اسمي الأخوين.

(133) المن 520 و522 والرسالتان 27، 28 (م ج).

(134) يذكر ابن حوقل أن كركويه تبعد عن قلعة رباح بمرحلة (صورة الأرض).

(135) المن 520، الروض المعطار 93.

(136) المن 522، انظر وصف هذه العملية عند ميراندا (في 269-1/268... Historia Politica وفي الموسوعة الإسلامية (Ensyclopedie 1/165)، ويبدو أنه يأخذ معلوماته عن المن، ويذكر المؤرخ الألماني اشباخ أن الروايات الاسبانية لا تتحدّث عن هذه المعركة (69-70).

(137) وهو يذكر أن هذا هو عدد جيش أبي بردعة فلم يفلت منهم أحد (212)، وقد اعتمد عليه اشباخ، انظر أيضا المن 521-522، ووصف المعركة في الرسالتين 27-28 (م ج).

— وصول خبر المعركة سريعا إلى إشبيلية حيث يوجد الخليفة، وذلك في اليوم الثالث للمعركة أي 21 شعبان، وكان المكلف بالتبليغ هو ابن الوزير ابن جامع.

— نصارى آبلة — حسب المن — لم يجدوا فيما بعد «رأسا يخرجون معه إلى بلاد المسلمين»[138] !

— دعم مدينة بطليوس وإعادة تعمير باجة بعدما خربها البرتغاليون[139]، والقيام بالغارة على ناحية طلبيرة (غنائم أكثر من 30 ألف رأس من الغنم والبقر) ثم غزو نواحي طليطلة حتى اضطر النصارى لطلب الصلح[140]، فهل كان القصد من هذه العمليات أساسا الضغط على النصارى ليعقد معهم الخليفة الصلح من موقع القوة ؟

ج — توقيع هدنة بين الخليفة يوسف وبعض الممالك الاسبانية :

أثناء وجود الخليفة بإشبيلية تم توقيع هدنة بينه وبين بعض الممالك الاسبانية في آخر سنة 568 أو مطلع سنة 569 وذلك قبل عودته إلى المغرب[141]، **لكن ما هي الدوافع لعقد مثل هذه الهدنة ؟**

• **من جانب الموحدين** : يبدو أن الانتصار على جماعة «صاحب آبلة» والقيام بغارات على منطقتي طلبيرة وطليطلة وغيرهما أخذت تعيد تدريجيا إلى الجيش معنويته التي انهارت بالفشل في حصار وبذة، وتجمع له المؤونة الضرورية استعدادا — أو تظاهرا بالاستعداد — لغزوة كبرى ضد أراضي قشتالة أو البرتغال، مما أثار قلقهما[142]، فجاءت اقتراحات الهدنة من ملكيهما، فقبلها الخليفة. بينما كان ملك ليون فرناندو الثاني (فراندة بن السليطن) على صلح مع الموحدين منذ 563، فلماذا قبل الخليفة الهدنة ؟ إن التبرير الذي قدمته رسالة الخليفة هو حاجة الثغور إلى التعمير وعودة النشاط الفلاحي والتجاري إليها حتى تستطيع مستقبلا أن تتحمل عبء القوات العسكرية الضخمة لمهاجمة أرض العدو[143]، واعتبر الخليفة هذا

---

(138) وهناك رواية مخالفة تذكر اشتراك سانشو زعيم آبلة سنة 572 في فتح كوينكة لصالح قشتالة (عنان 96/2) فهل هو سانشو آخر ؟

(139) راجع الهامش 128.

(140) يذكر صاحب القرطاس (212) غزوة الخليفة لكركونة بشرق الأندلس سنة 569، واعتمد عليه اشباخ حيث يذكر أن الروايات النصرانية أغفلت ذكر غزوة كركونة كإغفالها للمعركة مع أبي برذعة (320).

(141) هذه العودة يجعلها صاحب المعجب سنة 569 وهذا غير مرجح خاصة وأن صاحب المن المعاصر للأحداث يجعلها سنة 571 أي قبل ميلاد صاحب المعجب.

(142) كما تلمح إلى ذلك الرسالة 29 (م ج) (ص 10 من الزوائد).

(143) الرسالة نفسها (ص 10-11 من الزوائد)، ويذكر ذلك صاحب المن هكذا «لما كان في نفس الأمير من اسكان البلاد القفرة في هذه الجزيرة وما كان من غدر كراندا...»، ص 526. =

«الصلح» فتحا على غرار صلح الحديبية[144].

ولكن يبدو أن هناك أيضا عاملا آخر أكثر أهمية كان وراء توقيع الخليفة للهدنة وهو الوضع في إفريقية : فالقائد الغزي قرقوش مملوك ابن أخي صلاح الدين الأيوبي استولى سنة 568 بجماعته على مدينة طرابلس الموحدية بتعاون مع عرب رياح الخارجين عن السلطة الموحدية بنوا حي جبل نفوسة بإقليم طرابلس، ثم امتد نفوذه إلى باقي إفريقية ماعدا المهدية وتونس، بل إن العدوى أخذت تتسرب إلى قفصة للثورة على الموحدين[145] وسيتحرك الخليفة إلى إفريقية بعد التخلص من بعض المشاكل الأخرى مثل عواقب الطاعون بمراكش ثم تمرد صنهاجة القبلة سنة 572[146]. ومع ذلك يبدو أن اتجاه العمران والسلم كان يغلب على سياسة الخليفة يوسف، ففترة وجوده بإشبيلية كانت فترة تعمير، بينما لم يكن موفقا كثيرا في العمليات العسكرية ـــ باستثناء مشكل ابن مردنيش ـــ، ولعل فشله في وبذة سببه قلة معرفته بالأمور الحربية وعجزه عن ضبط قيادة العناصر التي يتكون منها جيشه، فهو لم يستفد من وضعية الممالك الإسبانية المتنازعة فيما بينها على الأقل لاستعادة بعض الحصون والمدن المهمة في غربي الأندلس كقصر أبي دانس، وسيصحبه الفشل مرة أخرى في حصاره لشنترين كما نرى.

• **ومن جانب الممالك الاسبانية** : هناك ثلاثة ملوك تذكرهم رسالة الخليفة حول موضوع الهدنة (29 م ج) : ملك ليون وملك قشتالة وملك البرتغال :

ملك ليون هو الذي تسميه الرسالة «فرانده بن السليطن»، والسليطن هو الفونسو ريمونديس ملك قشتالة وليون الذي تولى الحكم صغيرا فلقبته الروايات العربية بالسليطن، وتوّج قيصراً سنة 1135 (529–530)، وقد اشتد ضغطه على بلاد الأندلس خاصة في نهاية العهد المرابطي، وتمكن من الاستيلاء على المرية سنة 542 بواسطة حملة «صليبية» برية وبحرية»[147]، وظلت بيده عشر سنوات ثم فشل في مقاومة الضغط الموحدي عليها ومات في نفس السنة التي دخلها الموحدون 1157 (552)[148]. وكان له ولدان أحدهما فرناندو الثاني الذي خلفه على عرش ليون (1157/552–1188/583) وهو الذي تسميه الرواية العربية الببوج أو صاحب السبطاط (نسبة إلى عاصمته) وهو المقصود من رسالة الخليفة

= وقد شاهد الخليفة فشل عملية وبذة بسبب نقص التموين خاصّة، وأن الغلاء في معسكره كان سبب تسريح الجيوش (الكامل 9/ سنة 568).

(144) الرسالة 29 (م ج).

(145) راجع في الفصل الثاني الصفحة 71 وما بعدها.

(146) انظر ميراندا في الموسوعة الإسلامية 166/1.

(147) اشتركت في الحملة قوات برية من داخل اسبانيا وأساطيل من برشلونة وبيزة وجنوة.. اشباخ (224–225) وعنان 508/1.

(148) انظر الرسالة رقم 16 (م ر م).

المذكورة، والابن الثاني هو سانشو الثالث (1157-1159)، ولم يعش في الملك غير سنة واحدة حافظ خلالها على سيادة قشتالة على ليون ثم خلفه ابنه الصبي الفونسو الثاني «النبيل» (وهو المنهزم في الأرك المنتصر في العقاب)، فعرفت قشتالة في فترة الوصاية عليه فتنة داخلية بين أنصار عائلة كاسترو ــ الذين يؤيدهم ملك ليون عم الملك الطفل الطامع في الوصاية على ابن أخيه ليجمع بين حكم قشتالة وليون ــ وبين أنصار عائلة لارا الوصية على الملك الصبي والتي تعاكس أطماع ملك ليون. غير أن تغلب هؤلاء برئاسة الكونت نونيودي لارا بتتويج الفونسو الطفل ملكا على قشتالة سنة 1166 (560-561)، وتقاربهم مع ملك أركون ــ الذي سينبثق عنه إنشاء حلف ضد نفارا وليون ــ إلى جانب عداء البرتغال لمملكة ليون، يبدو أنها كانت دوافع لفرناندو الثاني (ملك ليون) لعقد حلف مع الموحدين سنة 563[149]، وبمقتضاه تدخل لطرد البرتغاليين من بطليوس في السنة التالية[150] وتجدد الصلح بين الطرفين سنة 566 بطلب من الموحدين حين قدموا من إشبيلية لإنقاذ بطليوس من حصار جرانده الجليقي، وقدم إليها ملك ليون لإنقاذها من السقوط بيد البرتغاليين[151]، إذ كان يخشى توسعهم في الأراضي الإسلامية جنوب مملكته، بحيث أنه كان يعتبرها منطقة توسع ليون مستقبلا. وربما كان دافع الموحدين لتجديد الصلح مع ليون في هذه الظروف هو خوضهم المرحلة النهائية للحرب مع ابن مردنيش، وسيستمر هذا الصلح إلى آخر سنة 569، فيكون سببا في عدم الاعتداء على أرض ليون عند شن الغارات الموحدية على جنوب قشتالة في آخر سنة 568، لكن ملك ليون سينقض هذا الصلح في آخر السنة التالية.

وبالنسبة لقشتالة : أصبحت تحس بالخطر الموحدي بسبب طول إستقرار الخليفة يوسف بالأندلس رغم تخلصه من ابن مردنيش، وقد تجلى هذا الخطر أيضا في التحالف مع أعداء قشتالة وفي تنظيم الموحدين لغارات على نواحي طلبيرة وطليطلة بواسطة فرق محدودة بينما كانت باقي القوات في استراحة ويمكن استنفارها، هذا بالإضافة إلى انشغال قشتالة بالحرب مع نفارا بسبب النزاع على أقاليم حدودية : فقد كانت قشتالة وأركون عقدتا حلفا بينهما سنة 1170 (564-565) شجع قشتالة على خوض حرب مع نفارا سنة 1173 (568-569) يبدو أنها لم تنته بنتائج حاسمة، مما سيجعل الحلف يدخل في حرب أخرى مع نفارا (571-70/1175)، أي أن قشتالة في هذه الفترة كانت محاطة بأعداء جنوبا وغربا وفي حالة حرب مع نفارا زيادة على عدم الاستقرار الداخلي، فهذه كانت عوامل تدفعها إلى طلب

(149) المن 368-370، البيان 78، وقد سبقه «للتفاوض» مع الموحدين زعيم قشتالي آخر صهر لملك قشتالة ولكنه من المعارضين وهو «صاحب ترجاله»، (المصدران ونفس الصفحات)، وبمقتضى الصلح توجهت فرقة موحدية مع جيش ليون عاثت في أرض قشتالة سنة 563.

(150) انظر اشباخ 279، وقارنه مع البيان (85) عن العلاقة بين ليون والموحدين والبرتغاليين، وكذلك المن (400-402) الذي كان صاحبه قريبا من الأحداث.

(151) البيان 85 والمن (400-402).

الهدنة مع الموحدين، وسيتجلى عدم صدقها في الالتزام بهذه الهدنة وإنما هي كسب للوقت[152].

أما البرتغال فقد ظلت تهدد الثغور المجاورة لها سواء بواسطة جماعة جيرالدو أو قوات الفونسو هنركيز ملك البلاد المعروف بابن الرنق أو ابن الرنك أو ابن الريق وهو المؤسس لدولة البرتغال التي انطلقت من ساحل الوسط الغربي لشبه جزيرة ايبيريا حول مدينة قلمرية ولذلك سمي ملكها في المصادر العربية أيضا «بصاحب قلمرية»[153]، وسمي في الرسالة رقم 29 (م ج) «ملك برتقال»، وقد عمل على توسيع مملكته شمالا وجنوبا فاحتل إشبونة وشنترين سنة 542 وقصر أبي دانس سنة 555، واستولى القائد جيرالدو لصالحه[154] على عدد من الحصون بناحية بطليوس مثل يابرة (561) وناحيتها الشمالية مثل ترجاله (560) وقاصرش ومنتانجش (561) ثم جلمانية الحصن القريب من بطليوس مما ساعده على تشديد الحصار عليها سنة 564. وفي محرم 568 وبينما كان معسكر الخليفة متعبا في مرسية بعد عملية وبذة ثم بدأ في تسريحه، تحرك جيش ملك البرتغال واحتل باجة قاعدة إقليم الغرب وهدم أسوارها وأسر كثيرا من أهلها ثم تركها لعجزه عن الدفاع عنها[155]. وتنص الرسالة المذكورة (29 م ج) على إسراع ملك البرتغال لطلب الصلح قبل ملك طليطلة[156]، فهل حدث هذا لأنه أصبح يشعر بأن الضربة المقبلة والعنيفة من طرف الموحدين ستكون موجهة إليه قبل غيره خاصة وأن ما فعله بباجة ليس ببعيد ؟ وهل كان هناك أيضا ضغط عسكري على شمال البرتغال بواسطة قوات ليون بسبب النزاع بينهما حول جليقية ؟

إن رسالة الخليفة المذكورة حول هذا «الصلح» لا تخلو من الإشارة إلى بعض العوامل التي دفعت الممالك الإسبانية إلى طلبه : وهي الضغط العسكري الموحدي، والنزاعات بين هذه الممالك[157]. وهكذا عقد الموحدون الهدنة من موقع القوة وبشروط خاصة : «وعُقِد لكل جهة منهم العهدُ إلى مُدَدٍ مختلفة قَدرَ ما يَنجَبِرُ فيها ما يليه من الثغور... ولم يَبق من روم

---

(152) تشير رسالة الخليفة عن معركة فحص هلال (27 م ج) في الصفحة الثالثة من الزوائد إلى ميل النصارى إلى الهدنة، ولاشك أنه استنتاج من جو النزاعات بين الممالك الاسبانية، ولربما كانت عمليات الموحدين جنوب قشتالة سنة 568 هي سياسة من أجل إخراج قشتالة من التردد إلى عقد هدنة كان الموحدون في حاجة إليها ويرغبون فيها.

(153) المن 526.

(154) يصفه ابن عذاري ضمن أحداث 569 (ص 103) بأنه «كان قائد ابن الرنك وصاحب جيوشه».

(155) لأن غاراته المهمة كانت بإعانة القوات الصليبية المارة بشواطىء البرتغال.

(156) رغم أن صاحب المن (526)، يتحدث عن وصول وفد طليطلة قبل وفد البرتغال إلى اشبيلية في ذي الحجة سنة 568، فإن الرسالة 29 (م ج) تنص على العكس مما يفرض تصحيح هذه المعلومة بكتاب المن.

(157) نفس الرسالة ص 10 من الزوائد.

الجزيرة إلا شرذمةٌ بإزاء بلنسية»[158] لم تشترك في عقد الهدنة مع الموحدين، والمقصود هي مملكة أركون التي يذكر صاحب القرطاس أن الخليفة قاد إليها (569) حملة غزا خلالها «مدينة كركونة من بلاد شرق الأندلس فأوغل في تلك الناحية يقتل ويسبي ويخرب البلاد بالحرق والهدم... ثم قفل إلى إشبيلية»[159].

ما هو مفعول هذه الهدنة ؟

إن الأحداث التي تلت توقيع الهدنة برهنت على أنها هدنة هشّة : فقد عمل الخليفة بعد تحرير مدينة باجة على تحصينها وتعميرها مع الحصون الأخرى لتصمد في وجه البرتغاليين[160]، كما أن القائد جيرالدو الذي تظاهر بالخدمة لصالح الموحدين بالمغرب انكشف غدره واتصاله السري مع ملك البرتغال فقتل مع جماعته[161]. أما ملك ليون الذي كان على صلح قديم مع الموحدين فقد نقضه في آخر سنة 569 مما جعل الخليفة يوجه إليه من إشبيلية حملة يترأسها أخوه السيد أبو حفص فيحاصره في عاصمته السبطاط[162]. كما أن ملك قشتالة من جهته سيقوم باحتلال كوينكة سنة 572... ويذكر ابن عذاري عودة الخليفة مسرعا إلى المغرب سنة 571 وبدون تعليل لهذه السرعة حتى أنه لم ينتظر التوديع الرسمي وربما كان ذلك بسبب ظهور مرض الطاعون الذي أودى في هذه السنة بحياة كثير من العامة بمراكش وبحياة عدد من الخاصة ومنهم بعض إخوة الخليفة وأشياخ الموحدين كالشيخ أبي حفص الهنتاتي وغيره، كما أصيب الخليفة أيضا بالمرض[163]، وربما هناك عامل آخر عجل بعودة الخليفة وهو تمرد صنهاجة القبلة[164]، وقد استمر إلى أن أخمده جيشه سنة 572، هذا زيادة على توارد الأخبار بسوء حالة إفريقية بتقدم قراقوش فيها وعيث العرب وتمرد مدينة قفصة[165]. في هذه الفترة تواصلت الأنباء بنقض النصارى للهدنة واعتداءاتهم التي كانت تصل إلى إشبيلية.

---

(158) نفس الرسالة، وانظر أيضا رأي ميراندا في الهامش 172 بعد.

(159) القرطاس ص 212، وراجع الهامش 140 قبل، وإذا صح هذا التاريخ الذي قدمه ابن أبي زرع تكون هذه الحملة تنفيذا لتهديد الخليفة للأركونيين كما جاء في رسالته المذكورة «لم يبق من روم الجزيرة إلا شرذمة بإزاء بلنسية الخطب فيها بحول الله يسير.. والفتح فيها قريب..».

(160) البيان ص 105 وما بعدها.

(161) البيذق في أخبار المهدي 89، البيان 103.

(162) البيان 103–104، وسينتظر ملك ليون فرصة عودة الخليفة إلى المغرب فيوجه غارة إلى جنوب الأندلس سنة 572 (البيان 111)،

(163) البيان 109–110، القرطاس 267، ويبدو أن الوباء عم جهات أخرى من الدولة، (ميراندا، في الموسوعة الإسلامية 166/1، صاحب التشوف (232) يتحدث عن المجاعة بفاس سنة 571 وأيضا بمراكش.

(164) البيان 109–110.

(165) البيان 113، انظر في الفصل الثاني الصفحة 71 وما بعدها.

لم حدث هذا ؟ يبدو أن هناك عاملين أساسيين :

العامل الأول : يتمثل في مرض الطاعون وعواقبه وانشغالات الجيش الموحدي بالمغرب ثم تحركه إلى إفريقية سنة 575–576 كما ذكرنا.

العامل الثاني : يتمثل في توصل الأطراف الإسبانية إلى نوع من التسوية في العلاقات فيما بينها ولو بصورة مؤقتة، وهكذا في سنة 1177 (572) حاصرت قوات ملك قشتالة مدينة (كوينكة) الموحدية وهي من الثغور الشمالية الشرقية، ودعمتها جيوش أركون فسقطت بيد القشتاليين[166] ولم تستطع قوات الموحدين غير القيام ببعض أعمال الغارة على جنوب قشتالة[167]، وربما توجهت فرقة موحدية لدعم صمود المدينة في وجه الحصار فاعترضتها قوات أركون[168]، غير أن هذا التقدم لقشتالة نحو الشرق في اتجاه بلنسية أخذ يصطدم مع أطماع أركون التوسعية فتوصلت الدولتان إلى اتفاق (كاسولا) سنة 1179 (574–75) الذي يحدد مناطق التوسع في المستقبل لكل منهما على حساب أراضي المسلمين[169]، وفي العام التالي اتفقت أيضا ليون مع قشتالة على تحديد الحدود والتحالف من أجل «الاسترداد» وعدم عقد أي صلح منفرد مع المسلمين[170]. كما تفاهمت ليون مع البرتغال بواسطة مشروع مصاهرة بين الملكين من أجل تصفية نزاعهما الحدودي، ولعلهما توصلا إلى نوع من التفاهم حول منطقة «الاسترداد» لكل منهما[171] كما فعلت قشتالة وأركون. وهكذا انضمت البرتغال إلى الأطراف الأخرى في نقض الهدنة سنة 573 ووجهت حملة برية وبحرية إلى ناحية إشبيلية[172]، كما استولت على مدينة باجة من جديد، وسيشتد الضغط القشتالي والبرتغالي أثناء انشغال الخليفة بأمر إفريقية، ثم يصبح التهديد أقوى خلال سنتي 577 و578 في نواحي إشبيلية نفسها[173]، مما سيفرض على الخليفة يوسف القيام بالجواز الثاني إلى الأندلس وحصار شنترين البرتغالية سنة 580.

---

(166) اشباخ ص 290، وعنان 96/2 (اعتمادا على رواية ماريانا).

(167) البيان 110–111، ويعلل صاحبه سقوط كوينكة بعجز الناس في المغرب عن الاستنفار بسبب انتشار الطاعون مما دفع صاحب طليطلة إلى «نقض العهد ورفض السلم والعقد».

(168) اشباخ 321، عنان 96/2.

(169) تنص المعاهدة على حق توسع أركون في شاطبة وبلنسية ومرسية وما إليها، وعلى حق توسع قشتالة في غرب هذه المنطقة وتدخل ضمنها غرناطة : اشباخ 291، عنان 586/2.

(170) اشباخ 285 و291، عنان 594/2 (وذلك سنة 1180 وبتوسط أركون بين قشتالة وليون).

(171) بحيث أن العمليات البرتغالية ستتكرر على غربي نهريانه مبتعدة عن حصون شمال بطليوس في الغالب.

(172) يرى ميراندا أن أجل الهدنة بين الموحدين والبرتغاليين هو 5 سنوات (الموسوعة 166/1) فمعنى هذا أنها تنتهي في آخر 73 أو بداية 74 غير أن البرتغاليين سيقومون بالحملة على باجة قبل نهاية الهدنة كما يفعل القشتاليون بالنسبة لقوينقة (البيان 107).

(173) تفاصيل المعركة في البيان (110–113) و(116–120) و(122–124) ثم ص 127.

د ــ فشل حصار الخليفة يوسف لمدينة شنترين (سنة 580) :

سبقت الحملة استعدادات في الأندلس والمغرب، ففي الأندلس عيّن ولاة جدد على المدن الكبرى من أبناء الخليفة يوسف منهم السيد أبو عبد الله محمد الوالي على مرسية[174]، وأعطيت الأوامر بتهييء قطع الأسطول، وفي المغرب تم استجلاب أعداد هامة من عرب افريقية مع عنصر الغز منذ فتح قفصة سنة 576، وحشد المقاتلون من مختلف القبائل المغربية[175]، وسينضم إليهم أهل الأندلس، **وعاقب الخليفة عددا من عمال ولاية فاس على إهمالهم لما يهم الاستعدادات**[176].

كان تحرك الخليفة من مراكش في أواخر شوال 579، وفي سلا أعلن عن تحديد الاتجاه إلى الأندلس، فاجتاز إليها بجيشه في شهري محرم وصفر 580 (ربيع 1184)، وفي اشبيلية حدد الوجهة إلى شنترين برا وبحرا. فخرج إليها في 26 صفر، وكانت بعض القوات تلتحق بجيش الخليفة في الطريق، ومنها قوات شرق الأندلس برئاسة والي مرسية السيد أبي عبد الله محمد الذي التحق بجيش الخليفة عند نهر تاجه، وإن كان صاحب البيان يذكر أنه في حصن العرجة (بين اشبيلية وبطليوس) «تكاملت العساكر من كل أفق»[177]، وعند وصول الخليفة إلى بطليوس قدم أمامه طليعة نحو شنترين التي ابتدأ حصارها يوم الأربعاء 16 ربيع الأول 580 (27 يونيو 1184) ودام الحصار ما لا يقل عن عشرين يوما على الأرجح[178]، وخلال حصار شنترين أو أثناء الانسحاب عنها توفي الخليفة متأثرا فيما يبدو بجراح نالته في إحدى المعارك خارج المدينة، ومن المرجح أن يكون تاريخ الوفاة هو يوم 18 ربيع الثاني 580[179]. وهكذا انتهت حملة الخليفة بالفشل بل أودت بحياته، وهذا ما يدفع إلى طرح بعض الملاحظات حول الحملة :

ــ **ما هي أهداف الحملة** ؟ لقد تكونت دولة البرتغال على حساب قسم مهم من الأراضي والمدن الإسلامية منها قلمرية وشنترين وإشبونة، زيادة على تهديدها المستمر لمدن أخرى كبطليوس وباجة وأراضي الغرب المجاورة لمملكة البرتغال عموما، فاشتد ضغطها في السبعينيات

---

(174) البيان 129، الرسالة 34 م ج.

(175) عن أصناف القبائل والعناصر المشاركة في الحملة انظر القرطاس 213، والبيان 131–132 والعبر 405/6، الروض المعطار (مادة شنترين).

(176) البيان 131.

(177) نفس المصدر ص 133، قارن مع الرسالة 34 م ج ص 32 من الزوائد.

(178) مدة الحصار شهر حسب ابن الأثير (580/9)، وكذلك ابن خلكان 492/2 ونفح الطيب 379/4 أوانها عشرون يوما حسب الروض المعطار (شنترين)، أما البيان في بعض نسخ خ ح (مثل رقم 334 و2150) فيجعل نهاية الحصار في يوم 21 ربيع الثاني أي دام الحصار حوالي 33 يوم.

(179) راجع خصوصيات الرسالة 34 في ص 103–105 من هذا الفصل.

ليصل إلى نواحي إشبيلية[180]، بل تقاربت الممالك الإسبانية في هذه الفترة مع بعضها فعقدت **قشتالة وليون** صلحا بينهما في شهر مايو 1183 (محرم — صفر 579) واتفقتا على عدم عقد أي صلح أو هدنة مع المسلمين[181]، وربما أصبح الجو بين **ليون والبرتغال** يعرف نوعا من الميل إلى التهادن[182]، فاشتدت ضغوط النصارى على المسلمين، ولعل هذا ما جعل البعض يميل إلى أن هدف الحملة الموحدية هو ضرب البرتغال ابتداء من شنترين واشبونة إلى قلمرية وشمالها ثم الزحف منها على أراضي ليون وقشتالة[183]. وتركز المصادر العربية على شدة إذاية البرتغاليين للأراضي الإسلامية كتبرير لتوجيه الحملة نحو مملكتهم[184]، وكلف الأسطول الموحدي بحمل أدوات الحصار وربما كان الغرض منه فرض الحصار على مدينة إشبونة، وهو حصار يحتاج إلى فرقة برية أيضا قد تكون هي الفرقة التي سيعطيها الخليفة الأوامر — خارج شنترين — لتتوجه إلى إشبونة فتخالف هذه الأوامر خطأ أو عمدا بالاتجاه شرقا وتعبر نهر تاجة[185]. وتلاحظ الرواية النصرانية حصار ملك ليون لمدينة قاصرش خلال جواز الخليفة، وعندما وصلت الحملة الموحدية في زحفها إلى بطليوس تراجع ملك ليون إلى عاصمته[186]، فهل كان هدف الخليفة إنقاذ مدينة قاصرش من الحصار قبل توجهه إلى شنترين[187] ؟ يبدو أن تحرك جيش شرق الأندلس برئاسة الأمير محمد والي مرسية وقع من هذه المدينة في اتجاه مدينة قاصرش قبل أن يلتحق بالجيش الرئيسي عند نهر تاجه[188]، فرفع ملك ليون الحصار عن المدينة قبل وصول قوات شرق الأندلس، واستمر سير القوات الموحدية بأجمعها عندئذ نحو شنترين[189].

---

(180) الروض المعطار (شنترين)، البيان 135. انظر الصفحة 114 والهامش 173 قبل.

(181) عقد هذا الاتفاق في فريسنو لافنديرا Fresno - Lavandera (ميراند في الموسوعة 166/1 و Historia Politica, I/304)، هذا الحلف يؤكد اتفاقية توردي سلاس لسنة 1180 (575-576) (اشباخ 291). وهذا الاتفاق لسنة 1180 حدد الحدود النهائية بين الدولتين واتفقتا على عدم عقد أي هدنة مع المسلمين : عنان 594/2.

(182) عنان 594/2 (يتحدث عن تصفية الخصومة بين ليون والبرتغال بمشروع مصاهرة).

(183) انظر اشباخ 322، كما أن رسالة الأمير محمد (34 م ج) تذكر اجتياز نهر تاجه وتلقب البرتغاليين «بأعداء الله» الذين يسدد إليهم الموحدون ضرباتهم وإلى «أعوانهم» ولعل المقصود بالأعوان مملكة ليون (نفس الرسالة ص 32 من الزوائد).

(184) انظر الهامش 180 سابقا.

(185) القرطاس 214، اشباخ 323-324.

(186) عنان 125/2.

(187) عنان 118/2-119، ميراندا في Historia politica... I/304.

(188) يبدو أن هذا هو سبب عدم اجتماع جيش شرق الأندلس بجيش الخليفة في حصن العرجة أو بطليوس وإنما كلف بالتحرك مباشرة جنوب قشتالة وليون نحو قاصرش قبل أن يلتقي الجيشان عند نهر تاجه.

(189) الرسالة 34 م ج (ص 32 من الزوائد)، وربما كان تحرك هذه الفرقة المشرقية يزيد في توضيح=

ـــ **لماذا فك الموحدون الحصار عن شنترين ؟ نتفحص بعض جوانب القوة والضعف** لدى الموحدين وأعدائهم :

• يقدر صاحب الروض المعطار الجيوش الموحدية بمئة ألف فارس زيادة على قطع الأسطول وبحارته[190]، وتتحدث المصادر العربية عموما عن الاستعدادات الواسعة للحملة الموحدية وقوتها[191] وتقول الرواية النصرانية أن جيش يوسف كان أعظم جيش إسلامي دخل إسبانيا إلى ذلك الوقت[192]. ومن ناحية أخرى لم يعان المعسكر من نقص في التموين على عكس ما حدث في حصار وبذة، بل كانت الأسعار رخيصة كما يذكر ذلك ابن صاحب الصلاة الذي كان حاضرا في الحملة[193]. تبقى مسألة مهمة وهي مسألة التنظيم ومدى تطبيق الأوامر الخليفية، وهذا يلاحظ أنه ضعيف، وقد يكون راجعا إلى استبداد الخليفة برأيه وإهمال آراء القادة الآخرين كما حدث في عملية نقل المعسكر خارج شنترين إلى موضع فرضه برأيه «فتعجب الناس... وتعطلت في النفوس الآمال، وظهر الخلل في جميع الأحوال»[194]، وقد يكون نتيجة تصرفات الخليفة مع عدد من كبار موظفيه خلال هذه «الحركة» كما وقع لعدد من عمال الجباية في فاس وولايتها[195]. ولذلك عندما أمر السيد أبو إسحاق[196] والي اشبيلية بالحركة من شنترين إلى إشبونة جنوبا فعبر النهر شرقا بالقوات الأندلسية هل كان هذا مجرد سوء فهم للأوامر أو عصيان لها[197] ؟

= كلام اشباخ عن إشغال الخليفة لقوات النصارى بضربهم من الجنوب والغرب في آن واحد (ص 322).

(190) الروض (شنترين 113-114).

(191) انظر الهامش 175.

(192) اشباخ 323.

(193) البيان 133، عنان 130/2، لكن عندما سينهزم الموحدون سيفقدون المؤونة إلى أن يبتعدوا عن شنترين فيوجهوا بعوثا لجمع الأقوات (البيان 137، الرسالة 34 في ص 32 من الزوائد).

(194) البيان 135، انظر أيضا عنان 130/2 واشباخ 326، وكان استبداده بالرأي نحو الشيوخ والقادة يقابله تقريب العلماء ومشاورتهم أي أنه رجل أدب أكثر منه رجل حرب، انظر الكامل 9/ سنة 580، وميراندا في الموسوعة نفس المقال السابق.

(195) البيان 131، كما أن القائد الشهير ابن وانودين الذي واجه النصارى في معارك ناجحة كان منفيا مع واحد من سلالة ابن جامع أحد أصحاب المهدي إلى أن تم العفو عن هذا قبيل حصار شنترين (البيان 133).

(196) كان مصابا بتوعك في رجله فيتصرف في الأوامر على سرير (البيان 135).

(197) القرطاس 214، وأيضا ما حدث لخطيب الخليفة من دخوله في معسكر النصارى هل هو خطأ، أم احتجاج وعصيان ؟ انظر المعجب 258-260 والبيان 135، ولاحظ تسامح المنصور عند بيعته مع من صدرت عنهم تصرفات غير مقبولة حيث «أضرب عن تعريف من اتهم في صفائه وشك في وفائه» (البيان ص 141).

• مهما كانت ظروف المعسكر الموحدي فإن موقف القوى النصرانية كان فعالا : فمدينة شنترين كانت قد استعدت للحصار منذ شهور[198]، هذا زيادة على مناعتها[199]. وبعد طول مدة الحصار بدون نتيجة أخذت الإمدادات النصرانية تتجه نحو المدينة، فوصلت قوة على رأسها ولي العهد البرتغالي ثم قوة أخرى يرأسها أسقف مدينة سانت ياكو[200]، بل قيل إن ملك ليون الذي كان يرقب الأحداث من عاصمته تواردت الأنباء عن اقترابه من شنترين[201]. وعندما كانت الفرق الموحدية تخرج للغارة على النواحي لجلب المؤن[202] أو للاشتكشاف، كانت تصطدم بالكمائن التي تكبدها الخسائر، كما حدث ذلك في الأيام الأخيرة للحصار لفرقة من شرق الأندلس «خرجوا للإغارة على بسائط النصارى فخرجوا عليهم وهزموهم بعد حروب شديدة، ووصلوا للمحلة مهزومين... وبات الناس في المحلة على حذر[203]... فلما استراءت من جهاتها الأنباء ! وطال لغير طائل الثواء، عزم أمير المومنين على الرحيل ليلا فاضطرب إقلاع الناس اضطرابا شنيعا»، وهذا رغم أن «ثقات الخليفة... أوعزوا بترتيب التحرك» وان ينتظر الناس حتى تعبر قوافل المؤونة[204]. والذي حدث هو عبور أغلب الجيش ليلاً إلى شرقي النهر، فلما أصبح الصباح وجد الخليفة نفسه في قلة، فتعرض للهجوم من البرتغاليين المندفعين من داخل شنترين، وعندما تراجعت القوات الموحدية لنجدته كان قد تلقى طعنات ستودي بحياته بعد أيام قليلة.

الحالة يوم الاقلاع عن شنترين : عندما علم نصارى شنترين باجتياز أغلب الجيش الموحدي إلى شرقي نهر تاجه وبقاء الخليفة في «ساقته» المكونة من حرسه ومن قوافل المؤونة زيادة على جيش شرق الأندلس[205] ـــ الذي كان يتحرك خلف المحلة وقبل ساقة

---

(198) المعجب 257، ميراندا في الموسوعة 166/1.

(199) الروض (شنترين)، الإدريسي 550 (ط. القاهرة)، البيان 135، ميراندا 250 وما بعدها في (Historia politica).

(200) أشباخ 324، دوزي في «أبحاث...» 471/2... Recherches (وهو يلاحظ أن من عوامل فشل الحملة الموحدية شدة المقاومة البرتغالية التي حرمت الموحدين من الاستيلاء على أي موقع عسكري 479.

(201) ميراندا في الموسوعة ص 166، وعنان 125/2، ويذكر رواية أخرى في الصفحة 476.

(202) الرسالة 34 م ج تتحدث عن تحركات الموحدين نحو معاقل الأعداء «فيتملكون أقواتهم تغلبا عليهم وقسرا» ص 32 من الزوائد.

(203) البيان 135.

(204) البيان 136 (حسب رواية أبي الحجاج يوسف بن عمر)، ومن الصعب القبول برواية صاحب المعجب في تعليل فك الحصار بقرب فصل الشتاء والخوف من فيضان النهر (ص 258)، لأن الحصار كان في نهاية الربيع وبداية الصيف، راجع خصوصيات الرسالة 34 ص 103-105.

(205) تخاطب الرسالة 34 أهل مرسية هكذا : «... اخوانكم أهل الشرق وسرية من الغرب كانوا في ساقة الموحدين» ص 33 من الزوائد.

الخليفة ـ[206] هاجم هؤلاء النصارى الساقة، وكان من قتل في هذا الهجوم جملة من أعيان الموحدين ورؤساء الأندلسيين وبعض بني مردنيش[207]، هذه العملية وقعت قبل أن يتدارك الموقف أغلبية الجيش ويشتبك مع النصارى في معركة عنيفة قتل فيها منهم نحو عشرة آلاف (حسب القرطاس 214)، وتذكر رسالة الأمير محمد عددا أقل بالنسبة لأعيان النصارى المقتولين، وأما من «لفيفهم... فالعدد الجم والجمهور الأعم» (34 م ج)، بينما سكت صاحب البيان (137) عن ذكر عدد القتلى واكتفى بالقول بأنه «أخِذ بثأر الشهداء»، أما الرواية النصرانية فتجعل قتلى المسلمين حوالي ثلاثين ألفا[208]، وبالنسبة للأسطول الموحدي فقد تراجع عن اشبونة عند سماع جنده بالتراجع عن شنترين.

ماذا بعد الانسحاب عن شنترين ؟ تصف الرسالة رقم 34 (م ج) إلى أهل شرقي الأندلس الغارات الموحدية في أراضي البرتغال ربما أثناء حصار جيش الخليفة لشنترين وخلال الانسحاب عنها كما يلي : «... ولم يزل أعداء الله يأرزون إلى المعاقل والقنن... والموحدون أعزهم الله... عين الله ترعاهم... وتحفظهم حتى احتلوا في قفولهم بالعدوة القصوى من وادي تاجه»[209]، غير أن هذا الوصف في البيان المغرب أكثر تحديدا لما حدث بعد الانسحاب عن شنترين : فأمير المومنين نزل بعد ذلك «بعدوة الوادي... وأمر بتفرق الجموع ورجوع كل واحد منهم إلى قبيلته من العموم، واستقبل موسطة البلاد، وأباح فيها مبالغة الفساد، وأمر بتخريب ما وجد من المباني... واستئصال الأشجار وانتهاب الزروع وتحريق كل ما يمكن تغييره وإزالة عينه بالنار. وتمادى المشي على هذا النحو إلى حصن طرش[210]، فأقام بدرّة جبله وأمر بشن الغارات عليه وتقسيم السرايا على الجنبات إلى جلب الأقوات»[211]. وكان السيد أبو زيد بن أبي حفص بن عبد المومن على رأس معظم هذه السرايا فعادت بالغنائم والخليفة ملتزم الفراش... «وتمادى القفول وضعفه يتزيد والأطباء حاضرون... ملازمون له حتى جازوا وادي تاجة»[212] وتوفي بعد العبور بأميال وذلك يوم السبت 18 ربيع الآخر سنة 580 قبل

---

(206) القرطاس 214.

(207) البيان 137، انظر أيضا القرطاس 214 والمعجب 259.

(208) أشباخ 325.

(209) الصفحتان 32-33 من زوائد العطاء هذا الوصف يبدو أنه عام خاصة وأن الكلمات المأروضة كثيرة فلا تساعد على التحديد، وربما لم يلجأ الكاتب نفسه إلى التحديد.

(210) حصن طرش من حصون وسط البرتغال على الضفة اليمنى لنهر تاجه، وحصار طرش تتحدث عنه أيضا رواية نصرانية أوردها دوزي في «أبحاث..» 2/476-477... Recherches وينتقد الرواية التي تذكر تحرك الموحدين في هذه الفترة نحو الساحل غرب طرش.

(211) البيان 137-138.

(212) نفس المصدر والصفحة، ونفهم من البيان أن الموحدين بعد المعركة ربما لم يعبروا النهر شرقا عند شنترين بل اتجهوا شمالا إلى منطقة حصن طرش ومنها عبروا نهر تاجه، غير أن اشباخ (325) =

الوصول إلى يابرة في اتجاه اشبيلية. ولا يبدو أن الموحدين حاصروا يابرة فقد كان من الضروري العودة على عجل إلى اشبيلية لإعلان الخليفة الجديد أو جمع البيعة له حيث وصلت طلائع المحلة إلى اشبيلية في الأسبوع الأخير من شهر ربيع الآخر وتمت البيعة في مطلع شهر جمادى الأولى للأمير يعقوب بن يوسف الملقب بعد بالمنصور[213].

هـ ــ انتصار الموحدين في الأرك وإقرار التوازن العسكري مع الاسبان :

عرفت الممالك الاسبانية في الثمانينيات عدم الاستقرار في سياستها الخارجية **فالبرتغال** شهدت موت مؤسس الدولة الفونسو هنريكيز فتولى بعده ابنه سانشو الأول 1185 (580–581) ــ 1211 (607–608) الذي عمل على تقوية الثغور المواجهة للمسلمين بل استعان بإحدى الحملات الصليبية المتجهة إلى المشرق لاحتلال بعض المدن في غرب الأندلس ومنها شلب (1189/585) إلى أن استعادها المنصور سنة 587[214].

وأما **ليون** فشهدت بدورها وفاة ملكها فرناندو الثاني فخلفه ابنه الفونسو التاسع في يناير 1188 (قعدة 583) فحاول إخماد الخصومة القديمة مع جيرانه البرتغاليين والقشتاليين بحيث التقى مع ابن عمه ملك **قشتالة** في مدينة كاريون 1188 (583–584)[215] ثم اشتركا في السنة التالية في الزحف على الأراضي الإسلامية[216]، إلا أن الخلاف قام بينهما حول الأراضي المفتوحة مما يلي جنوب مملكة ليون[217].

ولما غزا **القشتاليون** أرض ليون لجأ ملكها إلى عقد تحالف مع ملك البرتغال أرادا تدعيمه سنة 1189 (584–585)[218] بمصاهرة بينهما مغضوب عليها من طرف البابا أدت إلى إصدار قرار الحرمان البابوي ضدهما (1193) مما أثار لهما مشاكل داخلية[219].

= يذكر أن الرواية النصرانية تتحدث عن عبور الموحدين عند شنترين إلى شرق النهر بواسطة قنطرة كانوا يحرسونها، فهل انقسم المعسكر إلى فرقتين فرقة تحركت بالخليفة من شنترين في اتجاه يابرة مباشرة وتحركت أخرى شمالا للعيث وجمع المؤونة وربما لإشغال العدو بمنطقة طرش قبل أن تتجه نحو يابرة فاشبيلية ؟

(213) البيان 141، انظر خصوصيات الرسالة 34 في الصفحتين ص (103–105).

(214) البيان 175، المعجب 280، الكامل 9/ سنة 586، عنان 2/170–178 ثم 186–188 ثم 610، اشباخ 329–331.

(215) أشباخ 293، عنان 2/594.

(216) البيان 175–176، عنان 2/174، اشباخ (293–294).

(217) أشباخ 294.

(218) أشباخ (293–294).

(219) أشباخ 294–295، وقرار الحرمان البابوي يحرم كل الطقوس الدينية مما يغضب الرعية، كما أنه لا يتناسب مع مصالح رجال الكنيسة.

وبالنسبة **لأركون ونبارا** فقد عرفتا تقاربا ضد قشتالة سنة 1190 (585-586)، وفي السنة التالية اشتركت معهما في الحلف كل من ليون والبرتغال، إلا أن انشغال أركون ونبارا مع جيرانهما الفرنسيين وانشغال ليون والبرتغال بمخلفات قرار الحرمان البابوي بسبب المصاهرة المذكورة كانا من العوامل التي جعلت الحلف بين هذه الأطراف لا يطول، ولعل هذا ما دفع ليون إلى التقارب من جديد مع الموحدين[220].

وهكذا فإن قشتالة قد تصبح وحدها في مواجهة مع الموحدين إذا توفرت الظروف لتحرك الخليفة إلى الأندلس خاصة وأنها قامت باستفزازات ضد المسلمين مستغلة الحالة التي كانت تعرفها منطقة إفريقية : ذلك أنه زيادة على عيث العرب ومشكل الغز العاملين في المنطقة لصالح السلطة الأيوبية والعباسية تحرك بنو غانية من جزر البليار إلى المغرب الأوسط وإفريقية مبتدئين بدخول بجاية في صفر سنة 581، وأدى تزايد خطرهم إلى تحرك الخليفة المنصور نحو المنطقة ومطاردتهم مع حلفائهم من الغز والعرب، ثم عاد إلى المغرب الأقصى سنة 584 بعد أن استقرت الأمور مؤقتا بإفريقية[221]. غير أن أحداثها فتحت المجال لبعض القرابة من إخوة المنصور وأعمامه لمحاولة التمرد عليه وهم عمّاه أبو إسحاق، وأبو الربيع صاحب تادلة وكذلك أخوه أبو حفص عمر الرشيد والي مرسية[222] : فأبو إسحاق مات أو قتل عند مرور الخليفة بتلمسان عائدا من حملة افريقية[223]، وأبو الربيع وُجّهت إليه حملة عسكرية فرضت عليه الاستسلام، وسيقتل مع أبي حفص، وأبو حفص هذا تولى على مرسية خلفا لأخيه محمد بن يوسف الذي أصبح وزيرا لأخيهما الخليفة يعقوب، فبسط أبو حفص يده على أموال «العمال» والتجار بشرق الأندلس وأموال الولاية، وذكر أنه حالف الفونسو ملك قشتالة وثبت عليه ذلك «بأكيد المخاطبات والمكاتبات»، ثم استدعِيَ من طرف المنصور وقتل بقصبة رباط الفتح مع عمه أبي الربيع سنة 584[224]. ولقد كان ممكنا التشكك في التهمة الموجهة إلى السيد أبي حفص بالتحالف مع ملك قشتالة، وإن كان من غير المستبعد أن يحاول هذا استغلال عدم رضى بعض قرابة المنصور على خلافته ليعيد التجربة السابقة بين جده الفونسو ريموند يس

---

(220) أشباخ 296 و332، عنان 595/2 و610، الرسالة 34 (م ر م) وتتحدث عن هدنة بين ليون والموحدين قبل تجديدها سنة 586 (ص 222-223).

(221) انظر الرسائل من رقم 29 إلى 33 (م ر م)، والفصل الثاني حول إفريقية.

(222) يذكر صاحب القرطاس أخا ثانيا للخليفة اسمه زكرياء (218)، قد يكون هو أبا يحيى الذي يذكره صاحب المعجب (280-281)، ويبدو أن مقتل الرشيد حدث بعد شهر صفر 584 حيث كان لايزال في أواسط هذا الشهر بمرسية (التكملة 1617 كوديرا).

(223) نكبه المنصور بتلمسان سنة 584 «لشيء بلغه عنه وأحفظه» العبر 510/6، «وكان يطعن في آراء المنصور في تلك الحركة ويضعفها..» (البيان 171).

(224) البيان 170-173، العبر 510/6، القرطاس 218 والمعجب 276-278 (مع خلاف في التاريخ بهما)، عنان 166/2-167.

وابن مردنيش، إلا أن ما يرجح حدوث هذه المحاولة هو أنها تكررت أيضا مع الوالي الجديد لمرسية السيد أبي زيد عبد الرحمان أخي الخليفة بعد انتهاء ولاية أخيهما الرشيد كما يتضح ذلك من رسالته الجوابية على ملك قشتالة والتي يندد فيها بمثل هذه السياسة القشتالية لتفريق صفوف الموحدين[225].

هذا الفشل السياسي لقشتالة مع أمير مرسية يقابله النجاح مع ليون حيث تم التقارب بين الملكين مما جعل القشتاليين ينظمون حملة عسكرية وصلت في صيف سنة 585 إلى ناحية إشبيلية واستولت على حصن مهم بنواحيها (المنار)، وعجز والي اشبيلية عن الوقوف في وجه هذه الحملة[226]، والظاهر أن الحاميات الإسلامية آنذاك بالأندلس كان ينقصها التنظيم أو الانضباط[227]. وفي هذا الوقت تحرك البرتغاليون للاستيلاء على شلب وغيرها كما سبق ذكره «فعادت الأندلس في تهارش واختلاط، والناس في مثل سَمّ الخياط»[228]. هذه الظروف تطلبت جواز الخليفة المنصور إلى الأندلس فتحرك من رباط الفتح في أوائل 586 فتجددت الهدنة بين الموحدين وليون، كما حصلت قشتالة على المهادنة[229]، فتوجهت القوات الموحدية برا وبحرا نحو البرتغال. ورغم توزيع القوات لاشغال البرتغاليين في أكثر من موقع، فإن الموحدين اضطروا للتراجع إلى إشبيلية بسبب نقص المؤونة[230]، ثم في السنة التالية (587) تجددت الحملة بقيادة المنصور وتحرك الأسطول على الشواطىء البرتغالية فأمكن تحرير مدينتي قصر أبي دانس وشلب ومجموعة من الحصون[231]. ويبدو أن البرتغاليين اضطروا لتوقيع هدنة ـــ كما فعلت قشتالة وليون ـــ مدتها خمس سنوات[232]، وعاد المنصور إلى المغرب في نفس العام حيث مرض مرضا طويلا، فعقد ولاية العهد لابنه محمد[233]. ويبدو أن

---

(225) هذه الرسالة هي رقم 37 (م ج) وهي مؤرخة بشهر ذي القعدة 584.

(226) الوالي هو السيد أبو حفص يعقوب بن أبي حفص بن عبد المومن، انظر الصفحة 130 والهامش بها رقم 216.

(227) البيان 175–176، عنان 174/2.

(228) البيان 176.

(229) الرسالة 34 (م ر م) ص 221–223، وميراندا في الموسوعة (مادة يوسف).

(230) توجهت قوة لحصار شلب وأخرى لحصار شنترين ثم حاصرت طمار و لم تفتح غير حصن طرش لأن البرتغاليين استعدوا لطول الحصار، والرسالة 34 (م ر م) والبيان 179–180، القرطاس 218 عنان 177/2، ميراندا (في مادة يوسف) يذكر نقص المؤونة وانتشار الوباء في الجيش الموحدي.

(231) البيان 184–185، العبر 511/6، القرطاس 219 (يجعل الحملة برئاسة والي قرطبة)، راجع أيضا المعجب 280، عنان 186/2–188.

(232) الكامل (سنة 586)، النويري 437 عن مدة الهدنة وص 439 عن تاريخ بدايتها أي سنة 586 وفيات الأعيان 7/ ص 4 (ترجمة المنصور يعقوب)، والبيان 186.

(233) انظر الرسائل 40 و41، و44 (م ج)، البيان 186، والعبر 511/6، عنان 189/2–191.

انقسامات الممالك الاسبانية في هذه الفترة جعلت المنصور يفاوض مبعوثيها من مركز القوة : قال ابن عذاري (ضمن أحداث سنة 588) : «وصل أرسال ملوك الروم في تجديد الهدنة فاشتطوا في شروطهم» فصرفهم المنصور دون قضاء أمرهم (ص 189). وقبل أن ينتهي أجل الهدنة مع قشتالة سنة 590 كان أسقف طليطلة يوجه الجماعات العسكرية الدينية في حملات ضد الأراضي الإسلامية وكانت قلعة رباح من أهم مراكز انطلاقها، ثم أخذت جيوش الفونسو الثامن بدورها ــ خاصة بعد نهاية أجل الهدنة ــ تعيث في البلاد إلى نواحي اشبيلية[234]. والملاحظ أن الإسبان عرفوا نقطة ضعف الموحدين، فكلما تأزم الوضع بإفريقية شنوا الغارات على المسلمين، وعند جواز الخليفة إلى الأندلس يميلون إلى الهدنة معه أو يشعرون برغبته فيها فتتجدد الهدنة، فإذا عاد إلى مواجهة مشكل إفريقية عادوا إلى الضغط على الأراضي الإسلامية من جديد، ولم يكن يضعفهم إلا نزاعاتهم الداخلية أو حول الحدود فيما بينهم، وتنافسهم حول الأراضي «المفتوحة» أو المخطط «لفتحها» على حساب الدولة الإسلامية. ومع أنه لم يكن من مصلحة قشتالة أن تستفز الموحدين في فترة عداء جيرانها لها أو عدم إمكانية اعتمادها على دعمهم، فإن مشاكلها الداخلية فيما يبدو كانت من أهم العوامل التي تدفعها لفتح جبهة الصراع مع الموحدين، ومن عواقب هذا النزاع الداخلي لجوء عناصر من أسرة كاسترو وعدد من أنصارها إلى الموحدين والاشتراك معهم في معركة الأرك ضد مملكتهم[235]، وهذا لا يعني جهل القشتاليين بتدهور الوضعية الموحدية بإفريقية في هذه الآونة[236].

فما هي الظروف المغربية في هذه الآونة ؟

يذكر المقريزي ضمن أحداث سنة 590 أنه في رمضان من هذه السنة[237] «كثر حمل الغلة من البحيرة (بمصر) إلى بلاد المغرب لشدة الغلاء بها»[238] مما يرجح أن السنة الماضية 589 كانت أيضا سنة جفاف استهلكت الاحتياطي من المؤونة، وإذا لم يكن الجفاف عاما بالمغرب فهو على الأقل بإفريقية. ويذكر المقريزي أيضا غلاء الأسعار بمصر سنة 591 وكثرة الموتان سنة 92 ويقول عن هذه السنة أنه ورد عربان الغرب (المغرب) الذين نزلوا إلى البحيرة

---

(234) وذلك سنة 590 حسب المعجب (282)، انظر البيان 191-192، وأشباخ 331-332.

(235) البيان 195، واشباخ 337، وميراندا في الموسوعة م 1/ 627 وما بعدها (مادة الأرك)، وأيضا في مقاله «معركة الأرك» بمجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد سنة 1954 خاصة الصفحتين 28 و59 (بالاسبانية).

(236) راجع الفصل الثاني حول افريقية.

(237) يوافق هذا التاريخ ما بين 20 غشت و18 سبتمبر بحيث يكون قد انتهى الموسم الفلاحي الجاف لسنة 1193-1194.

(238) السلوك ج 1 ق 1 ص 119.

لشراء القمح وكانت بلاد الغرب قد عدمت فيها الأقوات في السنة الخالية [591] وانقطعت عنها الأمطار في السنة الحاضرة [592](239). وفي البيان المغرب تلميح لهذه الوضعية بإفريقية على الأقل ــ إن لم تكن في المغرب كذلك ــ عندما خيّر المنصور عساكر الحملة بين التوجه إلى إفريقية أو إلى الأندلس ففضلت هذه، «وقَوِيَ حرص الناس على الغزو لقرب الأندلس وتأتّي المؤن بها والأقوات»(240)، وهناك نتساءل هل كانت سنوات 590 و91 و92 سنوات جفاف بحوض البحر المتوسط عموما بما فيه ايبيريا وأنها وراء عدد من التحركات العسكرية كتحرك القشتاليين نحو سهل الأندلس وتحرك بني غانية من صحراء إفريقية نحو وسطها وشمالها، وتحرك المنصور أيضا إلى الأندلس ؟ وهل كان المنصور فعلا ينوي الحركة إلى إفريقية فلما بلغه في أوائل صيف سنة 591(241) استمرار الجفاف فضّل تغيير الاتجاه رغم خطورة أعمال بني غانية بالمنطقة(242) ؟ وهل رفض المنصور لطلب قشتالة من أجل تجديد الهدنة(243) كان من ورائه تحقيق هدفين معا : استغلال عزلة قشتالة لفرض هزيمة عليها ثم صلح من موقع القوة، وأيضا الخروج بعدد كبير من أهل المغرب إلى الأندلس للتخفيف من الاستهلاك بالمغرب مع فرض وجود نقص في المواد الفلاحية وهو نقص تعوّضه ــ لصالح العساكر ــ الغارات المتكررة على الأراضي النصرانية طيلة سنوات 91 و92 و593 أي إلى حين تحسن الوضع الفلاحي بالمغرب ؟ وبمعنى آخر هل هذه الحملات المتكررة ضد قشتالة طيلة هذه السنوات كان من ورائها عامل تحصيل المؤونة إلى جانب تأديب قشتالة ؟.

هكذا، ورغم سوء أحوال إفريقية، وقع توجيه الجيوش نحو الأندلس مادامت الهدنة مع قشتالة قد انتهت، وتزايد ضغطها على الأراضي الإسلامية سواء بواسطة القوات الرسمية أو بواسطة فرسان الجمعيات الدينية العسكرية. وعبر يعقوب البوغاز في 20 جمادى الثانية سنة 591 بقوات «يضيق عنها الفضاء» حسب تعبير ابن الأثير(244)، ولم يطل مقامه باشبيلية إلا

(239) نفس المصدر ص 131.

(240) البيان 192، ويذكر صاحب التشوف حدوث المجاعة بالمغرب خلال سنة 591 ص 293 (ت أدولف فور) ومن غير المستبعد أن تكون هذه المجاعة امتدادا لسنة أو لسنوات جفاف استهلكت الاحتياطي.

(241) وصله الخبر عن أحوالها وهو بمكناسة على الأرجح في جمادى الأولى أو مطلع جمادى الثانية التي جاز في آخرها إلى الأندلس، والشهران يوافقان أبريل ومايو (T.C).

(242) انظر في الفصل الثاني الصفحة 76 وما بعدها.

(243) البيان المغرب 191–192، و«رفع الحجب المستورة» ص 57 ضمن مقال ميراندا المذكور «معركة الأرك».

(244) الكامل (سنة 591)، والروايات العربية تتحدث أيضا عن ملك قشتالة بأنه حشد قوات ضخمة (انظر الهامش 245 بعد)، وتورد بعض المصادر خطأ نسبة رسالة عن ملك قشتالة إلى المنصور =

ريثما استعرض الأجناد ووزع عليهم الأموال ثم التقى مع جيش ملك قشتالة قرب قلعة رباح وحصن الأرك في الطريق بين قرطبة وطليطلة وعلى الضفة اليسرى من وادي بانه.

ويمكن تلخيص الظروف عند معركة الأرك كما يلي :

ــ تتحدث بعض الروايات عن ضخامة الجيش الموحدي من النظاميين والمتطوعين ولا تتفق على رقم محدد للجيش الموحدي ولا للجيش القشتالي[245].

ــ تأخير محاسبة عمال الأندلس على أعمالهم المالية إلى ما بعد المعركة تجنبا لسلبياتها[246].

ــ الخطة الحربية التي اتبعها المنصور اقتضت استشارة قادة الحرب وخاصة من أهل البلاد واستغلال حماس الأندلسيين باختيار قادتهم منهم، كما قسم الجيش إلى قسم يحارب العدو حتى تضعف قواه، وقسم ثاني هو ساقة الخليفة وتختفي عن الأنظار، ثم تتدخل في الوقت المناسب لتقرير مصير المعركة التي أمكن فعلا كسبها.

ــ حالة العداء بين قشتالة وكل من ليون ونفارا جعلها لا تتلقى دعما منهما في المعركة[247] على الأقل على المستوى الرسمي[248].

كانت المعركة صباح يوم الأربعاء 9 شعبان 591/ 18 يوليوز 1195.

ما هي نتائج المعركة ؟

ــ النتائج المباشرة تظهر في جانبين :

• جانب **الخسائر** البشرية والمادية للقشتاليين : فهناك روايات مبالغة كرواية المقري وابن الأثير، وروايات معتدلة تقدر قتلى العدو بحوالي 30000[249]، كما تتحدث الروايات عن

= كانت وراء تحركه لخوض معركة الأرك (القرطاس 220-221، النويري 438) وهي الرسالة التي تلقاها يوسف بن تاشفين عن ملك قشتالة.

(245) القرطاس 227، ويذكر صاحب المعجب أن الأدفونش جمع جموعا لم يجتمع له مثلها قط (282) ويجعل صاحب الذيل على الروضتين عدد النصارى 240 ألف وجيش المسلمين 200 ألف نصفهم من المتطوعين (ص 7-8) وفي بغية الملتمس يبلغ جيش النصارى 25 ألف فارس و100 ألف راجل (ص 45) وبالنسبة للقوات الموحدين يرفعها صاحب الذخيرة إلى 600 ألف (46).

(246) البيان 200-201.

(247) ميراندا في الموسوعة (مادة الأرك) ص 625 م 1، ويبدو أن المشاكل بين الممالك الاسبانية هي التي هيأت الظروف المناسبة لتحرك المنصور والانفراد بقشتالة وليس الأمر وليد نجاحه في سياسة الانفراد بها كما يرى العبادي وسالم في «تاريخ البحرية الإسلامية» ص 276.

(248) كان هناك دعم من طرف المتطوعين والجمعيات الدينية، انظر في الرسالة 42 (م ج) الإشارة إلى وجود الرهبان والبطارقة والافريريين في المعركة.

(249) المقري في النفح 443/1، وابن الأثير والنويري يجعلون العدد 146 ألف (الكامل 9/ سنة 591 ونهاية الأرب 439)، وبغية الملتمس (45) يجعل قتلى النصارى أزيد من 25 ألف فارس و100 =

كثرة الغنائم من الدروع والدواب والأثاث... حتى أن كثرة الغنائم لم تمكن المنصور آنذاك من دخول بلاد الفرنج فعاد إلى اشبيلية[250]. كما أن خسائر المسلمين كانت مرتفعة في الصدمة الأولى على يد الفرسان النصارى المدرّعين، وكان من بين الشهداء القائد العام للفرقة المتقدمة الوزير أبو يحيى بن الشيخ أبي حفص[251]، وتلمح الرسالة 42 (م ج) إلى ما خلفته هذه الصدمة قبل التحاق ساقة الخليفة بالمعركة.

• تحرير المنصور للحصنين القريبين من ساحة المعركة وهما قلعة رباح، وحصن الأرك الذي كان فيه عدد من الأسرى المسلمين فأمكن افتكاكهم بما يقابلهم من أسرى النصارى[252]، ومثل هذه المعاقل «كان الكفرة شدوا عليها يد الضنانة وصرفوا إليها همة العناية والصيانة»[253].

ـ نتائج من مستوى آخر :

• ازدياد شهرة المنصور بهذه المعركة على المستوى الإسلامي منافسا لانتصار صلاح الدين في حطّين على الصليبيين[254] ولانتصار يوسف بن تاشفين في الزلاقة[255]، فهو «الفتح الذي أغرب، وشرّق وغرّب، وأعرق وأشأم، وأنجد في معمور الأرض وأتهم... وأنه لم يُسمَع فيما سلف بشبهِه ولا تَقدَّمَه مثيلٌ يقاس عليه[256]». وهذه المعركة ساعدت على وجود هيبة نحو الجيش الموحدي مما سيدعو الاسبان إلى استدعاء قوات من خارج البلاد لمواجهته في معركة العقاب التي ستنال من هذه الهيبة.

• قيام المنصور في السنة التالية منذ رجب 592 بحملة ضد قشتالة حيث فتح عددا من حصون الثغر الشمالي جنوب نهر تاجه مثل (منتانجش) أو (منت انتش)[257]، وترجاله

= ألف راجل، أما ابن عذاري (195) والروض المعطار (مادة الأرك) فعندهما العدد 30 ألف وكذلك «رفع الحجب المستورة» ضمن مقال ميراندا عن الأرك بالمجلة المذكورة بالهامش 235.

(250) وفيات الأعيان 7/3–18 (مادة يعقوب)، البيان 196.

(251) لقب بالشهيد ولقب أبناؤه بأبناء الشهيد.

(252) هذا التبادل في الأسرى كان بتدخل حليف الموحدين بيدرو فرنانديس القشتالي : البيان 195، الروض المعطار 27 (الأرك)، أشباخ 338، رفع الحجب المستورة (مقال ميراندا في المجلة المذكورة وفي الموسوعة (مادة الأرك)، ووضع المنصور في حصن الأرك حامية بقيادة يوسف بن قادس (الروض المعطار).

(253) الرسالة 42 م ج.

(254) تم تحرير حطين في 14 ربيع الآخر 583 (السلوك ج 1 ق 1 ص 98).

(255) البيان 196، يقارن صاحبه بين الزلاقة والأرك، ويعتبر أن هذه أنست كل نصر بالأندلس.

(256) الرسالة 42 (م ج).

(257) في وصف مناعة هذا الحصن بالرسالة 35 (م ر م) ص 231 بتر يكمله مقطع ورد في «إعتاب الكتّاب» (231–232 ط. دمشق) هكذا «ولم يرض بالجبال أكفاء ولا بالبسيطة منتسبا، (ينظر =

«قاعدة الثغر الشمالي التي تعودت أن تكون آمنة» وكذلك «شانتا كروش»، وشحنت هذه الحصون بالرجال والخيل، وتم تدمير معاقل أخرى. وبعد اجتياز تاجه إلى شماليه استولى الموحدون على مدينة (ابلتانسية)[258]، التي كانت مسكونة بالمحاربين الشجعان من أهل الشمال الإسباني، وبفتحها فتح الطريق نحو حصار طلبيرة أكبر قواعد طليطلة غربا دون التمكن من فتحها، ثم اتجه الموحدون إلى طليطلة وحاصروها من الشمال بضعة أيام. وخلال هذه التحركات كانوا ينتسفون الزروع، وأثناء العودة خربوا بعض الحصون قرب طليطلة كانت تحرسها الجماعات العسكرية الدينية[259]. ويبدو أن هذا التحرك جنوب ليون وقشتالة أقنع ملك ليون بربط تحالفه مع الموحدين ضد قشتالة إن لم يكن حدث قبل الأرك، فأشرك معه قوات موحدية وغزا أرضها وذلك قبل عودة الحملة الموحدية من طليطلة[260]، كما دخلت نبارّا في الحلف مع ليون وهاجمت قشتالة من الشمال[261]. ولم تستطع أركون دعم قشتالة لموت ملكها الفونسو الثاني خلال هذه المدة[262]. هذه الحملة الموحدية دفعت الحدود الإسلامية إلى نهر تاجه بالنسبة **للمنطقة غرب طليطلة حتى الحدود البرتغالية**، واشتغل المنصور بعد عودته إلى اشبيلية بمحاسبة المسؤولين الماليين وعين مشرفا عاما للدولة في الميدان المالي هو وزيره أبو زيد ابن يُوُجّان[263] زيادة على مهمته الإدارية.

خلال ربيع سنة 593 استنفر الخليفة العساكر وخرج بها من اشبيلية إلى قرطبة «وكانت هذه السنة سنة خصب فمشى الناس في أطيب عيش حتى كان الوصول إلى قرطبة فدخلها المنصور للاستيطان، وقسم الجيوش لانتجاع الخصب حيث كان، ريثما يقرب أوان التحطم

= إلى ما يجاوره نظر الجارح المحلق في السماء، أو الشهاب الراجم في جند من الظلماء، فتحه الله وحده، قبل الخلوص إليه من البروج...».

(258) تفاصيل الحملة توجد في الرسالة 35 م ر م (228–241)، وقد كتب بروفنصال في ترجمة الرسالة بهيسبريس 1941 المواقع الآتية : شانتاقروش (Santa cruz) وابلتانسية (Plasencia)، انظر أيضا الحملة في البيان (198–199)، المعجب 283، العبر 513/6.

(259) مثل حصن دار الغارة وبطربونة Piedra buena، الرسالة 35 (م ر م) وترجمتها في هيسبريس ص 67 سنة 1941، ميراندا في الموسوعة م 1 ص 170 (مادة أبو يوسف يعقوب)، القرطاس 229 (مع بعض الخلط).

(260) الرسالة 35 (م ر م)، عنان 587/2 و603، أشباخ 338–339، و344 وهو يتحدث عن حملة واحدة يبدو أنه نقل ذكرها عن صاحب القرطاس (229)، ميراندا في الموسوعة (مادة الأرك).

(261) الرسالة 35 (م ر م)، أشباخ 338 وما بعدها.

(262) مات الفونسو الثاني في أبريل 1196 (جمادى الثانية 592) فخلفه ابنه الطفل تحت وصاية أمه (أشباخ 338، عنان 603/2).

(263) البيان 200–201.

وتمكين وجود الأقوات في بلاد الروم»[264]. فلما اقترب المنصور من بلاد قشتالة عرض عليه ملكها المهادنة فرفضها المنصور ربما لأن الطلب جاء متأخرا[265]. وفي هذا الوقت انعقد التحالف بين قشتالة وأركون ضد الموحدين وحلفائهم من ليون ونفارا فوصلت جيوش أركون إلى «مجريط» شمال طليطلة وربما تراجعت نحو وادي الحجارة حيث توغلت أيضا قوات المنصور وجمعت الأقوات من المنطقة قبل رجوعها في اتجاه قرطبة ثم اشبيلية[266]. ولم يعد المنصور إلى المغرب إلا بعد توقيع الهدنة مع القشتاليين.

لماذا قبل المنصور الهدنة ؟

هناك عوامل داخلية في إمبراطوريته وأخرى إسبانية :

ــ **على المستوى الداخلي** : زادت تهديدات بني غانية وحلفائهم بإفريقية حتى أصبحوا يهددون بجاية عاصمة المغرب الأوسط بحيث وصل إلى المنصور خبر ابن غانية وعيثه، ثم تقدمه إلى بجاية وحصارها «وأظهر أنه إذا استولى على بجاية سار إلى المغرب»[267] فاضطر المنصور لمصالحة ملوك النصارى، كان ذلك في سنة 594 (1197–1198)[268]، وكانت الهدنة «على حكم شريعة الإسلام»[269] أي توقيع الهدنة من موقع القوة.

ــ **وعلى المستوى الاسباني** : طلب ملك قشتالة الهدنة لمعالجة آثار هزيمة الأرك وحملات الموحدين بعدها، ولمواجهة الجارين العدوين نبارّا وليون، فكان رد قشتالة على هجومات ليون هو توجيه قوات مشتركة قشتالية أركونية إلى أبواب عاصمتها[270] مما سيدفع نبارا إلى توطيد الحلف مع الموحدين[271]، بينما تميل ليون إلى مهادنة قشتالة تارة وإلى محالفة الموحدين

---

(264) البيان 202، وهذا قد يؤيد الافتراض السابق بوجود جفاف سابق في إيبيريا أيضا، فلما كانت هذه السنة 593 سنة خصب فإن المنصور سينهي حملاته ويعود بعدها إلى المغرب الذي قد يكون شمله الخصب أيضا بعد الموافقة على هدنة كان يرفضها من قبل.

(265) البيان 202–203.

(266) أشباخ 339، ويتحدث عن انسحاب الموحدين بسبب نقص المؤن والأمراض في معسكرهم.

(267) ابن الأثير 233/9.

(268) نفس المصدر، والنويري 440، والبيان 204، وفيات الأعيان (مادة يعقوب) (ويذكر الصلح مع جميع ملوك النصارى)، ويجعل صاحب المعجب مدة الهدنة 10 سنين (ص 283).

(269) البيان 204.

(270) كما تعاونت قشتالة والبرتغال بالضغط على جليقية من أرض ليون، فاضطر ملكها إلى التصالح مع ملك قشتالة بمصاهرة رفضها البابا، أشباخ 345–346، وعنان 587/2–588.

(271) انظر مقال نيفل باربر «سفارة جون ملك انجلترا إلى محمد الناصر.. «بمجلة تطوان سنة 1965 فهناك على الأقل تحالف منذ 1201 (598–599)، انظر أيضا أشباخ (347–358) وعنان 588/2 والرسالة (68 م ج).

أو التقرب إليهم تارة أخرى، وسيستمر هذا التردد إلى سنة 1207 (603-604)[272] وربما إلى ما قبيل موقعة العقاب بقليل[273].

خلال الفترة فيما بين 599 و603 قام الموحدون بعملين هامين : إتمام السيطرة على جزر البليار، ووضع خطة جديدة لإبعاد بني غانية عن إفريقية، فقد استطاع الموحدون إتمام السيطرة على «الجزائر الشرقية» بفتح جزيرة ميورقة، ومن أهم الدوافع لذلك : استفحال ضرر بني غانية في التسعينيات[274] باحتلالهم كثيرا من أجزاء إفريقية، بل شمل نفوذهم سنة 600 مدينة تونس عاصمة الولاية، فرأى الناصر ضرورة اقتلاعهم من جذورهم وهي الجزائر الشرقية (البليار)، بحيث وجه قبيل حملته إلى إفريقية أسطولا برئاسة عمه أبي العلى إدريس بن الخليفة يوسف ومعه من أشياخ الموحدين أبو سعيد عثمان بن الشيخ أبي حفص، فتمكن الأسطول الموحدي من فتح جزيرة ميورقة في نهاية ذي الحجة سنة 599[275]. وكانت جزيرتا منورقة ويابسة قد فتحتا قبل ذلك[276]. كما أن الحركة إلى إفريقية ساعدت على مطاردة بني غانية إلى الصحراء وتعيين والي مفوض بالمنطقة، وتحت تصرفه قوات عسكرية مهمة لمنع عودة بني غانية إليها[277]. وهذا الحل سيضع حدّاً لهؤلاء بإفريقية، وإن كان سيعمل بشكل تدريجي على انفصالها على يد الأسرة الحفصية بعد حوالي ربع قرن. أما فتح جزر البليار فيمثل أقصى توسع موحدي بالأندلس اعتبرته أركون على حسابها ولو بطريقة غير مباشرة : ذلك أن فتح هذه الجزر من يد بني غانية هو «فتح في النصرانية وظهور على ممالكها الساحلية، ولأخذ ميورقة على صاحب أرغون وبرشلونة أشد من رشق النبل...»[278] فهذا ما سيؤدي إلى الاصطدام بين الطرفين كما سيحدث سنة 607[279].

---

(272) أشباخ 344 وما بعدها و(353-354)، عنان 2/587-588 و595 وأيضا (337-340) و(353-354).

(273) كما يمكن أن يفهم من قول ابن خلدون «وكان ابن أدفونش قد باطن ابن عمه الببوج صاحب ليون في أن يوالي للناصر ويجري الهزيمة على المسلمين ففعل ذلك» (6/522).

(274) يرى عنان أن اهتمام الناصر بهذه الجزر ليس سوى نتيجة مباشرة للصراع مع بني غانية بإفريقية (2/283) بينما يلمح صاحب المعجب إلى أهمية هذه الجزر اقتصاديا (269)، ويبدو أن تضاف إلى هذا الأهمية الاستراتيجية لهذه الجزر بالنسبة للموحدين تجاه أركون من جهة وللقضاء على الدعوة العباسية بها من جهة ثانية.

(275) الرسالة 36 (م ر م)، المعجب 314-315، الروض المعطار 567-568 (مادة ميورقة)، وإشارة في الذيل س/8 (195-196) خ ع ضمن ترجمة الصالح أبي الحسين ابن الصائغ، انظر الرسالة 54 م ج وكذلك خصوصياتها في هذا الفصل ص 107-108.

(276) عنان 2/157-158، البيان 169-170 (يذكر فتح يابسة سنة 583) المعجب 317.

(277) انظر الصفحتين 79، 80 في الفصل الثاني.

(278) الرسالة 36 م ر م (ص 247).

(279) البيان 234-235.

إن هذا الامتداد الموحدي واستمرار الانقسامات بين الممالك الاسبانية، وإظهار الموحدين الاستعداد للغزو بالأندلس[281] هي عوامل جعلت قشتالة تسارع إلى طلب تجديد الهدنة سنة 600 (1204)[282]، وهذه الظروف هي التي أتاحت للناصر القيام بحركته إلى إفريقية بين سنتي 600 و603، وهكذا فإن الفترة بين معركتي الأرك 591 والعقاب 609 تسمح بملاحظة نقطتين :

* اقتناع الموحدين بحل من نوع خاص لمشكل إفريقية حتى يمكن للجيش الموحدي التفرغ للوضع في باقي الامبراطورية وخاصة الأندلس، وحتى يمكن تدارك الخلل المتعاقب في الوضع بين إفريقية والأندلس[283] وهي نقطة الضعف التي أدركها بنو غانية والاسبان : فكان بنو غانية بافريقية ينشطون مع انشغال الجيوش بالأندلس، ويقوى الضغط الاسباني مع انشغالها بافريقية فجاء هذا الحل تجنبا لهذا الخلل.

* استفادة الموحدين من انخفاض معنوية القشتاليين من جراء هزيمتهم في الأرك ومن النزاعات المستمرة بين الممالك الاسبانية، وبعبارة أخرى حقق الموحدون تفوقا عسكريا أو ربما على الأصح توازنا عسكريا مع هذه الممالك، مع العلم أن هذه الفترة هي التي تمثل أوجه قوة الموحدين[284].

وإذا كانت وضعية إفريقية ستتحسن تدريجيا ونسبيا ليعقبها الانفصال عن مركز الدولة الموحدية فإلى أي مدى سيستمر استغلال الموحدين للنزاعات الاسبانية ؟ هذا ما سنراه خلال الفصل الرابع.

---

(280) أشباخ 553.

(281) البيان 218.

(282) البيان 218، ميراندا في التاريخ السياسي 401/2، (وهذه الهدنة مكنت الناصر من الحركة إلى افريقية مثلما أتاحت لقشتالة مواجهة ليون في الحرب المتجددة بينهما) انظر أشباخ ص 353.

(283) كان التعبير صريحا عن عياء الجيوش الموحدية سنة 594 عندما طلب المنصور ــ بعد عودته من الحركة الأندلسية ــ التحرك إلى إفريقية، فرغب إليه أشباخ الموحدين في الاستراحة خلال هذه السنة، ثم نجد معظم الأشياخ يشيرون على الناصر بمسالمة ابن غانية عند عزمه على الحركة إلى إفريقية (العبر 518/6).

(284) يرى لوتورنو أن عجز الموحدين عن حماية حدودهم الطويلة باسبانيا عموما وأن اكتفاءهم بموقف الدفاع هناك كان أهم نقطة ضعف في سياستهم (حركة الموحدين... ص 117).

الفصل الرابع

التراجع الموحدي عن الأندلس
والانقسام السياسي بالمغرب

تنطلق دراسة هذا الفصل من الرسائل الآتية (من م ج) :

ـــ رسالة إلى الخليفة الناصر حول تأديب بعض القبائل العربية بالمغرب الأقصى رقمها 55

ـــ رسالة حول انتهاك قشتالة حالة الهدنة مع الموحدين (للعطاء) .... رقمها 63

ـــ رسالة جوابية من اشبيلية حول قرب انتهاء الهدنة [مع قشتالة]، (المخطوط الخاص) رقمها 64

ـــ رسائل من والي اشبيلية إلى الخليفة أو وزيره ابن جامع (المخطوط الخاص)، الرقم من 70 إلى 104 ماعدا 77 و85 و97.

ـــ بعض رسائل «العطاء الجزيل» أرقام 77 و90 و91 و92 و93 و96 و97

ـــ رسائل في البيان المغرب من عهد الناصر إلى المرتضى : 67 و68 و85 و105 و106 و109 و110 و113 ومن 117 إلى 130.

ـــ رسائل في صبح الأعشى :

رسالة استعطافية إلى الناصر .... رقمها 69

رسالة إلى المستنصر حول أرغوني يطلب اللجوء السياسي ...... رقمها 107

رسالة جوابية حول تصرف عامل ثغر شقورة .... رقمها 111

رسالة عن المستنصر إلى بعض عماله مستنكرا عليه خرق الهدنة رقمها 83

ـــ رسائل من إنشاء ابن عميرة: رسالة عن السيد أبي زيد حول نبيل أركوني (نفس الرسالة 107)

رسالة حول بيعة الخليفة عبد الواحد (المخلوع) .... رقم 108

رسالة حول فتح حصن بشج .... رقم 115

رسالة حول اضطراب أمور الشرق الأندلسي .... رقم 116

رسالة (ظهير) توقير عن الخليفة الرشيد .... رقم 122

رسالة (ظهير) عنه بتوطين أهل شرق الأندلس برباط الفتح رقم 123

ـــ رسائل (تقاديم) جمعها المسمى يحيى (مخطوط الخزانة الحسنية رقم 4752)، عددها 77 رسالة تقديمية وضعت ملحقا لرسائل المجموعة الجديدة.

الموضوع الأول :

خصوصيات بعض رسائل الفصل الرابع

1 ــ رسالة إلى الناصر حول اعادة توطين بعض القبائل العربية (رقم 55) :

وردت هذه الرسالة في مخطوط العطاء الجزيل ضمن الزوائد الملحقة بآخره وهي غير مؤرخة، كما أنها وردت مقسمة إلى جزئين بسبب سوء ترتيب أوراق المخطوط : فوقع جزءها الأول على الصفحتين 26 و27 وجزءها الأخير على الصفحات 22 و23 و24[1].

وبالنسبة لتاريخ الرسالة فإنه محذوف ربما من طرف الكاتب الأصلي أو ممن تصرف في نقل الرسالة، و لم نجد غير إشارة سريعة في البيان المغرب لترجيح وضع تأريخ تقريبي لها وهو سنة 600، فهذه الإشارة وردت ضمن أحداث هذه السنة هكذا : «وفي هذه السنة كانت سطوة الناصر بعرب المغرب واستأصلهم وقتلهم وغرّب بعض أشياخهم إلى الأندلس[2].

وبالنسبة **لأهمية الرسالة** فإنها تظهر في جانبين :

ــ **الجانب الأول** هو أن المصادر الموحدية وعلى رأسها البيان المغرب لا توضح استقرار العرب بالمغرب وخاصة بتادلى في عهدي المنصور والناصر، وعندما يتحدث ابن خلدون عن توطين المنصور للعرب بالمغرب الأقصى لا يذكر بلاد تادلى بل يميل إلى التعميم بذكر توطين عرب رياح في الشمال الغربي للمغرب الأقصى وتوطين عرب جشم ببلاد تامسنا التي يعرّفها بأنها «البسيط الأفيح بين سلا ومراكش»[3]، بينما توضح هذه الرسالة بأنه كان هناك استقرار على الأقل منذ أيام الناصر لبعض قبائل العرب الجشميين مثل سفيان والخلط وبني جابر بتادلى[4].

ــ **الجانب الثاني** هو أن المصادر المعروفة ــ والتي أمكن الاطلاع عليها ــ لا تذكر (قبل العقاب) فتنة للقبائل العربية بالمغرب الأقصى أو اصطداما بينها وبين الجيش الموحدي ماعدا في إشارتين عامتين : الأولى، وردت عند ابن خلدون عندما ذكر بأن زعيم رياح مسعود /

(1) راجع الهامش (1) على الرسالة 55 م ج.

(2) البيان 218 ط. تطوان، وورد في التشوف ضمن ترجمة أحد صلحاء دمنات المتوفّى سنة 602 أن العرب كانوا يعيثون يمينا وشمالا في الفحص (ص 391)، ولعله يقصد الفحص بين جبل دمنات وتامسنا حيث يستقر الجشميون، قارن مع الوزّان في «وصف إفريقيا» 42/1.

(3) العبر 58/6.

(4) زوائد العطاء (23—24).

بن سلطان عاد بجماعة من قبيلته من المغرب الأقصى إلى إفريقية في التسعينيات[5]، والإشارة الثانية هي التي وردت عند ابن عذاري عن سطوة الناصر بعرب المغرب[2]. **فهذه** الرسالة إذن **تشير إلى فتن العرب باكرا وهو ما كان المنصور يتكهن بحدوثه**[6].

وهكذا فإن الرسالة تؤكد قدم سكنى العرب بتادلى وتامسنا على الأقل منذ عهد الناصر، كما تؤكد سوء العلاقة بينهم وبين السلطة الموحدية مبكرا أو إحداثهم للشغب في منطقة استقرارهم. فهل يصح الافتراض بأن استيطانهم العرب بتادلى أقدم من استيطانهم بتامسنا ؟

2 ــ رسالة عن السيد أبي زيد عبد الرحمان والي جيان إلى ملك قشتالة (رقم 63) :

هذه الرسالة من إنشاء أبي القاسم البلوي أوردها في كتابه العطاء الجزيل (ص 53–54)، وهي رسالة تفرض علينا محاولة تحديد تاريخها ولو بالتقريب.

فالبلوي كتب عن أبي زيد والي جيان وهو ابن الخليفة عبد المومن حسب ابن عبد الملك[7]، كما أن أبا زيد تولى على جيان منذ سنة 607 حيث نقل إليها بعد نهاية ولايته على سجلماسة[8] ويذكر المراكشي أن قشتالة نقضت الهدنة مع الموحدين سنة 607[9]. من هنا يترجح أن يكون تاريخ هذه الرسالة هو سنة 607، وفي آخرها جاز الناصر بعساكره إلى الأندلس[10].

تظهر **أهمية هذه الرسالة** في نقطتين :

ــ الأولى أنها تصرّح بوجود هدنة كانت مبرمة بين الطرفين الموحدي والقشتالي بشكل رسمي وهذا ما يدعم قول المراكشي، بينما لا يتضح ذلك من مصادر أخرى، فابن عذاري[11] مثلا يتحدث عن قدوم المبعوث القشتالي إلى المغرب سنة 600 لعقد الهدنة أو تجديدها بدون أن يذكر مدتها.

ــ الثانية يتضح منها وجود تحالف قشتالي أرغوني بشكل عملي شجع قشتالة على خرق الهدنة، وهي التي كانت منذ هزيمة الأرك سبّاقة لطلب عقدها.

---

(5) العبر 79/6.

(6) زيادة على ما ذكره صاحبا البيان والعبر يمكن ملاحظة ما كتبه Marçais في Les Arabes en Berbérie du XI^e au XIV^e S. p. 327 وكذلك هنري طيراس H. Terrasse في Histoire du Maroc des Origines à l'Etablissement du Protectorat Français V.I/ 346-347, 360-361 (1949-1950).

(7) الذيل، السفر الأول، القسم الثاني، ص 455.

(8) البيان 234، العبر 521/6.

(9) المعجب 318، ط. القاهرة 1949.

(10) البيان 237.

(11) البيان 218.

أي أن العلاقات بين القوى السياسية الاسبانية أخذت تتطور في اتجاه لا يخدم مصلحة الموحدين باسبانيا والتي كانت قائمة على نوع من التوازن السياسي والعسكري بين الطرفين.

3 ـــ رسائل المخطوط الخاص :

يبلغ عددها ثلاثا وثلاثين رسالة ما بين مبتورة وكاملة، والصفة المشتركة فيما بينها هي أنها رسائل موجهة من بعض ولاة الأندلس وبالأخص ولاة إشبيلية إلى الخليفة الناصر أحيانا وإلى المستنصر ووزيره غالبا. وأغلب الرسائل مبتورة البداية، كما أنها غير مؤرخة إلا اثنتين منها، وجلّها يقع بعد تاريخ معركة «العقاب» فيما بين أوائل سنة 611 وأواسط سنة 612 على الأرجح، أي في عهد الولاية الأخيرة باشبيلية للسيد إبراهيم بن الخليفة يوسف بن عبد المومن. هذه الرسائل هي من إنشاء الفقيه الكاتب أبي العباس ابن جعفر إلا اثنتين منها : الأولى من إنشاء القاضي أبي القاسم بن عذرة، والثانية من إنشاء الكاتب أبي الحسن بن وضّاح موجهة إلى الخليفة المنصور(12).

• بالنسبة لرسالة القاضي **أبي القاسم بن عذرة** عن «طلبة» الجزيرة الخضراء إلى السيد أبي عمران بن أبي موسى بن الخليفة عبد المومن (رقمها 58 م ج) لا يتضح ما إذا كانت من الرسائل الإخوانية أو الرسمية، فهي تتحدث كثيرا عن مجالس السيد أبي عمران، ولا يستبعد أن تكون مجالس رسمية، فربما كان أبو عمران هذا واليا على الجزيرة نيابة عن أبيه أبي موسى الذي كان في نفس هذه الفترة واليا على اشبيلية منذ سنة 601(13)، وتتحدث الرسالة عن غيابه عن المدينة وطول الاشتياق إليه، فهل كان مرافقا للناصر خلال حملته إلى إفريقية آنذاك ؟

• هناك رسالة للكاتب **أبي العباس بن جعفر** في الصفحتين (342 و343) من المخطوط (رقمها 60 م ج) لا تحمل تاريخا ولا اسما للوالي المكتوبة عنه ولا اسم الخليفة الموجهة إليه، بل لا يفهم من وجهتها نحو الخليفة غير أسلوبها، ويتضح منها أنها جوابية على رسالة خليفية سابقة. هذه الرسالة الجوابية تلمّح إلى ما ورد في رسالة الخليفة ـــ المفقودة ـــ «من تردد الموحدين» على «الغرب الأوسط... لتأنيس رعاياه، والفحص عن شؤونه وقضاياه»، ثم ما تم بعد ذلك من «تيسير أسباب رحلة الموحدين... إلى أوطانهم... والحمد لله.... على ما عرّف الحضرة الامامية في هذه الحركة السعيدة من التيسير والتسهيل.... والظفر الذي صاحبَها...».

فالإشارة هنا لا تنص صراحة على تحرك الخليفة بنفسه إلى المغرب الأوسط فنفهم أنها هي نفس الحركة إلى إفريقية فيما بين 601 و603، ولكنها تذكر «تردد الموحدين»، ثم رحلتهم إلى أوطانهم بعد تأنيس الرعايا مما يجعلنا نفهم أن هذه الحركة تتمثل في الحملة التي قادها

(12) انظر خصوصيات هذه الرسالة في الفصل الأول، وهي تحمل رقم 44 من المجموعة الجديدة.
(13) البيان 219.

ابن يَوُجّان الهنتاتي إلى تلمسان ونواحيها سنة 605 لإبعاد خطر بني غانية ومساعديهم من زناتة بالمنطقة بعدما تغلبوا على جيش الوالي السابق وقتلوه، فحملة ابن يوجان هي التي تمكنت من إبعاد ذلك الخطر[14].

وهناك ملاحظة أخرى في هذه الرسالة وهي أن كاتبها على غير عادته أغفل الحديث عن العلاقة مع النصارى مما يرجح أن الأمور كانت عادية ربما بسبب هدنة تجددت في أمد غير بعيد من التاريخ المحتمل لهذه الرسالة وهو سنة 605 وربما أواخرها.

في هذه الفترة كان والي اشبيلية هو السيد أبو إسحاق إبراهيم بن المنصور خلال الفترة (605–607)، فهو موجّه الرسالة على الأرجح.

• **وهناك رسالة أخرى للكاتب أبي العباس بن جعفر** على الصفحات (330–332) من المخطوط (رقمها في المجموعة 64) كتبها عن والي اشبيلية ـــ واسمه غير مذكور ـــ إلى الخليفة الناصر (حسب الدعاء له). والإشكال الأساسي فيها هو عدم تأريخها، لذا سنحاول وضع تاريخ تقريبي لها وتحديد اسم الوالي المكتوبة عنه، والاعتماد الأساسي في هذا هو بعض التلميحات التي تتضمنها الرسالة : فهي جوابية على رسالة خليفية، وتتضمن ثلاث نقط :

* انشغال الناس بضم زرعهم، وهذا مرتبط باستمرار حالة الهدنة مع النصارى، غير أن هذه الهدنة لم يبق في أجلها غير نحو شهرين[15].
* طلب الوالي للاذن بالقدوم على الخليفة للقائه.
* الإشارة لما ورد في رسالة الخليفة وهو الخبر المبشر «بمشارفة الحضرة الامامية ثنايا البلاد» وذلك بعدما صنع الله «للحضرة الامامية في هذه الحركة السنية من الصنع الجميل.... والتمكين والتكريم والتيسير والتسهيل».

نجد أنفسنا هنا أمام افتراضين :

الأول هو اعتبار الحركة المذكورة هي حركة الناصر إلى افريقية بين 601 وأواخر 603 أو أوائل 604، وأن «مشارفة» الخليفة للبلاد يكون معناه دنوه من المغرب الأقصى، وأن الوالي يطلب منه الإذن للقائه هناك، بينما الوضع بالأندلس عادي ولكنه يتطلب النظر في مسألة نهاية أجل الهدنة. أما اسم الوالي إذا صح هذا الافتراض فهو السيد أبو موسى بن الخليفة عبد المومن المعيّن منذ 601[16] ويكون تاريخ الرسالة هو أواخر سنة 603 على الأرجح،

---

(14) راجع في هذا الفصل (الدراسة التاريخية) ص 174، والبيان (228–230).

(15) يتحدث صاحب المعجب عن هدنة بين الموحدين وقشتالة سنة 593 أو 594 ولمدة 10 سنوات أي أنها تنتهي سنة 603 أو 604 (ص 283)، ويحدد ابن عذاري عقد السلم سنة 594 (ص 204)، وربما هذه الهدنة هي التي تجددت مع الناصر سنة 600 (البيان 218).

(16) البيان 219.

وإذا صح أيضا هذا الافتراض تكون أهمية الرسالة راجعة إلى كونها المصدر الوحيد (لحدّ الآن حسب علمنا) الذي يشير إلى تجدد الهدنة خلال الفترة بين 600 و607.

الافتراض الثاني هو اعتبار الحركة المذكورة هي حركة الناصر إلى الأندلس والتي ابتدأها من مراكش في شعبان 607 وخرج من رباط الفتح في 18 شوال، وكان الجواز إلى الأندلس خلال شهر ذي القعدة واستمر إلى فاتح ذي الحجة[17] فيكون عندئذ المقصود من «مشارفة الحضرة الإمامية ثنايا البلاد» هو دنوه من الأندلس أو إشبيلية (التي صدرت منها الرسالة والذي يرجّح أيضا أنها الأندلس هو التلميح لما يمكن أن تؤثر به هذه الحركة على الأعداء النصارى «فيدعو لها الكافرون حيث كانوا ثبورا». ومع اقتراب الخليفة طلب الوالي الإذن بملاقاته[18] فأذن له[19]، وفي هذه الحالة تصطدم مع التناقض الآتي : من المصادر ما تذكر أن الناصر جاز إلى الأندلس بسبب اعتداءات الأركونيين وانتهاك القشتاليين للهدنة، بينما تذكر الرسالة «أن الروم مغتبطون بسلمهم» وربما هذا ما شجع الناس على جمع محاصيلهم في أمان؛ فهل حدث اعتداء النصارى قبل تحرك الخليفة فلما سمعوا بحركته تراجعوا وأخذوا يهيئون أنفسهم لمواجهة الحملة الموحدية ؟ هذا الافتراض الأخير يجعل والي اشبيلية هو السيد أبا إسحاق إبراهيم ابن الخليفة يوسف وتاريخ الرسالة هو أواخر 607، لكن في هذه الحالة لماذا الإشارة إلى قرب نهاية الهدنة إذا كانت قد اخترقت، فهل يرجع ذلك لكون الموحدين لازالوا ملتزمين بها ؟

إذا صحّ الافتراض الثاني فإن أهمية الرسالة تكمن في تأكيدها لما ورد في المصادر من نهاية أو إنهاء الهدنة سنة 607.

• **أما بالنسبة لرسائل المخطوط الخاص عن عهد المستنصر** فإنها تخص الفترة الغامضة في المصادر حول الأندلس بعد معركة العقاب، ويمكن تلخيص **أهمية هذه الرسائل** في النقط الآتية :

— نظرا لكون معظمها جوابية فإنها تلخص أهم نقط الرسائل الواردة من مركز الخلافة والتي هي حاليا مفقودة، ومن ذلك : الخبر عن مقتل الثائر الجزولي بجنوب المغرب.

— تصف حالة الأندلس الداخلية من ناحية الأمن ومن ناحية المطر والخيرات، أو نقص القوت، وأهم ما يشير إليه بعضها ما كان يقوم به العرب وكومية من العيث بالأندلس.

— تشير هذه الرسائل أيضا إلى الحالة العامة لدى النصارى خاصة القشتاليين والعلاقة بينهم وبين المسلمين كالإشارة إلى ذكر الفتن داخل بلاد النصارى، وذكر موضوع المفاوضات بين المسلمين والنصارى والحث من طرف الخلافة على الحفاظ على الهدنة معهم.

---

(17) البيان (236–237) والقرطاس ص 234 (ويجعل ذلك من فاتح شوال إلى آخر ذي القعدة.

(18) يذكر صاحب القرطاس أن الناصر جاز إلى طريف وبها استقبله كافة قواد الأندلس وفقهاؤها وصلحاؤها (234).

(19) انظر الرسالتين 65 و66 (م ج).

وهكذا تسد هذه الرسائل جزءا من الفراغ الذي تركته المصادر المغربية بالخصوص[20] والتي تحولت منذ معركة العقاب إلى الحديث عن انعكاساتها على الوضع الداخلي بالشمال الإفريقي ولن تعود للحديث عن الأندلس تقريبا إلا في السنوات العشرينية.

4 ـــ رسائل البيان المغرب :

مصدرها نسخ الخزانة الحسنية مقارنة مع نسخة الخزانة العامة (ق 200) أحيانا، وطبعة تطوان، وتتميز هذه الرسائل على العموم بقصرها حيث اقتبس ابن عذاري من كل منها فصلا أو بعض الفصول وحذف منها الصدر في الغالب. كما أنها تخلو أحيانا من التاريخ، ولكن منهجية المؤلف في اتباع أسلوب الحوليات تسهل تقدير تاريخ الرسائل الموضوعة ضمن أحداث كل سنة. كما أن نسخ الخزانة الحسنية تسد البتر الموجود في طبعة تطوان من خلال سنة 541 إلى خلال سنة 548 وما بقي من الأحداث في عهد الواثق آخر الخلفاء الموحدين. ونجد في رسائل البيان ما يتعلق بالعلاقات مع الاسبان مثل الرسالة رقم 67 حول فتح حصن شلبطرة والرسالة 68 حول الهزيمة في العقاب والرسالة رقم 85 حول تجديد الهدنة مع قشتالة، ومنها ما يتعلق بالظروف الداخلية والصراعات داخل الأسرة الحاكمة.

5 ـــ رسائل العطاء الجزيل :

إن رسائله التي ترتبط بهذا الفصل هي كما يلي :

• الرسالة رقم 77 **من إبراهيم بن الخليفة يوسف والي إشبيلية إلى «القمط نونه»** الوصي على عرش قشتالة يخبره بوصول الوفد القشتالي إلى اشبيلية في محاولة عقد الهدنة. وردت هذه الرسالة في العطاء (ص 18) وهي غير مؤرخة، ويرجّح أن يكون تاريخها ما بين أواسط سنة 611 وأواسط 612، ففي أواسط 611 (خريف 1214) مات الفونسو القشتالي وأصبح الملك الطفل هنري تحت الوصاية[21] ودخلت البلاد في حرب أهلية أو كانت على أبوابها، ومن مصلحتها البحث عن الهدنة مع الموحدين، وفي أواسط 612 كان والي اشبيلية لايزال هو إبراهيم بن الخليفة يوسف الذي كتبت عنه هذه الرسالة وسيموت في أواسط شعبان من نفس السنة[22]. فأهمية هاته الرسالة أنها تؤكد أن الطرف المبادر لطلب الهدنة هو قشتالة، وهذه الرسالة تتكامل مع بعض رسائل المخطوط الخاص (ص 315-318) وهي تحت رقم 78، و(ص 349-352) ورقمها 79 و(ص 352-353) ورقمها 80 في قسم الرسائل.

• الرسالة رقم 97 **عن الخليفة المستنصر إلى والي اشبيلية المذكور** سابقا يبشر بمقتل الثائر

---

(20) لم نتمكن بعد من تفحص المصادر الإسبانية بالنسبة لهذه الفترة.

(21) في سنة 1215 أصبح البارو نونيزدي لارا وصيا رسميا على الملك الطفل هنري إلى جانب برنجاريا أخت الملك (اشباخ 387-388).

(22) العطاء ص 79 (لم تنشر هذه الرسالة ضمن المجموعة الجديدة).

ببلاد جزولة، وردت في زوائد العطاء (ص 11-12) وهي مؤرخة بـ21 ربيع الآخر سنة 612 ويتخللها بعض البتر، وتعتبر من أقصر الرسائل الموحدية في هذا المخطوط على غير عادتها[23]. وهذه الرسالة تتكامل مع رسائل المخطوط الخاص : رقم 98 (ص 325-327) ورقم 99 (343-345) ورقم 100 (359-362) ورقم 101 (362)، وجميعها تبرز خطورة هذه الثورة ومدى الفرحة الكبرى بالقضاء عليها، وهو نفس ما يشير إليه صاحب المعجب (328-329).

• يتضمن أيضا مخطوط العطاء رسالتين تتعلق الأولى بنعي والي إشبيلية المذكور إبراهيم ابن الخليفة يوسف إلى وزير الخليفة المستنصر وهي مؤرخة بـ 16 شعبان 612[23]، وتتعلق الثانية بتعيين وال جديد خلفا له وهو أبو إسحاق إبراهيم بن الخليفة المنصور، وهي صادرة عن المستنصر ومؤرخة بـ 21 رمضان 612 (رقمها في قسم الرسائل 105). إن هاتين الرسالتين تؤكدان ما ذكره صاحب المعجب من موت إبراهيم بن يوسف في شهور سنة 612 (ص 330)، وتصححان خطأ صاحب البيان المغرب (243) الذي يجعل بدء ولاية إبراهيم ابن المنصور على اشبيلية سنة 611.

• **رسائل عن عيث القبائل العسكرية بالأندلس،** وهي أربع رسائل في «العطاء» كلها تسمي الجماعات العائثة باسم «فلانة» : الأولى من والي إشبيلية إلى الوزير ابن جامع رقمها 90 (ص 167-169 في العطاء) وهي غير مؤرخة، والثانية من الوالي إلى القائد أبي القاسم بن مثنى رقمها 91 (ص 169) والثالثة مؤرخة بـ 20 محرم 612 وهي موجهة فيما يبدو إلى الوزير المذكور ورقمها 92 (ص 169-170)، والرابعة غير مؤرخة رقمها 93 (ص 170-171 من العطاء أيضا)، وتتكامل معها رسائل في المخطوط الخاص وهي رقم 79 (349-352) ورقم 94 (322-325) ورقم 95 (347-348 من صفحات المخطوط الخاص)، ثم تأتي بعد ذلك رسالة العطاء حول استدعاء الخليفة لجند كومية ورقمها 96 (ص 7 من المخطوط)، وهي مؤرخة بـ 13 شعبان سنة 616 ! ويبدو أن هناك خطأ في هذه السنة فالمؤلف البلوي يصرح بأنه بدأ تأليفه في شعبان 610 وانتهى منه في شعبان 613، وأن معظم ما كتبه كان خلال السنة والنصف (611-612) التي كتب فيها عن والي اشبيلية السيد إبراهيم بن الخليفة يوسف[24]، وبما أن ترتيب الرسالة بالمخطوط في الفصل الخامس عشر من الفصول العشرين يجعلها أقرب إلى النهاية وليس إلى البداية[25] **فإن الرسالة لا يبعد أن يكون تاريخها** هو شعبان 611 أو شعبان 612 وهذا أقرب إلى الصواب مادام التشكي

---

(23) هل كان هذا أيضا من نتائج هزيمة العقاب التي حطمت كبرياء الموحدين ؟ فرسائل ما بعد «العقاب» (أو ما بقي منها على الأقل) أقصر من رسائل الفترة السابقة.

(24) العطاء (171-172).

(25) إن البتر في المخطوط يشمل الفصول من الأول إلى خلال الفصل الخامس عشر.

مستمرا من عيث «فلانة» إلى مطلع هذه السنة[26].

هذه الرسائل تبرز الدور السلبي الذي أصبح للقوات العسكرية بالأندلس بعد هزيمة العقاب حيث تؤكد الخلل في الجهاز العسكري والعجز عن ضبطه وهذا مرتبط أيضا بتأثيرات الهزيمة على الوضع الداخلي بالمغرب، وإن إهمال المصادر العربية لمخلفات الهزيمة بالأندلس يعطي أهمية خاصة لمثل هذه الرسائل[27].

6 — رسائل ابن عميرة :

إن شهرة ابن عميرة كأديب ساعدت على استعمال بعض رسائله كنماذج للكتابة الأدبية ومنها المراسلات الرسمية، وبالنسبة لهذه المراسلات التي تهم الدولة الموحدية نجدها موزعة كما يلي :

• رسالة كتبها عن **السيد أبي زيد صاحب بلنسية إلى الخليفة المستنصر حول لاجىء أرغوني** (رقمها 107)، هذه الرسالة نقلها القلقشندي في صبح الأعشى ج 6/ (534-535) مع خلط في التقديم — حسب المطبوع — كما أن مخطوطا لرسائل ابن عميرة بالخزانة العامة بالرباط (ك 233) يحتفظ بهذه الرسالة التي أمكن بها تصحيح ومقارنة رسالة صبح الأعشى خاصة بالنسبة لاسم اللاجىء، غير أن الرسالة في المصدرين خالية من التأريخ[28].

وأهمية هذه الرسالة أنها توضح خطأ ما ذهب إليه ابن خلدون من اعتباره كوْن ولاية أبي زيد بدأت بعد موت المستنصر[29]، كما تظهر هذه الرسالة عدم الاستقرار الداخلي في أرغون وكان هذا بسبب التنافس على العرش منذ وفاة بيدرو الثاني في أعقاب معركة العقاب فتكرر عرض «الخدمة» من هذا النبيل الأرغوني أكثر من مرة على سلطة بلنسية الموحدية[30].

• رسالة كتبها أيضا ابن عميرة عن السيد أبي زيد توجد ضمن مخطوط (مجموع) يضم

---

(26) الرسالة رقم (92)، انظر أيضا في الدراسة التاريخية بهذا الفصل (ص 190-194).
ومما ساعد على تحديد تأريخ هذه الرسائل نسبيا المقارنة بين الرسالة المؤرخة بعشرين محرم 612 (21 مايو 1215) وبقية الرسائل الأخرى التي كتبها البلوي عن نفس الوالي إلى وفاة هذا في منتصف شعبان 612.

(27) انظر أيضا الدراسة التاريخية في نفس الفصل والصفحات المذكورة.

(28) رجح الأستاذ بن شريفة في دراسته عن ابن عميرة أن تاريخ هذه الرسالة قد يكون سنة 618 (ص 90)، غير أن برسلو طوريس Barcilo Torres يرجح نفي «بلاسكو دي ألاكون» إلى أرض المسلمين في خريف 1223 (أي الأشهر الأخيرة من سنة 620) معتمدا في ذلك على أنه منذ هذا التاريخ لا يذكر وجوده بأرغون، (مقال عن السيد أبي زيد بمجلة «أوراق» العدد الثالث سنة 1983 ص 103، نشر المعهد الاسباني العربي للثقافة، مدريد، المقال بالاسبانية).

(29) العبر 360/4.

(30) انظر أيضا الصفحة 195 من هذا الفصل.

السفر الأول من رسائل ابن عميرة (رقمها 108)[31] والرسالة موجهة من بلنسية إلى الخليفة عبد الواحد (المخلوع)، وهي غير مؤرخة، ولكن موضوعها قد يساعدنا على تقدير تاريخها نسبيا، فهي تعبر عن بيعة أهل بلنسية لهذا الخليفة ونحن نعلم أنه بويع في يوم 13 من ذي الحجة 620[32] ونازعه في أمر الخلافة عبد الله بن المنصور (العادل) والي مرسية في 13 صفر 621، ولعل تاريخ هذه الرسالة لا يخرج عن حدود هذه الفترة أي من أواسط ذي الحجة إلى أواسط صفر (مدة شهرين).

وتظهر **أهمية هذه الرسالة** في كونها الوحيدة ــ من الرسائل الرسمية المعروفة إلى الآن ــ عن عهد الخليفة عبد الواحد المخلوع[33]، كما قد تلمح إلى خلاف في البداية حول من يخلف المستنصر وذلك في عبارة : «فانقلب حاسر الرجاء دارعا ومتطاول الأمل بارعا، وعاد الناس بشرى....»[34] وتصرح بإحدى وسائل الاعتراف بالخليفة وهي خطبة الجمعة كما هي العادة في العالم الإسلامي.

• وبالنسبة للرسالة رقم 115 الصادرة عن السيد أبي زيد من إنشاء ابن عميرة حول فتح حصن «بشج» فإنها تطرح مسألة عدم تأريخها، فهي كما يتضح من عباراتها موجهة إلى المأمون أيام خلافته التي ابتدأت باشبيلية في شوال 624 وقد بقي بها حوالي سنتين، وفي أوائل هذه المدة تم فتح هذا الحصن الواقع على الثغور بين ولاية بلنسية ومملكة أرغون[35].

• وتضمن السفر الأول من رسائل ابن عميرة أيضا رسالة كتبها عن السيد أبي زيد ببلنسية إلى الخليفة المأمون كما يتضح من التقديم للرسالة في المخطوط[36]، وكما يتضح أيضا من عبارة داخل الرسالة وهي «الخلافة العلية المأمونية». إن الرسالة تلمح إلى الاضطراب في شرق الأندلس وخاصة حول قضية مرسية التي يبدو أن ابن هود كان استولى عليها وأخذ يحاول مد نفوذه إلى الجهات المجاورة مثل لورقة وميورقة، وكانت ثورته بمرسية في أول رمضان سنة 625، وتلمّح الرسالة أيضا إلى فشل الحصار الموحدي لمرسية وهو الحصار الذي قام به المأمون بنفسه في ما يبدو، وتتضمن الرسالة إظهارا لاستمرار أبي زيد على الولاء رغم

---

(31) وهذا السفر هو من مصورات الخزانة العامة (ضمن مخطوطات جائزة الحسن الثاني لسنة 1981) تحت رقم 4502/د، الورقتان 3 و4.

(32) البيان 247 والقرطاس 243.

(33) هناك رسالة خاصة وجهها ابن سعيد (والد صاحب «المغرب في حلى المغرب») عن نفسه من إشبيلية إلى عبد الواحد وهو بمراكش يهنئه بتوليه منصب الخلافة وقد سبق أن كان كاتبا له. (نفح الطيب 362/2-364، ومخطوط خ ع/ك 233 (ص 114-116).

(34) انظر في الدراسة العامة بهذا الفصل ص 160، وراجع المعجب ص 329-330.

(35) انظر بقية التفاصيل في الدراسة العامة بهذا الفصل ص (194-195).

(36) مخطوط (مصور) خ ع الورقة 41-42، ورقم هذه الرسالة 116 (م ج).

التهم الموجهة إليه، وهو في نفس الوقت يطلب الدعم لمواجهة أعدائه وخاصة ابن هود في جنوب ولايته. هذه الرسالة غير مؤرخة ولكن يمكن حصر تاريخها بين ثورة ابن هود في أول رمضان سنة 625 وتاريخ ثورة ابن مردنيش ببلنسية على السيد أبي زيد في 25 صفر سنة 626. **فأهمية الرسالة** تظهر في كون أبي زيد الذي قيل عنه أنه كان حليفا للنصارى منذ أيام العادل نجده مرتبطا بالمامون ولو شكليا، وربما لم يتحول عن الولاء له إلا بعد ثورة ابن مردنيش ببلنسية وتزايد نفوذ ابن هود بانتقال المامون إلى المغرب وانشغاله بمشاكله[37].

• أمّا بالنسبة لرسائل **ابن عميرة في عهد الخليفة الرشيد،** فنجد ظهيرا كتبه عن هذا الخليفة بالتوقير للمسمى الشيخ أبي بكر بن أبي الحسن بن غالب، ورد في مخطوط «زواهر الفكر»[38] والظهير مؤرخ بجمادى الآخر سنة 637.

كما نجد ظهيرا آخر كتبه ابن عميرة عن نفس الخليفة يسمح لأهل شرق الأندلس بالاستقرار برباط الفتح وهو مؤرخ بـ 21 شعبان 637 في زواهر الفكر المذكور (الورقتان 115-116)، بينما هو محذوف التاريخ في مخطوط رسائل ابن عميرة : ك 232 (ص 118-120)، ووجود هذا الظهير في كل من السفر الأول لهذا المخطوط وفي «زواهر الفكر» يساعد على المقارنة بين نصّيه[39]. وترجع **أهمية هذا الظهير** إلى كونه يشير إلى ظروف أول استقرار أندلسي برباط الفتح.

كما كتب ابن عميرة عن أهل سلا ـــ ربما أيام قضائه بها وبرباط الفتح ـــ رسالة جوابية على رسالة الخليفة الرشيد المبشّرة بوصول بيعة أهل تلمسان. **وأهميتها** تظهر في عنصرين : الأول في تأكيد عودة تلمسان إلى السيادة الموحدية ولو اسميا، وهذا ما تذكره بعض المصادر بإشارتها إلى تبادل الهدايا بين يغمراسن والرشيد في وقت ازداد فيه على الأول خطر الحفصيين، والعنصر الثاني يظهر في التلميح إلى أهمية تلمسان التجارية : «... وفاخرُ متاعها لا يضاهيه المتاع...». والرسالة غير مؤرخة، ويرجح أن يقع تاريخها ما بين 638 و640، فابن عميرة كان في سنة 637 كاتبا للرشيد ثم نقل إلى قضاء هيلانة، ثم قضاء سلا ربما سنة 638، وبما أن الرشيد توفي سنة 640، فتاريخ هذه الرسالة في الغالب لا يتقدم عن سنة 638 ولا يتأخر طبعا عن سنة 640[40].

---

(37) انظر أيضا الدراسة التاريخية ص (194-195).

(38) مخطوط «زواهر الفكر وجواهر الفقر» بالأسكوريال تحت رقم 520 (ضمن الفهارس العربية)، وهو مصور بالخزانة العامة على شريط، ويقع نص هذا الظهير على الورقة 16، ورقمه في قسم الرسائل 122 (م ج).

(39) يوجد الظهير في قسم الرسائل تحت رقم 123 (م ج).

(40) انظر الدراسة التاريخية بهذا الفصل ص (207-209).

7 ـ رسالة الخليفة الموحدي إلى شيخ بني أمغار (رقم 114 م ج) :

وردت هذه الرسالة ضمن كتاب «بهجة الناظرين...» لمحمد بن عبد العظيم الأزموري في ثلاث نسخ بالخزانة العامة بالرباط ثم نسخة بالخزانة الحسنية، ويتضح منها التناقض بين أمرين : بين نسبة الرسالة للناصر وبين تاريخ الرسالة وهو سنة 625، فهناك ما يبعد صحة النسبة للناصر :

ـ فهذا توفي سنة 610 بإجماع المصادر التاريخية.

ـ والناصر لم تكن له غير حركة واحدة إلى الأندلس انتصر خلالها في شلبطرة ثم عاد إلى المغرب بعد الهزيمة في «العقاب»، بينما تتحدث الرسالة عن الانتصار وقرب العودة إلى المغرب، فالواقع أن الناصر عاد بعد الهزيمة وليس بعد النصر.

ـ فلم تكن هناك غزوة أخرى من الناصر للنصارى أعقبها صلح بين الطرفين على عكس ما في الرسالة.

ـ ان شيخ بني أمغار زمن الناصر هو أبو يعقوب يوسف المتوفى سنة 614[41]، وقد خلفه في المشيخة على بني أمغار ورباط طيط أخوه أبو عبد الخالق بن أبي عبد الله المذكور في الرسالة.

بينما هناك من الإشارات ما يقرّب صحة التاريخ الوارد في الرسالة أي نسبتها إلى المامون بن المنصور :

ـ ففي الرسالة تلميح إلى أخذ الحكم وليس وراثته، فالخليفة ينتقد عهد سلفه : «ولم نتكلّف حمْل هذه الأمانة... حتى وجدنا تلك الأساس منهدّة...» وهذا لا ينطبق على نهاية عهد المنصور وبداية عهد الناصر، بينما يمكن أن ينطبق على عهد العادل والمأمون.

ـ في الرسالة عبارة «كان العدو قد كلب بالفتنة...» وهذه متناسقة مع ما نعرفه عن تسلط القشتاليين وحليفهم البياسي على أرض الأندلس. وبعد محاولات المأمون أمكن القضاء على البياسي والصمود ولو نسبيا في وجه القشتاليين «فانقبض تبسط (العدو)... فأمنت السبل...».

ـ تشير الرسالة إلى صلح بين الخليفة و«العدو»، ويمكن أن ينطبق هذا على الهدنة التي تمت بين المأمون والقشتاليين[42].

(41) حسب التشوف (ص 445)، ولا يعقل أن يجتمع أبو عبد الخالق في المشيخة أو المكانة الروحية مع أخيه أبي يعقوب يوسف الذي حضر جنازته عند وفاته سنة 614 نحو من 15000 شخص (المصدر).

(42) يجعل اشباخ تاريخ هذه الهدنة سنة 1227 أواخر سنة 626 (تاريخ المرابطين والموحدين 494)، وليس مستبعدا أن تكون الهدنة التي أشارت إليها الرسالة هدنة أولى وقعت سنة 625 ثم وقع تجديدها بعد ظهور مشكل ابن هود ورغبة المامون في الجواز إلى المغرب.

ــ توجد في الرسالة الإشارة إلى نية العودة إلى المغرب، لكن إذا حدث طارىء كثورة ابن هود التي وقعت في رمضان 625[43]، يمكن أن يتأخر تاريخ العودة فلم تحدث إلا أواخر سنة 626، وربما كان المأمون ينتظر أيضا توصله بالمرتزقة من القشتاليين بالخصوص، وينتظر أيضا تزايد أنصاره بالمغرب الأقصى على حساب منافسه المعتصم ابن الناصر. ويبدو أن بني أمغار كانوا من الذين يعملون لصالح الدعاية للمأمون خاصة إذا اعتبرنا حديث صاحب «البهجة» (ص 36-37)[44] عندما يتحدث عن صراع بين السادة على الخلافة «فأيد الشيخ أبو عبد الخالق الخليفة الناصر (كذا، والصواب : المامون) باشبيلية وشجعه على المجيىء إلى مراكش، فلما جاز تمكن من دخول مراكش والاستيلاء على المغرب دون تعب». ونحن نعلم أن الناصر كان ولي العهد للمنصور رسميا[45]، ولا تتحدث المصادر عن وجوده بالأندلس عند وفاة أبيه ولا عن أية صعوبة لوصوله إلى منصب الخلافة. أما مقتل العادل فقد أدى فعلا إلى وجود متنافسين على العرش هما المأمون بن المنصور باشبيلية ويحيى المعتصم بن الناصر بمراكش، وكان المأمون يراسل أهل المغرب ليكثر من أنصاره.

وهكذا نجد خلطا في الأسماء داخل الرسالة وخارجها ضمن كتاب «البهجة»[46]، وتجعلنا المقارنات السابقة نرجّح صحة تاريخ الرسالة واعتبارها صادرة عن المأمون بن المنصور وليس عن الناصر بن المنصور، أي أن الخلط وقع بين اثنين من أبناء المنصور.

وأهم ما يمكن أن تظهره الرسالة ــ ولو تلميحا ــ هو وجود دعم مشترك بين السلطة وشيوخ بني أمغار، وقد كانت لهم رابطة في طيط بنواحي أزمور[47]، ونلاحظ هذه العلاقة أيضا بين أحد مشايخهم والأمير المرابطي علي بن يوسف بن تاشفين[48].

---

(43) بينما الرسالة مؤرخة بشعبان 625.

(44) من النسخة ج/ 896 بالخزانة العامة.

(45) انظر البيان 211، والرسالتين 40 و41 (في قسم الرسائل) وخصوصياتهما في الفصل الأول من البحث (بالقسم الأول).

(46) ففي نسخة ج/377 (خ ع) يذكر في تقديم الرسالة اسم «يوسف بن أمير المومنين عبد المومن»، وفي نصها «من أمير المومنين بن أمير المومنين أيده الله بنصره» أي الخليفة يوسف بن عبد المومن.

(47) هل هذا التدخل في الشؤون السياسية هو الذي أدى إلى إبعاد أحد أقطاب هذه الأسرة خارج منطقته حيث استقر به المطاف أخيرا بفاس ؟ (أسرة المليلي، بيوتات فاس 47-48)، البحث العلمي 1964-1965) والملاحظ أن د. الشيخلي في مقاله عن بني امغار الصنهاجيين لم يميز بينهم وبين بني أمغار عائلة المهدي بن تومرت، البحث العلمي 33/ ص 178 (سنة 1982).

(48) انظر رسالة في «بهجة الناظرين» عن هذا الأمير إلى شيخ بني أمغار أبي عبد الله محمد ص 30-31 من نسخة خ ح رقم 1358، وانظر أيضا الصفحة 34 بنفس النسخة عن علاقة الشيخ مع المنصور.

8 ـــ رسائل مخطوط يحيى (الملحق الأول) :

أ ـــ الخصائص العامة : يتضمن ما بقي من المخطوط رسائل تعيينات للولاة والعمال وكذلك للقضاة، عددها الكلي 75 رسالة منها 47 من الصنف الأول و28 من الصنف الثاني :

1 ـــ رسائل تقديم الولاة والعمال والقادة والشيوخ :

* **من حيث حجمها** : هي رسائل من النوع المتوسط في معظمها بالمقارنة مع بقية رسائل العهد الموحدي (على الأقل ما بقي من هذه التقاديم)، ويبتدىء المخطوط برسالة مبتورة، ويتضح من خلال ملاحظات جامع الرسائل في الصفحتين 7 و61 من المخطوط أن هناك رسائل أخرى مفقودة في أول المخطوط وفي آخره. كما أن البتر أصاب أغلبية الرسائل وخاصة فيما يتعلق ببداياتها (صدورها). هذا النوع من تقاديم الولاة يمتد إلى الصفحة 60 من المخطوط.

* **بالنسبة للجوانب المهملة** : فإن البتر في صدور الرسائل حرمنا من معرفة الجهة التي صدرت عنها التولية، كما أن البتر في نهايات جلّ الرسائل ضيّع علينا معرفة تاريخ التعيينات (هذا إن كانت جميعها في الأصل مؤرخة). أما الشخص المولّى والجهة المولّى عليها فيُذكران في كل رسالة تقريبا باسم (فلان) أو (أبي فلان) والجهة «فلانة»[49]. وأمام هذا الوضع من الصعب علينا إعادة ترتيب الرسائل بشكل مخالف لما في المخطوط، غير أنه يمكن تحديد الإطار الزمني العام لها حيث تمتد على الأرجح من عهد ولاية أبي العلَى (المامون) بالأندلس نائبا عن الخليفة العادل إلى خلال عهد المرتضى.

* **ما تتضمنه الرسائل** :

ـــ الإشادة بالمولَّى على البلد أو القبيلة، والإشارة أحيانا إلى أنه مجرّب في عمله، ومعروف في «حزب التوحيد»، وفي نصحه لخدمة الدولة.

ـــ التوصية له بتقوى الله والعمل بطاعته، والحرص على حماية البلد وأهله من «المفسدين» ومحق «أهل الشر والفساد»، وأحيانا حث الناس على «إقامة وظائف الدّين».

ـــ النظر في المصالح والأشغال أو «الأشغال المصلحية والأعمال المخزنية» أو ضبط الجباية أو استيفاء «الواجبات المخزنية» أو «حقوق المخزن»، وبعضهم كُلّفوا باستيفاء واجبات «المخزن» وواجبات «المختص»[50]، بحيث يبرز هنا نوع من الجباية ذكره غير معتاد.

ـــ الأمر برفع «المظالم والمستحدثات» أو «إزالة المحدثات والمظالم» أو «إزالة المحدثات الجورية»،

---

(49) انظر الجوانب الفنية في الرسائل ضمن مقدمة الجزء الأول من «رسائل موحدية».

(50) وذلك في تقديم عن الخليفة المعتضد (ص 55 من المخطوط) يشير إلى مجابي المخزن والمختص وتقديم عن المرتضى ـــ فيما يبدو ـــ يذكر «أشغالكم المخزنية وأعمال مجابيكم المختصية» (ص 57-58 من المخطوط). انظر ص (243-244) والهامش رقم 143.

ومثل هذه العبارات وردت في تقاديم يرجح أنها عن المرتضى[51].

- يسمى المولّى أحيانا **واليا**، ويبدو أنه صاحب الإشراف العام على الولاية، وأحيانا **عاملا**، وتذكر الرسائل أن من مهامه حماية المنطقة وتأمينها من جهة، ومن جهة أخرى مراقبة «الأعمال المخزنية» أي ما يهم مخازن الدولة. ويسمى المولّى أحيانا **ناظرا في المجبى**، ويشار إلى أن مهامه جبائية وأحيانا حماية البلاد أيضا. وقد يسمى المولّى أحيانا **قائد عسكر**، ومهمته الأساسية أمنية وأيضا جبائية، وهناك رسالة تقديمية **لقائد على الأسطول وأشغال البحر**[52]، كما يسمى أحيانا **شيخ قبيلة**، وهنا لا تذكر مسألة المجابي ربما لأن هذه التعيينات تتعلق بالقبائل العسكرية المعفاة من الضرائب.

وهكذا نلاحظ في هذه الرسائل التركيز على المهام المالية والأمنية للمقدمين على الجهات، أما اختلاف التسميات فربما يعود إلى اختلاف أهمية المنطقة المولى عليها من جهة وأهمية الشخص المولى من جهة أخرى[53].

* **تاريخ رسائل الولاة** : لم تتضح بعد منهجية مضبوطة لتنظيم هذه الرسائل[54]، ولكننا نفترض توزيعها كالآتي :

- التقاديم الثلاثة الأولى في المخطوط (من الصفحة 2 إلى الصفحة 6) صادرة عن الخليفة الرشيد، لا تتأخر عن عهده مادامت هذه الرسائل قد جمعها (يحيى) من المصدر الذي يسميه «المجموع»، فرسائل تولية القضاة التي أخذت من هذا «المجموع» لا تتجاوز عهد الرشيد إلى من بعده (الرسالتان ص 75-77 من المخطوط)[55].
- التقاديم الثلاثة اللاحقة (من الصفحة 7 إلى ص 17 من المخطوط)[56] : أولاها عن المأمون عندما كان واليا بقرطبة أي في عهد الخليفة العادل (621-624)، وثانيتها عن ابن هود (والدعوة فيها للعباسيين)، والأخيرة صادرة عن الخليفة المرتضى إلى سبتة وهي مؤرخة بسنة 648. ويبدو أن هذه الرسائل الثلاثة خاصة بالولاة أي أكابر الموظفين في الولايات فرتبت زمنيا مع بعضها كما في المخطوط.

---

(51) هذه الصفة قد تتفق مع إشادات بعض المصادر بسلوك المرتضى (البيان 452-452 والرسالة 127 م ج) وقد تكون صادرة في بدايات تولي المنصب الخلافي من طرفه أو ممن قبله كالمامون والرشيد والسعيد.

(52) سنعود لهذا في الصفحات اللاحقة.

(53) هناك تمييز في مراتب الأشخاص المولَّين كما يلاحظ ذلك من اختلاف عبارات التقدير لبعضهم.

(54) ذلك أن جامع الرسائل يذكر أنه أخذ بعضها من «المجموع» أو «المبيضات» وبعضها من غير المبيضات.

(55) وهما التقديمان 57، 58 في الملحق الأول.

(56) هي التقاديم 4، 5، 6 في الملحق الأول.

ــ فيما بين الصفحتين 17 و49 من المخطوط[57] توجد تقاديم للعمال ولناظر في المجبى وقواد العساكر (وتقديم عن ابن هود مؤرخ بسنة 635)، هذه الرسائل وعددها 28 (دون اعتبار رسالة ابن هود) ربما معظمها صادر عن المأمون وعن الرشيد بالخصوص.

ــ فيما بين الصفحتين 49 و51 من المخطوط هناك رسالتان لإقرار واليين في مهمتيهما[58].

ــ ثم أربع تقاديم خاصة بشيوخ القبائل معظمها فيما يبدو عن المرتضى[59]، توجد هذه التقاديم على الصفحات من 51 إلى 55 من المخطوط[60].

ــ ثم رسالة عن المعتضد في تعيين ناظر المجبى (الصفحة 55 من المخطوط في التقديم رقم 42).

ــ أما بقية التقاديم الستة (ص 55–60 من المخطوط)[61] فواحدة منها صادرة عن المعتضد، وأربعة صادرة عن المرتضى صراحة وواحدة ترجيحا، والمقدّمون في هذه التقاديم «عمال» ومقدمون على «أشغال المخزن».

* **أهمية تقاديم الولاة والعمال** : تظهر بعض هذه الأهمية من خلال تصنيف المقدّمين حسب مهامهم وهو تصنيف تقريبي وغير نهائي :

الصنف الأول : ولاة أو عمال يشار تصريحا أو تلميحا إلى **تفردّهم** بمهامهم، أو لا يشار إلى إشراك أي أحد معهم فيها فيجمعون بين «الأعمال المصلحية» وخاصة ما يتعلق منها بالأمن، وبين «الأشغال المخزنية» وخاصة ما يتعلق منها بالمجابي.

وهكذا فإن الرسائل التي **لا تشير إلى أي اشتراك في المهام** نجدها كالآتي :

ــ رسالة تقديم لوال هو الشيخ «أبو فلان أدام الله كرامته»، ومهمته النظر في المصالح والأشغال (ص 7–8 المخطوط أي التقديم رقم 4).

ــ رسالة تقديم العامل «فلان، وصل الله أثرته وكرامته... الشهير في الموحدين بيتا ومنصبا بين أشياخ الموحدين..» ومهمته النظر في الأشغال المصلحية والأعمال المخزنية (ص 17–18 من المخطوط، التقديم رقم 7)[62].

ــ رسالة تقديم «فلان» لتولي الأمور المصلحية والأشغال المخزنية (أي المصالح كلها وتأمين البلاد) ورفع المستحدثات (ص 18–19 من المخطوط = ت 8).

---

(57) هي التقاديم من 7 إلى 35.

(58) لعلها عن المعتضد أو المرتضى وهما التقديمان 36، 37 من الملحق الأول.

(59) هذا استنادا إلى المقارنة بين تلميحاتها وما ورد في البيان عن عهد المرتضى.

(60) التقاديم من رقم 38 إلى 41 في الملحق الأول.

(61) التقاديم من رقم 43 إلى 48 في الملحق الأول.

(62) سنرمز للتقاديم الموجودة على صفحات المخطوط أيضا بالرمز (ت) مع رقم التقديم.

ـ تقديم «فلان... الجليل في الموحدين مقداره» لجميع الأشغال المصلحية وكافة الأعمال المخزنية وإزالة المحدثات (ص 19–20 من المخطوط = ت 9).

ـ تقديم «فلان» للنظر في الأشغال المصلحية والأعمال المخزنية ورفع المستحدثات من الأسواق والأبواب (ص 21–22 من المخطوط = ت 10).

ـ تقديم «فلان» عاملا ينظر «في الأعمال كلها» (ص 26–27 من المخطوط = ت 14).

ـ تقديم «فلان وصل الله عزته» على البلاد كلها، ومهمته إقامة شغل البلاد ومصالحها وتأمينها (ص 38 من المخطوط = ت 23).

ـ تقديم «أبي فلان» للنظر في الأمور المصلحية وضبط الأشغال المخزنية (أي التأمين واقتضاء المجابي)، (ص 39–40 = ت 25).

ـ تقديم «فلان» للنظر في الأعمال وضبط الأشغال (المخزنية)، (ص 40–41 = ت 26).

ـ تقديم «فلان وصل الله مبرّته..... له سلف في حزب التوحيد»، مهمته تولي الأشغال كلها والنظر في المصالح أكثرها وأقلها (ص 43–44 من المخطوط أيضا = ت 29).

ـ إعادة تقديم «أبي فلان» لينظر في الأمور المصلحية والمخزنية (ص 51 من المخطوط = ت 27)[63].

أما الرسائل التي **تنص على التفرد بالأشغال** المصلحية والمخزنية أو إلى «التقديم **المطلق**» أو «**التام**».... على هذين النوعين من المهام فهي موجودة بالمخطوط كالآتي :

ـ رسالة تقديم فيها التفويض للمقدّم بالنظر في أشغال البلد.... واختيار الحافظ والقاضي والعامل (ص 2–3 من المخطوط = ت 1).

ـ تقديم عن المرتضى للعزفي «أدام الله كرامته و.....» على سبتة مفوضا إليه سائر شؤون بلده (ص 11–17 = ت 6).

ـ تقديم «لفلان» تقديما مطلقا في الأشغال المصلحية والأعمال المخزنية وضبط الثغر وحماية النواحي وإزالة المحدثات الجورية (ص 22–23 = ت 11).

ـ تقديم «لفلان» تقديما تاما للأشغال المصلحية والأعمال المخزنية وضبط الثغر..... ورفع المظالم (بعد عودة البلد إلى طاعة الموحدين) (ص 23–25 = ت 12).

ـ تقديم العامل «فلان وصل الله كرامته» على الأمور المصلحية والأعمال المخزنية والتولي للشغلين معا ورفع المحدثات والمظالم (ص 29 = ت 16).

(63) يشار أيضا في الرسالة التقديمية عن ابن هود (ص 9–11 = ت 5) إلى تقديم وال يستبد بنظره عن المشارك والمنازع.

ـــ تقديم «فلان وصل الله إعانته وإنجاده» واليا على البلاد القبلية للأشغال والمجابي و«المصالح بالكلية» أو «المصالح على الاطلاق» (37–38 = ت 22).

ـــ تقديم «أبي فلان أدام الله كرامته» على المصالح والأعمال وإفراده في الأشغال.... وإزالة المحدثات ورفع المظالم (ص 42–43 = ت 28).

ـــ تقديم الوالي «الشيخ أبي عبد الله أنجده الله» ولسبقه لإعلان البيعة في البلد المقدم عليه، ينفرد بتولي الأشغال (49–51 من المخطوط = ت 36).

والملاحظ أن نصف المقدمين في رسائل هذا الصنف هم من شيوخ الموحدين إما تصريحا أو بالدعاء المناسب بعد ذكر اسم كل منهم بعبارة مناسبة مثل «أدام الله كرامته» أو «وصل الله أثرته» أو «هو الجليل في الموحدين قدره».....

الصنف الثاني : ولاة أو عمال مشرّكون مع غيرهم في المهام «المخزنية» (المالية)، فبالإضافة إلى الموظف المعين للجباية يكلّف الوالي أو العامل ـــ وهو هنا عادة من أشياخ الموحدين ـــ باشتراكه مع ناظر الجباية على أساس مراقبة الأول للثاني في ما يبدو[64] ومن المرجح أن هذا النظام كان مخصصا لبعض المدن المهمة تجاريا خاصة في الجنوب، وهناك فعلا رسالة تقديم لعامل بسجلماسة له النظر في «أشغال المجبى.... مع من يتعين لها»، وهذا زيادة على مهامه الأمنية (ص 30–31 من المخطوط = ت 17)[65]، ورسالة أخرى تتحدث عن ضرورة إصلاح سور البلد المحيط بنخله تحت إشراف المقدمين على البلد (34–36 = ت 20)، وهناك رسائل من هذا النوع على الصفحات 28 و(31–32) و(32–34) من صفحات المخطوط : (ت 15 و18 و19)[66].

الصنف الثالث : تقاديم **لقواد على العساكر أو الأسطول** وهم من نوعين : نوع يحمّل المسؤولية كاملة من حيث **المصالح والأمن** ومن حيث **المَجابي** كتقاديم الصنف الأول، ومن ذلك تقديمان :

ـــ «تقديم قائد على الأسطول وأشغال البحر»، والمقدم هنا «فلان.... خالصة الموحدين»، له الإشراف على مهام البحر وعلى الديوان والسكة والمواريث والزكاة (ص 4–5 من المخطوط = ت 2).

---

(64) في إشارة لصاحب التشوف (664، ت فور) يتضح أن عامل الجباية بتادلى كان يخبر الوالي بما يجبيه، وهذا ضمن ترجمة المتوفّى سنة 615.

(65) أشار ابن الزيات إلى تدخل عامل تلمسان في تخفيض قيمة كراء إحدى المحلات التجارية بسوق العطارين لصالح المكتري (التشوف ص 473–474).

(66) هذه الرسائل الثلاث الأخيرة يمجّد فيها المقدمون بالدعاء لهم بعد أسمائهم ويذكر عملهم على أنه كفّ المفسدين واقتضاء حقوق المخزن، أما المشرّكون معهم في أشغال المخزن فلا يوجد أثر لتمجيدهم مما يبيّن الفرق بين الطرفين.

ـ «تقديم قائد عسكر» وهو «فلان» المعروف في حزب التوحيد، مهمته الأشغال كلها والمجابي مع تأمين البلاد (36-37 من المخطوط = ت 21).

وهناك نوع من القادة يكلّفون **بالجانب الأمني** أو ما يعبر عنه بالنظر في المصالح أو إقامتها أو ردع أهل الفساد كما في التقاديم الآتية :

ـ تقديم الوالي «فلان» للمصالح الأمنية (ص 5-7 = ت 3).

ـ تقديم أحد الطلبة وهو «فلان... القريب القرابة....» تمهيد الأرجاء وتمكين الهدنة (ص 25-26 من المخطوط = ت 13).

ـ تقديم «أبي فلان... المعروف في حزب التوحيد» ليتولى النظر في المصالح على المدينة «المشتملة على الأجداث الطاهرة» (ص 38-39 = ت 24)[67].

ـ تقديم «أبي فلان» لتأمين مرتفعات الطرق المسلوكة في منطقة ولايته (41-42 = ت 27).

ـ تقديم «فلان» لتولي المصالح وردع المفسدين (ص 46 = ت 31).

ـ تقديم «فلان» للنظر في المصالح (47 = ت 32).

ـ تقديم «فلان... الخديم لهذا الأمر» (الموحدي) للسعي في التهدين (ص 47-48 = ت 33).

ـ تقديم «فلان» لمحو آثار المفسدين (ص 48 = ت 34).

ـ تقديم «فلان» للنظر في المصالح والذب عن المسارح والانشغال بالدقيق والجليل من الأعمال (ص 48-49 = ت 35).

ـ تقديم عن المرتضى «لفلان» للنظر في المصالح والحماية وإخفاء المنكر (57 = ت 44).

ـ تقديم عن المرتضى «لفلان» للنظر في المصالح والاشتداد على المفسدين (ص 59 = ت 47).

ويبدو أن ظروف عدم الاستقرار في المناطق المولى عليها كانت تفرض عدم ذكر الجبايات في التقاديم أو عدم فرضها، أو على الأقل تفرض عدم التصريح بها وتبقى ضمنية لأن هذه التقاديم جمهورية (أي تقرأ على الجمهور)[68].

الصنف الرابع : تقاديم لشيوخ القبائل، وتهتم بتحريض القبيلة المقدّم عليها وبقية بطونها أو جيرانها ـ وكلها عربية فيما يبدو ـ للتعاون مع الجيش الموحدي. ومثل هذه التقاديم **مطلقة** ولا تذكر فيها نهائيا مسألة الجبايات، ولذا نفهم بأن هذه القبائل هي قبائل عسكرية

(67) يبدو أن المقصود هي مدينة تينملل.

(68) ان التقديم عن ابن هود (أو ابن الأحمر) على الصفحتين (44-46 = ت 30) يهتم هو أيضا بالمصالح والأمن.

معفاة من الجباية مقابل خدماتها العسكرية خاصة وأن مواطنها كانت بتامسنا وتادلا حيث يسهل عليها التحول إلى التحالف مع العدو المريني، فكان الهدف هو استمالتها والاستعانة بها. هذه التقاديم توجد على الصفحات (51–52) و(52–53) و(53–54) و(54–55) من صفحات لمخطوط : (ت 38 و39 و40 و41 على التوالي).

الصنف الخامس : **تقاديم لنظار الجباية وأشغال المخزن**، وهنا قد يعطي التقديم نوعا من التوضيح لاختصاصات هؤلاء الموظفين مثل «مجابي المخزن» و«مجابي المختص»[69]، وهذه التقاديم هي كما يلي :

— تقديم عن المعتضد لناظر في المجبى ينظر في مجابي المخزن والمختص (ص 55 من المخطوط = ت 42).

— تقديم عن المرتضى (سنة 657) لعامل مدعو إلى إمضاء معظم وقته في شغل المخزن «وهو أبو فلان من حزب التوحيد»، (ص 55–56 = ت 43).

— تقديم على أشغال المخزن يتولى صاحبه الأشغال المصلحية والمجابي المختصية (ص 57–58 = ت 46).

— تقديم عن المرتضى على الأعمال المخزنية و«المصلحية»، (ص 60 = ت 48).

وهكذا فإن **أهمية هذه الرسائل** التقديمية تكمن في اتفاقها تقريبا على التلميح إلى ضعف السلطة المركزية حينما تتحدث عن كثرة المفسدين وقطاع الطرق وعودة بعض الجهات إلى النفوذ الموحدي بعد تمردها.... والتفويض لبعض الولاة في الولايات البعيدة نسبيا تفويضا تاما أو شبه تام، والإشارة إلى نوعين من المجابي : «المجابي المخزنية» و«المجابي المختصية»، وإلى وجود أكثر من موظف سامي للاشراف على الجبايات والميدان المالي عامة، إلى غير ذلك مما يحتاج إلى دراسة خاصة ومفصلة.

2 — رسائل تقاديم القضاة :

• بالنسبة لحجم الرسائل :

تبتدىء هذه التقاديم من الصفحة 61 من المخطوط إلى الصفحة 94 منه بحيث يبقى المخطوط مبتور الآخر[70]، كما أن هذه التقاديم من الحجم الصغير والمتوسط، والملاحظ عنها البتر في أولها وحذف مؤخرتها في الغالب، بينما الرسائل الكاملة تحمل تاريخ إنشائها في الأصل على الأرجح وفي معظمها.

---

(69) انظر عن مصطلح «المختص» الجانب الاقتصادي في الفصل الأخير ص 243–244 والهامش 143.

(70) لاحظ تعليق جامع الرسائل على الصفحتين 7 و21 من المخطوط (ص 416 و479 في قسم الرسائل).

• الجوانب المغفلة في التقاديم :

تشبه ما لاحظناه في تقاديم الولاة من إهمال ذكر الجهة التي صدر عنها التعيين نتيجة البتر في صدورها على ما يبدو كما تغفل اسم الشخص المعيّن وموضع التعيين، وتعبّر عن المعيّن بفلان أو أبي فلان وعن الموضع بفلانة أو أهل فلانة....

• تحديد زمنها :

تمتد فترتها من عهد المامون أيام خلافته إلى خلال عهد المرتضى : فهناك ثلاث رسائل صادرة عن المأمون صراحة واثنتان ترجيحا، وهذه الرسائل الخمسة هي الموجودة على الصفحات من 61 إلى 67 من المخطوط[71]، تليها ثلاث رسائل عن ابن هود الخاضع للسيادة العباسية اسميا من الصفحة 67 إلى 75 من المخطوط[72]، ثم رسالتان عن الخليفة الرشيد صراحة من الصفحة 75 إلى 77 من المخطوط، وليس من المستبعد أن تكون الرسائل اللاحقة بها إلى الصفحة 80 صادرة عنه أيضا[73]، يليها رسالة عن المعتضد صراحة (ص 81 = ت 65)، ولعل الرسائل التي تلي رسالة المعتضد إلى الصفحة 90[74] صادرة عنه أيضا أو عن المرتضى أو يتقاسمانها وتبقى الرسائل الثلاثة الأخيرة وهي عن المرتضى على الصفحات من 90 إلى 94 من المخطوط[75].

• مضمّن الرسائل :

ــ التوضيح أو التلميح لدوافع تعيين القاضي وإظهار مكانته، والإشارة أحيانا إلى تكرر تجربته.

ــ تحديد مهمته في مثل العبارة : «للقضاء في شرعي نوازلكم، والنظر في الدّيني من مسائلكم».

ــ الإشارة إلى أهم الوصايا المقدمة له وتتلخص في :

* اتباع أصول الشرع الثلاثة وهي الكتاب والسنة والإجماع.
* حسن اختيار النواب والمسددين، واختيار الشهود أو العدول.
* التدقيق في الأحكام وعدم الاعتماد على الظن.
* الفصل في القضايا بالمساواة بين الناس في الحق مهما اختلفت مراتبهم الاجتماعية والمادية.

ــ الختم بالتوصية لسكان البلد بتقديم النصح له ومساعدته على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأحيانا لرفع «المستحدثات».

---

(71) أي التقاديم من رقم 49 إلى 53.

(72) التقاديم من رقم 54 لى 56 (مع ترجيح صدور هذا التقديم الأخير عن ابن هود).

(73) التقاديم من رقم 57 إلى 64.

(74) التقاديم من رقم 66 إلى 73.

(75) التقاديم من رقم 74 و75 و76، أما التقديم الأخير (77) فهو مبتور في آخر ما بقي من المخطوط.

• أهمية رسائل تولية القضاة :

— تبين هذه الرسائل أن تعيين القضاة كان من مهام الخلفاء وحدهم — على الأقل بالنسبة للرسائل المعلومة المصدر — وذلك حرصا على تطبيق الشريعة، وهؤلاء القضاة هم قضاة المدن الكبرى وهم بدورهم يختارون النواب عنهم والمسددين في الجهات، ومع ذلك هناك حالات نادرة مثل حالة المأمون خلال ولايته حيث فوض إليه أخوه الخليفة العادل أمر الأندلس فأصبح له حق تعيين القضاة بها، ونفس الحالة بالنسبة لاشبيلية زمن الرشيد وسبتة في عهد المرتضى.

— تؤكد هذه الرسائل على تجنب استعمال العقل في الأمور الشرعية، وفي هذا تطبيق لرأي المهدي الذي يعتبر أن العقل ليس له في الشرع مجال[76]، ولذا تنص الرسائل دائما على ضرورة تطبيق الكتاب والسنة والاجماع أي اتباع السلف الصالح فيما لا نص فيه.

— عدم التمييز بين الناس اعتبارا للثروة أو للمرتبة الاجتماعية، وهذا من الناحية النظرية. ولا ندري مدى تطبيق ذلك عمليا خاصة وأن الدولة في مرحلة الضعف حيث يصعب التوافق بين الأوامر الخليفية وتطبيقها.

ب — خصائص بعض تقاديم الولاة والقواد :

• **الرسالة الأولى على الصفحتين** (2–3 : ت 1) مبتورة البداية بسبب نقص أوراق من أول المخطوط، وهي رسالة مجهولة المصدر والمنتهى والتاريخ. والإشارات الواردة فيها :

— الإخبار بوصول وفد للبيعة نيابة عن البلد الموجَّهة إليه هذه الرسالة التقديمية، وبأن هذا الوفد أدى المهمة وأخذ في الإياب إلى بلده.

— إقرار المخاطب في الرسالة في منصبه نظرا لدوره في توجيه هذه البيعة والتفويض له بالنظر في «أشغال البلد وما يرجع إليه وما يمكن أن يرجع إليه» فيما بعد، ومن حقه اختيار «الحافظ[77] والقاضي والعامل».

— الإشارة إلى الاهتمام الخاص «بتلكم الجزيرة[78] التي الاسلام بها غريب»، وتسكين الأمور والجنوح إلى السلم إذا جنح إليه العدو «الكافر»، وأن من مصلحة الإسلام «الانتظام في الجماعة».

— الأمر إلى المخاطب للقيام بالمحاولات من أجل استعادة الجهات الأخرى لتجديد الطاعة للموحدين، والأمر إليه أيضا بالإخبار عن كل جديد : «طالِعوا بالمتزيِّدات».

---

(76) أعز ما يطلب 157 (ط. الجزائر 1985).

(77) انظر في الفصل الأخير ضمن الجانب الإداري ما يتعلق «بالحافظ» ص 227.

(78) استعملت هذه الكلمة في مختلف الرسائل للدلالة على الأندلس.

من هذه الإشارات نرجّح أن تكون هذه الرسالة صادرة عن الخليفة الرشيد إلى اشبيلية التي سبق أن خضعت لابن الأحمر ثم لابن هود، ثم قدّم أهل اشبيلية عليهم السيد أبا عبد الله ابن السيد أبي عمران (بتدبير أبي عمر بن الجد)، وكانوا قد مهّدوا لهذا الأمر بالقبض على ابن وقاريط[79] الثائر على الخليفة الرشيد سنة 634، فوجّهت اشبيلية بيعتها إلى مراكش في شوال من السنة التالية، فأقرّ الخليفة ولاية السيد أبي عبد الله بهذا التقديم فيما يبدو[80]، فإذا صح هذا الافتراض يكون إذن تاريخ الرسالة هو سنة 635 أو 636.

• **الرسالة الثانية** (على الصفحتين 4 و5 من المخطوط : ت 2) وهي عبارة عن **تقديم «لقائد على الأسطول وأشغال البحر»** وهي مجهولة المصدر والمنتهى والتاريخ، وتشير إلى النقط الآتية :

ـــ الإشادة بالشخص المعين بأنه «خالصة الموحدين ونصيحهم».

ـــ أهمية البلدة وظروفها حيث تعتمد في أقواتها على البحر، وأنها مفتاح لما بعدها من الأقطار.

ـــ إسناد المهام الأمنية والاقتصادية للمقدم (فلان !)، وله أن يشرف على «الديوان والسكة والمواريث والزكاة.... وكل ما يرفع من الديوان وما أضيف إليه يتصرف في مصالح الأسطول وأرزاق غزاته وعدده»، وذلك سعيا لتقوية الأسطول وحماية المدينة.

ـــ فهناك الأمر بحراسة المرسى وبحرها، مما يفهم منه أن المدينة كانت معرضة للخطر من طرف عدوّ ما، فتقوية الأسطول تمكّنه من زجر «العداة المتقاحمات في اللجج»، والقصد من هذا التعيين أن تندفع «مضرّة العدو وإذايته».

هذه الإشارات تنطبق على مدينة سبتة وتعرّضها لهجوم الجنويين سنة 633 فاضطرت للعودة إلى التبعية للموحدين كما حدث لاشبيلية، سنة 636 بعد أن خضعت فعلا للموحدين[81]، وكان والي سبتة من قبل الرشيد آنذاك هو أبو علي بن خلاص الأندلسي[82] الذي كان ينال التقدير[83].

---

(79) هو من قبيلة هسكورة وزعيمها (البيان 288).

(80) يذكر صاحب البيان أن الأمور الحقيقية هي بيد ابن الجد و لم يكن الوالي يستبد عليه (337–339).

(81) يذكر صاحب البيان روايتين : إحداهما تؤرخ الهجوم على سبتة سنة 633 والأخرى بسنة 636 (البيان 346–347).

(82) انظر البيان 359، والذّخيرة السنية 61.

(83) انظر الرسالة رقم 123 عن الخليفة الرشيد حول توطين أهل شرق الأندلس برباط الفتح، انظر بهذا الفصل ص 206 والهامش بها رقم 330.

• **رسالة المرتضى إلى أهل سبتة حول تقديم العزفي عليها[84] :**

وردت هذه الرسالة بمخطوط «يحيى» على الصفحات من 11 إلى 17، وهي مؤرخة بـ 14 رجب سنة 648، وهي تعتبر جوابية من الخليفة المرتضى على رسالة واردة عليه من أهل سبتة مفقودة حاليا، ولكن رسالة المرتضى تحمل بعض الإشارات التي وردت في رسالتهم، أهمها :

— أنها تشير إلى توصّل الخليفة بكتابين (رسالتين) من أهل سبتة يعرضون عليه فيها دخولهم في الجماعة أي البيعة له.

— أنها تشير إلى انتقاد أهل سبتة للعامل الذي وجهه المرتضى إليهم، كما تشير إلى أنهم هم الذين كانوا ألحّوا عليه لتوجيه عامل إليهم حسبما نقله «خطيبان» من سبتة[85].

— رغبة أهل سبتة في أن ينفرد مرغوبهم «فلان» أي العزفي بالنظر في «المصالح والمجابي والتولّي للحماية».

— ذكر وصول مبعوثين من اشبيلية[86] «الافريريّيْن» مدعيين أنهما خوطبا بذلك من «الحضرة». فكان جواب الخليفة على هذه الرسالة كما يلي :

* إبداء الموافقة على عزل العامل، «من استعملناه هنا لكم»، والاعتذار عن كونه علم فيه الصلاح، ولا عِلم له بالباطن، ولذا «فمن كرهته الرعية لا نستعمله بحال عليها»، وأن رغبة الخليفة كانت منذ البداية هي إسناد الأمور للعزفي لولا امتناعه من ذلك. أما ما نقله أتباع الوالي المعزول من أقوال ! فهي غير مصدّقة لتوفر الثقة في شخص العزفي.

* التفويض للعزفي للنظر في جميع أمور المدينة من النواحي الأمنية والمالية والإدارية دون مراجعة الخليفة في ذلك، وأن هذا **التفويض ميزة خاصة لم يحصل عليها غيره من قبل.**

* تقارن رسالة المرتضى بين الوضع السابق في المدينة قبل ثورة العزفي وبين وضعيتها الجديدة في ظل التبعية للموحدين، إذ تشير إلى ما كان بها سابقا من المظالم والمستحدثات، فأمر المرتضى بإلغاء هذه المحدثات والرسوم الجائرة والعناية بعامّة الناس (الدّهماء).

* يذكر جواب المرتضى أيضا المبعوثين القشتاليين ويحذّر من كذب الكفار وزورهم ويفنّد ادّعاءهم.

---

(84) هو أبو القاسم العزفي من أشهر أعيان المدينة، انظر عن ثورته بسبتة والتحول إلى الموحدين بهذا الفصل (214–216)، والتقديم المذكور هو رقم 6 في الملحق الأول.

(85) لعلهما المبعوثان الحاملان للبيعة المشار إليهما في رسالة عن العزفي (من إنشاء القبتوري) إلى السيد أبي إسحاق أخي الخليفة المرتضى و«مقدمه على وزرائه» حسب تعبير ابن عذاري (391)، وهذه الرسالة توجد ضمن «رسائل ديوانية من سبتة في العهد العزفي» ص 109–111، نشر محمد الهيلة، والإشارة المذكورة هي بالصفحة 111 منه.

(86) كانت اشبيلية في هذا الوقت مقرّ ملك قشتالة.

ترجع أهمية رسالة العزفي إلى ما يلي :

ـ تتكامل مع إحدى رسائل القبتوري عن العزفي إلى الخليفة المرتضى خاصة حول ضعف أهمية تجارة سبتة آنذاك[87].

ـ تبيّن الوضعية شبه الاستقلالية لسبتة في إطار اعتراف اسمي بالخلافة الموحدية على عهد المرتضى.

ـ تلمّح إلى اهتمام النصارى القشتاليين بمدينة سبتة[88].

• **ملاحظات عن رسالتين حول تقديم شيخين على قبيلتيهما :**

الرسالة الأولى على الصفحتين 54 و55 والثانية على الصفحتين 52 و53 من المخطوط[89] وهما معا مبتورتان أولا وآخرا ومجهولتا المصدر والتاريخ، وتغفلان اسمي الشيخين المقدمين : فالرسالة الأولى صادرة فيما يبدو عن الخليفة المرتضى ويقدم فيها «فلانا» مكان أبيه على إخوانه عرب سفيان، ويجعل تحت نظره مدينة «أنفى» كما كانت من قبل تحت نظر أبيه، ويطلق يده في هذا التقديم كما أطلق يد أبيه من قبل. والرسالة الثانية تشير إلى أن الخليفة ـ على ما يبدو ـ بعد موت الشيخ «أبي فلان» أبقى ولده على العرب فساءت أفعاله، فقدّم مكانه عمّه «فلانا» ليضبط أمور «العرب».

إذا حاولنا أن نقارن هذه التلميحات في الرسالتين مع ما جاء في العبر 6/58–68 و78 و(537–546) وكذلك في البيان المغرب (431–433) أمكن افتراض أن القبيلتين هنا هي قبيلة واحدة أي سفيان المستقرة بأرض تامسنا كلا أو جزءا، أما **بنو جابر** فكانوا بأرض تادلى[90] وزعيمهم هو يعقوب بن محمد بن قيطون الذي ولاه الرشيد أو أقره عليهم ثم اعتقله المرتضى سنة 652 بواسطة جيش موحدي بقيادة أبي الحسن بن يعلو وقوات من السفيانيين بزعامة شيخهم يعقوب بن جرمون[91]، ثم استبد برئاسة بني جابر اسماعيل بن يعقوب بن قيطون الذي مال إلى المرينيين منذ معركة «أم الرجلين» سنة 660، أما **الخلط** فكانوا متردّدين بين الموحدين والمرينيين أو لا يساهمون في المعارك إلا قصد النهب كما حدث لمحلة السعيد بنواحي تلمسان على يدهم، فجعل المرتضى على رئاسة العرب أي سفيان وجابر والخلط يعقوب بن كانون السفياني، وعندما قتل المرتضى عددا من أشياخ الخلط انتقاما من

---

(87) وهي الرسالة السابقة من «رسائل ديوانية» المذكورة.

(88) راجع الدراسة التاريخية بهذا الفصل ص (214–216)، (ربما كان ذلك في إطار صليبي أو بهدف الحصول على امتيازات تجارية بالمدينة).

(89) أي التقديمان 41 و39، وهما غير مرتبين زمنيا في المخطوط فوجب تقديم رقم 41 على رقم 39.

(90) انظر الرسالة رقم 55 (م ج) في قسم الرسائل.

(91) ربما كانت حملتهما هي موضوع الرسالة التقديمية لشيخ قبيلة بمخطوط يحيى ص 51–52 (ت 36).

فعلهم مع السعيد عين عليهم سنة 653 واحدا منهم هو علي بن أبي علي، وفي معركة أم الرجلين انحازوا إلى المرينيين.

أما قبيلة **سفيان** فهي الأقرب نسبيا للموحدين منذ عهد السعيد وخاصة في عهد المرتضى. وهكذا يمكن أن يكون الشيخ (أبو فلان) المقدّم في الرسالة الأولى[92] هو يعقوب بن جرمون السفياني الذي خلف أخاه كانون على رأس سفيان ــ هذا الذي قتله الخلط خلال معركة السعيد مع يغمراسن بنواحي تلمسان سنة 646 ــ فعين المرتضى عليهم يعقوب هذا، ولما قتل من طرف أبناء أخيه كانون قدّم المرتضى مكانه ولده عبد الرحمان بن يعقوب (الملمّح إليه في الرسالة الثانية)[93]، فلما ساءت أعماله بالاستغراق في ملذاته والاعتداء على قافلة تجارية عند وادي تانسيفت (حسب البيان 432) أو عجز عن القيام بمهامه (حسب العبر 61/6) ولحق ببني مرين، عندئذ قدّم المرتضى مكانه عمه أبا زمام عبيد الله بن جرمون[94]، وهذا التقديم على عرب سفيان مع أنفى ــ إن صحّ الافتراض ــ يكون قد حدث خلال أو قبل سنة 658 أي قبل توسّع المرينيين في تامسنا واحتلالهم أنفى بعد سلا[95].

تظهر أهمية الرسالتين وخاصة الأولى في أن عرب سفيان كانوا تحت طاعة الخلافة الموحدية في أواخر عهدها وبشكل عام، كما تؤكد وجود عرب سفيان كلا أو جزءا بإقليم تامسْنا في هذه المدة، وقد رأينا سابقا تهجير الناصر لهم أو لبعضهم إلى تادلى، غير أن ظروف ضعف الدولة قد تكون مكّنتهم من الاستقرار بتامسنا. كما قد يفهم من الرسالة الأولى أيضا أن مصالح أنفى الأمنية والجبائية هي بيد القبيلة التي تحيط بها وهي سفيان كقبيلة عسكرية، فهل هذا يعني أن أنفى في هذا العهد لم تكن مدينة مهمة[96]، فالمدن المهمة كان لها ولاتها أو عمالها المستقرون بها المهتمون بأمنها وجبايتها. والمرجّح أن أنفى تضرر مركزها الاقتصادي بسبب عدم الاستقرار فيما حولها.

* * * *

---

(92) أي التقديم 41.

(93) أي التقديم 39.

(94) البيان 432.

(95) الذخيرة السنية (93-94) والقرطاس (301).

(96) كان لها قاضيها مثلما كان لمدن صغيرة مثل أغمات وغيرها، انظر الذيل (قسم الغرباء) ص 69 (خ ع) ومفاخر البربر ص 95 (خ ع)، المجموع رقم ك 1275، يذكر الأول أحد قضاة أنفى زمن المرتضى وهو أبو عبد الله الفازازي، ويذكر الثاني قاضيا آخر هو أبو موسى عمران بن موسى الهواري المتوفى سنة 648.

زعماء قبيلة سفيان من عهد الرشيد إلى عهد المرتضى

(1) جرمون بن سفيان (عهد الرشيد)

(2) يعقوب — (4) أبو زمام عبيد اللّه — كانون

(3) عبد الرحمن — (5) مسعود

الموضوع الثاني :

دراسة تاريخية لرسائل الفصل الرابع

أولا : ظروف لغير صالح الموحدين وهم على أبواب معركة العقاب (معركة اختلال التوازن) :

أ ــ السلطة والقبائل العربية بالمغرب الأقصى :

سبقت الإشارة إلى العلاقة بين الطرفين في إفريقية التي كانت موطنا لعدة قبائل عربية عاكست أغلبيتها الوجود الموحدي بالمنطقة، غير أن الهزائم التي كانت تلقاها على يد الجيش الموحدي، والإغراءات التي كان يقدمها إليها الحكام الموحدون سهّلت نقل مجموعات متوالية من هذا العنصر العربي إلى المغرب الأقصى والأندلس. وأول ذكر لوصول بعض عرب إفريقية في عهد الموحدين إلى المغرب الأقصى يأتي بعد انتصار جيش عبد المومن عليهم في سطيف سنة 548 حيث يذكر ابن الأثير استعمال شيوخهم من طرف عبد المومن لفرض ابنه وليا للعهد سنة 551[97]. وبعد فتحه للمهدية وافريقية وهزيمة العرب عند القرن قرب القيروان عام 555، انخرط بنو محمد من بني رياح في الدعوة الموحدية ومعهم قسم من عرب جشم، وعزموا على النزول إلى المغرب لخدمة الدولة[98] ولما تحرك عبد المومن من افريقية نحو المغرب استاق معه عددا مهما من العرب[99]، ويذكر ابن أبي زرع أنه عند الوصول إلى وهران وتوديع بعض العرب لعبد المومن «نقل منهم إلى المغرب ألفا من كل قبيلة بعيّالاتهم وأبنائهم وهم عرب جشم»[100]. وسيظهر ذكر العرب في معارك الأندلس وبالخصوص منذ معركة الجلاّب خارج مرسية مع ابن مردنيش سنة 560[101]، بحيث أخذت تتزايد أعدادهم منذ عهد الخليفة يوسف، ويفصّل صاحب المن الحديث عن استدعائهم من افريقية واستقبالهم خارج مراكش وإدخالهم في «الخدمة» وجوازهم مع الخليفة إلى الأندلس سنة 566[102]. وعندما تحرك هذا الخليفة إلى إفريقية وأعاد فتح قفصة سنة 576 أعلن عرب رياح عن تقديم الطاعة له حيث «عزم الأشياخ من قبيل ريّاح على التوجه إلى الأندلس بعيّالهم وأموالهم لغزو العدو، فتحركوا بجموع ضخمة بعضها بالصحاري وبعضها بالسواحل «في اتجاه المغرب»،

---

(97) الكامل (سنة 546) ثم (551) راجع أيضا الفصل الأول ص (37–38).

(98) الرسالة رقم 21 من «مجموع رسائل موحدية» (م ر م).

(99) المن (ص 144) ويجعل هؤلاء العرب من بني رياح وجشم وبني عدي، انظر أيضا البيان (43).

(100) القرطاس (199)، ويذكر البيذق توزيع عبد المومن للعرب على البلاد (المغرب) ص 80 كما يذكر صاحب المعجب اقرار عبد المومن للعرب بالأندلس في نواحي قرطبة وشريش (226).

(101) انظر الرسالة رقم 12 من المجموعة الجديدة (م ج) في قسم الرسائل.

(102) المن 411 وما بعدها، والبيان 76.

وكان على رأس رياح زعيمها أبو سرحان مسعود[103]، وأقر الخليفة يوسف العناصر العربية ببعض جهات الأندلس[104]. وتزايدت أعداد العرب القادمين إلى المغرب الأقصى في عهد المنصور خاصة بعد انتصاره عليهم وعلى حليفهم ابن غانية ومن معه من الغز بنواحي قابس سنة 583، فعاد العرب إلى الطاعة للمنصور ونفاهم إلى المغرب الاقصى وهم جشم وريّاح من الهلاليين.

غير أن توطين المنصور لهؤلاء العرب بالمغرب تذكره المصادر بنوع من التعميم : فابن أبي زرع يذكر أن هذا الخليفة ندم في آخر حياته على إدخال العرب إلى المغرب لأنه يعلم أنهم أصل الفساد[105]، وفي البيان المغرب ورد أن المنصور أوصى بالإحسان إلى العرب وبإشغالهم بالحركات بشكل مستمر[106]، أما ابن خلدون فيشير إلى أن المنصور «أنزل جشم ببلاد تامسنا ورياحا ببلاد الهبط وأزغار مما يلي سواحل طنجة إلى سلا»[107] ونزل مع الجشميين العاصم ومقدّم من الاثبج وغيرهم ولكن غلب على الجميع اسم الجشميين[108]. واشتهر من جشم بالمغرب الأقصى الخلط وسفيان وجابر[109]، «فأما مقدّم والعاصم فكانوا مع إخوانهم ببسيط تامسنا، وكان للموحدين عليهم عسكرة وجباية.... وأما بنو جابر ابن جشم فكانت لهم شوكة أيضا....»[110] و«كانت سفيان أحياء حلولا بأطراف تامسنا مما يلي أسفي... وأما الخلط فقد كانوا ببسيط تامسنا أولي عدد وقوة»[111]، ويحاول ابن خلدون أن يعرّفنا بإقليم تامسنا بأنه «البسيط الأفيح ما بين سلا ومراكش أوسط بلاد المغرب الأقصى وأبعدها عن الثنايا المفضية إلى القفار»[112].

فهذه المصادر تميل إلى التعميم حول استقرار العرب بالمغرب الأقصى قبل اندلاع الفتنة بين الأمراء الموحدين وانقسام العرب بين تأييد هذا أو ذاك، أو تأييد الحركة المرينية. كما أن هذه المصادر لا تذكر تادلا كإقليم عرف استقرار العرب في العهد الموحدي الأول، غير أن رسالة في العطاء الجزيل[113] يمكن أن نفهم منها أن المنصور أو الناصر أنزل الجشميين بتادلى

---

(103) الرسالة رقم 26 في (م ر م)، انظر أيضا القرطاس 212.

(104) لاحظ ما ذكره صاحب المعجب والبيذق حسب الإحالة في الهامش 100 قبله.

(105) القرطاس 230.

(106) البيان (208).

(107) العبر 6/(45-46) و(58-59) وأيضا الاستقصا 169/2.

(108) العبر 6/58-68.

(109) العبر 6/59.

(110) الاستقصا 171/2.

(111) العبر 6/(62-63)، الاس ـا 174/2.

(112) العبر 6/58.

(113) الرسالة رقم 55 (م ج) قسم الرسائل.

مثل قبيلة الكريز من سفيان وعوف من الخلط وبني جابر، ثم نقلتهم السلطة إلى أرض تامسنا أو انتقلوا إليها دون إذن منها، خاصة وأن امكانيات تامسنا الاقتصادية أهم من إمكانيات تادلى وبالأخص إذا كانت السلطة قد حرمتهم ـــ كما يبدو من الرسالة ـــ من «الإحسان» الذي كان المنصور أوصى به لهم[114]. والمعروف أن أرض تامسنا هي الطريق الرئيسي لتحركات الخلفاء الموحدين من مراكش نحو الشمال أو الشرق عبر رباط الفتح، فعملت القوات الموحدية على إرغام قبيلتي الكريز السفيانية وعوف الخلطية (وربما غيرهما أيضا) على الرجوع إلى موطنهما السابق بتادلى[115]. فكان من مطالب شيوخ جشم والهلاليين بالمنطقة «أن يمنّ عليهم بما اعتادوه من إحسان الحضرة الإمامية القدسية وعميم إنعامها ومعهود إفضالها حسبما ألفوه من بركتها.... لتتم النعمة على جميعهم... ووالوا الرغبة للعبيد [قادة الحملة] في مطالعة الحضرة العلية الامامية بما أمّلوه في ذلك... واستمطار صيّب إحسانها لظمإهم واستلطاف رأفة حنانها لضعفهم...»[116] ولعل في هذا ما يشير إلى حذف العطاءات عن عرب المنطقة ففضلوا الانتقال إلى تامسنا قبل الآن وهذا ما قد يتفق مع ما ذكر عن شح الخليفة الناصر وبالتالي قلّة حماس أجناده[117].

ويمكن طرح الملاحظتين الآتيتين :

ـــ إن عملية التهجير المذكورة تمت على الأرجح سنة 600 قبيل حركة الناصر إلى إفريقية، فهل كانت من أجل تصفية طريق هذه الحركة لعدم الاطمئنان إلى هؤلاء العرب خاصة وأن الحركة إلى إفريقية موجّهة ضد إخوانهم العرب هناك حلفاء ابن غانية ؟[118] وهل هذه العملية التأديبية ساهمت في تأخير تحرك الناصر إلى إفريقية حتى ساءت أحوالها ؟

ـــ إذا حاولنا التوفيق بين ابن خلدون الذين يشير إلى إقرار المنصور للعرب الجشميين بتامسنا وبين الرسالة التي تشير إلى استيطان سابق لهؤلاء بتادلى ربما أمكن القول أن المنصور أقر بعضهم بتامسنا وبعضهم بتادلى في إطار الموازنة بينهم كجيش للدولة وبين القوى البربرية بالمنطقة والتي كانت تظهر عدم رضاها عن الحكم الموحدي من حين لآخر. غير أن بعض الموطّنين بتادلى انتقلوا إلى تامسنا وأحدثوا بها الشغب قبل ترحيلهم عنها. وأعمال الشغب «العربية» قد يمكن تفسيرها بأنها مرحلة مفروضة للانتقال من حياة النجعة إلى حياة

---

(114) البيان 208.

(115) «ولما وصلوا إلى بلاد تادلى نزلوا منها بمواضعهم قديما»، الرسالة 55 (م ج).

(116) نفس الرسالة.

(117) المعجب 322 والروض المعطار (مادة العقاب) ص 416.

(118) فالمفهوم من الرسالة أن عرب تامسنا قاموا بالشغب، والواضح من البيان المغرب أن الناصر غرب قادة عرب المغرب إلى الأندلس (218).

الاستقرار[119]، إلا أنها كانت مرحلة طويلة ومضطربة كما هو واضح على الأقل في العهد الأخير للدولة الموحدية[120].

وهكذا فإن العرب أخذوا يساهمون في عدم الاستقرار بالمغرب، ولكنهم ليسوا وحدهم، فالثورات ستتعدد منذ أيام الناصر بعد الهدوء النسبي على عهد سابقيه :

ب ــ الثورات بالمغرب الأقصى في عهد الناصر :

لم يخل عهد أي خليفة من الاضطرابات سواء من طرف بعض الزعامات البربرية[121] أو من منافسين من الأسرة الحاكمة[122]. هذه الثورات كانت تتخذ شعارات دينية إصلاحية أحيانا كثورة **علي الجزيري** العالم الأندلسي في عهد المنصور منكرا على الموحدين مظاهر الأبهة والانحراف عن تعاليم المهدي، وقد تنقل بين مراكش وفاس والأندلس «وقتل بسبب هذا اللعين خلق كثير من الناس، ووقع عليه البحث في كل مكان»[123] حتى قبض عليه بمنطقة مرسية، وكان المنصور إذّاك بالأندلس. ثم ثورة **أبي قصبة الجزولي** ببلاد السوس سنة 597-599 «فاشتد خوف الموحدين منه» وهزم لهم عساكر عدّة، حتى تحرّك الناصر بنفسه إلى ركراكة ومنها وجه عسكرا ضخما من الموحدين والغز ومن أصناف الجند فسقط الثائر في المعركة رغم صموده[124]. ولم يمض غير وقت قصير حتى ظهرت ثورة العالم الأندلسي عبد الرحيم **ابن الفرس** والمعروف بالمهر وذلك حوالي سنة 600، فاتخذ لقب الهداية وادّعى أنه القحطاني الذي يعيد العدل إلى الأرض، ودعا لنفسه، فأجابه إلى ذلك الخلق الكثير والجم الغفير ودعوه باسم الخليفة وشملت دعوته جزولة ولمطة إلى درعة، ثم أحاطت به جيوش الناصر وقضت على ثورته[125].

---

(119) لاحظ مثلا عودة زعيم رياح من الهبط إلى إفريقية بجماعته (العبر 45/6) وانظر في هذا المصدر أيضا ص 58 حول التحول من النجعة إلى الحلول.

(120) يختلف موقف كل من لوتورنو وطيراس نحو العرب، فهذا يحمّلهم المسؤولية في ضعف الموحدين وذاك ينفي عنهم هذه التهمة : لوتورنو : حركة الموحدين ص 118-119.

(121) مثل ثورة مرزدع الغماري ثم سبع بن منخفاد الغماري أيضا في بداية عهد الخليفة يوسف، وبعض ثورات صنهاجة في عهده.

(122) انظر الدراسة التاريخية في الفصل الثالث ص 131 عن المنصور.

(123) البيان (181-182) و128 وانظر المغرب لابن سعيد 1/(323-324) والمقري في نفح الطيب ج 464/2-465 وج 65/4-66.

(124) المعجب (315-317) والبيان 215 والعبر 515/6.

(125) المغرب لابن سعيد 111/2 والعبر 6/(522-523) وصلة الصلة ق 3 ص 228 (تحقيق الهراس)، الاعلام بمن حلّ، للمراكشي ج 8/(152-155) والتكملة 597/2 ط. مدريد، والإحاطة 473/3، والبيان ص 344، ويذكر صاحب الاستقصا ثائرا آخر يسميه علّودان الغماري في أوائل عهد الناصر 214/2.

هذان الثائران يجعلهما محمد عنان شخصا واحدا هو عبد الرحيم ابن الفرس ويعرف بالمهر وبأبي قصبة، خاصة وأن صاحب المعجب أغفل ذكر الثائر ابن الفرس[126]. إلا أن المقارنة بين مصادر أخرى تظهر أنهما شخصان : أبو قصبة اسمه عبد الرحمان[127] من جزولة، وابن الفرس اسمه عبد الرحيم ومن أهل قرطبة، الأول **مولع بالسحر** ويجعله ابن الأبار في «المقتضب» خارجيا[128]، والثاني **عالم فقيه ادّعى أنه القحطاني**، وينقل ابن عذاري عن صاحب الذيل والتكملة أن رأس أبي قصبة المعلّقة على أحد أبواب مراكش هي التي دفعت ابن الفرس إلى التشبه به في طلب الحكم، فثار بالسوس إلى أن قتل وعلّق رأسه بجانب رأس أبي قصبة[129].

وكانت حركة الناصر إلى إفريقية عاملا مشجعا على قيام ثورة أخرى يتزعمها شخص يدّعي أنه **عبيدي** من أبناء العاضد آخر الخلفاء الفاطميين بمصر. وكان دخوله المغرب في أيام المنصور وحبسه الناصر ثم أطلقه قبيل حركته إلى إفريقية، فخرج إلى بلاد صنهاجة «فالتفّت عليه جماعة وانتشر له فيهم تعظيم» ثم قصد سجلماسة وهزم جيوش واليها السيد أبي الربيع سليمان ابن أبي حفص عمر ابن عبد المومن، وظل ينتقل بين القبائل «وفي ذلك كله لا يستقيم له أمر ولا تثبت عليه جماعة !» إلى أن قبض عليه بظاهر مدينة فاس في أوائل عهد المستنصر فقتله واليها السيد أبو إبراهيم إسحاق ابن الخليفة يوسف[130]، وكان قد بذل الأموال لشيعته فساقوه إليه[131].

إن هذه الثورة الطويلة الأمد والتي امتدت بين القبائل الصنهاجية من جنوب بلاد المصامدة وشرقها في عهد الناصر إلى أحواز فاس في عهد المستنصر كانت خطيرة على الدولة الموحدية، فإلى جانب ضغط هذه الثورة على سجلماسة من الغرب كان هناك تهديد لها من الشرق على يد قوات ابن غانية اللاجىء إلى الغرب بعد هزيمته في شبرو أمام الأمير الحفصي سنة

---

(126) عصير المرابطين والموحدين 2/(255-256).

(127) هل هو نفسه المسمى عبد الرحمن بن الحدارة قريب ابن غانية (ابن عمه) حسب ابن العماد الحنبلي في «شذرات الذهب»... ج 43/5-44 (ضمن ترجمة الخليفة الناصر).

(128) المقتضب من تحفة القادم : ص 97.

(129) انظر الهامشين 124 و125 السابقين وخاصة البيان 344 وصلة الصلة (ترجمة عبد الرحيم بن الفرس) ق 3 ص 228 (تحقيق الهراس).

(130) ولاه المستنصر على فاس سنة 611 بعد أن كان واليا لغرناطة (البيان 243). وهنا يقع الخلاف مع صاحب المعجب (327) في تاريخ وفاة الثائر الذي يجعله بعد أربعة أشهر من خلافة المستنصر أي خلال سنة 610.

(131) المعجب (327-328) والعبر 524/6 والقرطاس 272 والبيان 243. هذا الثائر يجعله صاحب القرطاس ولدا لثائر سابق سنة 600 بجبال ورغة، وربما كانت روايتا صاحب الذخيرة (38) والجزنائي في «زهرة الآس» (43) منقولتين عنه بينما لا يوجد ذكر لثورة العبيدي سنة 600 في المصادر الأكثر دقة مثل المعجب الذي كان صاحبه معاصرا للأحداث وقريبا منها وكذلك ابن عذاري.

604[132]، وستزداد خطورة الثورة بعد هزيمة الجيش الموحدي في العقاب، وسنعود لهذا الموضوع.

وهنا نتساءل كيف انتقل الناصر إلى الغزو بالأندلس وهو لم يطمئن بعد على الوضع بالجنوب، هل كانت هذه الثورة تظهر تارة وتختفي تارة أخرى فلم يُعر لها اهتمامه ؟ أم أنه كان يشعر بالعجز نحوها وبالتالي نحو العصبية الصنهاجية التي تبنتها أو تعاطفت معها فأخذ يبحث عن مكسب خارجي يغطّي الوضع الداخلي رغم نصيحة الشيخ عبد الواحد الحفصي بعدم ملاءمة الظروف لمثل هذا الغزو[133] ؟

ج ـ ظروف الطرفين الموحدي والاسباني ومعركة العقاب :

يمكن تصنيف الظروف السابقة للمعركة إلى ظروف داخلية (موحدية) وأخرى خارجية (اسبانية).

ـ بالنسبة للظروف الداخلية :

مع مطلع القرن السابع الهجري أصبح الناصر مطمئنا نسبيا إلى الوضع بإفريقية بجعلها ولاية ذات نوع من التسيير الذاتي من أجل مقاومة خطر بني غانية، غير أن خطرهم لم يزُل نهائيا، بل أصبح أحيانا يهدد تلمسان وسجلماسة[132]. كما أن الحالة داخل المغرب الأقصى لم تكن تدعو إلى الارتياح، فقد لاحظنا لجوء الناصر إلى تأديب بعض **القبائل العربية** بإقليم تامسنا، كما أن عددا من القبائل في الجنوب كانت تلتفّ حول الثائرين، وكان العبيدي **ثائر جزولة** يتحرك في الجنوب قبل انطلاقه نحو الشمال[133].

وبالنسبة لكبار رجال الدولة **من الأشياخ** نلاحظ أن الناصر كان يحاول إضعاف دورهم الذي تصاعد في عهد أبيه، وربما كان تعيين الشيخ عبد الواحد الحفصي واليا على إفريقية رغم ثقل شروطه[134] يدخل في إطار إبعاده عن دور الوصاية عليه[135]. كما أن وزير أبيه ابن يوجان[136] الهنتاتي أرسله ثانية واليا على تلمسان لمواجهة زحف قوات ابن غانية وفي

---

(132) العبر 6/493-404، 592 ومن نقل عنه :

Mercier : Histoire de l'Afrique Septentrional 11/132. Miranda : Historia Politica, 11/411. A. Bel : Les Banou Ghanya 146. G. Marçais : Les Arabes en Berberie, 216-217.

(133) راجع الصفحتين 173-174.

(134) الزركشي : تاريخ الدولتين، ص 18، ط. تونس، البيان 272، التجاني 360.

(135) انظر في البيان وصية المنصور لابنه بعبد الواحد وأخيه أبي زكرياء ابني الشيخ أبي حفص بألا يصدر أمر دون مشورتهما (208).

(136) ابن يوجّان (بفتح الياء وضم الواو وتشديد الجيم)، هكذا ضبطها صاحب الذيل س 8/ ص 71، مصور الخزانة العامة (قسم الغرباء).

نفس الوقت لابعاده عن البلاط[137]. وتطورت العلاقات بين الناصر وموظفيه الكبار في الاتجاه السلبي منذ عودته من حملته الافريقية سنة 604 حيث عاقب عاملي فاس ومكناسة وصادر أموالهما، كما شملت العملية أشخاصا آخرين بالمغرب والأندلس لاكتشاف سوء تصرّفهم المالي بعد أن حاسبهم وتفقد سجلاّتهم[138]، وأمام ضغط الوزير ابن يوجان أطلق سراحهم[139]. ثم أحدث تعيينات جديدة في الجهازين الإداري والمالي ونقل الوزارة إلى ابن جامع حفيد أحد أصحاب المهدي. ورغم كل هذا فإن الخليفة عندما تحرك في اتجاه الأندلس سنة 607 وجد مخازن الدولة فارغة في البلاد «الغربية» التي هي في العادة منطقة تموين تحركات الجيوش، فأصيب المعسكر بالغلاء والمجاعة، مما دفع الناصر إلى معاقبة عاملي فاس وسبتة وأعوانهما المسؤولين عن منطقة الشمال الغربي للمغرب الأقصى، وكلّف بذلك الشيخ أبا محمد بن أبي علي ابن مثنى «صاحب الأعمال المخزنية والمفوض إليه الأشغال العملية»[140]، الذي لم يكن مع الوزير ابن جامع يحضيان بالرضى من بقية أشياخ الموحدين بسبب استبدادهما على الناصر، حيث كان لا يقطع أمرا دون مشورتهما، وكان الوزير يقهر أعيان الموحدين ويهين أهل الشرف منهم حتى ابتعد عن الناصر أكثر الأشياخ[141]. هذه العلاقة المتوترة بين الناصر وكبار موظفيه وأعوانهم والأشياخ سيكون لها دور سلبي في معركة العقاب[142].

ومن الجوانب السلبية المؤثرة على مصير المعركة أيضا توتر العلاقة بين الناصر ووزيره من جهة وقواد الأندلس من جهة أخرى، فهؤلاء لم تعد لهم تلك المكانة الاستشارية التي مارسها المنصور معهم قبيل معركة الأرك، بل إن ضياع قلعة رياح لصالح النصارى بعد طول حصارهم لها وصمودها جعلت الناصر بمشورة وزيره يقتل قائد القلعة الأندلسي دون أن يسمح له

(137) في البيان (208) التوصية من المنصور أيضا لابنه بأبي زيد عبد الرحمان بن يوجان، ويصفه صاحب الروض المعطار (في مادة جنجالة) أنه «إذا احتوى على أمر ضم أطرافه ولم يترك لأحد منه شيئا، ولذلك رماه أهل الدول عن قوس واحدة»، وكان الناصر قد أبعده من الوزارة باكرا (سنة 596) حيث كلفه بالحملة إلى افريقية ثم ولاه تلمسان ثم فاس ثم ولاية تلمسان ثانية (البيان 214 و229، والمعجب 308 عن قصر مدته في الوزارة).

(138) البيان (226–228).

(139) البيان 230 وذلك قبيل ذهابه إلى تلمسان.

(140) البيان (236–237)، وشاع مقتل العاملين المعتقلين بفاس قبيل معركة العقاب وهما من أشياخ الموحدين (ص 240).

(141) القرطاس (236–237).

(142) البيان (240–241) : «وكان الظهور أولا للمسلمين على أن الموحدين لم يجدّوا في تلك الغزوة لأجل نكبة الناصر لأشياخهم... على يد ابن مثنّى... وذكروا أن بعض الناس كان يقول : مدّها، قل لابن مثنى يردها...».

بالدفاع عن نفسه «ففسدت نيات قواد الأندلس»[143]. ثم إن طول المدة الزمنية الفاصلة بين جواز الجيوش إلى الأندلس في نهاية سنة 607 وبين معركة العقاب في صفر 609 ساعدت على إضعاف الروح المعنوية التي دخلت بها إلى الأندلس. وهناك من يلقى اللوم على الناصر لانشغاله في حصار شلبطرة الذي طال حتى قلّت المؤن في المعسكر[144]، غير أن قلة المؤن لا يبدو أنها مرتبطة فقط بالمعسكر عند شلبطرة وإنما هي عامّة، قد يكون سببها سوء تصرف العمال كما جرى بالمغرب إن لم يكن لأسباب مناخية أيضا[145]. وبالنسبة لحصار شلبطرة فإنه ابتدأ في شهر صفر سنة 608[146]، وكان القتال حوله شديدا لمناعة الحصن[147] حتى تمكن الناصر من الاستيلاء عليه، ثم انصرف منه في صدر ربيع الآخر من نفس السنة أي بعد 51 يوما من الحصار[148]. وكتب الناصر كتبه بالفتح مؤرخة بـ 12 ربيع الآخر[149] من منزل الموحدين بأندوجر ومنها الرسالة التي وجهها إلى الأمير الحفصي بإفريقية كما ورد فصل منها في كل من الروض المعطار والبيان المغرب[150]. ويتضح من هنا أنه لا تترجح رواية القرطاس ومن اعتمد عليه في اعتبار مدة الحصار ثمانية أشهر. ويذكر صاحب القرطاس أيضا سقوط قلعة رياح في يد القشتاليين وما ترتب عنها من قتل الناصر لزعيم القلعة ابن قادس وتوتر العلاقة بينه وبين قواد الأندلس[151].

وهكذا فإن بقية سنة 608 كانت فترة استعداد من الطرفين الإسلامي والنصراني لخوض المعركة الفاصلة ولكن بمعنوية ضعيفة لدى المسلمين، فما هي ظروف الطرف النصراني ؟

---

(143) القرطاس (237-238)، فهل لمثل هذه الظروف عارض الأمير الحفصي اختيار الناصر لوقت الغزوة ؟ (انظر الهامش 133).

(144) يتحدث صاحب القرطاس عن طول مدة حصار شلبطرة قبل سقوطها بيد الناصر فيجعلها ثمانية أشهر، فكلّت العزائم وفسدت النيات وغلت الأسعار بالمحلة (ص 237) وقد اعتبر الناصر حصار شلبطرة اختبارا لمدى قوة أو ضعف قشتالة كما تشير إلى ذلك الرسالة رقم 67 (م ج).

(145) هناك إشارة في الذيل (غرباء) ص 192-194) (خ ع) تتحدث عن غلاء السعر بغرناطة في ترجمة أحد الصلحاء المتوفى بها في 5 شوال 608 «وعند وفاته كان وقت شدة في السعر» وهذا التاريخ يقع بعد أشهر من فتح شلبطرة حيث كان الناصر يستعد في اشبيلية لمعركة العقاب.

(146) القرطاس 236، وفي نفس الوقت تم فتح حصن اللج : الروض المعطار (مادة العقاب) انظر الهامش 160 بعد.

(147) الرسالة رقم 67 (م ج)، انظر أيضا القرطاس 236.

(148) الروض المعطار (مادة شلبطرة).

(149) البيان ص 238 في تقديمه للرسالة 67.

(150) الروض المعطار (شلبطرة) والبيان (238-240) أي الرسالة 67 (م ج).

(151) القرطاس (237-238)، واشباخ 357.

ـــ بالنسبة لظروف الطرف الإسباني :

هناك حدثان هامّان كان لهما دور فعال في استعدادات النصارى ضد الموحدين : الأول، هزيمة قشتالة في معركة الأرك التي جعلت ملكها الفونصو الثامن يبذل جهده للانتقام من الهزيمة بمحاولة توحيد جهود الممالك الاسبانية والاستنجاد بالمعونات من خارج الجزيرة، والثاني، سقوط الجزائر الشرقية (البليار) بيد الموحدين والذي أصبح يهدد بشكل مباشر السواحل الأرغونية وخطوط التجارة معها[152]، وظهر هذا التهديد فعلا عندما ضرب الأسطول الموحدي سواحل مملكة **أرغون** سنة 607 مما دفع هذه إلى شن غارات انتقامية على ولاية بلنسية أدت إلى سيطرتها على عدة حصون[153]، وأخذت غاراتها تصل أحيانا إلى أطراف ولاية جيّان[154]، وسيشترك ملكها مع جنده بحماس في معركة العقاب إلى جانب قشتالة.

أما **قشتالة** فإنها جددت عقد الهدنة بينها وبين الناصر سنة 600[155]، ولكنها أخذت تعمل على تجميع القوى النصرانية بشبه الجزيرة للانتقام من الموحدين. وظهرت نتائج هذه السياسة في عقد معاهدات ثنائية سلمية : بين قشتالة ونبارا سنة 1207 (603–604) في وادي الحجارة وذلك لمدة خمس سنوات، ومعاهدة بين أرغون ونبارا سنة 1209 (605–606)، كما حدث توقيع معاهدة سلم بين قشتالة وليون تحت ضغط الكنيسة وذلك سنة 1207، وتأكد التحالف القديم بين قشتالة وأركون بلقاء ملكيْها في كوينكة سنة 1210 (606–607)[156]. وهذا الجو بين الممالك الاسبانية شجع قشتالة على عدم تجديد الهدنة مع الموحدين بل نقضتها سنة 607[157] قبل تمامها كما يتضح من رسالة السيد أبي زيد عبد الرحمان والي جيان إلى ملك قشتالة[158] على الأقل في السنة الأخيرة من الهدنة أي سنة 607

---

(152) هذا على المستوى المحلي، يضاف إليه التراجع الصليبي عن سواحل الشام ودور الكنيسة في الضغط على حساب مسلمي الأندلس.

(153) البيان 234 ولكن لا يتضح منه البادىء بالاعتداء، وفهم كل من عنان (284/2) وميراندا (414/2) ان الموحدين هم البادئون بالاعتداء، غير أن رسالة والي جيّان إلى ملك قشتالة قد تطرح الاحتمال المعاكس (الرسالة رقم 63 م ج). خاصة وان اسبانيا أخذت تتجمع ضد الموحدين.

(154) الرسالة 63 (م ج).

(155) يشير صاحب البيان (218) إلى قدوم الوزير القشتالي لعقد الهدنة، وهو وإن لم يذكر ما إذا كانت قد عقدت أم لا، فالذي يتضح أنها تمّت فعلا مادام الناصر يستعد للحركة إلى إفريقية، كما أن رسالة والي جيان (63) إلى ملك قشتالة الذي تبتدىء ولايته لها سنة 607 يذكر خرق الهدنة من طرف قشتالة.

(156) اشباخ 353، 356، 358، عنان 288/2، 590، 595، 608.

(157) المعجب 318.

(158) الرسالة 63 (م ج) وخصوصيات هذه الرسالة 145–146، وعنان 288/2.

التي تولى فيها لمذكور ولاية جيان[159] حيث تركزت عمليات الهجوم على هذه الولاية بما فيها منطقة بياسة وأندوجر وغيرهما. كانت أهم هذه العمليات تجعل منطلقها حصن شلبطرة[160] القريب من قلعة رباح الموحدية، وربما كان هذا من أهم العوامل التي وجّهت جيش الناصر نحو شلبطرة لفتحها. غير أن الفونسو القشتالي لم يعتمد فقط على القوى الاسبانية وإنما طلب من البابا أن يذيع بأوربا المسيحية النداء من أجل حملة صليبية ضد مسلمي اسبانيا، فوصلته جموع النصرانية من داخل الجزيرة وخارجها[161].

كان جواز الناصر إلى الأندلس في ذي الحجة سنة 607، وبعد استراحة باشبيلية تحرك إلى محاصرة حصن شلبطرة أوائل 608، وبعد فتحه عاد إلى اشبيلية، فكانت بقية هذه السنة (1211) مهلة واستعدادا من الطرفين الإسلامي والمسيحي لخوض المعركة الكبرى، فبلغ الجيش الإسلامي حسب ابن أبي زرع أكثر من نصف مليون بينما جعلهم البعض حوالي مئتي ألف مقاتل[162]. كما أخذت الحشود العسكرية الصليبية من داخل الجزيرة وخارجها تتدفق نحو طليطلة يتزعمها القادة العسكريون ويرافقها رجال الدين، وبلغ عدد الوافدين على طليطلة في أول يونيو 1212 (آخر ذي الحجة 608) أكثر من مئة ألف محارب[163]، وسيلتحق ملك نبارا بنفسه في آخر لحظة بالمعركة، كما حضر أخو ملك ليون رغم عدم صفاء الجو بين الطرفين[164]، بمعنى أنه كان هناك ضغط للبابا ورجال الدين على كل من نبارا وليون للمساهمة في المعركة، وهذا ما تشير إليه رسالتا الناصر عن شلبطرة والعقاب، ففي الأولى «*وافاهم رسول إلههم... يأمر باتفاقهم وخلع بعضهم ما بقي من شروط الموحدين في أعناقهم*»[165]، وفي الرسالة الثانية : «وكان صاحب نبرّة متعلقا من الموحدين بذمام، ومنقادا إليهم أبدا في أسمح زمام، فسخط عليه صاحب رومة إن لم يكن لقومه معسكرا ولسواد أهل ملته مكثرا، فلحق بتلك الجموع مهرجا، وتوسّط بحرهم المزيد ملججا»[166]. فكان لخيالته

---

(159) البيان 234، وكان قبل ذلك واليا على سجلماسة، وتتحدث الرسالة (67) عن خرق النصارى للهدنة.

(160) كان المنصور حاول فتحه فاستعصى عليه وتخلى عنه، المعجب 319، الرسالة (67).

(161) الرسالة (68)، اشباخ 358.

(162) القرطاس 240، 3/1082 ....Ensyclopedie.

(163) اشباخ 358–360.

(164) اشباخ 359.

(165) الرسالة (67)، وربما يكون المقصود من «بعضهم» ملك ليون (العبر 362/4، 422/6)، الذيل ص 12 (غرباء).

(166) الرسالة (68)، ويتحدث صاحب القرطاس (234) عن اتصال ملك نبارا بالناصر في اشبيلية وعقد صلح دائم بينهما، بينما يرى ابن خلدون (362/4، 422/6) وصاحب الذيل (12 غرباء) أن الذي اتصل بالناصر هو صاحب ليون خداعا منه للمسلمين، كما أن Nevil Barbour لا يرجّح =

الجبليين رغم قلة عددهم دور مهم في المعركة، حيث عوضت النصارى العائدين إلى خارج ايبيريا بعد توتر علاقتهم مع ملك قشتالة عند فتحه لقلعة رياح وتأمين من بها من الموحدين[167].

وكان لقاء القوات النصرانية والإسلامية بالموضع المعروف بالمرشة[168] الذي غلب عليه اسم العقاب أو العقبات في المصادر العربية واسم Las navas de Tolosa في الروايات الإسبانية وذلك يوم الاثنين منتصف صفر 609 (16 يوليوز 1212)[169]. وكان سير المعركة في البداية يعطي الأمل للمسلمين في النصر بينما عبّر الفونسو القشتالي عن فقدان هذا الأمل[170]. غير أن الجناح الأيمن (حيث فرقة الأندلسيين) تراجع، مما جعل القلب (حيث خيمة الخليفة) يتعرض لضربات المسيحيين العنيفة[171]. وانهزم المسلمون وفقد في المعركة الكثير ومنهم أحد أبناء الناصر[172]، وربما كان قتلى المسلمين أثناء الفرار أكثر من قتلاهم في المعركة[173]. وعندما استقر الناصر باشبيلية حاول أن يهدىء الرعية برسالة من إنشاء ابن عياش معتذرا عن الهزيمة ومعبّرا عن الرغبة في الانتقام إذا توفرت العزائم[174].

ويمكن تلخيص أهم عوامل فشل الجيش الموحدي فيما يلي :

- توفر الجانب النصراني على حشود ضخمة وعلى الامكانيات المادية والحماس الديني الذي كان يخلقه فيها رجال الدين المرافقون لها، وتحالفها ضد المسلمين.
- ضعف الروح المعنوية لدى الجانب الإسلامي (الموحدي)، ونقص الانسجام بين عناصره : «فسدت نيات قواد الأندلس... فلما انتشب القتال بين الفريقين فرّ قواد الأندلس وحشودها...»[175].

= قدوم ملك نبارا إلى اشبيلية في هذه الفترة (مجلة تطوان 1965 مقال «سفارة جون ملك انجلترا إلى الناصر»).

(167) المعجب 321، اشباخ 361-362.

(168) هكذا تسميه الرسالة (68).

(169) المعجب 322، الروض المعطار (العقاب)، القرطاس 240، أما صاحب البيان فقد جعل المعركة يوم 8 صفر.

(170) اشباخ 367، وعبّر ابن عذاري عمّا يشبه ذلك بقوله «كان الظهور أولا للمسلمين» (240).

(171) القرطاس 239. راجع الهامش 142 سابقا.

(172) هو الابن الأكبر حسن اشباخ (369)، فهل هو يحيى الذي يجعل صاحب المعجب وفاته سنة 608 (ص 308)؟ انظر الهامش 312 على الصفحة 203 لاحقا.

(173) اشباخ 370.

(174) البيان (241-242).

(175) القرطاس (238-239)، انظر أيضا الروض المعطار ص 416 (مادة العقاب).

ويتحدث صاحب البيان المغرب عن ضعف عزائم الموحدين بسبب ما فعله الناصر بأشياخهم مثل عاملي فاس وسبتة وأعوانهما[176]، وتلمح رسالة الناصر عن الهزيمة إلى كثرة النصارى وإلى نقص العزائم عند المسلمين.... أما صاحبا المعجب والروض المعطار فيعللان ضعف العزائم بتأخير العطاءات للأجناد، قال صاحب المعجب «وأكبر أسباب هذه الهزيمة اختلاف قلوب الموحدين وذلك أنهم كانوا على عهد أبي يوسف (المنصور) يأخذون العطاء في كل أربعة أشهر لا يخل ذلك من أمرهم، فأبطأ في مدة أبي عبد الله هذا (الناصر) عنهم العطاء وخصوصا في هذه السفرة[177] فنسبوا ذلك إلى الوزراء وخرجوا وهم كارهون، فبلغني عن جماعة منهم أنهم لم يسلّوا سيفا ولا شرعوا رمحا.... بل انهزموا لأول حملة الافرنج عليهم قاصدين لذلك»[178]، وتحدث صاحب الروض المعطار عن خروج الناصر للمعركة في «حشود لا غرض لهم في الغزو وقد أمسكت أرزاقهم وقُتّر عليهم مع ما كان من قتله لابن قادس»[179].

وهكذا يكون العامل الأساسي في الهزيمة من الجانب الموحدي يتمثل في أن الناصر أحاط نفسه بأعوان غير أكفاء أو أنانيين[180] ففقد الاستفادة من ذوي الخبرات، وضاعت مخازن الدولة طعاما ومالا لصالح عمال استغلوا نظام الجباية القاسي لصالحهم على حساب الفلاح وعلى حساب الدولة[181]، فاختل نظام الرواتب للجيش أي فقد التشجيع المالي زيادة على المعنوي، فالمعركة إذن تمت في ظروف غير مواتية فكانت خسائر المسلمين ــ رغم سكوت رسالة الناصر ــ فادحة باتفاق الروايات الإسلامية والنصرانية وإن اختلفت في الأرقام ما بين المبالغة والاعتدال[182].

ثانيا : عواقب معركة العقاب :

أ ــ العواقب على المدى القريب :

تهتم هذه الفترة بالاستقرار النسبي في العلاقات بين الطرفين الموحدي والاسباني الناتج عن ظروف كل منهما خلال عهد المستنصر بالخصوص.

(176) البيان (240–241).

(177) راجع الصفحات (140–142).

(178) المعجب 322.

(179) الروض المعطار 416.

(180) مادة (العقاب) في Ensyclopedie.... 3/1081–1082.

(181) انظر الفقرة الأخيرة من هذا الفصل ص 217 وما بعدها.

(182) المعجب 321 «قتل خلق كثير»، الحلل الموشية (161) «المعركة التي فني فيها أهل المغرب والأندلس»، القرطاس (241) يجعل الناجين من المعركة بنسبة واحد من الألف من مجموع المقاتلين المسلمين الذين يزيدون عن نصف مليون حسب روايته، أما الرواية النصرانية فتقدر عدد القتلى المسلمين في المعركة وأثناء الفرار بما بين مئة ألف ومئتي ألف (أشباخ 370).

1 ـ بالنسبة للطرف الاسباني :

يتفق المؤرخون المسلمون على أن كارثة العقاب أدت إلى انهيار الأندلس وضياعها تدريجيا من يد المسلمين، كان هذا على المدى البعيد، أما على المدى القريب نسبيا من المعركة، فإن ما تميزت به الوضعية خلال العشر سنوات اللاحقة بها هو الاستقرار النسبي في العلاقات بين الطرفين الإسلامي والمسيحي الرسمي على الخصوص، حتى أن قشتالة المنتصرة في المعركة عقدت الهدنة مع الموحدين بدلا من أن تستغل الوضع وتشن حرب استرداد كاسحة، فلماذا ؟

خلال سنتي 610 و611 (1212 و1213) جرت أهم العمليات النصرانية في الأراضي الإسلامية بحيث سيطرت القوات القشتالية بعد «العقاب» على عدد من الحصون القريبة من المنطقة واتجهت جنوبا فاستولت على مدينتي أبذة وبياسة بولاية جيّان ثم اضطرت للانسحاب عنهما[183] وحدثت بعد ذلك غارات على منطقة اشبيلية لم تكن لها نتائج فعّالة، بل إن فرقة من جيش ليون تعرّضت للهزيمة خارج اشبيلية أمام حاميتها سنة 610[184]، ولم تستطع ليون غير الاستيلاء على حصن القنطرة بوادي تاجه[185]، وحتى البرتغال لم تستول على مدينة قصر أبي دانس (1217/614) إلا بدعم حملة صليبية كانت متجهة إلى فلسطين[186].

هناك مجموعة من العوامل كانت تعرقل الاستمرار بشكل فعّال في حرب «الاسترداد» :

ـ صمود الحاميات الاسلامية وسكان المدن رغم ضعف دعم السلطة المركزية أو سلطة اشبيلية[187].

ـ نقص التموين للقوات النصرانية مما يجعلها لا تستطيع مطاولة الحصار، هذا إلى جانب انتشار الوباء الذي ساعد عليه كثرة قتلى معركة العقاب[188].

ونقص التموين مرتبط أيضا بانخفاض المنتوج الزراعي بسبب الانشغال بالمعركة والاستعدادات لها فكانت سنة 610 (1213-1214) على الخصوص سنة نقص المؤونة : ففي إحدى رسائل المخطوط الخاص الموجهة من والي اشبيلية إبراهيم بن الخليفة يوسف إلى الخليفة المستنصر مؤرخة بعشرين صفر 611 (فاتح يوليوز 1214). توجد الإشارة الآتية : «فقد كانت أصابت الناس شدة ظاهرة في العام بما كان من غلاء السعر وعدم الطعام، إلى

---

(183) المعجب 322، الروض المعطار ص 6 (مادة أبذة) وص 202 (حصن الكرس)، القرطاس 272، عنان 2/(323-324)، اشباخ 371-372.

(184) الروض (مرج الحمار)، العبر 522/6 Miranda = Historia politica (2/430-431).

(185) وكان ذلك بدعم من قشتالة، اشباخ 386، وميراندا Historia 2/431.

(186) الروض (قصر أبي دانس) ص 475، القرطاس (242-243) 273، عنان (2/338-339)، اشباخ (450-451) ميراندا 442/2 وما بعدها.

(187) مثلا أهل مدينة ابدة رفضوا اخلاءها حتى دخلها النصارى بالسيف، الروض المعطار (ص 6).

(188) صاحب القرطاس (270) يتحدث عن الوباء بالأندلس والمغرب سنة 610 (1213-1214).

أن تدارك الله المسلمين... فالرخاء هنا الآن والحمد لله كائن موجود... والناس بالهدنة والعافية مستبشرون... ويشتغلون بضم زروعهم آمنين»[189]. فالمفهوم أن سنة الشدة هي سنة 610، وهذا في المناطق الإسلامية على الأقل[190]، بحيث لم يكن يشجع الجيوش النصرانية الغازية على التحركات مادامت المؤن ضعيفة في هذه المناطق، ويبدو أنه كان هناك نقص في الأمطار خلال سنة 610، ثم أخذت الحالة تتحسن خلالْ سنتي 611 (1213-1214) و612 (1214-1215)، فكثير من رسائل المخطوط الخاص تتحدث عن توالي الأمطار، واشتغال الناس بالحرث وانتظار موسم حصاد جيد ورخاء وما شابه هذا، ومن المرجح أن معظم رسائل هذا المخطوط كتبت خلال سنتي 611 و612[191].

وهكذا أصبح في الإمكان إعادة تنظيم الغارات النصرانية منذ 611 مادامت المنطقة الإسلامية على الأقل أخذت تشهد انتعاشا زراعيا يستقطب إليه أنظار الأعداء، إلا أن هذا الأمر كان مرتبطا أيضا وعلى الخصوص بالحالة الداخلية في الممالك الاسبانية وبالعلاقات فيما بينها : فهذه العلاقات حتى في الفترة القريبة جدا من معركة العقاب لم تكن علاقات نقية بين قشتالة وليون من جهة ثم بين ليون والبرتغال من جهة ثانية، فقد استولت ليون على عدد من الحصون القشتالية في الحدود حول نهر دويرو، وحاول ملك **قشتالة** أن يعطي اهتماما أكبر لتنسيق الغارات مع ليون على الأراضي الإسلامية، وقبل أن يتوصل مع ملكها (ليون) إلى تحقيق تحالف بهذا الشأن عاجلته منيته في 6 أكتوبر 1214[192] (آخر جمادى الأولى 611)، وستدخل قشتالة مرحلة الوصاية على العرش. كما أن **البرتغال** من جهتها كانت لها انشغالات داخلية خاصة بين الملك ورجال الدين، وكان **ملك ليون** يتدخل أحيانا في البرتغال وبأسلوب عسكري[193]. وبالنسبة **لأرغون** فإن ملكها بيدرو الثاني بمجرد دعوته من «العقاب» انشغل بمشاكل ما وراء البرنيس، ثم كان مقتله في إحدى المعارك هناك في أواسط

---

(189) الرسالة رقم 70 (م ج) وهي على صفحات المخطوط من 334 إلى 337، لاحظ فيها الربط بين الأمن الداخلي والانشغال بالعمل الزراعي.

(190) توجد في التشوف إشارة إلى المجاعة الشديدة ببجاية (ضمن ترجمة المتوفى بها خلال هذه المجاعة سنة 611) ص 148 (فور)، أي أن هناك ظروفا مناخية غير مناسبة أيضا في الشمال الإفريقي على الأقل منذ سنة 610، ويحتمل أن تكون هذه الحالة هي نفسها في ايبيريا بل يتحدث اشباخ (386) عن جمود حرب الاسترداد في هذه الفترة معللا ذلك بالقحط الذي أصاب اسبانيا حتى أن الروايات لا تتحدث عن أخبار الحرب في أوائل سنة 1214 (أواخر 610).

(191) الرسائل التي وردت فيها الإشارات للمطر (تصريحا أو تلميحا) هي أرقام : 70، 71، 72، 73، 74، 78، 81، 82، 88، 103، 104.

(192) اشباخ (385-386)، Miranda, Historia politica 2/231، راجع أيضا الرسالة رقم (71).

(193) اشباخ 385، 449، عنان 611/2.

دجنبر 1213[194] (آخر رجب سنة 610)، ودخلت أرغون مرحلة الوصاية على الملك الطفل كما في قشتالة.

وهكذا فإن هاتين الدولتين (أرغون وقشتالة) اللتين يمثل تحالفهما تهديدا قويا للمسلمين دخلتا في فترة الأوصياء والفتن الداخلية : ففي أرغون أصبح هناك نزاع بين أنصار الملك الطفل خايمي وأنصار عميه المطالبين بالعرش، ولم تهدأ الأحوال إلا حوالي سنة 1227 (624-625)، بحيث أمكن توجيه الأنظار نحو الأراضي والجزر الإسلامية المجاورة[195]. أي أن فترة حكم المستنصر كانت فترة هدوء بشكل عام على المستوى الرسمي مع الأرغونيين، وربما كان هذا من العوامل التي جعلته يقدم تسهيلات لبعض رعايا أرغون مثل رهبان دير بوبلات Poblet للرعي بأراضي المسلمين[196].

أما في قشتالة فإن الفونسو الثامن مات[197] وترك ابنه الطفل هنري الذي كان في حاجة لوصي عليه، فتكفلت به أخته برنجيلا Berenguela وتلقبت بالملكة، إلا أنها أصبحت في مواجهة منافسة أسرة آل لارا القوية (بزعامة الكونت نونيزدي لارا)، ورغم أن برينجيلا تنازلت له عن حق تربية الملك فإن تزايد أطماع أسرة لارا أدت إلى اندلاع حرب أهلية بين أنصار هذه الأسرة وأنصار «الملكة» وخاصة بعد موت هنري وانتقال العرش إلى ابنها فرناندو (الثالث فيما بعد) من زوجها ــ سابقا ــ الفونسو التاسع ملك ليون، وقد تدخل هذا في شؤون قشتالة بصفته والد ملكها الطفل، وبالتالي طمع في حكمها أيضا. ولم تتراجع الحرب الأهلية نسبيا إلا عند حصول الوئام بين الملك الأب والملك الطفل وموت زعيم آل لارا سنة 1218 (614-615)، فأصبحت منذئذ ثورات أنصار هذه الأسرة متقطعة[198]. وسيجدد فرناندو الثالث القشتالي حرب الاسترداد الناجحة منذ أواسط العشرينيات خاصة بعد وفاة أبيه الفونسو التاسع ملك ليون سنة 1230 (627) واتحاد ليون مع قشتالة في عهده، وسيقع السباق بين مختلف الأطراف الاسبانية للتوسع، فتأخذ أرغون الجزر الشرقية وشرق الأندلس، وتستولي البرتغال على إقليم الغرب بأكمله، وتتحرك قشتالة للزحف على أراضي الوادي الكبير ومدنه.

إن فترة الوصاية كانت فترة ركود لحرب «الاسترداد» بل لاحظنا من العوامل ما جعل

---

(194) اشباخ (379-383)، عنان 603/2-605.

(195) اشباخ (414-417)، عنان 605/2-606.

(196) هذا الظهير رقمه 105 مكرر (م ج) انظر رأيا آخر يراه Torres في مقالة عن السيد أبي زيد (El Sayyd Abu Zayd....) في مجلة «أوراق» ع/ 3 ص 103، مدريد.

(197) مات قبله ولي عهده في 14 أكتوبر 1211 (4 جمادى الأولى 608)، Historia politica 2/421.

(198) أشباخ 387-394، عنان 2/(333-334) و(592-593).

قشتالة تبحث عن عقد الهدنة مع الموحدين[199] وهذا ما تم سنة 612[200] : فأمام مشاكل قشتالة أرسل الوصيُّ على الملك زعيم آل لارا الكونت «أربل بن نونة» وفدا للمفاوضة يرأسه الوزيران أبو الحجاج بن مزاح وأبو إسحاق إبراهيم بن أبي الحجاج بن الفخار، ومع الوفد رسالة إلى والي اشبيلية للاعتناء بأعضائه[201]. وبعد الاتفاق على الخطوط العامة للهدنة بين الوفد والخليفة بالمغرب كلف الخليفة والي إشبيلية السيد إبراهيم بن الخليفة يوسف باختيار وفد للمفاوضة برئاسة مساعده الشيخ أبي عبد الله بن عبد الله بن عبد الرحمان «الخبير بذلك»[202]. ويكون ضمن الوفد الموحدي السيد أبو الربيع صاحب جيان والشيخ أبو العباس بن أبي حفص صاحب قرطبة[203]. ويبدو أن هذه المفاوضات تمت نهائيا في إشبيلية سنة 612 وغادرها الوفد القشتالي عائدا إلى بلاده، وقد كتب بهذه المناسبة والي اشبيلية السيد إبراهيم رسالة إلى مقر الخلافة مخبرا بوصول الوفد القشتالي من لدن الخلافة إلى اشبيلية ثم «أخذ الأرسال المذكورون في الانفصال من هنا-(إشبيلية) إلى صاحبهم على الوجه الذي اقتضاه النظر الكريم» (نظر الخليفة)[204]، واعتبرت هذه الهدنة مكسباً هامّاً لصالح الخلافة، فكان لابد من التنبيه للمحافظة عليها من قبل الطرف الموحدي ومن ذلك ما أشارت إليه الرسالة الجوابية من إشبيلية والتي تخبر «بوصول الكتاب الخليفي المتضمن للأوامر برعي السلم مع صاحب قشتالة... حتى تقوم عليه.... الحجة»[205]. وكان القشتاليون من جهتهم لا يتعرضون ـــ على الأقل بالنسبة للقوات الرسمية ـــ لنقض الهدنة[206]، إذ تتكرر الإشارة إلى ذلك في عدد من الرسائل الموجهة من والي إشبيلية إلى مقر الخلافة[207]. وكما سبق الذكر

---

(199) سنرى الظروف الداخلية بالنسبة للموحدين أيضا فيما بعد.

(200) البيان 244، العبر 524/6، ويسمى ديفورك اتفاقية 612 «باتفاقية سلا» لسنة 1215 : Relations du Maroc et de la castille في مجلة «تاريخ وحضارة المغرب» كلية الآداب بالجزائر عدد 1968/5، ص 39-40.

(201) انظر الرسالة رقم 77 (م ج) وهي تؤكد خطأ ما ورد في البيان (244) عندما ذكر الصلح مع ملك قشتالة، فالأصح ملكتها التي كانت تملك قانونيا حق إعلان الحرب والسلم والمعاهدات، وينفذ الوصي ذلك بإذنها، (اشباخ 388).

(202) الرسالة 78 (م ج)، ويتضح من الرسالة رقم 79 (م ج) أن هذا الشيخ كان صاحب الأعمال (المالية)، وقد أمِر الوالي بأخذ رأيه ونصائحه ربما لخبرته، وربما أيضا لسياسة ابن جامع الوزير لمراقبة السادة في الولايات كصورة مصغرة لمراقبته هو للخليفة في إطار الصراع بين نفوذ السادة والأشياخ.

(203) الرسالة (95)، البيان 244.

(204) الرسالة (80).

(205) الرسالة (81).

(206) يذكر ديفورك أنه لم تكن هناك هجومات قشتالية وإنما مناورات طفيفة (المقال السابق ص 40).

(207) الرسائل : 82، 103، 104.

كانت الحرب الأهلية والنزاعات بين الممالك الاسبانية تمنع من خرق هذه الهدنة مع الموحدين، وتتكرر في عدد من الرسائل الإشارات إلى ذلك مثل : تفرّق شمل الكفار...»، «الفتنة بين الكفرة مضطرمة...»، «جعل الله بأسهم بينهم....»[208]. فالطرفان معا الموحدي والقشتالي كانا حريصين على استمرار الهدنة، وربما كان الموحدون يشعرون بأنهم أحوج إليها لاضطراب أمورهم بالمغرب ونقص الاستقرار أيضا في الأندلس[209]. فعندما قام أحد المسؤولين بالاعتداء على مجموعة من النصارى وجّه الخليفة المستنصر استنكارا لهذا الحادث : «لا تتعرضوا من الشر لما تعجز عنه طاقتكم»[210]. وقد تكون هذه الحادثة هي نفسها التي تتحدث عنها رسالة والي اشبيلية مخبرة بقتل المعتدي على النصارى وإطلاق سراح الأسرى «حذراً من نكث العهد... وخوفا أن ينجم ناجم فتنة أو نفاق، أو يستوي ضرر الكفرة على ساق»[211].

وكانت هناك محاولة لعقد هدنة مماثلة بين الموحدين ومملكة البرتغال، فلما توصلت هذه إلى التصالح مع ليون ــ التي سبق لها أن تدخلت في شؤون البرتغال ــ تراجعت هذه عن مشروع الهدنة مع الموحدين وجعلتها مرتبطة بموقف ليون، أي تنسيق سياسة الدولتين تجاه الموحدين[212]. إلا أن ذلك التصالح لم يكن له خطر على هؤلاء لأن ليون ستنشغل بأحداث قشتالة كما سبق الذكر، ولن تجد البرتغال من يدعمها غير إحدى الحملات الصليبية للسيطرة على قصر أبي دانس أهم مركز موحدي كان يعرقل التوسع البرتغالي جنوبا في إقليم الغرب[213].

ولما كانت قشتالة لم تستقر أوضاعها نهائيا سنة 618 (1221) فقد فضلت تجديد عقد الهدنة مع الموحدين كما يشير إلى ذلك صاحب البيان المغرب ورسالة وزير المستنصر الواردة به[214]، ويبدو أن المشاكل السياسية لدى الطرفين ليست وحدها وراء تجديد الهدنة، فهناك إشارات إلى ظروف القحط والمجاعة باسبانيا والمغرب[215]. ومع اندلاع الصراع المسلح

(208) الرسائل : 74، 75، 76، 94، 98.

(209) لاحظ ذلك فيما بعد عن عيث بعض القبائل العسكرية بالأندلس وبدء وزحف بني مرين على «البلاد الغربية» بالمغرب الأقصى.

(210) الرسالة رقم (83).

(211) الرسالة رقم (84).

(212) الرسالة رقم (84)، وتلميح في الرسالة (79)، ويرى ديفورك أن ليون هي التي أصبحت الآن لها سياسة ذات أهداف أندلسية توسعية (المقال السابق).

(213) عنان 338/2—340، انظر أيضا القرطاس (242—243) و273، الذخيرة السنية ص 50، الروض المعطار، ص 475 (قصر أبي دانس).

(214) الرسالة (85) والبيان 246، ميراندا في : Historia politica....... 2/445.

(215) البيان (245—246)، الذخيرة السنية 54، وتوجد في التكملة إشارة إلى سوء أحوال إشبيلية (ص 606، ط. القاهرة)، وفي ترجمة بالذيل للمتوفى سنة 618 يذكر أن وفاته كانت وقت غلاء السعر باشبيلية (ص 194، قسم الغرباء خ ع).

حول السلطة بالمغرب والأندلس خلال العشرينيات كانت الأمور تسير نحو استقرار أكثر لصالح الممالك الاسبانية مما سيسهل عليها عمليات اقتسام معظم الأراضي الإسلامية بالأندلس، وهذه من أهم عواقب هزيمة معركة العقاب.

2 ـــ العواقب على المدى القريب بالنسبة للموحدين :

إن ما وقع في اسبانيا من موت ملكي قشتالة وأرغون بعد حوالي سنتين من معركة العقاب وتولي الأوصياء شؤون البلدين، حدث مثله بالمغرب حيث توفي الناصر بعد سنة ونصف من المعركة أي في شعبان 610[216]، وتولى العرش الموحدي ابنه المستنصر قبل أن يبلغ سن الرشد[217]، فأصبح بدوره تحت وصاية وزيره ابن جامع. وعادة ما يصاحب هذه الوضعية عدم الاستقرار في الداخل، وهذا ما كان يدفع إلى الترحيب أو الترغيب في أية بادرة للهدنة مع النصارى خاصة القشتاليين كما رأينا. ويتجلى عدم الاستقرار في عدد من الجوانب رغم ادعاء بعض المصادر أو تعميمها عند وصف عهد المستنصر بأنه عهْدُ دعة وهدوء[216]، فهناك مشكلة الجند الموحدي بالأندلس وثورة كزولة بجنوب المغرب الأقصى وعلى الخصوص فتن المرينيين بشماله :

ـــ **فالمرينيون** : عنصر زناتي، وزناتة كانت مواطنها الأصلية تمتد ما بين بلاد الزاب بإفريقية وحوض نهر ملوية، أي منطقة السهوب الرعوية الواسعة ومنطقة تربية الخيول الأساسية. وقد شارك الفرسان الزناتيون ومنهم المرينيون في معركة الأرك. غير أن القبائل الزناتية منذ أواسط عهد الناصر أصبحت تمثل مصدر قلق للموحدين خاصة عندما ناصرت ابن غانية في تحركه بمنطقة تلمسان سنة 605[219]. وقد استغلت انهيار القدرة العسكرية الموحدية بعد العقاب لتتسرب تدريجيا عبر ممر تازة إلى «البلاد الغربية»[220]، خاصة بعدما فشل والي فاس السيد أبي إبراهيم ابن الخليفة يوسف في وقف زحفها[221]. وتضررت من عيثها المناطق الزراعية

---

(216) كانت وفاة الملوك الثلاثة في التواريخ الآتية : ملك المغرب في 10 شعبان 610 (25 دجنبر 1213 انظر كيفية موته في المعجب 323 والقرطاس 241 والبيان 243)، ملك أرغون 13 دجنبر 1213 (آخر رجب 610)، وملك قشتالة في 6 أكتوبر 1214 (آخر جمادى الأولى 611، انظر عنهما في هذا الفصل ص (183-186) سابقاً.

(217) عمره آنذاك ستة عشر سنة حيث كان قد ولد في شوال 594، (المعجب 323) بينما يجعل صاحب البيان عمره عشر سنوات فقط (ص 243).

(218) البيان 243، والحلل الموشية 162، القرطاس 242.

(219) البيان 229، العبر 6/403-404.

(220) لعل العامل الأساسي لدخولهم إلى المغرب الأقصى عامل مناخي (البحث عن المؤونة)، حيث يظهر أن قساوة الظروف المناخية بالشمال الإفريقي كانت على الأقل بين سنتي 610 و612، انظر الهامش 190 السابق.

(221) البيان 244، القرطاس 272 و286، الذخيرة السنية 49، العبر 6/524 و7/348.

الغربية، إذ يبدو أن لها دورا مهما فيما عرفته البلاد من القحط والمجاعات التي يذكر حدوثها منذ سنة 614 إلى ما بعد 617 حيث ستدخل في صراع مستمر مع القبائل العربية التي كان الموحدون أقروها بالمنطقة لحفظ الأمن وجمع الجبايات، فحاولت القبائل المرينية أن تلعب نفس الدور لكن لصالحها[222]، أي أنها وجدت فراغا عسكريا كان من نتائج معركة العقاب فاستفادت منه لتركيز نفوذها. أما شدة المجاعة سنة 617 فيبدو أنها كانت وراء رسالة الخليفة المستنصر إلى الأمة لتسكين النفوس، حيث يأمر فيها بالمعروف وإقامة الدين وينهي عن المنكر[223].

ـــ **ثورة كزولة** : إذا كانت البلاد الشمالية من المغرب الأقصى عرفت الاضطرابات الناتجة عن الصراع بين أنصار السلطة الموحدية من العرب، وبين القبائل المرينية، فإن الجنوب كان يعرف عدم الاستقرار منذ أيام الناصر واشتد الأمر في نهاية عهده وأول عهد المستنصر حيث انتقل الثائر العبيدي من الجنوب إلى أحواز فاس إلى أن قبض عليه وقتل في أوائل عهد المستنصر آخر سنة 610 أو أول سنة 611[224]، هذا التاريخ يحدده المراكشي الذي كان لايزال بالمغرب على الأقل إلى مطلع سنة 611[225]، ولكن هذه الثورة التي انطلقت من جزولة لم تنته بمقتل هذا العبيدي، وإنما استمرت أو تجددت بقيادة ثائر آخر بجزولة ادعى أيضا أنه عبيدي وتسمى بالفاطمي، وليس مستبعدا أن يكون أحد أنصار الثائر السابق أو من أقاربه[226]. و لم تتوقف هذه الثورة إلا بمقتل زعيمها سنة 612[227]، وعندئذ تنفست الدولة الصعداء بسبب طول وخطورة هذه الثورة وإذا كان المراكشي لم يوضح كيفية مقتله لوجوده آنذاك بالأندلس، فإنه أشار إلى الابتهاج العظيم الذي أظهره الجهاز الموحدي بالأندلس بعد مقتله[228].

إن ثورة كزولة هذه ونهاية زعيمها تؤكّدها رسالة المستنصر من مراكش إلى والي إشبيلية وهي مؤرخة بـ21 ربيع الآخر سنة 612[229]، ويبدو أن ابن عذاري اقتبس منها هو أو

---

(222) البيان 244 و247، القرطاس 273 و(286–289) الذخيرة 53، العبر 7/349–350.

(223) الرسالة رقم 106 (م ج).

(224) انظر الهامش 131 سابقا، والمعجب 327 والقرطاس 272 والعبر 6/524–525 وعنان 2(332–333) وهو يغفل ثورة الفاطمي ثائر جزولة المذكور بعد.

(225) المعجب 328.

(226) يشير صاحب القرطاس إلى ثائرين عبيديين أحدهما قتل سنة 600 والثاني وهو ابنه وقد قتل سنة 610.

(227) البيان 243، المعجب 328–329.

(228) المعجب 329.

(229) رسالة زوائد العطاء، رقمها 97 (م ج)، ووالي إشبيلية هو السيد أبو إسحاق بن الخليفة يوسف المتوفى بها في شعبان 612 حسب العطاء (ص 69–70) من المخطوط.

المصدر الذي نقل عنه في إيراده لخبر نهاية الثورة[230]، كما أن الرسالة في المخطوط الخاص رقم 100 (م ج) ـــ وهي جوابية صادرة عن والي إشبيلية إلى وزير المستنصر ـــ تصف الاحتفال على أثر وصول الخبر بمقتل الثائر «الناجم بجزولة»، وربما هو نفسه الذي تتحدث عنه رسالة المخطوط نفسه وهي الرسالة رقم 99 (م ج) عندما تشير إلى قبض القبائل على «الشقي» وهي نفس الطريقة التي أشارت إليها رسالة العطاء المذكورة لانهاء هذه الثورة[229]، كما تشير إلى عموم البشرى في مواسط البلاد وأطرافها، «والله يلحق بهذا الشقي أمثاله من الضُّلاّل كما ألحقه بمن تَقدّمه من أهل المُحال والضَّلال». وتتحدث رسالة أخرى جوابية صادرة عن والي إشبيلية أيضا وبالمخطوط الخاص وتحمل رقم 98 (في م ج) مشيرة إلى أنه على إثر وصول خبر مقتل «الشقي الذي نجم بالقِبلة... اهتزت أرض الأندلس طربا بهذه البشارة العظيمة اهتزازا... وشمل السرور الأمة قاطبة وعمّهم... وإنه لفتح من الفتوح التي يأتي بها أسعد الأزمان...».

إن هذه الثورة التي قويت بعد هزيمة العقاب وموت الناصر كانت خطيرة فيما يبدو، فقد لاحظنا انطلاقها من بلاد كزولة جنوبا، وتحركها نحو منطقة سجلماسة قبل أن تصل إلى ناحية فاس، أي أنها كانت تتحرك في إطار العصبية الصنهاجية أو على الأقل العصبيات المعادية للمصامدة[231]. بل إن العصبية الصنهاجية ستتحرك مرة أخرى مع ثائر آخر «أثار آثاراً قبيحة واستفسد خلقا كثيرا» إلى أن تمكن من قتله سنة 618 والي سجلماسة السيد أبو محمد عبد العزيز بن الخليفة يوسف[232] وأمام استمرار أو تجدد الثورات بالجنوب والذي تحتل جزولة جزءا أكبر منه نطرح التساؤلات الآتية :

* لماذا ادّعى بعض زعمائها أنهم عبيديون فاطميون، هل هو مجرد اتخاذ لقب جديد بعد أن استهلك ثوار سابقون مختلف الألقاب[233]، أم أن ذلك تعبير عن استمرار أفكار شيعية قديمة في المنطقة الجنوبية[234]، وبعبارة أخرى هل كان هناك ميل شيعي بالمنطقة لظهور آل البيت على مسرح السلطة استغله زعيم الثورة ؟

---

(230) قارن الرسالة مع البيان 243 حيث العبارة الآتية : «والموحدون في كل ذلك يعلمون أن مآله ومآل أمثاله من كل من ادّعى دعواه ونحا في الباطل البحث منحاه».

(231) يبدو أن أرض كزولة كانت تمتد على طول السفوح الجنوبية للأطلس الصغير تجاورها في الغرب لمطة وتمتد شرق درعة إلى مشارف أرض سجلماسة وتتألف من عدة بطون، انظر بسط الأرض 58، العبر 282/6، 420، 425، R. Montagne = Les Berbères et le Makhzen (28-29).

(232) المعجب 326–329، وهو ينفرد بذكر هذه الثورة الأخيرة ولا يفصلها لغيابه في المشرق.

(233) كان الماسي يلقب بالهادي، ووصف الجزيري بأنه خارجي من الأزارقة، واتخذ ابن الفرس لقب القحطاني، زيادة على لقب المهدي عند ابن تومرت قبلهم.

(234) يذكر الإدريسي في حديثه عن بلاد السوس أن أهلها فرقتان : فرقة مالكية وأخرى جعفرية شيعية ص 39 (الجزائر 1957)، وربما هذه البقايا هي التي شجعت المهدي على اتخاذ هذا اللقب.

* لقد ثارت كزولة بزعامة أبي قصبة ثم القحطاني في وسط سيطر فيه بنو غانية على كل افريقية تقريبا، ثم انطلقت ثورة العبيدي من جزولة في غياب الناصر بإفريقية، وهدد سجلماسة من الغرب بينما وصلها ابن غانية من الشرق، فهل كانت هناك علاقة بين تحركات كزولة وصنهاجة المغرب الأقصى من جهة وبني غانية المرابطين الصنهاجيين من جهة ثانية لمحاولة تطويق الموحدين من الجنوب عسكريا وتجاريا..[235] أم أن تحرك ابن غانية غربا ناتج فقط عن اتباع أسلوب الكرّ والفر نحو القوة الموحدية خاصة بإفريقية فيجمع الأموال اللازمة للكرّ من مدن المنافذ التجارية الصحراوية من إقليم طرابلس إلى سجلماسة ليداوم حرب الاستنزاف[236]، وأن ثورة كزولة وراءها دوافع محلية كسلبيات الحكم الموحدي بضغطه على العصبيات غير المصمودية ؟ يبدو أن قساوة الحكم وفساده من جهة والعداء التقليدي بين كزولة والموحدين منذ ظهور دعوتهم من جهة أخرى جعل أولائك يتبعون كل ثائر حتى ولو كان من غير عصبيتهم.

* نتساءل أخيرا هل هناك علاقة بين حركة قبائل كزولة وصنهاجة جنوبا وبين حركة بني مرين شمالا ؟ لا يبدو ذلك، وإنما كل من الطرفين حاول أن يستغل ضعف السلطة المركزية والفراغ العسكري لتأكيد استقلاله بمنطقته، فالمرينيون عصبية زناتية ولها مشيختها وأميرها ولم يظهر لها اتجاه سياسي إلا تدريجيا بينما كانت كزولة وراء دعاية سياسية معينة (حتى قبل هذه الفترة) وادّعى ثائرها في هذه المرة أنه فاطمي أي شيعي.

ـــ مشكلة السلطة وفوضى الجند الموحدي بالأندلس : رأينا أن عبد المومن استطاع أن يفرض نفسه على المصامدة كما تجلى ذلك في توريث الحكم في سلالته، وتوزيع الولايات على أبنائه، وجعل أشياخ المصامدة مساعدين لهم، واعتمد في إنجاح هذه السياسة على قبيلته كومية وقبائل العرب التي مهد الطريق لدخولها إلى المغرب[237]. غير أن المنصور أخذ يميل إلى أشياخ المصامدة ويبعد السادة (القرابة) من الشؤون السياسية بسبب المؤامرات التي تكررت من هؤلاء أكثر من مرة[238]، وفي أيام مرضه الذي توفي منه ترك كبار الأشياخ من المصامدة أوصياء وسندا لابنه الناصر كالوزير أبي زيد ابن يوجان الهنتاتي والشيخ عبد الواحد الحفصي، غير أن الناصر حاول أن يخفف من ثقل هؤلاء بتعيين الحفصي واليا على إفريقية وتعيين ابن يوجان على تلمسان واشتد على العمال من الأشياخ كعاملي فاس وسبتة[239]. إلا أن نفوذ

---

(235) لاحظ القرابة التي يذكرها الذهبي في «شذرات الذهب» بين ثائر السوس المسمى عبد الرحمن ابن الحدّارة في أيام الناصر، وبين توسع ابن عمه (كذا) ابن غانية بإفريقية (المجلد 5/43-44، ضمن ترجمة الناصر).

(236) سيهاجم مرة أخرى سجلماسة سنة 624، العبر 592/6.

(237) راجع الفصل الأول ص (36-38).

(238) المعجب 265 و(276-278) و(280-281).

(239) راجع الصفحة 176 من هذه الدراسة التاريخية.

الأشياخ أخذ يَقوَى بعد هزيمة العقاب حتى قيل أنهم وراء موت الناصر خوفا من انتقامه منهم(240)، وإذا صحّ هذا يكون أول خليفة موحدي قتل على يد حاشيته، وهذا من مؤشرات بداية انهيار السلطة المركزية.

تزايد نفوذ الأشياخ مع خلافة المستنصر الطفل الذي خضع لوصاية الوزير ابن جامع حفيد أحد أصحاب المهدي، وسينكشف الصراع بين السادة والأشياخ بعد موت المستنصر ويبلغ أوجه أيام المأمون : ففي عهد المستنصر «أقام أشياخ الموحدين دولته مع أشياخ من أعمامه»(241)، «وغلب عليه ابن جامع ومشيخة الموحدين فقاموا بأمره»(242)، ويذكر المراكشي أن الناصر كان في أواخر أيامه منحرفا عن ابنه يوسف (المستنصر) لما كان يسمع عنه من سوء أخباره(243)، فهل كان لابن جامع الدور الأساسي في إيصاله إلى الخلافة ؟(244) يذكر البعض أنه استغل صغره وشجعه على حياة اللهو فاستبد بالأمور وظل يخفي عنه شؤون الدولة، بل هناك من يحمّله المسؤولية فيما كان يحدث من النهب وقطع الطرق في المسالك الرئيسية بالمغرب الأقصى(245)، وبعد إعفائه من الوزارة سنة 615 أعيد إليها(246) ثم عزل بعد سنتين وتوفي قبل وفاة المستنصر التي حدثت بتدبير أشياخ المصامدة(247).

فكيف كان انعكاس ضعف السلطة المركزية على بعض الأقاليم البعيدة كالأندلس وخاصة من ناحية الأمن ؟ بالنسبة للأندلس تهمل المصادر العربية المعروفة الحديث عنها بعد العقاب تقريبا إلى العشرينيات، غير أن مخطوط «العطاء» والمخطوط الخاص يتوفران على بعض الرسائل التي تشير إلى هذا الموضوع : ففي الوقت الذي اطمأن فيه الأندلسيون من هجمات القشتاليين بعد موت ملكهم في أواسط 611 بدأت المحاولات لعقد الهدنة بين الطرفين، وفي الوقت الذي كان الناس ينتظرون بأمل كبير موسما زراعيا جيدا بدأت بعض الجماعات العسكرية

---

(240) المعجب 323، البيان 243، القرطاس 241.

(241) القرطاس 342.

(242) العبر 523/6.

(243) المعجب 325–326، هل كان يوسف وليا للعهد أثناء حركة أبيه إلى افريقية ؟ فأحد الشعراء مدح الناصر على انتصاراته وذكر معه ابنه يوسف (البيان 232) وهل فكر الناصر في نقل هذه الولاية ليحيى ابنه لو طالت عمره ؟ يذكر ابن أبي زرع أن الناصر بعد عودته من العقاب أخذ البيعة لولده يوسف (ص 241) !.

(244) يذكر صاحب المعجب بعض السادة والأشياخ الذين شاركوا في بيعته من البداية (326).

(245) الذيل (قسم الغرباء) خ ع ضمن ترجمة علي ابن القطان (ص 176 من طبعة 1984).

(246) العبر 524/6.

(247) ذكر صاحب الذيل ضمن ترجمة ابن القطان أن عماله ورجال دولته خافوا منه أن يقبض عليهم ويستصفي أموالهم فدسّوا له من سمه (الذيل س 8 ص 179 ط. 1984).

انتهاك الدور والمزارع وإتلافها، فرسالة «العطاء» الموجهة من إبراهيم(248) والي إشبيلية إلى الوزير ابن جامع (وهي رقم 90 في (م ج)) تتحدث عن «فلانة ـــ أصلحهم الله ـــ فإنهم عاثوا في هذه الجهات،... وتلمّظوا للزرع تلمّظ المستعدّين لانتهابه...»(249). كما تشير إلى حادثة بينهم وبين أحد الهرغيين حيث قتلوه، ويعترف الوالي بضعف السلطة بقوله «وما لأحد هنا طاقة بكف فلانة... ولا اقتدار». وفي رسالة أخرى من نفس الوالي إلى القائد ابن مثنى (رقمها 91 م ج) «إن أهم ما يجب تبليغه... ما اشتد بالرعية في هذه الجهات من بأس فلانة ـــ أصلحهم الله ـــ... قد عاثوا في هذه الجهات... وتفاقم أمرهم كل التفاقم... وقد كان مجلّكم (الوالي) طالع قبل هذا بأفعال القوم...»، وفي رسالة أخرى في نفس المصدر (رقمها 92 في م ج) مؤرخة بـ 20 محرم 612 عن نفس الوالي أيضا إلى الوزير ابن جامع فيما يبدو يتحدث عن أهل «فلانة» أنفسهم وعيثهم حتى أن بعض السكان فرُّوا من عملهم ومساكنهم وبقي البعض الآخر ينتظرون جني ثمارهم وزروعهم إن سلمت لهم من يد هؤلاء العائثين، «وأنتم إن شاء الله تسعون في حسم هذه العلة سعيا جميلا». أما الرسالة رقم 93 (م ج) فهي تقارن بين عيث «فلانة» وعيث «ابن الرنق» (ملك البرتغال) بجهات إشبيلية من قبل، وتجعل عيث النصارى أقل وأهون، وينذر الوالي صاحب هذه الرسالة بإمكانية اندلاع الفتنة بين السكان وهؤلاء «فيؤول ذلك إلى ما يكرهون والعياذ بالله من ذلك».

ما هو الهدف من هذا العيث والتعدي على الناس وسلبهم أرزاقهم والاعتداء على محارمهم ؟ قد يكون ذلك ما أشار إليه والي إشبيلية في رسالة له بقوله : «ويظهر من القوم... ما قد أعلنوا به وصرّحوا من أنهم إنما يقصدون المبالغة في الضرر ليسمع خبرهم فيُجازوا البحر ويسرَّحوا» (الرسالة 90)، وقد يكون ذلك أيضا لانقطاع العطاء عنهم(250) في الوقت الذي منع عليهم المواجهة مع النصارى نظرا لظروف اجراءات الهدنة أو التمهيد لها فلم يبق أمامهم غير عمليات نهب الأهالي عوض الغنائم.

إن هذه الرسائل ـــ المشار إليها سابقا ـــ من المرجح أنها كتبت فيما بين أواسط 611 وأواسط سنة 612(251)، وأما المقصود من «فلانة» فهي الجماعات العسكرية التي بقيت بالأندلس على الأرجح منذ هزيمة العقاب، ولم يؤذن لها بالعودة إلى المغرب. ويبدو أنها عناصر من قبائل كومية(252) والعرب حسبما نستنتجه من رسائل أخرى وردت في المخطوط

---

(248) هو في الغالب إبراهيم بن الخليفة يوسف، وكان واليا على إشبيلية من بداية سنة 611 إلى وفاته بها في منتصف شهر شعبان سنة 612 (العطاء ص 79)، والرسالة رقم (84).

(249) ومما ألزموه الرعية «تكاليف يلزمونهم منها ما يضعفون عن حمله»، الرسالة (90).

(250) ورد في الذيل (الغرباء) أن الوزير ابن جامع سرّح الرجالة من الجند وأرجل الفرسان (ص 177 من طبعة 1984 ضمن ترجمة ابن القطان).

(251) راجع حول خصوصيات الرسائل المتعلقة بهذا الفصل الصفحتين 150-151.

(252) من المرجح أن عبارة «أصلحهم الله» تشير إلى كومية باعتبارهاعصبية الخليفة وقرابته.

الخاص[253] : الأولى هي الرسالة رقم 79 (م ج) وهي جواب والي إشبيلية إبراهيم ابن الخليفة يوسف على رسالة الوزير أبي سعيد ابن جامع يذكر فيها الوالي توصّله برسالة الخليفة التي يأمر فيها «بمخاطبة كومية بكتاب عزيز يقرأ عليهم»، ولعل الرسالة الجوابية الثانية رقم 94 (م ج) والصادرة عن الوالي نفسه إلى الخليفة المستنصر تعطي بعض التوضيح لمضمن الرسالة الأولى، فالوالي يجيب بأنه توصل بالرسالة الخليفية التي تتضمن تحذيرا لكومية — مزوارهم وجماعتهم — من عاقبة الاعتداء، فأبلغهم الوالي هذا التحذير، كما تتضمن تقديم شيخ جديد على «بني رياح وقرّة مناف» والتنبيه له على اتباع «الطريقة الحميدة». أما الرسالة الثالثة وهي رقم 95 (م ج) فإنها تشير إلى وصول كتاب الخليفة إلى الوالي يأمره بنقل العرب إلى الأماكن الخالية القصية، فبادر الوالي إلى امتثال الأوامر[254] ثم جاء الاذن أخيرا من الخليفة بترحيل كومية إلى المغرب[255]، لكن بعد «أن يتغافروا مع أهل البلاد»، فلا يجتازون المجاز إلا وهم «برآء من المآثم، أيديهم مقبوضة، وأعراضهم نقية...» ثم بعد ذلك يرتحل العرب أيضا عن الأندلس[256].

هنا نتساءل لماذا تأخر السماح بالجواز لهذه القبائل إلى المغرب رغم الحاجة إليها لمواجهة بعض الأحداث الداخلية كثورة كزولة ؟ هناك احتمالات قد تكون منفردة أو متكاملة :

— قد تكون الظروف الداخلية بالمغرب بعد هزيمة العقاب وموت الناصر شغلت السلطة عن أمور الأندلس ومن بقي بها من جيوشه الناصر بعد الهزيمة.

— وقد يكون السبب هو عدم الاستقرار في العلاقات مع قشتالة بالخصوص مما يجعل الأندلس

---

(253) هي رسائل من إنشاء أبي العباس ابن جعفر عن والي اشبيلية إبراهيم الخليفة يوسف وهي جوابية على رسائل وردت باسم الخليفة أو الوزير وهي مفقودة لحد الآن — حسب علمنا — غير أن الرسائل الجوابية تتضمن إشارات لما ورد في تلك الرسائل.

(254) هناك رسائل أخرى يتحدث فيها الوالي عن تنفيذه للأوامر المطاعة ! وهي ذات الأرقام 86، 87، 88، 89 (م ج) بحيث قد تكون لها علاقة بهذه العناصر العسكرية (خاصة الرسالتان 88 و89) أو بموضوع المحافظة على الهدنة مع قشتالة أو هما معا.

(255) الرسالة رقم 96 وهي مؤرخة في الأصل بـ 13 شعبان سنة 616، ويبدو أن الأصوب هي سنة 612، راجع خصائص هذه الرسالة في ص 150.

(256) يذكر المراكشي أن أول استقرار للعرب بالأندلس الموحدية كان في عهد عبد المومن (ص 226) كما وزع هؤلاء العرب مع كومية في منطقة الجنوب الشرقي (البيذق 89)، وبلغ عدد العرب في نواحي قرطبة وإشبيلية — وقت تأليف المعجب — خمسة آلاف فارس غير الرجالة (226) ويبدو أن عناصر كومية والعرب المذكورة في هذه الرسائل هي من جملة القبائل التي دخلت الأندلس مع الناصر ولم يتم تسريحها أو تجويزها آنذاك، والملاحظ أن المراكشي كان لايزال بالأندلس إلى سنة 614 ولم يذكر شيئا من هذه الاضطرابات ربما للاختصار أو لاخفاء مساوىء الولة الموحدية التي ارتبط بصداقة بعض أمرائها.

مهددة قبل توقيع الهدنة معها 612 وعندئذ لم تعد البلاد في حاجة إلى هذه القوات وتكتفي بالحاميات الرسمية.

ــ وهناك احتمال أقوى وهو ربط هذه المسألة بالسياسة الداخلية : فالمستنصر أصبح تحت وصاية الوزير ابن جامع الذي ربما كان هو وأنصاره من الأشياخ يمانعون في استقدام كومية والعرب من الأندلس باعتبارهم الجماعة التي يمكن أن تدعم الخليفة القاصر وهيئة السادة في وجه الأشياخ وابن جامع ريثما يتمكن من تجنيد مرتزقة من النصارى[257] لتعويض القوات القبلية ــ نسبيا ــ التي أظهرت فشلها وقلة إخلاصها في العقاب.

ــ ونتساءل أيضا ما مدى مسؤولية ابن جامع في الأحداث ؟ كان لابن جامع منافسون من داخل هيئة السادة ومن بعض الأشياخ أيضا منذ إبعاد الهنتاتيين عبد الواحد الحفصي وابن يوجان وخاصة منذ أن تولى أمر الوصاية على المستنصر، ولذا من الصعب قبول مختلف المساوىء التي نسبت إليه وتحميله كل المسؤولية في الأحداث فهي ليست من صنع رجل واحد وإنما تراكمت الظروف السلبية على المغرب منذ ما قبل عهد المستنصر لعوامل داخلية وأخرى خارجية.

ويمكن القول أن السمة الأساسية التي اتسم بها العهد الموحدي منذ هذه الفترة هي ضعف السلطة مركزيا وإقليميا، ومن حسن حظ الموحدين في عهد المستنصر انشغال النصارى بمشاكلهم إلى السنوات العشرينية.

ب ــ عواقب هزيمة العقاب على المدى البعيد نسبيا :

تعالج هذه الفقرة بداية الضغط المسيحي الذي سينتهي بخروج الموحدين من الأندلس وما رافقه من اضطراب داخلي بالمغرب، وهذا لا يعني أنه لو لم تكن هزيمة العقاب لما حدث هذا التطور وإنما كانت هذه الهزيمة عاملا على تفجير تناقضات الدولة الموحدية القائمة على أسلوب القوة داخليا، وعلى استغلال ظروف انقسام أعدائها الأسبان.

1 ــ الضغط المسيحي والتراجع الموحدي عن الأندلس :

في العشرينيات من القرن السابع الهجري أخذت موازين القوى تتغير لغير صالح الموحدين سواء بالمغرب أو الأندلس، حيث ظهر الانشقاق داخل الدولة الموحدية بالمغرب وأخذت آثاره تنعكس على الأندلس، كما أخذت تنعكس عليها آثار الاتجاه في قشتالة وليون نحو الوحدة بينهما،

---

(257) يتساءل ديفورك هل هذا الاستعمال للمرتزقة نصت عليه اتفاقية الهدنة مع قشتالة بسلا سنة 612، أم أن الهدنة هي التي سهلت بطبيعتها جلب أعداد منهم لاستخدامهم في مواجهة المرينيين، تماما كما فعل المرابطون لمواجهة الموحدين، ص 41 من مقاله : Les Relations du Maroc et de la Castille (مجلة تاريخ وحضارة المغرب ، ع 5/ 1968).

وتنشيط حرب الاسترداد، وفي أركون نحو تصفية النزاعات الداخلية على حساب التوسع في الشرق الأندلسي، وأيضا آثار الاتجاه في البرتغال لاكتساح منطقة الغرب الأندلسية.

فخلال السنوات الأولى من العشرينيات كان الجو السياسي لايزال غير مستقر نهائيا في قشتالة، وخاصة في أركون، لكن الموحدين لم يستطيعوا استغلال هذه الوضعية بسبب ظروفهم الداخلية : فقد وصل إلى بلنسية أحد خصوم الملك الأرغوني خايمي الأول بعد أن كان من المقربين إليه، هذا الخصم هو بلاسكو دي آلاكون Blasco de Alagón قدِم إليها قبل وصول السيد أبي زيد عبد الرحمان بن محمد بصفته واليا عليها، عندئذ كتب هذا الوالي إلى الخليفة المستنصر رسالة ـــ ربما سنة 620 ـــ في شأن هذا النبيل الأرغوني، وتسميه الرسالة «أفلاسكة أرطال»، وقد جاء يطلب اللجوء إلى الموحدين[258]، ويصرّح بأنه مستعد لشن الغارات بأنصاره على حدود مملكة أرغون[259] «فكثير من زعماء أرغون ورجالها أقاربه وفرسانه، وكل في حبله حاطب، ولإمكانه متى أنجده خاطب»[260]، وكان لجوءه إلى الموحدين في هذه المرة هو الثاني من نوعه، وربما استمر من سنة 1223 (620) إلى 1226 (623هـ) ثم عاد إلى أرغون وعفا عنه الملك[261].

إن **وضعية أرغون** هذه لم يستفد منها الموحدون بسبب انشغالهم بمشكل الخلافة بعد موت المستنصر وربما أيضا لطموحات **السيد أبي زيد** الاستقلالية، **فهناك** من يذكر تبعيته أو تحالفه مع القشتاليين منذ بداية 1225 (622)[262]، أي أن أعماله العسكرية أيام الخليفة العادل تكاد تقتصر فيما يبدو على حصن «بيران» بواسطة ابنه أبي يحيى أبي بكر سنة 622[263]، واستطاع في بداية عهد الخليفة المامون أن يسترجع بعض الحصون التي كانت سقطت بيد أرغون قبل معركة العقاب مثل حصن «بشج»[264] Bexis أو Bejis الذي كان تحت إشراف

---

(258) انظر الرسالة رقم 107 (م ج) وخصائصها في ص 151-152 من هذا الفصل.

(259) تسميه الرواية الاسبانية الدون أرطال دي ألاكون Don Artal de Alagón وأيضا بلاسكو دي ألاكون Blasco de Alagón وكان استفاد من بعض الحصون التي استولى عليها بيدروا الثاني. انظر المقال المذكور من قبل بمجلة أوراق عدد 3 ص 102-103 (El Sayyd Abuzayd).

(260) الرسالة 107 (م ج).

(261) المقال المذكور بمجلة أوراق 103، عنان : عصر المرابطين والموحدين 397/2، وقد استنتج الأستاذ ابن شريفة من هذه الرسالة أن هذا النبيل كان وصيا على الملك خايمي، (أبو المطرف بن عميرة، ص 90-91).

(262) مقال أوراق ص 103، وديفورك : ص 42 في مقاله المذكور .....Les Relations، ميراندا : ج 2/ 455 و461 في ...HisToriaانظر أيضا البيان 248، القرطاس 246.

(263) الروض المعطار (بيران) ص 121.

(264) يظهر أن هذا الحصن يقع قرب شارقة حيث المسافة بينها وبين بلنسية حوالي مرحلتين، قارن مع رأي ابن شريفة، (أبو المطرف... هامش ص 92).

«الدون جيل كارسيس»[265]، بحيث تحركت قوات السيد أبي زيد بعد تقديم ولده عبد الله لحصار الحصن وقطع الإمدادات عنه، وكانت الطريق إليه عبر حصن شُبُرب ثم شارقة، وتم فتح بشج، وأخذه بالأمان بعد القتال من يد حاميته المؤلفة من حوالي مئة مقاتل، وحصّنه السيد أبو زيد بحامية من المسلمين[266]. ومن المرجح أن يكون فتح أبي زيد لحصن بشج قد تم قبل انهزامه أمام ابن هود الثائر بمرسية سنة 625 ربما لأن أبا زيد كان يعلم حزم الخليفة المامون بإشبيلية وامكانية التوصل منه بالإمدادات، وكان أبو زيد من مدعّمي إدريس (المامون) على إعلان خلافته أو على الأقل من الأوائل الذين دخلوا في بيعته[267]. أما بعد ثورة ابن هود بمرسية فإن موقف والي بلنسية أصبح حرجا بين العدو الأرغوني شمالا وثائر مرسية جنوبا خاصة بعدما انهزم أمامه، ثم فشل المأمون نفسه في حصار مرسية. فأصبح السيد أبو زيد يشتكي من قلة المال لتجنيد الرجال من أجل حرب ابن هود حتى شاع بين أجناده أن المامون أصبح يشك في إخلاصه ولذا لم يقدّم إليه أي دعم، هذا ما صرّح به أبو زيد نفسه في رسالة إلى الخليفة المامون[268]. وربما كان هذا الموقف الحرج مع انعدام الدعم دافعا إلى محاولة عقد هدنة مؤقتة بين أبي زيد وأحد جاريه، إما ابن هود، وهذا مستبعد حيث سيقوم هذا بحصار بلنسية[269]، وإما مع الأرغونيين، خاصة وأن الأحداث اللاحقة تبين أنه كان أميل إليهم من غيرهم. وهذه الهدنة من الممكن أن تزيد في الشكوك حول إخلاصه للمامون، وهي الشكوك التي حاول أن يبددها برسالته إليه[270] في الفترة ما بين أواخر 625 وأوائل 626 على الأرجح[271]، أي قبل أن يثور عليه قائد جيشه أبو جميل زيان ابن مردنيش في صفر 626. وبما أنه كان يعرف مكانة وقوة أسرة بني مردنيش بالمنطقة وأنه يئس من دعم المامون الذي

---

(265) الرسالة رقم 107 عن السيد أبي زيد إلى الخليفة المأمون، انظر أيضا مقال مجلة «أوراق» ص 103.

(266) الرسالة 107. تجعل الرواية الاسبانية سقوط هذا الحصن بيد المسلمين ضمن أحداث سنة 1228 (625)، وربما سقط أيضا في نفس السنة من يدهم إلى يد «جيل كارسيس»، انظر «أوراق» ص 105 و108، وعنان 2/396-397.

(267) انظر الرسالة رقم 116 عن أبي زيد إلى المأمون، وهناك من يعتبره محرّضا للمأمون على إعلان الخلافة، الإحاطة 1/411، البيان 254.

(268) نفس الرسالة رقم 116، انظر أيضا في نفح الطيب 4/456 «لما ثار العادل بمرسية تَمنَّعَ (أبو زيد) واعتز وأظهر طاعة في باطنها معصية، ودام على ذلك مع أبي العلاء المامون».

(269) انظر العبر 4/362، وعنان 2/395.

(270) الرسالة رقم 116.

(271) كانت ثورة ابن هود في أول رمضان 625 ثم هزيمة أبي زيد أمامه ثم حصار المامون لمرسية وعودته إلى إشبيلية أوائل 626 (حسب الروض المعطار ص 120)، هذا من جهة ومن جهة أخرى حدثت ثورة ابن مردنيش ببلنسية في 26 صفر 626، وهكذا يقع تاريخ هذه الرسالة بين أواخر سنة 625 وأوائل 626 والأرجح أوائل 626.

أخذ يستعد للجواز إلى المغرب ــ والذي تم في النصف الثاني من سنة 626 ــ[272] فقد أدرك أن الأمر أفلت من يده. فالتجأ إلى ملك أرغون وعقد معه اتفاقية في أبريل 1229 (جمادى الأولى 626) تعطي ــ حسب الرواية الاسبانية ــ للملك خايمي الأول عددا من الحصون التي هي بيد أبي زيد وتعطيه نصيبا مما يمكن أن يستعيده من إمارة بلنسية بواسطة دعم القوات الأرغونية. وعندما تبيّن له عجزه تنازل عن حقوقه الأرضية للملك خايمي، كما دخل في الدين المسيحي باتفاق الروايات الإسلامية والمسيحية، وأصبح من كبار نبلاء مملكة أرغون خاصة بعد سقوط بلنسية بيدها سنة 636[273]. وكان فتح الأرغونيين للجزر الشرقية وإمارة بلنسية يمهد لهم الطريق لمنافسة القشتاليين حول منطقة مرسية، هذه «الفتوح» كانت وراء تسمية الملك خايمي الأول باسم الفاتح مثلما سيلقب فرناندو القشتالي بسبب «فتوحاته» باسم «المقدّس».

فالقشتاليون من جهتهم كانوا يقتطعون الحصون والمناطق تدريجيا على حساب الأندلس الوسطى وخاصة فيما بين جيان وقرطبة وإلى الشمال منهما، واستغل فرناندو الثالث النزاع الداخلي الموحدي حول السلطة فشن الغارات على منطقة اشبيلية والخليفة العادل لازال بها، فلم يستطع رد هذه الهجمات بل تلقّى أهل إشبيلية هزيمة نكراء قرب طلياطة في جمادى الأولى 621، وفي رجب تلقى أهل مرسية هزيمة أخرى في موقعة عفص[274]، وعندما اجتاز العادل إلى المغرب عيّن أخاه أبا العلاء إدريس (المامون) واليا على إشبيلية، وعبد الله (البياسي) ــ أخا السيد أبي زيد صاحب بلنسية ــ واليا على قرطبة، وقد كانا معا من المؤيدين الأوائل لثورة العادل[275] ولم يلبث والي قرطبة أن لجأ إلى بياسة معلنا تمرده على العادل متخذا لقب الظافر[276]، وسيجد فيه القشتاليون حليفا يدعم طموحاتهم للزحف نحو منطقتي جيّان وقرطبة.

اتخذ **الثائر البياسي** مدينة بياسة الحصينة مقرا له فنسب إليها، وعزم على تحقيق أهدافه التوسعية بالاستعانة بالقشتاليين، فعقد اتفاقا مع الملك فرناندو في صيف 1225 (623) معلنا

---

(272) ان التقديم رقم 53 في الملحق الأول يثبت أن المامون لازال باشبيلية في صفر 626، ويذهب صاحب القرطاس (251) إلى أن المامون توصل بالجند النصراني في رمضان 626 ثم جاز البحر إلى المغرب في ذي القعدة من السنة.

(273) انظر عنان 2/397-398، و«أوراق» ص 105-106، ويجعل صاحب المقال بها تاريخ وفاة أبي زيد بين 1265 و1270 (663-669هـ)، انظر البيان 270، الذخيرة السنية 96.

(274) الروض المعطار (مادتا طلياطة وعفص)، ميراندا 2/461 (HisToria)

(275) البيان 248-249، الروض (طلياطة) وهو يجعل جواز العادل إلى المغرب في ذي القعدة 621.

(276) البيان 250، العبر 6/527، الروض المعطار (مواد : قيجاطة، لوشة، بيغو)، مقال «أوراق» ص 103، وبالمقارنة يبدو أن تاريخ الثورة كان في ذي الحجة 622 (دجنبر 1225) أو محرّم 623 (يناير 1226).

التبعية له رسميا[277]، وتعهّد له بأن يسلمه بعض الحصون التي يطلبها مثل مرتش وأندوجر ومدينة جيان، وكضمان لتنفيذ وعوده دفع إليه ابنه رهينة وأنزل الجند القشتالي في قلعة بياسة. ونتيجة لهذا التحالف تحرك فرناندو الثالث في حملة أوصلته إلى غرناطة واستسلمت له مرتش وأندوجر[278]، بينما قاومت حصار الحليفين مدينة جيان التي كانت تدافع عنها حامية موحدية وفرقة من المرتزقة القشتاليين بقيادة «البار بيريث دي كاسترو» Alvar Perez de Castro، وامتنعت أيضا مدينة غرناطة على الحليفين[279]. وأمام نجاح هذا التحالف في عدد من المواقع، وفشل بعض الحملات الموحدية على البياسي تجرّأ ــ بعد أن استولى على قرطبة ــ على الزحف نحو اشبيلية لدرجة أنه سيطر على حصون الشرف في نواحيها، وانهزم أمامه جيش أبي العلاء صاحب إشبيلية في معركة القصر قرب طلياطة[280]. لكنه عندما حاول مرة أخرى الاستلاء على إشبيلية وجد أبا العلاء مستعدا للقائه فكانت الهزيمة على البياسي في 25 صفر 623 (25 فبراير 1226)[281]. وعلى اثرها وجه أبو العلاء إلى الخليفة العادل رسالة النصر التي أورد ابن عذاري فصلا منها على الصفحتين (250–251) ومؤرخة بربيع الأول 623[282]. كانت هذه الهزيمة إيذانا بنهاية ثورة البياسي حيث تساقطت حصون الشرف من جديد بيد والي إشبيلية وثار أهل قرطبة على البياسي وقتلوه[283]. غير أن القشتاليين كانوا قد تمكنوا من حصون مهمة تسهّل لهم الطريق نحو قرطبة وإشبيلية، ومن أهم هذه المواقع بياسة نفسها مقر حليفهم[284]. وربما كانت اندوجر قبل ذلك قد سقطت بأيديهم وهنا نجد عند ابن عذاري وابن الخطيب رسالة عتاب وجهها المامون إلى حامية أندوجر يزجرهم على تخاذلهم أمام عدوهم دون أن يحدد هذا العدو[285]، والرسالة غير مؤرخة، غير أن ابن عذاري

---

(277) عنان 2/358–359، مجلة «أوراق» 3/103، العبر 6/524، ميراندا في : His. politica 2/461 وهو يشير إلى استعانته «بالطاغية»، والمقصود هنا ملك قشتالة، غير أن ديفورك فهم أنه الفونسو التاسع ملك ليون، انظر مقاله المذكور سابقا بمجلة تاريخ وحضارة المغرب، ص 42.

(278) عنان 2/359–360، وميراندا نفس المرجع والصفحة (ويجعل تاريخ استسلام مرتش واندوجر سنة 622/1225).

(279) ميراندا 2/456، عنان 2/358–359 وكان والي جيان آنذاك هو الشيخ عمر ابن عيسى ابن أبي حفص ابن يحيى، انظر خريطة لتحركات فرناندو الثالث عند ميراندا مقابل الصفحة His. politica 2/457.

(280) الروض المعطار (مادة طلياطة)، قارن مع الإحاطة 3/275.

(281) البيان 250، عنان 2/360، فهذا التاريخ عند ابن عذاري يتوافق مع الرواية الاسبانية.

(282) هي الرسالة رقم 110 في قسم الرسائل (م ج).

(283) البيان 251–252.

(284) سقطت في يوم عرفة من ذي الحجة سنة 623 حسب الروض المعطار (مادة بياسة) ص 121.

(285) انظر الهامش 278 قبل، وليس من المستبعد أيضا أن يكون العتاب بسبب تقاعس حامية أندوجر =

يدمجها ضمن أحداث سنة 626، بينما ابن الخطيب يسجلها بعد حديثه عن تخلي المأمون عن رسوم المهدي أي سنة 627[286]، مما يجعلنا نتساءل : هل كان هذا الحصن إلى هذا الوقت بيد الموحدين فيكون معناه أن المأمون استرجعه بعد نهاية ثورة البياسي ثم تكررت الضغوط القشتالية عليه فأظهرت حاميته العجز عن الدفاع مما جعل المأمون يوجه إليها عتابه ؟ ولكن من المحتمل أن يكون هذا العتاب موجها أثناء تعاون القشتاليين والبياسي للسيطرة على أندوجر سنة 622 (أو ربما حصن آخر مجاور) والمأمون لازال واليا لأخيه العادل على إشبيلية ويكون هذا الحصن (أو ذاك) قد سقط بيد القشتاليين نهائيا ومنذئذ، حيث كان البياسي تعهد بتسليمه لهم بمجرد فتحه.

إن الاتجاه الاستقلالي لكل من السيد أبي زيد ببلنسية وأخيه ببياسة زمن العادل أثار الشكوك ــ فيما يبدو ــ حول اخلاص عامل **ثغر شقورة** الواقع بين منطقتي نفوذ الثائرين. فوقع التحري في الأمر بطريقة ما من طرف الخليفة، وأعطى الأمر لصاحب إشبيلية وقرطبة ــ فيما يبدو ــ وهو أبو العلاء (المامون) ليتفحص أمر هذا العامل، فأجاب هذا على كتاب الخليفة برسالة يكذب فيها ما أشيع عن عامل الثغر وهي مؤرخة بجمادى الأولى سنة 624[287] وسواء كان ما أشيع عن هذا العامل صحيحا وتستّر عليه المأمور بالتفحص أو كان غير صحيح، فإن أبا العلاء نفسه كان يستعد للثورة على أخيه العادل[288]، وبويع بالخلافة في إشبيلية في شوال من نفس السنة أي 624، وعقد هدنة مع القشتاليين أواخر هذه السنة (1227) مقابل مبلغ مالي ــ حسب الرواية النصرانية ــ ليواجه معارضيه من الأشياخ بمراكش أو الناكثين لبيعته إلى بيعة يحيى المعتصم بن الناصر[289].

= عن دعم صمود أحد الحصون المجاورة مادامت الرسالة العتابية تحمل عبارة «ذلك الموضع عصمه الله»، بحيث قد تكون أندوجر لم تسقط بعد من يد الموحدين.

(286) البيان المغرب 266-267، والإحاطة 1/114-115.

(287) هي الرسالة رقم 111 (م ج) وتحمل تاريخا خاطئا وهو 524 بدل 624 ولا تذكر الجهة الصادرة عنها إلا بعبارة «بعض أهل الدولة» كما أن كاتبها ذكر باسم «أبو الميمون»!، ومن المحتمل أن يكون كتبها عن السيد أبي العلاء ادريس (المامون) والي اشبيلية وقرطبة الذي منحه الخليفة العادل نوعا من التفويض في أمور الاندلس، وفي الرسالة تلميح إلى بعد ثغر شقورة عن مركز الولاية. اما موضوع التهمة بالنسبة لعامل شقورة فهو غير واضح، ولكن من المحتمل أن يدخل في إطار محاولات التمرد والاستناد إلى طلب دعم الاسبان وخاصة قشتالة التي كانت تتحرك تدريجيا نحو مرسية ويفصلها عنها ولاية شقورة.

(288) إذا صح أن الرسالة صادرة عن المامون يمكن أن نطرح التساؤل الآتي : هل كان المأمون يتستر على عامل ثغر شقورة لما في نفسه هو أيضا من الطموح للخلافة (البيان 254) ؟ أم أن العادل أراد فقط أن يختبر مدى إخلاص المامون نفسه في مثل مهمة المراقبة التي كلف بها في الأندلس عامة (لاحظ مثلا الفرق بين تاريخ الرسالة المرجع وهو جمادى الأولى 624 وتاريخ ثورة المامون في بداية شوال من نفس السنة)؟ أم أن الأمر يتعلق بوشاية ضد عامل شقورة ؟

«ولما بويع أبو العلاء المامون بإشبيلية طاعت له بعض بلاد الأندلس وبايعه بها السيد أبو زيد صاحب بلنسية وكتبوا بيعتهم إليهم»[290]، غير أن انقسام الموحدين بالمغرب بين البيعة للمامون والبيعة للمعتصم أخذت سلبياته تنعكس على الأندلس فقد ثار **ابن هود** بمرسية في رمضان سنة 625 داعيا للعباسيين ليكتسب الشرعية لثورته، وفشل المامون في القضاء عليه[291]. فلما أخذ أنصاره بالمغرب يتزايدون ترك الأندلس وأخذ ابن هود يوسع نفوذه فيها، كما استغل النصارى هذه الفرصة محاولين قطع الطريق على ابن هود حتى لا يجمع شمل الأندلس تحت نفوذه فاحتل ملك ليون ماردة وبطليوس سنة 627 (ربيع 1230) بعد هزيمة ابن هود أمامه[292]، وتحرك فرناندو الثالث القشتالي مستغلا انشغال ابن هود مع ليون فخرب نواحي غرناطة، لكنه فشل في حصار جيان[293]، ووصلت تحركات ابن هود إلى نواحي شريش في الجنوب، وازداد نفوذه بوصول الدعم المعنوي من الخليفة العباسي[294]، غير أنه اضطر لعقد الهدنة مع القشتاليين لمواجهة منافس جديد في منطقة جيان هو ابن الأحمر[295]، زيادة على المنافس القديم ابن مردنيش ببلنسية، كما أن إشبيلية سقطت من يد الموحدين منذ غادرها المأمون[296]، وعندما يشتد التنافس حولها وتسقط قرطبة بيد القشتاليين ستعلن إشبيلية مرة أخرى تبعيتها الاسمية للخليفة الموحدي الرشيد فيما بين 635 و640[297]، ريثما تقع بدورها تحت الاحتلال القشتالي بعد بضع سنوات وتصبح عاصمة لقشتالة.

---

(289) عنان 363/2 (اعتمادا على رواية اسبانية)، البيان 254، القرطاس 250، ميراندا في التاريخ السياسي 467/2، أشباخ 404 (وهو يعتبر الهدنة المذكورة تحالفا بين القشتاليين والمامون الثائر على أخيه العادل).

(290) البيان 255، وكانت بيعة اشبيلية في 2 شوال 624 (مفاخر البربر ص 118 من المجموع، خ ع/ك 1275).

(291) البيان 255–258، انظر بعض التلميحات في الرسالة 116 (م ج).

(292) البيان 270، والعبر 363/4، والقرطاس 275، (يجعل ذلك سنة 628)، وعنان 399/2–400.

(293) عنان 401/2.

(294) عن خضوع بعض مدن الأندلس الكبرى له انظر الإحاطة 201/1–131 مع بعض المخالفة في السنوات.

(295) البيان 279، القرطاس 275.

(296) بل أصبحت الجزيرة الخضراء وهي أقرب نقطة إلى المغرب خارجة عن هذه السيادة إلى سنة 635 كما يفهم من رسالة تقديم بمخطوط يحيى (التقديم رقم 30) المؤرخة بعقب رمضان 635، وتحمل الدعاء للعباسيين فلعلها صادرة عن ابن هود. وعن إشبيلية وثورتها على والي المامون ابنه أبي الحسن انظر البيان 270، 288.

(297) عادت إشبيلية إلى طاعة الموحدين سنة 635 حسب البيان (337–338) والقرطاس (255) ويؤخرها ابن خلدون إلى سنة 637 (364/4)، والملاحظ أن شريش التي هي من أعمال اشبيلية =

وهكذا أخذت تتساقط أهم قواعد الأندلس الشرقية بيد الأرغونيين[298]، والغربية بيد البرتغاليين، وسيكون المستفيد الأساسي هو دولة قشتالة وليون المتحدة التي امتدت توسعاتها من مرسية شرقا إلى وادي يانه غربا ولم ينج من نفوذها غير أقصى الجنوب المرتفع الذي تكونت فيه مملكة غرناطة تحت أسرة بني الأحمر. ويمكن أن يعزى التراجع الموحدي عن الأندلس إلى عزم الكنيسة وملوك إسبانيا على تنشيط حركة «الاسترداد» خاصة مع فشل الحروب الصليبية في الشرق آنذاك، وفي نفس الوقت انشغال الدولة الموحدية بمشاكلها في العدوة الإفريقية بل في المغرب الأقصى نفسه، أي أن هناك اتجاهين متعاكسين : اتجاه نحو توحيد الجهود النصرانية باسبانيا، واتجاه نحو تفكك الجبهة الإسلامية في الغرب الإسلامي عامة.

2 ــ تصدع الجبهة الداخلية الموحدية (620-633) :

تصف بعض المصادر بداية العشرينيات بأنها تمثل بداية «الفتنة»[299]، وقد مهدت لها ظروف ما بعد العقاب، والتنافس الذي كان خفيا قبل ذلك بين السادة والأشياخ والذي أخذ يرجح لصالح هؤلاء أيام المستنصر ثم انكشف التنافس بموته[300]، خاصة وأنه لم يترك وريثا للحكم، فانفتح الباب أمام الاختيار، ويبدو أنه كان هناك ثلاث شخصيات مرشحة لمنصب الخلافة وقع الانقسام حولها : فهناك أبو محمد عبد العزيز بن الخليفة يوسف الذي يذكر صاحب المعجب أن عامة الموحدين ــ فيما وصله وهو في مصر ــ أجمعوا على تقديمه للخلافة بعد المستنصر، وقد سبق له أن تولى على سجلماسة وقبض على الثائر الصنهاجي سنة 618 ثم نقل إلى ولاية إشبيلية، ويصفه بحسن السيرة وأنه لا تأخذه في الله لومة لائم، وأنه سيملأ الأرض عدلا «إذا ساعده الدهر وقيّض الله له أعوانا صالحين»[301]، «غير أن الاختيار

= قدم عليها الرشيد قاضيا بتاريخ فاتح ذي القعدة 636 مما يرجح التاريخ الذي أورده كل من صاحبي البيان والقرطاس لعودة تبعية إشبيلية للموحدين (الرسالة هي التقديم رقم 57 في الملحق الأول).

(298) هذه التوسعات في الشرق الأندلسي والبليار زادت من أهمية الأرغونيين في البحر المتوسط تجاريا وحربيا، بينما ستظل قشتالة قارية بالدرجة الأولى.

(299) التكملة (خ ح) رقم 1411 ص 209 أو الترجمة (1616 في المطبوع) لأبي عبد الله الفازازي المتوفى بقرطبة «أول منبعث الفتنة في سنة 621»، نفس التعبير في الذيل (غرباء) لنفس الترجمة رقم 149 في طبعة 1984، في المعجب (ص 329) «اضطرب الأمر واشرأب الناس للخلاف»، الحلة السيراء 293/2-294.

(300) ذكر الزركشي استنادا إلى صاحب العبر أن المستنصر مات مسموما (ص 20 ط. تونس 1960) هذا ما يؤكده صاحب الذيل (ط. 1984 ص 179) وذلك بتدبير من أعيان دولته وخاصة المسؤولين الماليين، ولعل هذا ما ترجحه محاولة الخليفة عبد الواحد محاسبة المشرف المالي (العبر 525/6).

(301) المعجب (329 وما بعدها) وقد ظن فعلا أنه تولى الخلافة بعد المستنصر، انظر أيضا تاريخ وصوله إلى إشبيلية في الذيل، غرباء، ص 63 (المخطوط) وفي العبر عن استمرار ولايته بها خلال عهد المخلوع (526/6)، وعادة ما يصبح الوالي على إشبيلية أقرب إلى منصب الخلافة لأهمية هذه الولاية.

لم يقع عليه. وكان المرشح الثاني هو أبو محمد عبد الله ابن المنصور (العادل فيما بعد) والي مرسية، وقد وجد معارضة في طريق الوصول إلى الخلافة، ومن المعارضين من ضمن أهل الحل والعقد أبو الحسن علي ابن القطان الكتامي، ربما لأن هذا السيد كان يوصف بالميل إلى «البطالة وإيثار الشهوات» فكان سببا لغضب العادل عليه فيما بعد[302]، أو ربما لأن الأشياخ كانوا يتخوفون من حزمه فتضيع السلطة من أيديهم، فاختاروا أبا محمد عبد الواحد ابن الخليفة يوسف في أواسط ذي الحجة سنة 620[303]، فهو زيادة على كونه مذكورا بين بني عبد المومن بالخير والصلاح[304]، فإنه كان كبير السن مما قد يتيح للأشياخ التحكم في أموره والاستعداد لما يمكن أن يحدث بعد وفاته. هذا الاختيار كان ممن قبله والي بلنسية السيد أبو زيد عبد الرحمان بن محمد بن أبي حفص بن عبد المومن حسب رسالة البيعة التي كتبها عنه كاتبه أبو المطرف ابن عميرة آنذاك[305]، ولكن يبدو أنه كان قبولا شكليا مادام عجز الخليفة يناسب طموحه الاستقلالي. وعندما ثار والي مرسية عبد الله بن المنصور (العادل) بعد شهرين فقط من بيعة عبد الواحد ودعّمه إخوته بمدن الأندلس الكبرى ظل أبو زيد يظهر الخضوع لعبد الواحد[306]، وحتى ذا تراجع إلى طاعة العادل بعد مقتل المخلوع فإنما كان ذلك شكليا بحيث عقد اتفاقا مع ملك قشتالة لتدعيم استقلاله[307]. كما أعلن أخوه الاستقلال عن العادل وهو عبد الله البياسي صاحب قرطبة محالفا أو تابعا لملك قشتالة[308]. واستقر العادل بمراكش بعد أن ترك لأخيه إدريس صاحب إشبيلية نوعا من الإشراف والتفويض على شؤون الأندلس كما يظهر ذلك من تعيينه لبعض الولاة[309] (وهي المهمة التي كانت من قبل خاصة بالخلفاء)، وكلفه أيضا بمواجهة ثورة البياسي، فعانى منها الكثير قبل أن ينتصر عليه وينال ولاية قرطبة مضافة إلى ولاية إشبيلية[310]. وهذه الأهمية المتزايدة لإدريس بالأندلس كانت تشجع أطماعه في الثورة على أخيه العادل وإعلان الخلافة لنفسه[310] بالتآمر على ما يبدو مع بعض أشياخ

---

(302) الذيل نفس المخطوط ص 13، فابن القطان كان مقربا لدى المنصور والناصر والمخلوع.

(303) البيان 247، الذيل نفس الترجمة السابقة، انظر الرسالة رقم 108 حول توجيه أبي زيد ببلنسية ببيعته إليه.

(304) الذيل غرباء نفس الترجمة في الهامش 143، ولكن المخلوع وصف أيضا بعدم مداراته لأعيان دولته (شذرات الذهب 94/5).

(306) الرسالة رقم 109 (م ج).

(306) البيان 248.

(307) راجع ص (195–197) والهامش 262.

(308) انظر الصفحتين (197–198) من هذا الفصل.

(309) التقديم رقم 4 في الملحق الأول أو ص 7 وما بعدها في مخطوط يحيى، وذكر صاحب الذيل في ترجمة ابن القطان أن العادل جعل جميع الأندلس تحت أخيه إدريس ص 191 ط 1984.

(310) انظر الصفحتين 199–200 من هذا الموضوع.

الموحدين بمراكش على خلع العادل قبل أن يتراجعوا عن بيعة إدريس إلى مبايعة صغير من بقية أبناء الناصر هو أبو زكرياء يحيى المعتصم[311]. وتؤكد إحدى رسائل المعتصم إلى الأمة أنه فعلا من أبناء الناصر[312] متفقة في ذلك مع المصادر التاريخية المعروفة، فالذي يبدو أن يحيى هذا هو ثاني اثنين من أبناء الناصر لهما نفس الاسم : أحدهما توفي باشبيلية سنة 608 كما يذكر صاحب المعجب (ص 308)، أما الثاني فقد كان عمره عند بيعته سنة 624 ستة عشر عاما[313] فيكون قد ولد سنة 608 أو 609 أي بعد موت أخيه فسمي باسمه فيما يظهر. ويبدو أن المبرر لدى الأشياخ للتراجع عن بيعة إدريس المامون إلى يحيى المعتصم هو الخوف من حزم المامون واستبداده بالسلطة[314]، بينما كان يحيى ضعيفا لصغره، وبواسطته يمكن تغطية الحكم الحقيقي للأشياخ.

وهكذا أخذ كل من المامون بإشبيلية والمعتصم بمراكش يحاول استمالة الأنصار إليه، ويبدو أن كفة المامون أخذت ترجح خاصة بانضمام عرب الخلط وبربر هسكورة إلى جانبه، ولا يستبعد أن يكون قد استمال الشيوخ الدينيين أيضا[315]، ولعل هذا ما دفع المعتصم إلى توجيه رسالة إلى الأمة يؤكد فيها مشروعية سلطته ويدعو المامون إلى الدخول في طاعته، وعندما فشل المامون في سياسته بالأندلس وتزايد حظه نسبيا بالمغرب عقد هدنة مع القشتاليين ووصله عدد من المرتزقة النصارى فجاز بهم إلى المغرب[316]. ونظرا لضعف العصبية المصمودية

---

(311) بويع المامون بإشبيلية في 2 شوال 624، البيان 252 مفاخر البربر ص 118 (المجموع).

(312) البيان (252–253) و(254–255)، ويذكر صاحب المعجب (308) أنه لا يعرف من أولاد الناصر غير ثلاثة هم يوسف الخليفة بعده واسحاق (مات بالأندلس سنة 612 حسب الصفحة 76 في العطاء) ويحيى الذي مات بإشبيلية سنة 608، راجع الهامش 172 في الفقرة ص 143، فربما كان مرشحا للخلافة عوض يوسف. لكن تبين أن للناصر ابنا اسمه يحيى يبدو أنه ولد سنة 608 أو 609 سمي باسم أخيه المتوفى وهو الذي أصبح يلقب بالمعتصم، انظر القرطاس 248.

(313) انظر الرسالة رقم 117 (م ج).

(314) الحلل الموشية 163.

(315) كان ممن اعتمد عليهم المامون : أبو القاسم بن قنترال حيث وجهه إلى قبائل المغرب فتكلم مع ولاته وجلة شيوخه فكتبوا إليه ببيعتهم، (الذيل السفر 1 ق 1 ص 282)، ويبدو أنه كاتب أيضا بعض المشايخ الطرقيين كشيخ بني أمغار بناحية أزمور كما يظهر من «بهجة الناظرين» للزموري (مخطوط خ ع 1343 ص 36–37) مع الخطإ فيما يبدو في اسم الخليفة فجعل الصراع بين ولدي المنصور بعد موته عوضا عن الصراع بين ابن المنصور وابن الناصر، انظر الرسالة 114 (م ج) وخصوصياتها في (ص 154–155)، انظر البيان 260، والزركشي 22، ط. تونس 1966، القرطاس 248.

(316) أنظر الصفحتين (199–200) من هذا الفصل، وكان تاريخ الجواز في أواخر 626 حسبما يفهم من التقديم رقم 53 في الملحق وهذا ما يتفق مع روايتي الإحاطة 411/1 والقرطاس 251 مما يبرهن على خطأ التاريخ الذي حدده صاحب البيان وهو سنة 625 (ص 264).

وانقسامها فقد أصبحت القوة العسكرية الأساسية التي يمكنها أن تحسم الموقف هي قوة المرتزقة ومن يدعمها من قبائل العرب والهساكرة (غير مصامدة ؟)، فتمكن المامون من إحراز النصر على منافسه ودخول مراكش[317].

هكذا إذاً استمر مسلسل التلاعب بالخلفاء تعيينا وخلْعاً وقتلا وهو المسلسل الذي سيحاول المامون وضع حد له، وهذا ما كان يتطلب تحطيم طبقة الأشياخ ماديا ومعنويا : فمن الناحية المادية حاكمهم على تكرر نكثهم للعهود وآخرها عهدُهم له، فقتل عددا من كبرائهم، ومن الناحية المعنوية حاول أن يحطم الأساس الذي كان مصدر قوتهم وهو مذهب المهدي بن تومرت، وإن كان بهذا العمل سيهدم شرعية حكمه أيضا، وسيتخذ هذا الإجراء مبررا لاتساع الحركات الانفصالية. فبعد أن كان قد وجه إلى الأمة رسالة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[318] ــ وهي عادة من الرسائل التي يوجهها الخلفاء الموحدون بعد كل أزمة داخلية أو بداية حكم كل خليفة ــ[319] وجه رسالة أخرى ينكر فيها عصمة ابن تومرت ويأمر بإلغاء رسومه خاصة ذكره في الخطبة والسكة[320]. هذا الموقف سيستمر عليه ابنه عبد الواحد الرشيد الذي تولى الخلافة سنة 630، فرسالة البيعة التي وجهتها بعض القبائل إليه تخلو من ذكر اسم المهدي[321]، أي أن القطيعة استمرت بينه وبين أشياخ الموحدين خاصة من هنتاتة وأهل تينملل حيث ظلوا يدعمون حركة المعتصم في جبال المصامدة وما جنوبها إلى درعة وسجلماسة ثم تخلوا عنه حيث قتل سنة 633، بحيث انتهت هذه القطيعة بتراجع

---

(317) البيان (270) حيث يجعل المعركة في ربيع الأول 627 وإن كان تحدث عنها سابقا خلال أحداث سنة 626 في الصفحتين 264-265، انظر أيضا مفاخر البربر (المجموع ص 118).

(318) يجعلها صاحب القرطاس في سنة 628 وبدون تفصيل (253)، غير أن ابن الخطيب يقول : «وخاطب لأول أمره، وأخذ الناس ببيعته مَن بأقطار الأندلس صادعا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والحضّ على الصلوات وإيتاء الزكاة» الإحاطة 412/1، انظر الرسالة بالمجموعة الجديدة رقم 118.

(319) مثلا رسالة عبد المومن رقم 6 (م ج)، ورسالته في مجموع رسائل الموحدية رقم 23، ورسالة الخليفة يوسف رقم 13 (م ج)، ورسالة المنصور رقم 28 (م ر م) ورسالة المستنصر رقم 106 (م ج)، راجع في الفقرة الأخيرة من الفصل الأول ص (41-43).

(320) انظر هذه الرسالة في قسم الرسائل تحت رقم 119 (م ج)، ويشير ابن أبي زرع إلى تغيير المامون لشكل الدرهم من المربع إلى الدائري (251) بينما يرى **Alfred Bel** استنادا إلى الدراهم التي درسها أنها لا تختلف فيها دراهم عهد المامون والرشيد عن بقية الدراهم من حيث الشكل والوزن والصفاء إلا في عبارة (المهدي إمامنا) التي تحولت إلى (القرآن إمامنا)، المقال بالمجلد 16 بمجلة هسبريس لسنة 1933 بعنوان : **Contribution à l'Etude des Dirhams de l'époque Almohade, p. (44-47), (64-65)**

انظر بـ«المناهل» ع/ 30 مقالا حول اكتشاف لدنانير مؤمنية بإقليم الرشيدية.

(321) الرسالة رقم 121 (م ج)، والعبر 530/6.

الرشيد عن سياسة أبيه والعودة إلى الاعتراف بعصمة المهدي وإحياء «رسومه»[322] فهل هذا التراجع سيعيد للدولة هيبتها السابقة ؟ لقد فات الأوان وساهم كل من السادة والأشياخ في تخريب الهيكل الذي اشتركوا في بنائه منذ حوالي قرن قبل ذلك[323]، فالاعتماد المستمر على المرتزقة وعلى بعض العرب يؤكد وحده استمرار تفكك العصبية المصمودية، بينما كثرت القوات السياسية المنافسة للموحدين داخل المغرب الأقصى وخارجه، وأخذت الدولة تدخل مرحلة الاحتضار كما يتضح من الفقرة اللاحقة وتعتبر هذه الوضعية أيضا من عواقب هزيمة العقاب.

ج ـــ الدولة الموحدية في مرحلة الاحتضار :

1 ـــ في الأندلس : الزحف الاسباني وتجاوزه لتهديد السواحل المغربية :

إن تقلص ظل الدولة الموحدية انطلق من الأندلس كانعكاس للصراع الداخلي بين السادة الموحدين حول الخلافة ودعم الأشياخ لهذا أو ذاك، والمحاولات الاستقلالية بالأندلس على يدهم أولا ثم على يد زعامات أندلسية، فاستفاد القشتاليون من هذه الوضعية للزحف على حوض الوادي الكبير جنوبا بحواضره ومنهاجيّان وقرطبة، كما استفاد الأرغونيون للتوسع في الجزائر الشرقية (البليار) وإقليم بلنسية. وكان لسقوط حواضر كبرى كقرطبة سنة 633[324] ثم بلنسية سنة 636[325] من جهة، وعجز الحفصيين كقوة جديدة بإفريقية عن رد النصارى عن الشرق الأندلسي من جهة ثانية[326]، ورد الاعتبار النسبي لمركز الخلافة الموحدية على يد الخليفة الرشيد من جهة ثالثة، دورٌ في محاولة جديدة لارتباط جنوب الأندلس ولو شكليا بالخلافة الموحدية، فبايعت إشبيلية للرشيد سنة 635[327]، كما أن ابن نصر صاحب غرناطة

(322) البيان 293 وما بعدها، العبر 533/6، انظر أيضا مقال «الفرد بل» المذكور في نفس الصفحات.

(323) عبّر صاحب القرطاس عن هذا بقوله «وكانت أيامه كلها شقية في منازعة يحيى، افترق الموحدون فيها فرقتين فصارت الدولة دولتين، فكان محو دولتهم وذهاب نخوتهم على يديه لأنه وضع السيف فيهم حتى أفناهم (ص 253).

(324) البيان 323، القرطاس 276، وبالنسبة لجيان سيسلمها ابن الأحمر إلى قشتالة مع حصونها سنة 643 مقابل سلم لمدة عشرين سنة بينهما، البيان 367.

(325) البيان 344، العبر 600/6-607.

(326) بدأ حصار الأرغونيين لبلنسية في رمضان 635 واستسلمت في 17 صفر 636، البيان 345 والعبر 600/6-607، الحلة السيراء 190، عنان 437/2-464.

(327) البيان 337، القرطاس 255، وليس مستبعدا أن تكون الرسالة التقديمية الأولى (بالملحق الأول) جوابا عن الرشيد لأهل اشبيلية على بيعتهم، ومنح نوع من التفويض في ولايتها لمن كان له دور في هذه البيعة.

ومؤسس دولة بني الأحمر أعلن بيعته للرشيد في السنة اللاحقة(328). فهذا الخليفة كان قد نجح في إحداث نوع من التوازن بين القوى الداخلية بالمغرب الأقصى وبشكل مؤقت، إلاّ أن هذا التوازن أخذ ينهار منذ أواخر حكمه، فانفصلت الأندلس نهائيا عن الموحدين لتواجه مصيرها، غير أن سقوطها النهائي بيد الاسبان سيتأخر لأكثر من قرنين بسبب تطوع «الغزاة» المغاربة للدفاع عنها زمن المرينيين، وعلى الخصوص بسبب النزاعات داخل الممالك الاسبانية وفيما بينها.

وكان سقوط الحواضر الأندلسية دافعا لهجرة عدد من السكان نحو المناطق التي كانت لاتزال تحت السلطة الإسلامية أو الهجرة إلى حواضر الشمال الإفريقي حيث كانوا يجدون ترحيبا من حكوماته، ومن ذلك، الظهير الذي منحه الخليفة الرشيد لأهل شرق الأندلس تسهيلا لاستقرارهم برباط الفتح مؤرخ بسنة 637، وهو يعطيهم حق تملك وتوارث الأرض الزراعية والعقارات دون تكليفهم بغير الضرائب الشرعية : «كل ما يعمرون من الضياع، ويقتنون من الأصول والرباع، فله حكم التسويغ على الإطلاق والدوام... ولا يطلبون بغير حقوق الشرع...»(329) وكان الذي سعى عند الرشيد في منح هذا الظهير ـــ حسب ما جاء في نصه ـــ أحد الأقطاب الأندلسيين وهو ابن خلاص(330)، وربما أيضا كاتب الرشيد في هذه الفترة أبو المطرف ابن عميرة وهما معاً من أهل شرق الأندلس(331).

كانت الأندلس هي الواجهة الأمامية التي تحمي المغرب من القوى المسيحية، إذا أضيف إليها قوة الأسطول المغربي والوحدة السياسية، ومع تعرض هذه العناصر للتفكك أخذ التراب المغربي يتعرض من حين لآخر لبعض ضربات المسيحيين، حيث تعرضت سبتة لهجوم نصراني عليها في الثلاثينيات(332)، كما تعرضت سلا لهجوم من طرف القشتاليين سنة 658 مستغلين

---

(328) البيان 343، الذخيرة السنية 56، ولعله تلقى امدادات من الرشيد حسب ابن الخطيب في «اللمحة البدرية» ص 43 ط. بيروت.

(329) انظر هذا الظهير تحت رقم 123 (م ج) وراجع خصائصه في مقدمة هذا الفصل ص 153، ويلمح الظهير إلى أهمية موقع رباط الفتح في النشاط الفلاحي والتجاري المحلي، والتجارة البحرية والصيد فهي «مناخ للتاجر والفلاح، وملتقى للحادي والملاح، والمرافق من بره وبحره موجودة في فصول السنة».

(330) يسميه الظهير «ذو الوزارتين الشيخ الأجل الأثير الأكرم الأعز الأفضل أبو علي ابن الشيخ الأكرم أبي جعفر ابن خلاص أدام الله تعالى أثرته وكرامته».

(331) انظر ترجمته ضمن مقدمة الجزء الأول من «رسائل موحدية».

(332) البيان المغرب (346–347) جاء فيه : «كان ذلك عام 633 وقيل 636» وهو يذكر الحدث ضمن أحداث سنة 636، القرطاس 276، العبر 601/6، عنان 2/(506–507) اعتمادا على المصادر العربية.

انشغال الموحدين بالمشاكل الداخلية وخاصة مع المرينيين[333] الذين أخذوا يبرزون على المسرح السياسي ليخلفوا الموحدين في حكم المغرب الأقصى، و لم يتمكن هؤلاء المرينيون أيضا من إيقاف الزحف المسيحي إلا بشكل محدود ومؤقت نسبيا، مما يبين أن القرن السابع الهجري كان بداية مرحلة تتميز بانقلاب في موازين القوى لغير صالح مسلمي الغرب.

2 ـــ في الشمال الإفريقي : ظهور قوى سياسية جديدة منافسة للموحدين :

كان النصف الأول م القرن السابع الهجري يمثل عهد تشكيل ثلاث ممالك مغربية على أرض «الامبراطورية» الموحدية ـــ من غير الأندلس ـــ، وذلك بغض النظر عن السلالات الحاكمة وتغيرات الحدود السياسية تغيرا كبيرا : فعلى أنقاض الدولة الموحدية ظهرت إمارة تلمسان الزناتية، وظهرت بإفريقية إمارة الحفصيين المصامدة، وفي المغرب الأقصى نافست الموحدين قوة قبلية جديدة تتمثل في بني مرين الذين سيرثون الدولة الموحدية بهذه المنطقة.

*** إمارة تلمسان :**

كان منشأها سنة 633 على يد أسرة بني عبد الواد الزناتية وخاصة أبي يحيى يغمراسن بن زيان[334] الذي اتخذ المظاهر الملوكية[335]. ويبدو أن ظروف ظهور هذه الإمارة ترجع إلى عاملين أساسيين :

العامل الاقتصادي ويتمثل في الاستفادة المتزايدة لتلمسان وموانئها من الحركة بين سجلماسة والبحر المتوسط خاصة عندما اضطربت أمور المغرب الأقصى وأخذت تضطرب معها تجارة مدينة سبتة[336]، وتتضمن إحدى الرسائل الموحدية الاعتراف بأهمية تلمسان في هذه العبارة : «وهي البلدة العتيقة بل الروضة الأنيقة، جمعت محاسن المدائن منها في مدينة، واشتملت على أكمل عدة ليومي حرب وزينة، حَشْوُها السلاح والكراع، وفاخر متاعها لا يضاهيه متاع»[337]. وهذه الحالة تتأتى بالرواج التجاري خاصة وأن تلمسان استفادت من خراب المدن الأخرى التي كانت تنافسها وذلك على يد بني غانية كتاهرت[338].

العامل السياسي ويتمثل في ضعف الدولة الموحدية وخاصة بعد انفصال إفريقية عنها وسيطرة بني مرين على شمال المغرب الأقصى، بحيث أصبح هدف الحفصيين هو الوصول

---

(333) انظر فيما بعد الصفحة 218 وما بعدها.

(334) بغية الرواد في أخبار بني عبد الواد ج 1/104-111، نشر «ألفرد بل» 1903.

(335) تتجلى في العساكر من الروم والغز، والوزراء والكتاب، ولبس شارة الملك، والقعود على الكرسي، العبر 164/7.

(336) انظر الصفحة 212 وما بعدها في هذا الفصل.

(337) الرسالة رقم 124 (م ج).

(338) العبر 161/7، انظر عن دور تلمسان في المبادلات الخارجية ما كتبه ديفورك في L'Espagne Catalane.... p. (145-156).

إليه مرورا بتلمسان[339]، مما جعل هؤلاء يستميلون بني مرين ضد حكومة مراكش ويستميلون بعض قبائل المغرب الأوسط ضد بني عبد الواد. وهذه الوضعية ستفرض على هؤلاء الارتباط بالموحدين والتعاون معهم ضد العدو المشترك رغم بعض حالات التدهور في العلاقات بين الطرفين. ويذكر ابن خلدون العلاقة بين يغمراسن والرشيد الموحدي في مثل هذه العبارة «وكان يغمراسن منذ تقلد طاعة آل عبد المومن أقام دعوتهم بعمله متحيّزا إليهم، سلما لوليّهم، وحربا على عدوهم، وكان الرشيد منهم قد ضاعف له البر والخلوص، وخطب منه مزيد الولاية والمصافاة، وعاوده الاتحاف بأنواع الألطاف والهدايا عام 637 تقمّنا لمسراته، وميلا إليه عن جانب أقتاله بني مرين»[340]. وكان يغمراسن في بداية حكمه اتخذ المراسيم الملوكية كما فعل الحفصيون ولم يترك للموحدين غير الدعاء على المنابر[341]، بل ربما انقطعت هذه الدعوة في أوائل عهد يغمراسن[342] أي قبل أن تظهر طموح الحفصيين في التوسع نحو المغربين الأوسط والأقصى[343]، فأدى هذا الخطر من جهة، واستيلاف الرشيد ليغمراسن من جهة أخرى إلى دخول هذا في البيعة ولو شكليا، ولعل هذا ما يفهم من رسالة أهل سلا إلى الرشيد[344] : «وقد كانت (تلمسان) قديما نأت بجانب، وأومأت من الانقياد بوعد غير كاذب، وأولياء الله بكظمها آخذون، وللهوينا في أمرها منابذون... وها هي الآن قد لبّت قبل النداء، واستحبّت فضيلة الابتداء...» وقد يكون هذا «الانقياد» حدث فيما بين 637 و640، فيحيى ابن خلدون يذكر وصول هدية الرشيد إلى تلمسان سنة 639[345]، وقد تكون بيعة تلمسان كجواب على ذلك ربما في نفس السنة، ذلك أن ابن عميرة الذي التحق بمراكش سنة 637 كتب عن الرشيد مدة يسيرة ثم ولي قضاء هيلانة فترة قصيرة،

---

(339) وذلك «لما يرومه (أبو زكرياء) من امتطاء ملك الموحدين بمراكش وانتظامه في أمره وسلما لارتقاء ما يسمو إليه من ملكه...» (العبر 608/6).

(340) العبر 164/7 و607/6، انظر أيضا بغية الرواد، ج 1/ ص 172 حيث جعل تاريخ وصول هدية الرشيد سنة 639، مع ملاحظة امكانية الخلط بين كلمتي سبع وتسع لدى النساخ.

(341) العبر 163/7.

(342) صاحب بغية الرواد يذكر أن الدعوة للموحدن انقطعت بتولي يغمراسن حكم تلمسان (1/ ص 108).

(343) يؤرخ الزركشي بداية فتوح الحفصيين بالمغرب الأوسط سنة 636 حيث فتحوا بجاية والجزائر وبعض بلاد مغراوة (ص 28 ط. تونس 1966).

(344) انظر الرسالة 124 (م ج)، ففيها ما يرجح انقطاع الدعوة الموحدية بتلمسان في بداية حكم يغمراسن إلى أن أحس بالخطر الحفصي فبادر إلى التحالف وإظهار التبعية للرشيد فالهدية من هذا إلى يغمراسن تعني معاملة خاصة هدفها التحالف ضد المرينيين والحفصيين أكثر من مجرد التبعية.

(345) بغية الرواد 205/1 (ط. 1980)، انظر أيضا الأستاذ ابن شريفة في «أبو المطرف بن عميرة» ص 129/ هـ 1.

ثم تولى قضاء سلا والمهدية (رباط الفتح)[346]، وفي هذه الفترة وهو بسلا وصل إلى أهلها «كتاب» الخليفة الرشيد يبشّر بتوصّله ببيعة أهل تلمسان «عفوا بلا تعب وابتداءا بلا طلب»، فأجاب أهل سلا وعلى رأسهم ممثلو السلطة الموحدية بها برسالة تهنئة للرشيد عن هذه البيعة[347]. هذه التبعية أو التحالف فرضتها ظروف المصلحة المشتركة بين الموحدين ضد أعدائهم المرينيين بالمغرب والحفصيين بإفريقية، وبين بني عبد الواد الذين يسعون بذلك إلى فك الطوق عنهم والمتمثل في تهديد الحفصيين مع بعض حلفائهم من زناتة نفسها شرقا والمرينيين أنصارهم غربا، فهي تبعية شكلية هدفها الحفاظ على توازن القوى، وسيتعرض هذا التوازن للتحطيم من حين لآخر : فأبو زكرياء الحفصي قاد حملة أوصلته إلى تلمسان في أوائل سنة 640 حيث استولى عليها ثم أقر يغمراسن بها بعد أن أعلن خضوعه أو تحالفه معه[348]، وفي نفس الوقت تزايد تدهور وضع الموحدين بالمغرب الأقصى مع اشتداد حملات المرينيين على جهات مكناسة وبلاد الهبط[349]. واستمر هذا الوضع بعد موت الرشيد 640 بحيث أصبح النفوذ الحفصي يهدد الموحدين داخل المغرب الأقصى.

الإمارة الحفصية :

تنتسب إلى الشيخ أبي حفص عمر الهنتاتي أحد أصحاب المهدي، وكان الخليفة الناصر أسند إلى ابنه عبد الواحد ولاية إفريقية مع نوع من التفويض في أمرها[350]، ووجدت هذه الولاية الظروف التي شجعتها على السير نحو الاستقلال عن مراكش : فهناك البعد الجغرافي لهذه الولاية، ودور الأسرة الحفصية في جهاز الدولة الموحدية منذ عهد المهدي، وهناك أيضا أهمية التجارة البحرية لهذه الولاية خلال القرن السادس، هذه الأهمية تزايدت خلال القرن السابع[351] مما أدى إلى تجديد أو تنظيم هذه التجارة بواسطة عقد معاهدات بين الأمير الحفصي أبي زكرياء وعدد متزايد من مدن البحر المتوسط وأهمها تلك التي انعقدت فيما بين سنتي 627 و633 وتميزت بعضها بالآماد الطويلة[352]. وعلى عكس وضعية إفريقية

---

(346) انظر التعريف بابن عميرة في مقدمة الجزء الأول من «رسائل موحدية».

(347) الرسالة رقم (124).

(348) العبر 608/6-610، 538، الزركشي 29 (ط. 1966)، بغية الرواد 112/2-113، انظر رواية أخرى في البيان 360.

(349) البيان 350-356، الذخيرة السنية 60.

(350) انظر في الفصل الثاني، ص (79-80).

(351) نلاحظ مثلا الرسائل المتبادلة بين بيزا (بيشة) والسلطة الموحدية والتي جمعها أماري في «...Diplomi».

(352) المعاهدة بين إفريقية والبندقية في نوفمبر 1231 (محرم 629) مدتها 40 سنة.
المعاهدة بين إفريقية وبيزا في آخر غشت 1234 (حجة 631) مدتها 30 سنة. =

كان المغرب الأقصى يعاني من المشاكل المترتبة عن الصراع حول الخلافة منذ موت المستنصر الموحدي وخاصة الصراع المسلح بين المأمون والمعتصم، وما رافقه من تقتيل المأمون لعدد من الأشياخ المصامدة منهم عناصر من هنتاتة. فاتخذ أبو زكرياء الحفصي من تراجع المأمون عن مبادىء المهدي مبررا لخلع طاعته وإعلان الانفصال سنة 627 وتأكد هذا الاستقلال سنة 633 عند تجديد البيعة له[353].

في هذه الفترة كانت الظروف تعمل لصالح أبي زكرياء : فقد انتهى خطر بني غانية بموت زعيمهم هذه السنة بعد مدة طويلة من حرب الاستنزاف وتهديد التجارة الصحراوية، وبالتالي أمكنه أن يستفيد من النشاط التجاري وخاصة الوساطة في تجارة الذهب بين بلاد السودان والمدن التجارية المتوسطية، وهكذا وصف ابن القنفد أيام أبي زكرياء مؤسس الإمارة الحفصية (626-647) بأنها خير أيام وأكثرها سعادة، اكتسب الناس الأموال وأكثروا الغراسات «وجمع بعدله وسياسته أموالا لا تحصر إلا بالبيت، والبيت عبارة عن ألف ألف، وذلك مائة ألف عشر مرات، ذكر بعضهم أنه ترك سبعة عشر بيتا»، ويلخص الزركشي عهده بهذه العبارة «صلحت به البلاد ورخصت الأسعار **وأمنت الطرق**، وجمع من الأموال والسلاح ما لم يجمعه أحد»[354]. هذه الوضعية الأمنية والمادية والعسكرية جعلته يسعى لمحاولة وراثة الدولة الموحدية بالاستيلاء على المغربين الأوسط والأقصى في الوقت الذي تلقّى بيعة شرق الأندلس، وهكذا شمل نفوذه المغرب الأوسط بعد أن احتل تلمسان وفرض على يغمراسن الخضوع له، وتسرب نفوذه إلى المغرب الأقصى بعد موت الرشيد[354]، حيث وجّهت سجلماسة[355] مؤقتا وسبتة وطنجة بيعتها للحفصيين، وكذلك المناطق التي كان يشملها نفوذ حلفائهم المرينيين كقصر عبد الكريم وعلى الخصوص مدينة مكناسة التي وجّهت بيعتها من إنشاء قاضيها أبي المطرف ابن عميرة مؤرخة بربيع الأول سنة 643[356]. ولا يتضح ما إذا كانت مكناسة هي الراغبة في هذه البيعة كما يدّعي ابن عميرة في رسالته : «ومكناسة هي التي ولجت هذا الباب» وأن الاتفاق حصل من «العلماء والصلحاء والأشياخ والأعيان

= المعاهدة بين إفريقية وجنوة في 10 يونيو 1236 (شوال 633) مدتها 10 سنوات، ومع مرسيليا سنة 1233 (630)، وحدثت محاولات بين أبي زكرياء وملك صقلية أما أرغون فكان مشكل توسعها في شرق الأندلس يعرقل تنظيم علاقاتها مع إفريقية، أنظر برانشفيك في **La Berberie... I/27-29, 37**، وماص لاطري في **Relations (151-153)** و**Traités... (116-118)**، وماسكاريلو ص 67 في «مجلة تاريخ وحضارة المغرب».

(353) العبر 594/6، الزركشي ص 24.

(354) الزركشي : تاريخ الدولتين 25، ابن القنفد : الفارسية في مبادىء الدولة الحفصية 109.

(355) يميل ابن عذاري إلى أن تمرد والي سجلماسة راجع لسبب شخصي (ص 359-360).

(356) نص رسالة البيعة إلى الحفصيين في البيان المغرب (373-378) وفي رسائل بن عميرة خ ع، ك 233 (ص 96-98) وتوجد الإشارة إلى ذلك أيضا في العبر 540/6 و(614-619).

النصحاء ووجوه القبائل والعساكر وكافة طبقات الناس في البادي والحاضر»، أم أن ذلك راجع لضغط قبائل بني مرين حولها من جهة ورغبة قاضيها ابن عميرة من جهة ثانية ؟(357) هذا التحرك الحفصي في اتجاه مراكش فرض على الخليفة السعيد (المعتضد) القيام برد فعل والسيطرة على سجلماسة من جديد(358)، ثم الاتجاه نحو مكناسة وتلمسان أملاً في الوصول إلى إفريقية للقضاء على الحفصيين(359)، ولكنه سيفشل في هذه المغامرة عند تلمسان خاصة وأن معسكره كان يضم ــ إلى جانب حصة من المرينيين ــ قبائل من العرب متنافرة فيما بينها وربما حاقدة على الخليفة السعيد، وسيؤدي بمقتله هناك سنة 646 ثمن هذه المغامرة التي لم يجرؤ أخوه الرشيد من قبل على اقتحامها رغم ظروفه الأفضل(360)، مما سيشجع المرينيين على الانتقال من إطار حركة قبلية إلى سلطة سياسية تتخذ من فاس عاصمة لها وتدخل في صراع عنيف مع الخليفة الجديد المرتضى. والجدير بالذكر أن مكناسة اضطرت لمراجعة بيعتها إلى الخليفة السعيد الموحدي بعد أن فتح سجلماسة وتحرك نحوها، بينما تراجعت أمامه قوات المرينيين وهادنته مؤقتا. وكان تجديد بيعة أهل مكناسة للسعيد من إنشاء أديبها وكاتبها ابن عبدون(361) وهي مؤرخة بـ19 ذي الحجة سنة 643(362)، متعللين بأن ما حدث لا يعبّر إلا عن رأي القاضي ابن عميرة(363)، وراغبين في العفو. وبعد عفو السعيد عنهم تحرّك نحو تلمسان كما سبق الذكر.

وهكذا تبيّن أن الحفصيين ساروا نحو دعم استقلالهم النهائي بعد أن تشكل حاجز بتلمسان لم يستطع الموحدون اختراقه، بينما اكتسب المرينيون الشرعية من الحفصيين ليتحولوا من الإطار

---

(357) يقول ابن عذاري «كان أهل الغرب مرتقبين لوصول الأمير أبي زكرياء من تونس وبايعه أهل سبتة وطنجة فاقتضى نظر قاضي مكناسة ابن عميرة أن يكتب إليه البيعة» (373)، مع العلم أن الشرق الأندلسي الذي ينتمي إليه أصبح تابعا للحفصيين، ومما كتبه ابن عميرة إلى ابن خلاص الذي كان دخل بدوره في البيعة الحفصية ــ مخبرا ببيعة مكناسة قائلا : «كتبته...من مكناسة بعد أن حل الوثاق ونفس الخناق... وانصرفت اليد العادية من هذه الجهة... ودخلوا (المرينيون) البلد دخولا هادئا بحمد الله ساكنا، والشيخ أبو فلان ! ... هو رجل البلد بكل اعتبار...» رسائل ابن عميرة ك 233 ص (43-45) وك 233 ص 133 وما بعدها.

(358) العبر 6/617-618.

(359) البيان 358 وما بعدها، العبر 6/641، الذخيرة السنية 71-72، القرطاس 256-257 و(292-293) ومصادر أخرى.

(360) كان الرشيد أذن لوالي الغرب بمراسلة عرب إفريقية، وليس مستبعدا أن يكون الهدف هو إثارتهم ضد سلطة الحفصيين كما يفعل الحفصيون مع المرينيين، وهذا رغم أن البيان يتحدث عن هدف استجلاب عرب إفريقية (البيان 350).

(361) انظر الترجمة رقم 30 في مقدمة البحث.

(362) انظر الرسالة رقم 120 (م ج).

(363) البيان 378.

القبلي الصرف إلى إطار نظام سياسي يزاحم الموحدين الذين ازداد معسكرهم انشقاقا واتجاها نحو الاضمحلال النهائي.

الانقسام السياسي وعدم الاستقرار بالمغرب الأقصى وعواقبه :

ان الصراع بين المامون والمعتصم استمر إلى أوائل عهد الرشيد حيث قتل المعتصم سنة 633، ومن بين مخلفات هذا الصراع الحركات الانفصالية في جهات مختلفة من أرض الدولة الموحدية في الأندلس وإفريقية وحول تلمسان بل وفي المغرب الأقصى حيث بادرت سبتة إلى إعلان استقلالها عن المامون بزعامة أخيه عمران أبي موسى وذلك سنة 629[364]. وفي نفس الوقت ساهمت بعض قبائل الأطلس المتوسط في التضييق على مدينة مكناسة، فاضطر المامون ــ بعد أن تراجع المعتصم جنوبا ــ إلى الخروج من مراكش لانقاذ مكناسة، وكان قد وصله استنجاد أهلها برسالة من إنشاء كاتبها الأديب ابن عبدون يشتكون من حصار وعيث قبائل فازاز وزرهون، خاصة وأن قطر مكناسة هو «قفل الغرب والبلاد معتمدة عليه اعتماد الحسام على الضرب، فإغاثته واجبة» فأهلها أوشكوا أن يكونوا «في حكم الفوات وعِدد الأموات»[365]، فتحرك المامون نحو مكناسة فتراجعت عنها القبائل المحاصرة لها[366]، ثم تحرك منها إلى سبتة وحاصرها برّاً دون نتيجة نظرا لكون عيش أهلها أكثره «إنما هو من البحر، فكانوا في نعمة شاملة، لم يَرِدوا موارد الحرب... ولاهاهم تضييق المأمون ولا حصاره»[367]، بل إن معسكر المامون هو الذي عانى من المجاعة الشديدة[368]. وخلال ذلك سمع المامون بدخول يحيى المعتصم بأنصاره مدينة مراكش وتخريبهم لكنيسة النصارى ونهبهم للمدينة مع قتل عدد من النصارى واليهود[369]. فعزم مرتزقته على الانتقام، وتحرك بعد ثلاثة أشهر من حصار سبتة نحو مراكش، غير أنه مات عند وادي أم الربيع في آخر ذي الحجة 629، واختير ابنه الذي لقّب بالرشيد خلفاً له وكتم موت أبيه إلى أن كسب النصر على المعتصِم ودخل مراكش في مطلع سنة 630، فتلقى البيعة رسميا ووصلته بيعات القبائل ومنها بيعة أورد ابن عذاري فصولا منها مؤرخة بمحرم 630، ونص هذه البيعة يغفل تماما ذكر اسم المهدي مما يؤكد أن الرشيد لازال على سياسة أبيه آنذاك نحو التنكر للمذهب

---

(364) البيان 276، القرطاس 253، العبر 531/6.

(365) الرسالة 120 المذكورة.

(366) البيان (280–281) والعبر 531/6.

(367) البيان 281 العبر 531/6.

(368) الروض المعطار ص 605 (وادي أم الربيع).

(369) انظر القرطاس 253، البيان 281، ديفورك في Les Relations (مجلة تاريخ وحضارة المغرب ع/5، سنة 1968 ص 53 وهوامشها)، ومقال P. Ceneval في هسبريس 1927، ص 75.

التومرتي(370). ولم ينجح الرشيد في احداث نوع من التوازن بين القوى القبلية إلا بعد عودته إلى المذهب التومرتي فأرضى بذلك المصامدة، كما حاول الموازنة بين قبائل عرب الخلط وسفيان بالتخفيف من ضغط الخلط الذين اتسع نفوذهم منذ عهد أبيه حين كانوا حلفاء له(371). وهذه الوضعية المتحسنة جنوبا سهّلت على الرشيد التحرك في بلاد الغرب مرتين أو أكثر فمال المرينيون إلى مهادنته. ووصلته البيعات من الأندلس ومن سبتة، خاصة وأن هذه تضررت من تحوّل نسبة مهمة من الرواج التجاري لصالح مدن ساحل إفريقية والمغرب الأوسط لتحسّن أوضاع المنطقتين الأمنية(372)، على عكس ما كان يجري في المغرب الأقصى لسنوات قبل أن يستقر الوضع نسبيا للرشيد. بل ان سبتة تعرّضت سنة 633 لهجوم النصارى الجنويين عليها ــ حسب المصادر العربية ــ ربما في إطار المنافسة التجارية بينهم وبين الأرغونيين الذين ظهروا كمنافس جديد لجنوة في غرب البحر المتوسط رغم بساطة دورهم النسبي(373). وربما كان هذا أحد العوامل الأساسية ــ إلى جانب الزحف الاسباني على الأندلس ــ التي جعلت سبتة تشعر بضرورة عدم قطع صلتها مع الداخل، وهذا ما يفرض عليها المساهمة في الوحدة السياسية بالمغرب، وترى في هذا الوقت أيضا بلاد الأندلس الجنوبية تعلن تبعيتها للخليفة الرشيد(374). فعهد هذا الخليفة عرف محاولة لانعاش الدولة الموحدية لكن بعد فوات الأوان، إذ ضعفت العصبية المصمودية وانقسمت أهواؤها بين الميل لحكومة بني عبد المومن بمراكش، والدولة الحفصية الهنتاتية المصمودية بإفريقية. كما أن الصراع بين العصبية العربية السفيانية والخلطية لم يمكن من استمرار الاستقرار، وستنفجر الأوضاع مع

---

(370) انظر نص البيعة في الرسالة رقم 121 (م ج) وانظر رأي صاحب القرطاس حول البيعة للرشيد ص 254.

(371) انظر التفاصيل عن صراع الرشيد مع المعتصم وهسكورة والخلط وما عانته مراكش من الحصار والنهب والمجاعات في البيان (288–327) ثم (339–342) وفي العبر 532/6 وما بعدها، والقرطاس 255 وعنان 498/2–510.

(372) حول وضعية الحفصيين انظر برانشفيك في الجزء 1 ص 27–29 من كتابه La berberie.....

(373) يرى ديفورك أن مدينة سبتة أصبحت مركزاً هاماً لتجار كطلانيا ومنبولیي في هذه الفترة ويفترض أن يكون الهجوم في سبتة سنة 633 من طرف الكطلان الذين كانوا يتوسعون آنذاك في البليار، وأنهم هم الذين أحرقوا سفن الجنويين بمياه سبتة فاستنجدت هذه بالجنويين فتراجعت أمامهم سفن الكطلان الأرغونيين (L'Espagne Catalane... p. 161)، وصاحب القرطاس يذكر في سنة 632 هجوم أرغون على يابسة وهجوم الجنويين على سبتة (232)، وابن عذاري يجعل الهجوم على سبتة سنة 633، أو 636 (346–347). إذن ألا يصح أن يكون هناك هجومان أولهما للجنويين كما في المصادر العربية والثاني للأرغونيين خصوصا وأنهم هجموا خلال 636 على ميورقة ومنورقة في إطار توسعهم في الشرق الأندلسي ؟ راجع أيضا الهامش 332.

(374) انظر بهذا الفصل ص (205–206).

عهد الخليفة السعيد حيث تتعدد الثورات ضده[375]، ومنها ثورة سبتة بزعامة ابن خلاص، وستظل مستقلة فيما بين 640 و647 تحت تبعية شكلية للحفصيين ربما لكونها فقط في مواجهة النصارى فلم تجد قوة بالمغرب أكثر من قوة أبي زكرياء الحفصي، وستنفصل عن إفريقية بعد موته وذلك عند قيام ثورة العزفي.

قاد ثورة سبتة سنة 647 **أبو القاسم العزفي** بتنسيق مع الرنداحي قائد أسطول المدينة[376]، وتقرر الارتباط بالدولة الموحدية شكليا، فتوجّه وفدٌ إلى الخليفة المرتضى لتقديم البيعة كما تفيد ذلك رسالة العزفي إلى السيد أبي إسحاق أخي المرتضى ووزيره[377]. فبعث المرتضى إليها عامله ابن أشرقي تحت إشراف العزفي[378]، فبقي بضعة أشهر بسبتة، ثم كتب العزفي إلى المرتضى بعدم صلاحيته[379]. هذه الرسالة من العزفي غير معروفة حاليا، ولكن جواب المرتضى يدل على توصله بها[380]، هذا الجواب مؤرخ بـ 14 رجب 648 وفيه **الموافقة على عزل العامل ابن أشرقي** «فمن كرهته الرعية لا نستعمله بحال عليها»، وفيه أيضا **التفويض للعزفي** للنظر في جميع أمور المدينة دون حاجة إلى مراجعة الخليفة، وربما التفويض أيضا في العلاقات الخارجية لسبتة[381]، ويضيف جواب المرتضى أن هذا التفويض ميزة خاصة لم يحصل عليها غيره من قبل. وهذا يؤكد أن ارتباط سبتة بالموحدين هو شكلي فقط، ونلمس هذا أيضا في الأسلوب الذي خوطب به العزفي في هذه الرسالة الجوابية حيث نلاحظ الأدب معه ومع أعيان المدينة في عدم التصريح بعصمة المهدي فاكتفت بوصفه «بالإمام القائم بأمر

(375) انظر ظروف عهد السعيد في ص (210–211)

(376) صاحب العبر (542/6) يعتبر الثورة ثورة للعزفي، وفي ص (624–625) يتحدث عن ثورة العامة وان الذي تولى كبر ذلك الرنداحي بمداخلة أبي القاسم العزفي، واتفق الملا على ولاية العزفي وحولوا الدعوة إلى المرتضى.

(377) الرسالة السابعة من رسائل القبتوري التي نشرها محمد الهيلة ص 109–111 وأيضا دراسته لهذه الرسالة في الصفحة 48 من «رسائل ديوانية...» بل تلقى مركز الخلافة رسالتين كما ورد ذلك في رسالة القبتوري نفسها ص 110 وكما ورد في جواب المرتضى الآتي ذكره. هذه التبعية الشكلية يذكرها أيضا ابن عذاري (414)، بينما صاحب الذخيرة يتحدث فقط عن ثورة العزفي دون ذكر التبعية (ص 76).

(378) يفهم ذلك من البيان 414 وخاصة من الرسالة التقديمية عن المرتضى إلى العزفي (التقديم رقم 6 في الملحق الأول من قسم الرسائل).

(379) البيان 414.

(380) التقديم السادس المذكور، انظر خصائصه ضمن هذا الفصل (ص 166–167).

(381) كما يفهم ذلك من رسالة القبتوري الثامنة في «رسائل ديوانية» وهي من أبي القاسم العزفي إلى الخليفة المرتضى وليس إلى أبي اسحاق الموحدي، ومما جاء فيها «ولولا أن هذا المكان الآن قد تقلصت مواد مجابيه... لكان الارتباط لها (أي الهدنة) قد امضي...» ص 120.

الله تعالى»[382]. كما أن رسالة المرتضى تقارن بين وضعية سبتة قبل ثورة العزفي وبعدها حيث كانت المظالم والمستحدثات، **فأمر الخليفة بإلغاء هذه المستحدثات والرسوم الجائرة**[383]، والعناية بعامة الناس «الدهماء»، مما يجعلنا نفترض أن سبتة كانت تعاني من ضعف في النشاط التجاري الخارجي أدى بالحكومة السابقة إلى الضغط على سكانها ومن حولها من أجل جمع المجابي على التجارة المحلية والحرف والزراعة، فأصبحوا مستعدين للثورة. هذا الافتراض قد يجد ما يدعّمه في رسالة القبتوري عن العزفي إلى الخليفة المرتضى يشتكي فيها من ضعف المجابي بسبب «انقطاع أسفار النصارى له» (لثغر سبتة)، وأن أهم ما بقي من المجابي هي أعشار الزيت[384] أي الاعتماد على الفلاحة بعد أن كانت المدينة لا تُلقي بالاً للمداخيل الفلاحية بالمقارنة مع أهمية المداخيل التجارية.

وهكذا إذا حاولنا أن نبحث عن أسباب ثورة سبتة وانضمامها الشكلي للموحدين نجد عدة عوامل ربما تلتفّ جلها حول العامل التجاري، فرغم أن ابن عذاري ينسب الثورة إلى تعسف الوالي الحفصي بسبتة[385]، فإن هنالك عوامل أخرى أساسية، فقد مات الأمير الحفصي أبو زكرياء سنة 647 وقبل ذلك حدث سقوط اشبيلية بيد قشتالة دون أن ينفعها الحفصيون[386]، ويبدو أن سبتة أصبحت مهددة بالهجومات النصرانية خاصة القشتالية، إذ نجد العزفي يبني سورا جديدا للمدينة[387]، كما نجده يهادن — بإذن المرتضى — ملك قشتالة لمدة سنتين مقابل فدية كانت شاقة على سبتة، وعندما أرادت هذه تجديد الهدنة[388] اشتطت قشتالة في رفع قيمة الفدية حتى اضطر العزفي لطلب الدعم المالي من المرتضى مشتكياً من قلة المداخيل بثغر سبتة حيث «انقطعت أسباب مرافقه بانقطاع أسفار النصارى له»، فصار «مجبى هذا المكان... لغاية من الضعف قلّما على مثلها عهد». ويشير إلى الاعتماد الوحيد على مدخول الأعشار على الزيت الذي قلّ بدوره «فليس هذا العام عام غلة يستعان ويستظهر،

---

(382) قد يكون المرتضى في قرارة نفسه لا يومن بعصمة المهدي (ابن عذاري 452)، ولكن هذا لا يظهر على المستوى الرسمي، وإنما كان الدافع لعدم التصريح بالعصمة هو اعترافه بمكانة علماء سبتة واحترام الخلفاء السابقين لآرائهم، زيادة على بيعتها له عن طواعية.

(383) ربما هذه السياسة ليست خاصة بسبتة، لاحظ مثلا التقديمين رقم 74 و76 وتقاديم أخرى في الملحق الأول بقسم الرسائل.

(384) «رسائل ديوانية» ص 115–121.

(385) البيان 400، وهو ما عبرت عنه رسالة المرتضى المذكورة بشيوع المظالم والمستحدثات، انظر أيضا ديفورك في مقالة عن سبتة ص 108.

(386) الذخيرة 79، وأيضا ديفورك في المقال المذكور (108–109)، وانظر أيضا ص (205–206) من هذا الفصل.

(387) الذخيرة 80.

(388) ربما هو الموضوع الذي جاء من أجله «الإفريريان» إلى المغرب، التقديم رقم 6 في الملحق الأول.

بما يستفاد من أعشارها ويستثمر»[389]. ثم عندما انتعشت تجارة سبتة مع البرّ بفضل الأمن النسبي الذي فرضه المرينيون في المغرب الأقصى الشمالي إلى سلا وامتداد نفوذهم جنوب عاصمتهم فاس ليشمل بلاد فازاز وتادلا وأحيانا سجلماسة، عندئذ تحرك نشاط سبتة البحري مع جنوة[390]، وأيضا مع أرغون التي كانت تفضل الممارسة التجارية مع موانىء المغرب عوض المساهمة ضده في الحملات الصليبية[391] التي كانت قشتالة لا تزال متحمسة لها خصوصا وأنها تعاني من صمود مملكة بني الأحمر في وجهها.

وفي إطار التحرك الصليبي للكنيسة وتحرك قشتالة قامت هذه بالهجوم على مدينة سلا الموحدية في شوال 658 (سبتمبر 1260) واستمر احتلالها مدة نصف شهر إلى أن حرّرها المرينيون واستقروا بها. وستتعرض مدن أخرى كالعرائش لمثل هذا الهجوم[392]، وكان العزفي قد نبّه على استعدادات القشتاليين للهجوم على موانىء مغربية، و لم تفد تحذيراته لأهل السواحل لمواجهة الهجوم المتوقع. وعلى إثر حادثة سلا وجّه الخليفة المرتضى رسالة شكر إلى العزفي على تحذيره المذكور[393].

والواقع أن دولة المرتضى لم تكن أقل اضطرابا من عهد أسلافه سواء من طرف المرينيين شمالا أو التمردات جنوبا وتهديد الطرق في مختلف الجهات، ورسائل التقاديم عن المرتضى وعمن قبله لا تخلو تقريبا من الإشارة إلى تكليف عمال الجهات بمحق آثار الفساد والمفسدين أو ضرورة تمهيد الأرجاء[394].

إذا كانت الدولة الموحدية عرفت خلال القرن السادس مظاهر للقوة في الميادين السياسية

---

(389) رسائل ديوانية (115–121) و49، راجع أيضا الهامش رقم 384.

(390) ديفورك عن سبتة، المقال المذكور ص 110.

(391) إذا استثنينا بعض الحالات التي كانت أركون تقف فيها إلى جانب قشتالة كما حدث سنة 1264 عندما ثارت مرسية ضد القشتاليين فإن أركون كانت تميل إلى التعامل التجاري مع سبتة، بل عقدت معها عقد هدنة وسلام في 1969/2/4 (أواسط 667)، ديفورك في :
La Question de Ceuta... p. III, l'Espagne Catalane... p. 162-163

(392) القرطاس 403، الذخيرة 121، وكان العزفي سنة 663 هدم قصبة أصيلا حتى لا يتحصّن بها العدو (القرطاس 402)، وبالنسبة للهجوم على سلا ربما يعلّله عاملان أساسيان : انها أصبحت تستقبل الذهب السوداني، والثاني الدافع الصليبي حيث يدخل الهجوم في إطار محاولة لوضع قشتالة أقدامها بالمغرب قبل أن تضعها القوة الفتية الناشئة وهي قوة المرينيين على أرض الأندلس، خاصة وأن قشتالة كانت لاتزال في المواجهة مع المسلمين بمملكة غرناطة، راجع ديفورك في 25–24
La Question de Ceuta... p. III, l'Espagne Catalane..

(393) الرسالة رقم 127 (م ج)، انظر أيضا القرطاس 301 والذخيرة 63–84.

(394) راجع في الملحق الأول التقاديم ذوات الأرقام : 4، 7، 8، 10، 11، 13، 14، 15، 16، 17، 18، 20، 21، 22، 23، 25، 26، 27، 31، 32، 33، 34، 37، 43، 46، 47.

والعسكرية والاقتصادية... فإن هذه المظاهر أخذت تتغير مع أوائل القرن السابع وخاصة منذ معركة العقاب تبعا لعوامل متعلقة بالسياسة الموحدية نفسها ولعوامل خارجة عنها. وقد رأينا بعض الجوانب السياسية فيما سبق، وهناك جانب آخر مهم وهو السياسة المالية الموحدية وبالضبط **النظام الجبائي**، فهذا النظام كان يتميز بالفوارق من جهة بين منطقة المصامدة ذات الامتيازات عموما والتي لا تطالب بغير الحقوق الشرعية في الممتلكات والأموال[395] ــ وهذا النظام كان ساريا على عدد من القبائل الأخرى التي دخلت طوعا في الدعوة الموحدية ولكنه أخذ في التراجع حيث وضعت عليها التكاليف الجبائية ــ[396]، ومن جهة أخرى بين مناطق اعتبرت ممتلكاتها مفتوحة عنوة على يد الموحدين فكانوا يفرضون عليها تكاليف باهضة. هذه التكاليف كانت تدر مداخيل هامة على الدولة، ولكنها كثيرا ما تعرّض المسؤولين عنها للتنكيل والتعذيب بعد المحاسبة[397]، ومن ذلك ما حدث أيام الناصر بعد عودته من حركته الإفريقية وقبل جوازه إلى الأندلس، حيث أن عمال البلاد الغربية من فاس إلى سبتة ضيّعوا حصة «المخزن» لصالحهم، فكان هذا مما أضعف المعسكر الموحدي المتحرك إلى الأندلس وجعله يقاسي من المجاعة[398].

وتبعت هزيمة العقاب مجاعة وأوبئة **بالأندلس** والمغرب خاصة سنة 610[399]، وستتفاقم الأمور مع ضعف السلطة المركزية وظهور عوامل جديدة : فهزيمة العقاب كانت نقطة تحول من عهد قوة الموحدين إلى عهد ضعفهم، فإذا كانت الأندلس ظلت هادئة نسبيا أيام المستنصر ــ فيما يخص المهادنة مع النصارى ــ[400] فإنها في العشرينيات عرفت حركة انفصال وصراع بين القوى المحلية المتنافسة زيادة على الضغوط النصرانية، وهذا من شأنه الإضرار بالوضع الاقتصادي نتيجة انعدام الأمن من جهة، ومن جهة أخرى نتيجة الضغط الجبائي على السكان من أجل تجنيد الأتباع والمرتزقة النصارى ثم من أجل دفع الاتاوات للملوك الاسبان

---

(395) الرسالة التقديمية رقم (24) التي يرجح أنها رسالة تقديم لوال على تنملل، فهي على عكس التقاديم الأخرى التي تتحدث عن المجابي.

(396) مثلا قبائل زرهون (الروض الهتون ص 8–9)، ويذكر صاحب الذخيرة (118) أن الأمير المريني بعد أن فتح مراكش وطاعه المصامدة حذف عنهم التكاليف الجبائية، فهل شملت هذه التكاليف أيضا هذه القبائل في نهاية الدولة الموحدية ؟

(397) انظر ما ذكره صاحب الروض الهتون عن المناصفة والمثالثة في الإنتاج وما فعله بعض الاحتكاريين (القشاشين) ص 10، وانظر كذلك فعل هؤلاء القشاشين في ناحية مراكش في الذيل (غرباء خ ع) ضمن ترجمة أبي الحسن بن القطان ص 212، انظر الصفحات بهذا الفصل 176–177، 181 وأيضا عما فعله عبد المومن مع أهل تونس في الكامل (63/9) وفي رحلة التجاني (344).

(398) انظر الصفحات (174 وما بعدها).

(399) القرطاس 272، راجع ص 182–183 والهامش 190 عليها ثم الهامش 401 بعد.

(400) انظر في هذا الفصل ص 182 وما بعدها.

اتقاءا لخطرهم أو رغبة في دعمهم، مما يجعل من الصعب إلقاء المسؤولية كاملة على سلبيات المناخ وعلى ظهور المجاعات والأوبئة[401].

أما **المغرب الأقصى** فقد أخذ يعاني من الاضطراب جنوبا وشمالا حيث نشطت حركة الجزولي بالجنوب إلى سنة 612، وكانت سجلماسة مهددة تارة من طرفه وتارة من طرف تحركات بني غانية التي أصبحت تأخذ اتجاها طوليا من الشرق إلى الغرب لفرض عدم الاستقرار على ولاة إفريقية الحفصيين في حرب استنزافية، وربما كانت هذه الحركة تحاول أيضا وضع يدها على المدن التي تشكل منافذ على التجارة السودانية عبر الصحراء[402]، وكما حدث بالأندلس من ظهور الحركات الانفصالية، حدث بالمغرب : فانفصلت إفريقية وتلمسان، بل وقع الانقسام السياسي داخل المغرب الأقصى منذ العشرينيات[403]. وغير بعيد عن مراكش لم تكن الطرق آمنة من قطاعها منذ عهد المستنصر أمام تهاون حكومته، حتى أن هناك من يتهم ابن جامع وزير المستنصر بالتعامل مع قطاع الطرق[404]. كما يشار إلى أن عهد العادل (621–624) كان عهد شدة وغلاء توالى على مراكش سبعة أعوام أي منذ عهد المستنصر[405]، وستضطرب أمور المنطقة باندلاع الصراع بين المامون ثم الرشيد من جهة والمعتصم بن الناصر من جهة ثانية، وتعاني مراكش الويلات من تكرار الحصار والفاتحين لها، وما يرافق ذلك من شدة المجاعات[406]. وإلى شمالي المغرب أخذت تتسرب قبائل بني مرين وتفرض نفسها شيئا فشيئا على المدن والبوادي فتأخذ جبايتها بدعوى حمايتها، مما كان يجعلها تصطدم دائما بالقوات الموحدية أو بحلفاء الموحدين من العرب الذين سبق استقرارهم بالمنطقة وتمتّعهم بامتياز جباية الضرائب. وهكذا ومنذ الانتصار الأول للمرينيين على الموحدين سنة 613 (عام المشعلة) يحدّثنا ابن عذاري عن استمرار المجاعة بالمغرب وخاصة بالغرب فيما بين 614 و617، فإذا أضفنا إليها الملاحظة السابقة من صاحب الذيل عن كون المجاعة استمرت إلى عهد العادل، ثم استمرت بشكل متقطع أثناء صراع المعتصم مع كل من المأمون والرشيد نجد أن الحديث لا يتوقف تقريبا عن ذكر المجاعات والغلاء وخاصة بالغرب إلى نهاية

---

(401) بعض السنوات التي يشار إليها لحدوث المجاعة والقحط بالأندلس : سنة 610 و617 (البيان 245 والذخيرة 54) وسنة 624 (القرطاس 250) وسنة 635 (القرطاس 255).

(402) انظر الصفحة (173–175) وهذا العمل من شأنه إضعاف الحفصيين ماديا واغناء بني غانية فيستطيعون تجنيد عدد أكبر من قبائل العرب وزناتة وغيرهم.

(403) انظر الصفحة 207 وما بعدها، والبيان 349 و362 عن عهد الرشيد و364 عن عهد السعيد و417–419 عن عهد المرتضى.

(404) انظر الصفحة 191 والهامش 245 وأيضا ص 194.

(405) الذيل س 8/ ص 175، ط. 1984.

(406) البيان 315–325، والذيل س 8 ص 69 من المخطوط.

عهد الرشيد[407]، أما سكوت المصادر بعد هذه الفترة عن استمرار هذه المجاعات[408] فلا يستبعد أن يكون راجعاً إلى تعاطف مؤلفيها مع الدولة المرينية التي تأسست بالمنطقة الشمالية منذ سنة 646، فاعتُبرت كأنها حامية للطرق ومانعة للفوضى، أو أنه راجع فعلا إلى هذه الدولة التي تمكنت من فرض تفوقها العسكري على منافسيها من القبائل الأخرى المحلية، فساد الأمن بمنطقة طال فيها عهد الاضطراب. ويمكن القول أن حالات المجاعة والغلاء بالمغرب الأقصى كان لها نوع من الاستمرار طيلة الفترة ما بين هزيمة العقاب وانتقال الحركة المرينية القبلية إلى حركة سياسية سنة 646.

إن هذه الوضعية المضطربة في المغرب الأقصى طيلة هذه الفترة كان لها تأثير سلبي على النشاط الاقتصادي وخاصة التجارة، كما يتجلى هذا في تدهور نشاط تجارة ميناء سبتة، بينما كان له تأثير إيجابي على تجارة المغرب الأوسط وإفريقية حيث انحرفت أهم القوافل التجارية إلى موانىء هاتين المنطقتين مما شجع إمارتي الحفصيين وبني عبد الواد على تنظيم وتوسيع عقود المعاهدات مع عدد من مدن البحر المتوسط وخاصة الإيطالية[409]. وهكذا نجد سبتة وهي المركز التجاري المهم تتعرض في الثلاثينيات لمجاعة بشكل لم يسبق له مثيل، بحيث أن انقطاع الطرق البرية نحوها جعلها لا تتوصل بالمواد الغذائية ولا بغيرها من المواد[410] التي تستعملها في المبادلات مع التجار البحريين الأجانب خاصة الذهب، فلم يعد بهذه المدينة ما يجلب هؤلاء التجار نحوها، أضف إلى ذلك بعض العوامل السياسية الخاصة بها كاستقبالها اللاجئين الأندلسيين والتضييق عليها من طرف الأرغونيين أثناء توسعهم في شرق الأندلس والبليار، واستمرت هذه الوضعية في سبتة خلال الفترة الأولى من حكم العزفيين (647–677) بحيث لن يعود نشاطها المنظم إلا بعودة الوحدة السياسية للمغرب الأقصى تحت سيطرة المرينيين حوالي 672[411]، أو على الأقل منذ سيطرتهم على المنطقة التي يمرّ بها الخط التجاري من سجلماسة إلى سبتة. وفي الوقت الذي كانت فيه المواصلات البرية في شمالي المغرب الأقصى مع سبتة مهددة باستمرار ربما كانت سلا تتوصل ببعض الكميات من المادة الذهبية من الجنوب، وليس من المستبعد أن تكون الحملة القشتالية عليها سنة 658 تستهدف الفائدة

---

(407) القرطاس (255 و277) يذكر الغلاء المفرط بالمغرب والأندلس سنة 635، والبيان (332) يذكر الغلاء بالمغرب سنة 633 و634، وكانت سنة 636 خصب وخيرات (ص 342) ثم أعقبها سنة 637 الغلاء المفرط والمجاعة بسبتة «وكانت أكثر بلاد المغرب غالية الأسعار» (347–348).

(408) بل يشار إلى الخيرات والرخاء، مثلا في الذخيرة السنية (94–95) والقرطاس (302)، وربما تحسنت الظروف المناخية أيضا حيث يعترف صاحب القرطاس بالرخاء أيام المرتضى (259).

(409) انظر الصفحات (207–209) عن تلمسان وص 197 وما بعدها وخاصة الهامش 352 عن المعاهدات مع إفريقية.

(410) يتحدث صاحب البيان عن انقطاع السبل إليها (347–348).

(411) انظر الهامش 391 عن علاقة أركون بسبتة والمرينيين.

التجارية من هذه المدينة رغم الطابع الصليبي الذي سيطر عليها وعلى الحملة الثانية ضد العرائش والمحاولة ضد سبتة نفسها من طرف القشتاليين أيضا[412]، بينما نلاحظ أن أرغون لم يكن من مصلحتها المغامرة العسكرية ضد سبتة أو موانىء مغربية أخرى، بل سترتبط باتفاقات تحالف مع المرينيين[413].

أما على المستوى الداخلي أيام المرتضى فقد تدهور نفوذه بزحف المرينيين إلى سلا ثم إلى تامسنا وتقدم نفوذهم من فاس وتازة عبر جبال فازاز إلى تادلا وأحيانا إلى سجلماسة، وفي نفس الوقت ظهرت ببلاد السوس ثورة ابن يدر، فأصبح الموحدون في مراكش محاصرين سياسيا وعسكريا واقتصاديا من كل جهة، مما أوقعهم في ضائقة مالية شديدة زادت في تدهور وضعيتهم ونقص إخلاص مرتزقتهم من النصارى، ويمكن أن نفهم هذه الضائقة المالية من تشدد أبي دبوس آخر الخلفاء الموحدين على المرتضى متهما إياه بكنز الأموال حتى انتهى الأمر بقتله[414]. ورغم تغلبه ــ مؤقتا ــ على ابن يدر فإنه لم يستطع أن يوقف الزحف المريني الذي تجاوز أم الربيع ووضع حدا نهائيا للدولة الموحدية في مطلع سنة 668.

إن الاتصال المتزايد للعالم المسيحي بالعالم الإسلامي منذ الحرب الصليبية الأولى ساهم في تطوير الحركة التجارية بين العالمين ومن ضمنها التجارة بين مدن المغرب ومدن إيطاليا وجنوب فرنسا وإسبانيا خاصة برشلونة، وكان العطش الأوربي للمادة الذهبية بالأساس عامل ربح مهم لتجار هذه المدن والوسطاء، وربما كان هذا هو العامل الذي يفسر محاولات السيطرة من طرف الثوار والانفصاليين على المنافذ الصحراوية كسجلماسة أو الموانىء لدعم مركزهم المادي ولإنجاز أهدافهم كما ظهر ذلك في استقلال إفريقية وتلمسان، وكذلك سبتة (فعليا). نعم كان من الممكن مواجهة هذه الحركات نسبيا لو استمرت وحدة وصمود الجبهة الداخلية

---

(412) انظر البيان ص 423 وما بعدها، والذخيرة السنية ص 101 والقرطاس 301 و(303–304)، انظر رأي ديفورك في مقاله عن سبتة La Question de Ceuta ص 111 حول دوافع الحملة القشتالية وأيضا ص 114 و115.

(413) ديفورك في ...L'Espagne catalane... p. 162, 164، والمقال عن سبتة ص 116 وما بعدها يتحدث عن تحالف بين المرينيين وبرشلونة ضد سبتة لفتحها، وهذا لا يتفق مع المصادر المغربية مثلا القرطاس 312 والذخيرة 137–138 عن خضوع سبتة للمرينيين سنة 672 بينما الاتفاقية مؤرخة بـ 18 نونبر 1274 أي جمادى الأولى 673.

(414) البيان المغرب (449–450) ضمن أحداث سنة 665 ويتضح ذلك من رسالة أبي دبوس ثم جواب المرتضى عليها، ويجب أن يكون تاريخهما ما بين دخول الواثق إلى مراكش في 22 محرم ومقتل المرتضى في 22 صفر حسب البيان (389)، (الرسالتان 128 و129) م ج ويصف ابن عذاري (455) بيت المال في بداية عهد الواثق بقوله : «ليس ببيت المال مال ولا طعام، فاستولى عليه الاحتياج الشديد والإعدام»، ورغم محاولة الواثق التخفيف من الضغط المالي على أهل مراكش فإنه لم يحصل على رضاهم، ولا حصل عليه قاضيه كما تلمّح رسالة التشكي التي وجهها إلى الواثق، وجواب الواثق عليه مدعما لمكانته، انظرهما بالبيان (قسم الموحدين) 466–468، ط 1985.

الموحدية كما حدث إلى عهد المستنصر، بينما نجح التفكك بعد ذلك، وهنا يمكن القول أن سياسة الناصر ـــ على المدى البعيد ـــ كانت عكسية النتائج، فاستعداداته لخوض معركة العقاب لإيقاف الزحف الصليبي أدت إلى هزيمة انهارت بعدها الأندلس في وجه هذا الزحف (مع الاعتراف بوجود عوامل خارجة عن إرادته)، وفي إفريقية بدلا من استمرار اضطرابات بني غانية ـــ وبالتالي حفاظ المغرب الأقصى على مكانته التجارية مع السودان والبحر المتوسط ـــ استقر الحفصيون بإفريقية وتمكنوا من القضاء على خطر بني غانية، فانفتح طريق التجارة الصحراوية نحوهم عند اضطراب أمور المغرب الأقصى وتهافَتَ التجار الأجانب على موانئهم وعلى موانىء المغرب الأوسط، هذه الظاهرة ستستمر إلى الاستقرار النهائي لبني مرين بالمغرب الأقصى فيحصل نوع من التوازن في القوى عموما بين البلدان الثلاثة ريثما تدخل عموما في مرحلة الانحطاط منذ القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي).

وأخيرا يمكن القول أن الموحدين الذين كانوا يعتمدون على سياسة القوة عسكريا ومذهبيا لتغطية التناقضات الداخلية[415]، ويملكون عساكر متنوعة العناصر احتفظت بانسجامها في عهد الخلفاء العظام عامة، ويستغلون ظروف التنافس بين الممالك الاسبانية ليظهروا بمظهر القوة، جاءت معركة العقاب لتكشف تناقضاتهم الداخلية وضعف سياستهم الأسبانية[416] وتسقط هيبتهم في أعين النصارى، فيعود الانقسام السياسي إلى المغرب، وتفشل التجربة الوحدوية في الغرب الإسلامي التي استمرت حوالي نصف قرن. أي أن عوامل ضعف الدولة الموحدية ليست مرتبطة مباشرة بـ«العقاب» وإنما كانت بذورها كامنة قبلها[417].

(415) اعتمدت سياسة المصامدة في العلاقة مع بقية القبائل والمجموعات على أساس علاقة الغالب بالمغلوب.

(416) يجعل «لوتورنو» عامل الضعف الأساسي للموحدين هو عجزهم عن حماية حدودهم الاسبانية واكتفاؤهم بموقف الدفاع نحو النصارى (حركة الموحدين، ص 115-119).

(417) انظر رأي لوتورنو في المرجع المذكور (ص 115-125).

الفصل الخامس

جوانب حضارية في رسائل «المجموعة الجديدة»

سيقتصر هذا الفصل على تناول بعض المستفادات التي تخص جوانب حضارية متنوعة إدارية وعسكرية واقتصادية واجتماعية ودينية، وفي السياسة الخارجية أيضا.

1 ــ الجانب الإداري :

عرف العهد الموحدي تداخلا بين العملين الإداري والعسكري، ولذا من الصعب الفصل بينهما في هذه المحاولة، وان كنا سنعود مرة أخرى لبعض الجوانب العسكرية منفصلة عن الجوانب الإدارية، وهذا التداخل كان على المستويين المركزي والمحلي.

أ ــ الإدارة المركزية : كان الخلفاء الموحدون يمثلون أعلى سلطة في دولتهم ويحملون لقب «أمير المومنين»[1]، يساعدهم موظفون كبار في شكل أفراد كالوزراء والكتاب والقضاة، أو في شكل هيئات مثل هيئتي العشرة والخمسين أو ما عرف فيما بعد باسم الأشياخ[2].

وقد تحول **نظام الخلافة** مع عبد المومن إلى ملك وراثي في سلالته منذ تقديم ابنه الأكبر محمد **وليا للعهد**[3]، وكان المفروض على الرعية السمع والطاعة في المنشط والمكره... واعتماد النصيحة... ولا تتوفر الرسائل الحالية إلا على الشروط المفروضة على الرعية[4]. وأصبح ولي العهد يذكر في المراسلات الرسمية بعد اسم أبيه الخليفة كما تؤكد هذا الرسائل أرقام 10 و42 و44 (م ج).

وكان يساعد الخليفة **وزير** من كبار أشياخ الموحدين مثل أبي حفص عمر الهنتاتي ثم أبنائه، أو من بعض السادة مثل أبي حفص عمر وزير أخيه الخليفة يوسف... وفي عهد الخلفاء الأوائل كان هناك حدّ لسلطة الوزير، غير أن هذه السلطة اتسعت على حساب سلطة الخلفاء في فترة الضعف كما حدث من طرف الوزير ابن جامع خلال عهد المستنصر مثلا، حيث كان

---

(1) وهو مقتبس أصلا عن عمر بن الخطاب كما تذكر ذلك الرسالة رقم 18 (م ج).

(2) راجع المقتبس من كتاب الأنساب (30–35)، المعجب (337–339)، القرطاس (176–177)، العبر 470/6، نهاية الأرب (403)، الحلل الموشية 108.

(3) انظر الرسالتين 13 و14 (م ر م)، والفصل الأول ص (42–45) وكذلك الرسائل 40، 41، 121، 125 (م ج) حول بيعات أخرى بولاية العهد وبتولي الخلافة أو تجديد البيعة. ويشير صاحب المن إلى البيعة باليد : «إعطاء صفقة اليد» (346)، وكذلك الرسالة 13 (م ر م) عن بيعة الشيخ أبي حفص لولي العهد محمد.

(4) وان كان صاحب المعجب يشير إلى بعض الشروط على الخليفة أعلنت عند مبايعة المستنصر (ص 326).

وصيا على هذا الخليفة في سنوات حكمه الأولى كما يتضح من المراسلات بين اشبيلية ومراكش آنذاك[5].

ومن كبار الموظفين المساعدين للخليفة **الكتاب**، وينقل المقري عن ابن سعيد المغربي أن الكتابة كانت على نوعين أعلاهما منصب كاتب الرسائل، وأشرف أسمائه الكاتب، ويجب ألاّ يكون فيه نقص ظاهر[6]. ومن أشهر الكتاب الموحدين الذين وردت لهم نماذج ضمن رسائل هذه المجموعة الجديدة ومجموعة بروفنصال نجد أبا جعفر بن عطية الوزير والكاتب لدى عبد المومن، وأبا القاسم القالمي وابن المرخي وأبا الحسن بن عياش وغيرهم من كتاب الخليفة يوسف، وأشهر كتاب المنصور والناصر والمستنصر هو أبو عبد الله محمد بن عياش[7]. وهناك موظفون آخرون ذوو اختصاصات أخرى كقاضي الخلافة وقاضي الجماعة، وصاحب الأشغال المالية وغيرهما ممن سيذكرون في مجال تخصصهم.

وكان الخليفة يستعين **بهيأة الأشياخ** الموحدين المصامدة في استشارتها حول الأمور الهامة، ومن ذلك ما حدث بالنسبة لتنظيم ولاية العهد ـــ حسب التصريحات الرسمية ـــ[8] وفي مسألة إقرار الحرب أو السلم[9] والتحركات العسكرية الكبرى[10]. وقد استطاع الخلفاء الأوائل الموازنة بين نفوذ الأمراء السادة والأشياخ الموحدين، إلا أن نفوذ هؤلاء تزايد منذ عهد المستنصر وخاصة بعد موته حيث أصبحوا يولّون ويعزلون الخلفاء، مما سيدفع الخليفة المأمون إلى الانتقام منهم بالتقتيل وإلغاء سندهم الروحي المتمثل في «الرسوم» المهدوية[11].

ب ـــ الإدارة المحلية : كانت الإدارة في عواصم الولايات تشبه إلى حد كبير في عناصرها الإدارة المركزية، إذ كان على رأسها الوالي وهو غالبا أحد السادة من بني عبد المومن، ومساعدوه هم «الطلبة» والحفاظ والقضاة والأمناء ـــ حسب رسالة من عبد المومن إلى أهل سبتة[12]، ـــ وعلى الخصوص **الحافظ والقاضي والعامل**[13]، ومن المساعدين الأقربين للوالي

---

(5) الرسائل 71، 72، 79، 90، 92، 93، 100، 101، 102، 108.

(6) نفح الطيب 217/1.

(7) انظر تراجم هؤلاء الكتاب ضمن مقدمة الجزء الأول، ومن أشهر كتاب الفترة الأخيرة من العهد الموحدي أبو زكرياء يحيى بن يخلفتن الفازازي وأبو الحسن الرعيني وغيرهما.

(8) انظر الرسالتين 13 و14 (م ر م) والرسالتين 40 و41 (م ج).

(9) مثلا في توقيع الهدنة بين الخليفة يوسف من جهة وكل من قشتالة والبرتغال حسب الرسالة 29 (م ج).

(10) العبر 518/6، والاستقصا 215/2 حول الاستشارة بشأن حركة الناصر إلى المهدية.

(11) انظر الرسالة 119 م ج.

(12) الرسالة 14 (م ر م)، ونجد في المراسي ناظر الديوان كما في الرسالتين 46 و50 م ج.

(13) التقديم رقم 2 (ص 2 بمخطوط يحيى).

كاتبه الخاص، وإذا كان الحفاظ ـــ مع الطلبة ـــ يمثلون في الأصل الهيأة الدعائية، فإنهم أصبحوا منذ عهد عبد المومن يمثلون هيأة إدارية وعسكرية أيضا، واعتبر الولاة أنفسهم من الطلبة[14]، وكان من مساعدي الولاة في الجهات نواب إداريون وعسكريون من هيأة الحفاظ (صغار الطلبة).

فالحفاظ[15] هم في المدن الصغرى عادة، ويكون دورهم في حالات السلم ـــ غالبا ـــ هو دور صاحب الشرطة[16]، فمن مهامه «رفع المستحدثات ومحق الرسوم التي لا يبيحها الشرع من الأسواق والأبواب، وما لا تجيزه السنة والكتاب»[17]، ومن ذلك الحدّ على الزنا وشرب الخمر، وحسب قول المقري فإن كثيرا من الأمور الشرعية راجع إليه، وأن هذه عادة تقرَّر عليها رضى القاضي، إذ كانت خطة القاضي أوقر وأنقى[18]، هذا إن كان يقصد الفترة الموحدية وليست التي بعدها. ومن بين الحفاظ أبو يحيى زكرياء بن سنان أحد أبناء أهل خمسين الذين تولى على حصن طبيرة وما حولها لمواجهة «كل مفاتن وغادر منافق»[19]، وكان على قرطبة في أوائل عهد الخليفة يوسف الشيخ «الحافظ» أبو عبد الله محمد بن أبي إبراهيم من أبناء أهل الجماعة[20].

أما الطلبة فكانوا أعلى من مكانة الحفاظ، بل إن الوالي كان يعد أحد كبار الطلبة، وعادة ما يخاطب الطلبة في المراسلات بدون تصنيفهم إلى طلبة كبار وطلبة صغار أي حفاظ، وتكون صيغة الرسائل الموجهة من مركز الخلافة إلى الولايات مثل «إلى الطلبة والموحدين والأشياخ والكافة...» أي أنهم يمثلون أعلى هيأة في الولاية، **فالجانب الإداري** لهذه الهيأة يتجلى مثلا في الرسالتين 40 و41 (م ج) حول تقديم البيعة بولاية العهد لمحمد (الناصر) ودور «طلبة» قرطبة في جمع هذه البيعة من أهل المدينة والبادية، ويظهر مثل هذا الدور الإداري في عدة رسائل أخرى. ونجد في الرسائل الإشارات التي يفهم منها أن الطلبة هم أيضا **قادة الجيش** : فقد تحرك «طلبة أغرناطة» لحصار المرية سنة 552[21]، وتصدى «الطلبة والموحدون» بقرطبة

---

(14) لاحظ ذلك في عدد من الرسائل الموجهة إلى الولاة حيث تجد فيها : «إلى الطلبة والموحدين والأشياخ والكافة...» فلا يذكر اسم الوالي مميزا عن الطلبة.

(15) راجع ما ذكره عنهم دوزي في Suplément au Dictionnaires Arabes.... I/304-305.

(16) يجعل القلقشندي الحافظ هو صاحب الشرطة عند الحفصيين (صبح 139/5).

(17) التقديم العاشر (الملحق الأول بقسم الرسائل).

(18) نفح 217/1، غير أن صاحب هذا المنصب (الشرطة) لم يكن له «التحكم على أهل المراتب السلطانية» ابن خلدون في المقدمة ص 446 (أو المجلد الأول).

(19) المن 396.

(20) راجع الرسائل 14 (مع الهامش 4)، 15، 16، 19، 23، 26 (م ج).

(21) الرسالة 16 (م ر م).

لقوات كراندة...[22] ويسمى قادة جيش الأسطول «بطلبة الأسطول» أو «قواد الأسطول»...[23] وإذا كانت المدينة تعتمد على النشاط البحري كسبتة فقد تسند إلى قائد الأسطول مختلف أنواع الجبايات والمصاريف[24]، أما القواد على القبائل فقد تسند إليهم المهام الأمنية (الإدارية) والجبائية[25].

وأما العمال فكان اختصاصهم الأساسي فيما يبدو هو الميدان المالي، ولكن كثيرا ما كانت تسند إليهم المهام الأمنية بسبب ما أصبحت تتطلبه الجبايات من استعمال أو إظهار القوة في فترة ضعف الدولة، وهذا ما يتضح من معظم التقاديم الواردة في مخطوط (يحيى)[26].

وكان **الأشياخ** في الولايات يمثلون الجهاز الاستشاري لهيأة «الطلبة» وعلى رأسهم الوالي، وهذه سنة وضعها عبد المومن عند تعيين أبنائه «الطلبة» على الولايات، حيث وجه مع كل منهم شيخا قصد المشورة[27].

وكان بجانب الولاة **كتاب** خاصون اشتهر من بينهم أبو القاسم البلوي صاحب «العطاء الجزيل» وأبو العباس بن جعفر الكاتبان عن والي اشبيلية زمن الناصر وأوائل عهد المستنصر[28]، ولكل منهما رسائل في المجموعة الجديدة[29]. وسنرى الموظفين الكبار في الميدانين المالي والقضائي فيما بعد، ونتحدث الآن عن أكبر مسؤول في الولاية وهو الوالي.

كان **الوالي** يعتبر أكبر موظف في المدن الكبرى بالمغرب والأندلس، كما كان الخلفاء يستخلفون عنهم بمراكش أثناء غيابهم نائبا[30] سماه البعض «الوالي» وسماه آخرون «العامل»[31]. وكان الخليفة يعين الوالي وكبار مساعديه وهم على الخصوص القاضي والحافظ

---

(22) الرسالة 22 (م ج)، انظر أيضا الرسالتين 27 و28 (م ج) حيث تجد «الطلبة وأشياخ الموحدين» و«اخواننا وأشياخ الموحدين والحفاظ» وقد وجهوا على رأس فرقة عسكرية لتتبع النصارى المعتدين، انظر أيضا التقديم رقم 13.

(23) الرسالتان 46 و50 والتقديم رقم 25.

(24) التقديم رقم 2.

(25) انظر مثلا التقديمين 21 و22.

(26) لاحظ على الأخص التقاديم المنصوص فيها على المقدم بأنه «عامل»، ففيها يذكر الجانب الجبائي مع الجانب الأمني (التقاديم رقم 7 و14 و15 و16).

(27) الحلل الموشية 151، البيان (قسم الموحدين) ص 50، ط 1985.

(28) انظر ترجمتيهما في مقدمة الجزء الأول (رقم 24 و26).

(29) معظم رسائل المخطوط الخاص هي من إنشاء أبي العباس بن جعفر.

(30) هناك حالة واردة في مخطوط يحيى كان المقدم فيها على إحدى المدن «برسم النيابة» بدون أن يتضح مدلول هذا المصطلح في هذا التقديم رقم (20).

(31) مناقب الشيخ أبي العباس السبتي ص 6 (خ ح رقم 8287)، والبيان (328 و332) والرسالة 11 (م ر م).

والعامل وربما أيضا ناظر المجبى[32]، وناظر الديوان (في المرسى)[33].

وكان الولاة والعمال عادة ما يختارون من ذوي التجربة في العمل والنصح للدولة كما تنص على ذلك أغلبية التقاديم، وهم من السادة (في الغالب ولاة) أو من شيوخ الموحدين (كعمال في الغالب). كما أن بعضهم تتجدد مهامه في عين المكان المتولى به سابقا. وإذا كان المقدم شيخا على قبيلته يمكن أن يساعد هذا على توارث المشيخة في أسرته[34].

وبالنسبة **لسلطة الولاة والعمال** فإنها كانت محدودة نسبيا في عهد قوة الدولة حيث نجد مثلا عبد المومن ثم ابنه يوسف يمنعان الولاة من تنفيذ أحكام الاعدام قبل استشارتهما[35]، وقد يتعرض العمال — من عهد عبد المومن إلى عهد الناصر — للنكبات بعد محاسبتهم[35]، على عكس ما سيحدث أيام الضعف حيث نجد أحيانا تصريح الخليفة بحماية الوالي أو العامل من شنيع الكلام فيه[36]. وكان نظام الاتصال بين العاصمة والولايات يتم بواسطة البريد الذي صحح نظامه الخليفة عبد المومن[37]، وأصبحت فيه للرسائل الخليفية علامة تميزها[38]. غير أن سلطات الموظفين الكبار ستتسع في فترة ضعف الدولة أو بالنسبة للولايات البعيدة أحيانا حتى في عهد قوة الدولة : فبعض ولاة افريقية في عهد الخليفتين المنصور والناصر مثلا كانت لهم مراسلات خاصة بينهم وبين بعض الدويلات الإيطالية التي لها مع المنطقة علاقات تجارة وسلم مثل بيشة (بيزا)[39]، وربما كان لهؤلاء الولاة علامة أو «طابع» خاص حتى تعطى لمراسلاتهم صبغة رسمية[40]. كما أن الشيخ عبد الواحد الحفصي اشترط على الناصر

---

(32) انظر رسائل التقاديم، وبالنسبة لناظر الجباية الرسالة التقديمية رقم 42 وربما أيضا التقديم 46.

(33) هناك رسالتان مكتوبتان عن ناظر الديوان بتونس إلى بيشة، وليس هناك ما يؤكد أنه عين من طرف الخليفة إلا على سبيل الترجيح والمقارنة مع تعيين العمال المسؤولين عن الشؤون المالية في جهات أخرى.

(34) التقديمان 38 و41، انظر خصوصيات التقاديم في الفصل الرابع ص 156-169.

(35) الرسالتان 6 و13 (م ج)، بينما عندما حاول المستنصر أن يحاسب عماله دبّروا عملية قتله، (الذيل س 8 ص 179 ط 1984).

(36) التقديم رقم (36) وكذلك التقديم رقم (6).

(37) فالمراسلات مستمرة بين الخليفة والجهات، مثلا الرسالة 25 م ج وغيرها من الرسائل وخاصة رسائل المخطوط الخاص، وربما كان من عادة المرسل إليهم تقبيل رسالة الخليفة بل «لثم البسملة والعلامة» حسب إشارة الرسالة 55 (م ج).

(38) الرسالة رقم 6 (م ج)، والعلامة هي (والحمد لله وحده).

(39) راجع رسائل حكومة تونس الموحدية إلى بيشة كما هي مبينة ضمن اللائحة الخاصة برسائل الفصل الثاني ص 59-60.

(40) الرسالة 36 (والهامش عليها 14) والرسالة 52 (والهامش 9) والرسالة 53 (والهامش 18) وتلميح في الرسالة 50 (بالإشارة إلى «رسمية» رسالة لا تحمل طابعا).

التفويض له ليقيل الولاية على إفريقية، فأصبح من حقه اختيار الكاتب والوزير والقاضي والعساكر[41]. وعندما ترك الخليفة العادل الأندلس نحو المغرب فوض أمورها لأخيه إدريس (المامون)، فأصبح من حق هذا اختيار الولاة على الجهات الأندلسية[42]. وبمقتضى الرسالة الأولى فيما بقي من مخطوط (يحيى) أصبح من حق الوالي المعيّن اختيار الحافظ والقاضي والعامل[43]، وسيفوّض الخليفة المرتضى للعزفي النظر في جميع أمور سبتة[44]. وهكذا نجد في عدد من تقاديم مخطوط يحيى ولاة أو عمالا مفوضا إليهم ليس في الولايات البعيدة فقط بل داخل المغرب الأقصى أيضا[45]، بحيث كلما تزايدت مشاكل الدولة تزايد نفوذ الولاة مما يشجعهم على الاستقلال بجهاتهم. ومما يلاحظ في العهد الموحدي الأخير أن العلاقات بين السلطة المركزية ومدينة سبتة تميزت بنوع من مراعاة دورها العلمي والاستراتيجي وخاصة بعدما عادت إلى الطاعة للموحدين على يد العزفي : ففي رسالة الخليفة المرتضى بقبول تعيينه واليا على المدينة احترس من الإشارة إلى عصمة المهدي على عكس ما نلاحظه في بقية الرسائل الموحدية[46].

وبالنسبة للمهام المنوطة بالولاة والعمال بصفتهم أعلى المسؤولين في الولايات يمكن تلخيصها حسب تقاديم يحيى على ثلاث مستويات كما يلي :

- ضبط الأمن في المنطقة بواسطة العساكر التي توجد مع الوالي أو العامل (أو القائد أو شيخ القبيلة) بمقر عمله أو تصحبه خلال تحركاته التأديبية أو في قيادة الأسطول وأشغال البحر.
- مراقبة الأشغال المالية خاصة بواسطة المساعدين المختصين مثل ناظر المجبى وغيره[47]، كما يراقبون مجالات صرف المداخيل المالية، فالمقدّم مثلا على إحدى المراسي ولعلها سبتة كان له الإشراف على أمور ديوان المرسى والسكة والمواريث والزكاة بحيث أن «كل ما يرتفع من الديوان وما أضيف إليه يتصرَّف في مصالح الأسطول وأرزاق غزاته وعدده[48]»، بحيث يتضح أن الدولة هي التي كانت تشرف على المداخيل بما فيها الشرعية من زكوات ومواريث.

---

(41) الزركشي 18 (ط. تونس)، البيان 272.

(42) التقديم رقم (4).

(43) التقديم رقم (1).

(44) التقديم رقم 6.

(45) انظر خصوصيات التقاديم في الفصل الرابع ص 156-169.

(46) التقديم رقم (6).

(47) التقاديم : 7، 17، 21، 22، 25، 28، 29، 42، 43، 46، 48.

(48) التقديم رقم (2).

ـ التوصية إلى المقدمين بمراعاة الارتباط بالقرآن والسنة والرفق والعدل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتنص بعض التقاديم على ضرورة رفع المحدثات وطمس آثار المنكرات ومحق الرسوم غير الشرعية من الأبواب والأسواق[49]، وتحدد رسالة عبد المومن (6 م ج) ضرورة تنظيم ومراقبة بيع الإماء تجنبا للمحرمات، وتنبّه رسائل أخرى إلى مراقبة شراب الرُّب أو منعه[50].

وكانت بلاد المغرب والأندلس تنقسم إلى ولايات يتولى أمرها بالخصوص السادة من بني عبد المومن، ويمكن الاقتصار على ذكر الولايات والولاة الذين أشارت إليهم رسائل المجموعة الجديدة :

* سجلماسة : السيد أبو الربيع سليمان بن عبد الله بن عبد المومن في عهد المنصور وربما أيضا أوائل عهد الناصر (الرسالة 45).
* سبتـــة : أبو القاسم العزفي في عهد المرتضى (التقديم رقم 6).
* تـونـس : السيد أبو زيد بن عمر بن عبد المومن في عهد الخليفة المنصور (الرسالة 36)، ثم في عهد الناصر : السيد أبو زيد عبد الرحمان بن الخليفة عبد المومن (الرسائل 46، 47، 48، 50، 52، 53) ثم الشيخ عبد الواحد الحفصي (الرسائل 59 و61 و62).
* اشبيليـــة : السيد يوسف بن عبد المومن (الرسالة 9) في عهد أبيه. وفي عهد المستنصر : السيد أبو إسحاق إبراهيم بن الخليفة يوسف (الرسائل 73، 74، 75، 77، 78، 79، 80، 82، 88، 90، 94، 97، 98) ثم في عهد العادل : السيد أبو العلى إدريس (المامون) حسب الرسالة 110.
* قـرطبـــة : في عهد الخليفة يوسف : أخوه السيد أبو سعيد (الرسالة 13) وأخوه السيد أبو إسحاق إبراهيم (الرسالة 26). وفي عهد العادل : أبو العلى إدريس (المامون) حيث جمعت له ولايتها مع اشبيلية (التقديم رقم 4 والهامش عليه رقم 1).
* جـيـــان : في عهد الناصر : السيد عبد الرحمان بن الخليفة عبد المومن (الرسالة 63).
* مـرسـيـة : في عهد الخليفتين يوسف ثم المنصور : السيد محمد بن الخليفة يوسف (الرسالة 34) ثم أخوه السيد عبد الرحمان (الرسالة 37).
* بلنسيـــة : فيما بين أواخر عهد المستنصر وأوائل عهد المامون : السيد أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن عمر بن عبد المومن (الرسائل 107، 108، 115، 116).

---

(49) التقاديم : 6، 8، 9، 10، 11، 12، 16، 28، 46.

(50) الرسالة 28 (م ر م) والرسالة 6 (م ج).

* غرناطـــة : أيام الخليفة يوسف الشيخ أبو عبد الله بن أبي إبراهيم (الرسائل 14، 15، 16، 19، 20، 22، 23، 25).

ومن الولايات الأخرى غير المنصوص عليها في الرسائل : فاس، سوس، تامسنا، سلا، بجاية، تلمسان، مالقة، ميورقة، وأحيانا شلب مع غرب الأندلس، وأحيانا بطليوس مع ثغورها.

ونختم بملاحظة حول مصير عدد من الموظفين الكبار، وهي أنهم مهما بلغت درجتهم السياسية أو العلمية، فإنهم لم يكونوا بمنجاة من النكبة من قبل الخليفة، والمثال واضح بالنسبة لابن رشد في عهد خليفة عالم أيضا (وهو المنصور)، فهل تراجعه فيما بعد يبين عدم اقتناعه بالحجج المقدمة، وبالتالي يكون ما عمله سابقا هو مجرد ترضية لبعض علماء قرطبة المنافسين لابن رشد، وعندئذ ألا يصح أن نقول بأن سلطة الخلافة الموحدية كانت تعاني هي أيضا من بعض ضغوط الفقهاء الأندلسيين وليس فقط سلطة المرابطين من قبل ؟

2 ـــ الجانب العسكري :

كان للجانب العسكري دور مهم في سياسة الدولة الموحدية سواء لمواجهة المعارضة الداخلية وتطبيق سياستها الجبائية أو لمواجهة أعدائها الخارجيين الاسبانيين والأيوبيين (وحلفائهم). وكان المسؤول الأساسي عن أمن المنطقة هو الوالي، غير أن هناك من يختص ـــ تحت سلطته ـــ بالشؤون الحربية كالطلبة والحفاظ وقادة العساكر وقادة الأساطيل[51]. ويمكن الإشارة إلى الحياة العسكرية الموحدية اعتمادا على رسائل المجموعة الجديدة من خلال ثلاث جوانب أساسية :

أ ـــ الناحية التنظيمية :

ـــ كثيرا ما تتردد كلمة «**التمييز**» في الجيش الموحدي عند الإقدام على المعارك، بحيث يبدو أنها لا علاقة لها «بالميز» الذي قام به البشير من أصحاب المهدي، إذ «كان البشير يخرج المخالفين والمنافقين والخبثاء من الموحدين حتى امتاز الخبيث من الطيب... فمات يومئذ من الناس (قتلا) خمس قبائل...»[52]، وإنما تعني إحصاء المقاتلين وانتماءاتهم في الجيش النظامي أو القبلي لمعرفة ما يحتاجونه من المال ووسائل القتال وتوزيعها عليهم. ومن الإشارات التي توضح هذا «التمييز» ما ذكره صاحب البيان المغرب (ص 122) عن قائد حملة عسكرية عندما (وصل حصنا فميز العسكر عليه فوجدهم عددا وافرا»، وإشارة أخرى في نفس المصدر عن تمييز الموحدين والعرب والقبائل للغزو (ص 128) ثم إشارة ثالثة (ص 132) حول تمييز العساكر والعدد باشبيلية وتقسيم الأسلحة والخيل على شيوخ العرب والموحدين والاجناد[53]، ويمكن التأكد

---

(51) راجع بعض ما يتعلق بهؤلاء في الجانب الإداري من هذا الفصل.

(52) البيدق 39.

(53) قارن ما ذكره دوزي في Suplément ... II/637.

من نفس المدلول من خلال رسائل المجموعة الجديدة : فقد ورد في الرسالة رقم 12 (م ج) أن الموحدين وهم يستعدون لمواجهة ابن مردنيش «تميّزوا شعوبا وقبائل»، وفي الرسالة رقم (96) حول تمييز كومية والتحذير من عدم اختلاط العرب بهم أو غيرهم خلال عبورهم من الأندلس إلى المغرب، وكذلك الرسالة رقم (115) عن تمييز السيد أبي زيد صاحب بلنسية لمن معه استعدادا لفتح حصن بشج[54].

ـ وتتكرر في الرسائل الإشارة أو التلميح إلى اتباع **النظام القبلي** في المعارك مثل : «وحملت كل قبيلة على من يليها...»[55] والإشارة في الرسالة رقم 12 إلى اصطدام بني رياح أولا مع الروم في الصدمة الأولى ثم قبائل الموحدين ثم الساقة.

ـ والإشارة أيضا إلى أن قائد الحملة يستقر في **الساقة** سواء كان مجرد قائد أو أميرا (سيدا) أو خليفة، بحيث تكون الساقة المركز الأساسي للقوات النظامية، ففي الرسالة رقم 12 (م ج) «ثبّت الله الساقة التي فيها الأعلام كأنها الجبال الراسيات والأعلام»، وكان بها الموحدون من أهل تينملل وهنتاتة[56]، ويصرح الشيخ أبو حفص في رسالته حول الماسي بقوله «كنا نحن بخاصتنا في الساقة...»[57].

ـ ومن هنا يمكن أن نشير أيضا إلى تعدد **عناصر الجيش الموحدي**، فالمرتزقة من الروم (الاسبان) كانوا في جيش المرابطين كما تشير إلى ذلك الرسالة الثالثة عن فتح «السوس»، ويذكر صاحب البيان خروج الشيخ أبي حفص لقتال الماسي مع طائفة من **الروم** والرماة[58]، ولعل القسم الأساسي من الرماة أصبح فيما بعد مكوّنا من عنصر **الأغزاز**[59]. وترد أحيانا عبارة مثل : العساكر الموحدية والعربية والجندية (البيان 433)، ويبدو أن الجند النظامي لا يختص بلقب العسكر، ففي التقديم رقم 38 (ي 51-52) : «توجيه العسكر المبارك مع صحبة من تم اختيارهم من الموحدين»[60]، فتكون كلمة عسكر وعساكر عامة مثل : عساكر العرب من أهل افريقية (المن 432)، بحيث أنه عندما يشار إلى العساكر يكون عادة مدلولها

---

(54) انظر أيضا الرسائل 3 و28 و61 م ج وغيرها، وانظر في فهرس المصطلحات مواقع كلمة (التمييز).

(55) الرسالة رقم 5، وانظر أيضا الرسالتين 59 و61 مثلا.

(56) لاحظ أن الخليفة يوسف طعن خارج شنترين وهو في «ساقته» (ص 128-129).

(57) الرسالة رقم (5) م ج، قارن مع العبر 481/1-482، وانظر مواقع الكلمة (الساقة) في فهرس المصطلحات، وقارن مع دوزي في Suplément ... I/705-706.

(58) البيان ص 26، وكذلك في ص 33 حيث الإشارة إلى دخول السيد أبي سعيد عثمان بن عبد المومن، غرناطة سنة 550 بجمع من «الموحدين والجند المسترزقين».

(59) في شعر لابن مجبر بعد فتح قفصة سنة 583 :

وما أغنت قسي الغز عنها فليست تدفع القدر السهام

(البيان 164)، ويذكر صاحبه أن هؤلاء الغز الذين كانوا ببلاد الجريد صيرهم المنصور أجنادا له.

(60) ففي هذا التقديم تمييز «للعسكر المبارك» المبعوث مع منتخبين من «الموحدين».

هي **الجيوش القبلية** بما فيها المتطوعة، أما **الأجناد** فالظاهر أنهم الجند النظامي «الموحدي»[61] وكذلك **الجند الأندلسي** حيث ينص أحيانا على الأجناد الأندلسيين. وأهم العناصر «الموحدية» المجندة تنتمي إلى أهل تينملل وهرغة (12 م ج)، ويشار إلى مشاركة **العرب** من بني رياح في الأندلس لأول مرة سنة 560 (حسب نفس الرسالة)، ويتجدد ذكر العرب أيضا في الرسالتين 27 و28 م ج. وربما انضمت إليهم عناصر جديدة من افريقية في عهد الناصر حسب الرسالة رقم 67، وتشير رسائل أخرى إلى استمرار وجود العرب بالأندلس في عهد المستنصر أيضا كقوات عسكرية (الرسائل 94، 95، 96)[62]. وكان لكل جماعة من الجماعات العسكرية شيخهم، ويترأس جميع شيوخ القبيلة «**مزوار**» يمثل الوساطة بين مجموعة قبيلته والسلطة، وربما لا تكون سلطته أكثر من سلطة معنوية، وهذا ما تلمح إليه الرسائل رقم 55، 90، 92، 96. وعندما يصف القلقشندي النظام الحفصي ـــ وهو موروث عن النظام الموحدي في كثير من مظاهره ـــ يتحدث عن الاشياخ الموحدين وأنهم من أعيانهم ولا عدة لهم ولا جند... ولكل طائفة منهم رئيس يتولى النظر في أحوالهم يسمونه المزوار[63].

ـــ ويشار في الجانب العسكري أيضا إلى «**الغزاة**» وهم حسب المقتبس من كتاب الأنساب «المنضافون إلى القبائل»[64]، غير أن هذه الكلمة تتكرر كثيرا في الرسائل، فيفهم منها أحيانا القوات البحرية بصفتها في حالة غزو ضد النصارى، أو يفهم منها أنها تعني الرماة عموما[65]، خاصة وأن السلاح البحري أساسه الرماية[66].

ـــ ويرتبط النظام العسكري بنظام **رواتب** غير موحد على العموم وغير ثابت في قدر معين، وهذا النوع من المصاريف يجمع من مداخيل المراسي والجبايات فينفق منه على الأسطول وغزاته مثلا (التقديم رقم 2)، وأشكال الرواتب هي كالآتي :

البركات، وهي رواتب توزع طول السنة (تسمى بالجوامك في مصر حسب صاحب

---

(61) في عنوان بيعة قرطبة (الرسالة 40) وردت العبارة : «... الموحدين والعرب والأجناد» انظر أيضا دوزي في 1/224 ... Suplément.

(62) حول عناصر الجيش الموحدي راجع هوبكنز في «النظم الإسلامية» 179-184.

(63) صبح الأعشى 137/5، راجع هوبكنز في «النظم الإسلامية» (171-175)، والمختار العبادي في «نفاضة الجراب»، ج/ 2 هامش الصفحة 150، ودوزي في I/613-614 ... Suplément.

(64) المقتبس (57-58-59).

(65) حسب الحلل الموشية 109، ويعالج هوبكنز موضوع «الغزاة» في النظم الإسلامية (175-178).

(66) انظر الرسالة 10 (م ج) : «ترامو بالسهام أولا ثم...»، والتقديم (2)، وفي الرسالة 8 (م ر م) : «أمناء الموحدين وغزاتهم»، وورد في عنوان الدراية (ص 45) كون بلد بجاية بلد غزاة تقصدها مراكب ميورقة، كما تتحرك مراكبها غازية إلى جزر البحر.

المعجب) وتفرق ثلاث مرات في السنة في كل أربعة أشهر مرة، غير أن الغز كانوا يقبضونها شهريا[67] فهذا الاختلاف يكون حسب مكانة المقاتل : فارس أو راجل، شيخ للعرب أو شيخ للموحدين...[68] وفي خلال التحركات العسكرية توزع البركات في بدايتها، ثم توزع في مراحل الحركة «العلوف والمواساة والمرافق»[69] أو «التضييفات[70] والعلوفات» (البيان 236) أو «الأرزاق والضيافات والمواساة» (حسب المن 253).

والمواساة قد تكون مالية وغير محدودة المدة، فعبد المومن «كان يخرج للمواساة مرتين وثلاثا في الشهر الواحد بسبب حضور المال لديه»[71]، وورد في المن أن الخليفة يوسف كان «يصل الموحدين بالمواساة في كل شهر والبركات على ممر الدهر»[72]، وكان «فراندة» صاحب ترجاله حليف الموحدين ضد الحكام في قشتالة يأخذ المواساة مع جماعته في كل شهر[73]. أما القلقشندي في حديثه عن الحفصيين فيجعل المواساة عبارة عن غلة تفرق على الأشياخ والجند عند تحصيل الغلات في المخازن، ويقع توزيعها سنويا[74].

ويشار أحيانا إلى الإحسان والأعطيات والكرامات، وقد فسّر صاحب صبح الأعشى ـ حسب النظام الحفصي ـ أن **الإحسان**[75] هو مبلغ يفرق سنويا وليس له قدر مضبوط وإنما على قدر ما يراه السلطان وبحسب أقدار الناس، وفسّر **الأعطيات** بأنها مقادير متفاوتة بين الأجناد والقبائل والمزاوير، ويتميز فيها الجند الغرباء عن الموحدين[76]. وذكر صاحب البيان أن الخليفة يوسف أمر لجراندة (عندما اتصل به في اشبيلية لخدمته) بالإحسان والكرامات (ص 103).

---

(67) المعجب 289، أما في النظام الحفصي فإنها توزع أربع مرات في السنة في العيدين وربيع الأول ورجب (صبح 140/5).

(68) المن 292، انظر أيضا الإشارة إلى البركة في الرسالتين 19 و20 (م ج).

(69) المن 295 والبيان 113.

(70) عن التضييفات انظر الإشارة إليها في الرسالة 88 (م ج) والحلل السندسية في الأخبار التونسية 180/2.

(71) نظم الجمان 131.

(72) المن 233، والمواساة كانت أحيانا حتى لغير العسكريين فقد أمر الخليفة يوسف لابن صاحب الصلاة بظهير إسهام ومواساة معها أعانته على الزمان (المن 429).

(73) المن (369-370).

(74) صبح 141/5.

(75) انظر الإشارة إلى الاحسان في الرسالة 55 (م ج).

(76) صبح 141/5، فهل يقصد «البركات» أو الجوامك ؟

ب ـــ وسائل القتال ونظامه :

ـــ بالنسبة لأدوات القتال المستعملة في العصر الموحدي هي الأدوات المعروفة قبلهم من سيوف ونبال ورماح (الرسالتان 5 و10 م ج) وتروس (61 م ج)... وفي استعمال أدوات الحصار تشير بعض الرسائل إلى استعمال سهام الحريق والمنجنيقات[77] والأبراج التي كانت تبنى من «العود» إلى أن تصل أو تفوق في علوها مستوى الأسوار، ومن هذه الأبراج ما سمي بالبرج المبارك[78]، فالأبراج والدبابات كانت تشحن بالرماة والآلات ثم تحرك نحو الحصن، ويصف صاحب الروض المعطار استعمال بعض هذه الآلات في حصار قفصة على يد الخليفة يوسف قائلا : «نصب عليها آلة الحرب وعمل للعجل الحاملة للآلات قلوعا ضربتها الريح فمشّتها، فرعب أهل قفصة واستأمنوه..» (ص 479) واستعمال الدبابات والأبراج هو الذي سهل الوصول إلى الأسوار بعد ردم الخنادق المحيطة بها، ويحدّد الخليفة يوسف على لسان كاتبه الهدف من استعمال هذه الآلات في الاحتياط على الجيش من الضربات التي يتلقاها من سهام العدو المحاصر، إلى جانب إظهار القوة وإرهاب العدو.

أما وسائل النقل العسكري والقتال في البحر فهي تحمل عموما اسم القطائع[79]، ويذكر أحيانا نوعها **كالغربان** (جمع غراب)[80]، ونوع الشياطي (53 م ج) والطرائد...[81] ويسمى المسؤول عن القطعة البحرية بالمقدم أو الرايس[82]، وأيضا ـــ في الجمع ـــ طلبة الأسطول أو قادته[83]. وكان لدار الصناعة الحربية وما فيها من أسلحة ناظر يقوم بمسؤولياتها[84].

ـــ وتتحدث الرسائل عن بعض أساليب الموحدين أثناء القتال : فمن ذلك أن الجيش القبلي والمتطوعة تدفع للقتال في المقدمة، ويترك القلب أو الساقة ليتدخل في الأخير أحيانا لحسم المعركة. ومن الأساليب التي استعملها العرب سواء ضمن جيش الموحدين أو جيش ابن غانية

---

(77) انظر الرسالة 57 (م ج) والهامش عليها رقم 13.

(78) الرسالتان 30 و31 (م ج)، ويسمي ابن عذاري هذا البرج بـ«الديدبان» وهي المرقبة العليا التي وضعت للخليفة يوسف أثناء حصار قفصة (ص 168) وعمل مثلها للناصر في حصاره للمهدية (البيان ص 220).

(79) انظر الرسائل 10، 46، 50، 53 (م ج) والرسالة (5 م ر م).

(80) الرسائل 10، 36، 38 (م ج). انظر أيضا دوزي Dozy : Suplément... 2/204-205.

(81) الرسالة 38 (م ج) وانظر تعريفا بأنواع هذه القطع البحرية عند الأستاذ المنوني في «ورقات عن الحضارة المغربية» (ص 78–79) وأيضا عند الأستاذ أبو ضيف في الهوامش 73 و74 و75 على الصفحة 422 بكتاب النويري، وورد نوع آخر من السفن اسمه العشاري في الرسالة 31 (م ج).

(82) الرسالتان 10 و67.

(83) الرسالتان 46 و50 والتقديم (2).

(84) يذكر ابن الخطيب ناظرا بمراكش (الإحاطة 1/571–572).

استصحاب حريمهم معهم ليكون لهم في ذلك أنفة للدفاع عن الحريم[85]، وخلال تحركات الجيش في أرض العدو يقع جمع المؤونة من تلك الأراضي التي يمر بها الجيش أو يقع انتسافها وحرقها حتى لا يستفيد منها العدو[86]، وفي حالة الحصار تقطع الطريق على الامدادات القادمة إلى البلد المحاصر[87]. ويقع أحيانا قتل الأسرى، ولكن أحيانا أخرى يعطي للمحاصرين حق توجيه بعثة عنهم لاستشارة ملكهم حول التسليم أو الصمود[88]. وعند استسلام المدينة أو الحصن للموحدين يتم رفع رايتهم على هذا المركز[89] كما لا يقع التأمين لهذه المدينة أو الحصن ـــ ان حدث ذلك ـــ الا في الأنفس، ولا حديث عن تأمين الممتلكات[90]، كما يقع أيضا استباحة حريم العدو[91].

وفي الرسائل التي تتحدث عن الظروف الحربية ادعاءان أساسيان : الأول، أن انتصار الموحدين أمر مضمون ومؤكد مادام هؤلاء هم أهل الدين الحق والباقون هم على ضلال، الثاني : إخفاء خسائر الموحدين نهائيا[92].

جـ ـــ بعض الفتن وكيفية علاجها :

وجدت الدولة الموحدية منذ نشأتها حركة معارضة سواء في الشمال أو الجنوب، ومنها ما كانت داخل جبال المصامدة أو بجوارها كثورة ابن توندوت[93] الذي يوصف مع أصحابه من هسكورة بقطاع الطرق، ونُعت هو وغيره من الثوار بالانحراف عن الإسلام واتباع

(85) الرسالة 61 (م ج).

(86) الرسالتان 12 و67 (م ج).

(87) حول حصار المهدية أيام تمرد الركراكي بها انظر الرسالة 53 (م ج)، وحول حصار بعض المواقع البرية انظر الرسائل 30 و31 و67 و115 (م ج).

(88) وقعت هذه الحالة أثناء حصار الناصر لحصن شلبطرة (الرسالة 67 م ج)، وربما كان هذا ناتجا عن كون الموحدين لا يريدون تعميق الهوة بينهم وبين القشتاليين حتى يسهل الوصول إلى توقيع هدنة بين الطرفين أو على الأقل من أجل تجنب كارثة على المسلمين من طرف الاسبان أثناء وجود الجيش الموحدي مع الخليفة خارج الأندلس.

(89) مثلا كما في الرسالة 14 (م ج) بعد الانتصار على غمارة.

(90) انظر مثلا الرسالتين 30، 31 (م ج)، وأيضا رقم (30) م ر م بالنسبة لقابس، وهناك أمثلة أخرى مثل تونس سنة 554 وقفصة سنة 583 وذلك بمعاملة الممتلكات فيهما بالمناصفة، (الكامل 63/9، التجاني 138، العبر 397/6) وهذه حالات الفتح عنوة.

(91) الرسالة 55 (م ج) وتلميح في الرسالة 61 (م ج).

(92) الرسائل 10، 12، 14، 30، 31، 34، 42، 59، 61، 68 (م ج).

(93) انظر في الفصل الأول الصفحات من 36 إلى 41.

الباطل وبالخروج عن الجماعة[94]. وعندما يقتل زعماء الثورة من طرف الموحدين كانوا يصلبون أو تعلق رؤوسهم على الأسوار عند مداخل المدينة كمراكش وفاس.

وخلال مرحلة توسع الدولة كانت تلجأ إلى دعم هذا التوسع باقرار الحاميات منعا للاضطرابات، وهذا الأسلوب اتبع في افريقية[95]، كما اتبع في الأندلس حيث شمل هناك زيادة على الحاميات النظامية اقرار بعض القبائل وخاصة في جنوب وشرق الأندلس وهي قبائل عربية وبربرية[96].

وعندما أحدثت بعض القبائل العربية الشغب بمنطقة تامسنا كان تأديبها **بتهجيرها** أو إعادة توطينها بمنطقة تادلة[97]، ونفس العملية اتبعت مع قبائل عرب افريقية بتهجير مجموعات منها إلى المغرب والأندلس للتخفيف من عيثها بإقليم بعيد كإفريقية ولاشغالها في الأندلس بالحرب.

غير أن القبائل العسكرية — زيادة على ما أحدثته من شغب بالمغرب الأقصى أيام الناصر — فقد أحدثت شغبا آخر بالأندلس بعد هزيمة العقاب سواء من طرف العناصر العربية أو الكومية، وتصف مجموعة من الرسائل ما كان يعانيه السكان من هذه العناصر وتحدياتها للسلطة المحلية[98].

وإذا تناولنا الفترة الأخيرة منذ وفاة المستنصر إلى قرب نهاية الدولة الموحدية نجد الرسائل الخاصة بتقاديم الولاة والعمال لا تكاد تخلو من الحديث عن الاضطرابات وضرورة إقرار الأمن بالمنطقة بواسطة أجناد وعساكر تحت قيادة قادة مجربين[99]، ومع ذلك ظل التمزق يشمل المغرب الأقصى نفسه وهو ما بقي للموحدين بعد انفصال بقية الجهات.

3 — الجوانب الاقتصادية والاجتماعية :

إن الرسائل المدروسة لا تعطينا تفصيلا فيما يتعلق بالجوانب الاقتصادية والاجتماعية، وإن كانت تقدم إشارات خفيفة لها، وأهم ما فيها يخص الجانب التجاري بين إفريقية وبيشة (بيزة).

ففي **ميدان الفلاحة**، يشار أحيانا إلى حالات جفاف تصيب بعض الجهات ثم تتحسن الأحوال بنزول المطر، مثلما حدث في إفريقية سنتي 563 و564 ثم سنة 576[100]، وما

---

(94) انظر مثلا الرسائل 14، 15، 16 (م ج)، ويوصف بنو مردنيش قبل استسلامهم (بالمجسمين) (16 م ج) وانظر أيضا الرسالة 30 (م ج).

(95) الرسالة 25 (م ج) وخصوصياتها في الفصل الثاني (54-56).

(96) البيدق 89.

(97) الرسالة 55 (م ج) انظر خصوصياتها في الفصل الرابع (144-146).

(98) انظر الرسائل 90، 91، 92، 93، 94، 95، 96 والفصل الرابع (150-151) و(190-194).

(99) انظر خصوصيات تقاديم يحيى في الفصل الرابع (156-169).

(100) الرسالتان 25، 31 (م ج).

حدث أيضا بالأندلس سنتي 610 و611[101]. ومن المناطق التي يشتد فيها الجفاف فيصعب فيها تحرك الجيوش : المنطقة ما بين القيروان وقفصة وخاصة في الفترة التي يتحرك فيها جيش الخليفة يوسف لفتح قفصة سنة 576[102]. وتفيد الرسالة (14 م ج) في أهمية غنائم الجيش الموحدي في جبل الكواكب بعد القضاء على ثورة غمارة بزعامة سبع بن منخفاد، وهذه الغنائم منها البقر والغنم، والأعداد المذكورة في الرسالة يتضح منها أن تربية هذه الماشية مهمة بهذه المنطقة الجبلية. وتصف الرسالة رقم 30 (م ج) بعض أنواع منتجات واحة قفصة وهي «النخيل والاعناب والزيتون والرمان وفواكه ذات ألوان». ونستفيد من الرسالة رقم 55 (م ج) اهتمام قبائل العرب الرحل بتامسنا وتادلى بتربية الماشية غنما وإبلا وخيلا (الثاغية والراغية والصاهل والشاء)، فهذه الأصناف هي التي يهتم بها هؤلاء العرب والرحل عموما، كما أن بعض رسائل التشكي من عيث العناصر العسكرية بالأندلس بعد هزيمة العقاب تلمح إلى أهمية مادتين زراعيتين بسهل الوادي الكبير بالأندلس هما الحبوب «الزرع» والعنب «العصير»، أما الفاكهة فترد معممة بذكر «الثمرات» دون تمييز[103].

ولا تتحدث الرسائل عن نظام **الري** بالأندلس إلا تلميحا في إحداها باستعمال بعض الوسائل كالسانية (90 م ج)، وتحدثنا الرسالة رقم 30 (م ج) عن نوعين من اشكال السقي بقفصة : نوع بواسطة مياه العيون النابعة من داخل المدينة وخارجها فتسقي ما كان في مستوى مجاريها، ونوع ثاني يتمثل في الآبار التي يستخرج منها الماء لسقي ما كان مرتفعا عن مجاري العيون : «... تتفجر عيون مستبحرة تخرج من داخل البلدة فتسقي كل جنة بقسط مقسوم وشِرْب معلوم، وأنبط خلال سوادها مياه تسقي ما ارتفع عن مجاري العيون، وتعم بالرِّيِّ ما ارتفع من الظهور على البطون، وامتد ذلك أميالا يجري سوادها على هذا الوزن الموزون»[104].

وتتعرض الأرض ــ كما تتعرض الأملاك المنقولة ــ إلى عواقب الهزائم، فكثيرا ما تتحدث الرسائل عن تأمين السكان المحاصَرين في أنفسهم وأولادهم، ولا تذكر أموالهم ورباعهم، مما يرجح أنهم يعاملون معاملة المغلوبين، فتغنم أموالهم ويشاركون في أملاكهم كما حدث بقفصة سنة 583، وكما حدث قبل ذلك بمكناسة عند فتحها على يد الموحدين...[105].

---

(101) انظر الرسائل من 70 إلى 76 (م ج) مع المقدمة لها.

(102) الرسالتان 30 و31 (م ج).

(103) الرسائل من 90 إلى 96 مع المقدمة لها، والهامش 10 على الرسالة 90 (م ج).

(104) تتحدث المصادر الجغرافية بتفصيل عن نظام الري وتقسيم المياه حسب الساعات وأجزائها (الروض المعطار 477-479، الحموي في المعجم 4/382-383، الاستبصار 153-154، صبح 107/5).

(105) انظر الرسالتين 30 و31 عن حصار قفصة سنة 576، ويذكر التجاني (138) أن المنصور بعد فتحه قفصة سنة 583 «أمّن أهلها في أنفسهم وتبقى أملاكهم بأيديهم على حكم المساقاة» أي =

وفيما يتعلق **بالصنائع والحرف** لا تذكرها الرسائل مما يجعل من غير الممكن إدراجها في هذا الموضوع، على عكس **التجارة** التي تتوفر الإشارات إليها نسبيا : **ففي ما يتعلق بالتجارة** الداخلية لا تلقي الرسائل توضيحا عليها ماعدا ما أشارت إليه الرسالة السادسة من صدور الأمر عن عبد المومن بتنظيم بيع الإماء حفاظا على الأنساب من الاختلاط، وذلك بواسطة أمناء يختارهم نظار الأسواق، وما أشارت إليه من منع الجبايات الغير الشرعية، أو ما تذكره رسائل التقاديم أحيانا من «رسوم» الأسواق.

وفيما يتعلق **بالتجارة الخارجية** فإنها من جهة الجنوب كانت تمتد نحو بلاد السودان وبواسطة المغاربة أنفسهم، كما وجد بعض السودانيين بجنوب المغرب أيضا، ولا نجد غير رسالة وحيدة تشير لهذا التحرك التجاري بين شمال وجنوب الصحراء[106]. وأهم ما بأيدينا عن التجارة الخارجية هي مجموعة الرسائل التي نشرها في القرن الماضي ميشيل أماري ضمن مجموع رسائل أخرى متبادلة بين العالم الإسلامي وحكومة بيشة (بيزة)، ويتضح منها أن النشاط التجاري البحري كان بيد الإيطاليين خاصة في وسط البحر المتوسط ومنهم البيشانيون والجنويون. ومن السلع التي كان يحملها البيشانيون إلى إفريقية **القمح** الصقلي وخاصة في عهدي عبد المومن ويوسف عندما كانت العلاقات لاتزال متوترة بين الموحدين ومملكة صقلية النورمندية[107]. ومن جملة ما كانوا يحملونه من إفريقية **الجلود والأصواف**، وتذكر بعض الرسائل أحيانا قيمتها بالدنانير[108]. وكان تنظيم هذه التجارة يخضع من جهة لمبدإ الثقة بين تجار الطرفين مع دفع تسبيق عن السلعة أحيانا، (وتكتب العقود بين البائع والمشتري في حالة الدين)[109] ويخضع من جهة أخرى إلى تدخل الدولة بوضع نظام للتبادل أي بواسطة اتفاقيات ربما كانت في الأصل شفوية ثم تطورت لتصبح كتابية كما تلمح إلى ذلك الرسالة رقم 33[110]. وأهم اتفاق تجاري بين الموحدين والبيشانيين هو الذي تم في بداية عهد المنصور، فهو من حيث المدة يمتد على مدى 25 سنة، ومن حيث المضمون يؤكد على تحديد أربع مراسي يحق للبيشانيين المتاجرة فيها (تونس، بجاية، وهران، سبتة)، والتأكيد على تحديد

= مقاسمة الإنتاج، وعن مكناسة انظر الروض الهتون ص 10... راجع أيضا الهامش 90 على الصفحة 237.

(106) هي الرسالة (مقطع) رقم 45 (م ج).

(107) الإشارة إلى القمح واردة في الرسالتين 32 و46 (م ج).

(108) انظر الرسائل 14، 15، 17، 18، 19، 20 في مجموع أماري (Diplomi)، وتتحدث الرسالة رقم (1) في مجموعه عن استيراد البيشانيين للشب من إفريقية أيضا.

(109) انظر الرسالة 112 (م ج) وأيضا الرسائل 14، 15، 17، 18، 19، 20 من مجموع أماري.

(110) الرسالة 33 (م ج)، حيث يذكر البيشانيون بأن ما بينهم وبين الموحدين «عهد ملتزم مؤكد ورسم مكتوب مبرم محدد».

الضريبة بـ10 % على السلع البيشانية المبيعة في هذه المراسي[111]، وينص الاتفاق على عدم تعدي أحد الطرفين على الآخر، كما يثبت المسؤولية الشخصية في الجرائم[112]، وهذا ما يتضح من بعض الرسائل التي تتحدث عن اعتداء سفن بيشانية على أخرى إسلامية[113]، فالاتفاق يدل على تزايد أهمية التجارة المنظمة على حساب القرصنة. وبالنسبة لعمليات البيع كانت تتم في «حلقات الدّلالة» حيث يقوم المسلمون بهذه العملية في أسواق مراسيهم[114]، وكان يسهر على مراقبة وتسيير مهمة تجارة الأجانب بالمراسي ناظر الديوان ومساعدوه من الكتاب والعدول والتراجمة[115].

ولم يكن تدخل الدولة مقتصرا على تنظيم التجارة الخارجية وإنما أيضا فيما يتعلق بالتجارة الداخلية ومن ذلك مراقبة العملة[116]. وكانت تهتم **بالجبايات** بأنواعها : **فهناك** الزكاة والمواريث[117]، وكذلك مجبى دواوين المراسي[118]، أما «القبالات» التي أزالها الموحدون في بداية عهدهم[119] فلا يستبعد أنها تجددت فيما بعد وخاصة في أواخر عهد الدولة[120]، كما أن رسوم الأسواق (المكوس) التي حذفت أيضا في البداية تجددت في العهد الثاني من الدولة حيث تتكرر في التقاديم الإشارات إلى أن من مهام العمال والولاة «محو الرسوم الجائرة» من الأسواق[121]. ومما تركز عليه رسائل التقاديم أيضا أن من مهام المقدّمين جمع المجابي المخزنية

---

(111) انظر الرسالتين 32 و33 (م ج)، وهي نفس الضريبة في عهد بني خراسان حكام تونس (الرسالة الأولى عند اماري).

(112) شروط الاتفاقية في الرسالة 35 (م ج)، وانظر أيضا الرسائل 46، 47، 48، 50، 52، 53 (م ج).

(113) ان الاعتداء الحاصل في خليج تونس لم يؤثر على العلاقات بين الطرفين، بل هناك تكرار التأكيد على تأمين التجار البيشانيين، انظر أيضا الفصل الثاني ص (90–92).

(114) يبدو أن الدلال للبضاعة البيشانية يحتاج لموافقة رسمية ومكتوبة من حكومة بيشة (Diplomi 75-77).

(115) الرسالتان 50 و51 (م ج).

(116) العطاء الجزيل ص 139.

(117) التقديم رقم 2، الرسالة 28 (م ج).

(118) التقديم رقم (2).

(119) الرسالة رقم 6 (م ج)، ورقم 7 (م ر م)، وانظر الإدريسي في مادة (مراكش) ص 235–236، ط. القاهرة.

(120) يذكر صاحب المن أن الخليفة يوسف عندما بَنَى قنطرة بين اشبيلية والشّرَف جعل المرور عليها بدون قبالة (ص 464) فهل معنى هذا أن القبالات كانت موجودة في حالات أخرى آنذاك أم أنه فقط يقارن بين عهد الموحدين وسابقيهم ؟.

(121) ورد هذا في تقاديم للولاة والعمال، كما ورد أيضا في بعض تقاديم القضاة.

(بدون تفصيل أو توضيح)[122]، ومعها أحيانا «المجابي المختصية»[123]. ولا تذكر الرسائل الهدف من الجبايات غير أن بعضها تربط بينها وبين مصالح المسلمين فيجب التشدد في قبضها[124]. كما أن تقديرات هذه الجباية غير مذكورة وربما كانت تعتمد أحيانا على أساس شهادة من أعضاء الحرفة أو أمينها[125]، ويشار أحيانا إلى ضرورة ضبط المجابي «على القوانين المعهودة» دون توضيح هذه القوانين[126]، ويبدو أنها تعني بالخصوص قيمتها ووقت جبايتها[127]. وفي بعض الحالات كان الجباة لا يحسنون التصرف في عملهم ربما لسلوك خاص بهم أو لسبب تعنت البعض في أدائها، فهناك رسالة عن عبد المومن (رقم 6 م ج) يستنكر فيها على الجباة استعمال السياط لجمع المال ويلح على الاشراف المباشر والعملي من طرف الولاة والعمال دون ترك الأمر للوسطاء، وهناك أيضا رسالة يشتكي صاحبها من سوء تصرف أحد العمال باستعمال السياط أيضا في جمع الجباية[128]. غير أن هؤلاء المسؤولين عن الجبايات والنفقات لم يكونوا في مأمن من النكبات في حالات تضييع مخازن الدولة خاصة في عهد قوة السلطة المركزية[129].

ويبدو أن هناك تمييزا فيما يتعلق بأداء الجبايات :

ـــ فهناك رسالة تقديم على تينملل فيما يبدو تعتبر الرسالة الوحيدة ضمن رسائل التقاديم التي لم تتحدث عن الجبايات، مما يجعلنا نفهم أن هذه المدينة ـــ وربما أيضا جهات أخرى من بلاد المصامدة ـــ لم تكن تدفع الجبايات مادامت هي عصبية الدولة[130]، بل إن الولاة من السادة (وربما من الأشياخ) كان ينعم عليهم بامتيازات خاصة (أسهم وتضييفات)[131].

ـــ وهناك مجموعة تقاديم على قبائل عربية لا تتحدث أيضا عن الجبايات، مما يدل على أن

(122) كلمة «المخزن» الواردة في رسائل (م ج) لا يتضح أنها تعني مصطلح الحكومة، انظر مواقع الكلمة في فهرس المصطلحات.

(123) انظر الهامش 143 بعد.

(124) التقاديم رقم 9 و14 و43.

(125) العطاء الجزيل ص 137 (الشكاية الخامسة في الملحق الثاني في قسم الرسائل).

(126) الرسالتان التقديميتان 25 و26 (الملحق الأول).

(127) بالنسبة للجبايات الزراعية يقع أحيانا اقتسام المنتوج بين الدولة والفلاحين على أساس عدم خضوعهم صلحا (انظر الهامش 105 بهذه الفقرة ص 239.

(128) العطاء ص 135-136 (الشكاية الأولى) في الملحق الثاني.

(129) الأمثلة في المصادر التاريخية متنوعة، وهناك إشارة في رسالة شكاية بالعطاء ص 138.

(130) التقديم رقم 24، والمقصود هنا الضرائب من غير الزكوات والأعشار.

(131) الرسالتان 79، 88، انظر ما أورده دوزي عن التضييف 2/17.... Suplóments.

هذه القبائل غير مطلوبة بأدائها ربما على أساس أنها تؤدي الخدمة العسكرية فتتكفل هي نفسها أحيانا بجباية القبائل الأخرى لصالح الدولة[132].

ـــ أما بقية تقاديم الولاة والعمال، فلا تخلو من الإشارة إلى أن مهامهم هي ضبط الأمن وجمع الحقوق المخزنية أو المجابي، فهذه إذن حالة عامة بالنسبة لبقية القبائل غير المذكورة[133].

وتختلف أهمية المسؤولين عن الجباية والنفقات ربما بحسب مراتبهم الاجتماعية ضمن شيوخ الموحدين، فهناك من تذكر التقاديم انفرادهم بمهامهم والتفويض إليهم، بينما يُشرَّك آخرون في مهامهم مع غيرهم من المسؤولين الكبار[134]، وأكبر مسؤول مالي في الدولة هو الذي يعبر عنه ـــ فيما يبدو ـــ **بصاحب الأشغال**[135]، ويشترط فيه أن يكون «موحديا» أي من الأشياخ، حيث يشتغل بالنظر في استخراج الأموال وجمعها وضبطها وتعقب نظر العمال والولاة فيها[136]، وعادة ما يسمى ولاة الجباية **عمالا**[137]، وقد يكون العامل هو نفسه **«مشرفا»**[138] في بعض الحالات أو في بعض المدن[139]، وقد يكون العامل هو غير المشرف كما كان الأمر بمكناسة في عهد الخليفة يوسف بن عبد المومن حيث يذكر صاحب البيان سطوته (سنة 579) بكل من المشرف عليها وعاملها وصاحب المدينة بها[140]، فهل المشرف هو من صنف العمال المفوضين كما ورد ذلك في عدد من التقاديم ؟[141].

أما مرتبة العامل فهي أعلى من مرتبة **ناظر الجباية**، بل هناك تقاديم تنص صراحة على

---

(132) التقاديم 38، 39، 40، 41.

(133) راجع أيضا خصوصيات التقاديم في الفصل الرابع (156–164).

(134) راجع الفصل المذكور قبل.

(135) الزركشي 29 (ط. تونس).

(136) العبر 434/1.

(137) الزركشي 37 (ط. تونس)، رسائل ابن عميرة، ص 50 (خ ع/د – 4502).

(138) يعتبر عز الدين موسى أن المشرف هو المسؤول في المراسي عن المعاملات التجارية (النشاط الاقتصادي 278) ونفس الرأي عند برانشفيك La Berbérie Oriontale 2/67 وبالنسبة للموحدين لا يبدو أن المشرف يرتبط عمله فقط بالمراسي، راجع الهامشين 139، 141، والرسالة 33 (م ج).

(139) بوصف عامل مالقة ـــ أيام ولاية السيد أبي العلى (المامون) ـــ بأنه كان مشرفا عليها، (المغرب 429/1 و(694–695))، وفي آخر ترجمة بالتشوف (ع 277، ن فور) يذكر أن مقر عامل تلمسان هي دار الإشراف، وأن هذا العامل يتدخل في المعاملات بين الناس في مثل موضوع الكراء ويقيد ثمنه في زمام بدار الإشراف.

(140) البيان 131.

(141) انظر هوبكنز حول مسؤولي الجباية : (صاحب الاشغال والمشرف والعامل) في الصفحة 104 وما بعدها.

المشاركة أو الإشراف المباشر للعامل على ناظر الجباية[142]. وهناك من قدمهم الخليفة المعتضد للنظر في أمر المجبى فكلّفوا بنوعين منه : مجابي المخزن ومجابي المختص[143] أما في المرسى فيكون المسؤول المالي هو ناظر الديوان كما في الرسالتين رقم 46 و50 (م ج). ويبدو أن كل عمل من الأعمال الجبائية يقوم به العامل يكون من واجبه إخبار الوالي به إذ أنه تحت مراقبته إداريا على الأقل[144].

الإشارات الاجتماعية في الرسائل : من الإشارات الاجتماعية ما لها علاقة بالجوانب الاقتصادية ومنها ما هي متعددة العلاقات.

فمن الصنف الأول نجد بعض التقاديم التي تحث على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإزالة المظالم، ومحو الرسوم الجورية من الأسواق لما فيها من منافاة للشرع[145]، ويكون أحيانا المبرر للتشدد في ضبط المجابي هو ما تعود به من الخير على «المسلمين»[146].

والصنف الثاني متعدد الجوانب مثل :

— محاربة الخمور بواسطة أمناء للكشف عن المواضع المشبوهة، والتمييز بين الرّبّ الحلال والرُّب الحرام[147]، بل كان على رجال السلطة الكشف عن اللصوصية وباقي المنكرات من ملاهي ونساء مفسدات[148].

---

(142) التقاديم 17، 18، 19، 20.

(143) التقديمتان 42 و46، ويبدو أن جباية المختص كانت بالمدن وما حولها حسبما يفهم من المغرب ج 2/ ص 117، والإحاطة 3/213–215، والقرطاس (255)، وبرانشفيك 2/68–69 (ويحدد أنها ضريبة المباني وسوق العاصمة) La Berberie، انظر أيضا العبر 6/156، والزركشي 37 ط تونس (مختص الحضرة). ويرى عز الدين موسى ان المختص أو المستخلص «هو الأراضي الزراعية والعقارات التي تخص بيت المال» (النشاط، 139–140)، غير أن التقديمين 42 و46 يميزان بين مجابي المخزن والمختص، فهل هذه ضريبة المباني وليست مكوس الأسواق (كما جمع بينهما برانشفيك) ؟ فالتقديم رقم 46 نفسه يحمل الأمر بإزالة المحدثات والمنكرات، وتُعتبر المكوس من المحدثات. وهل يمكن أن تكون جبايات المختص هي الجبايات التي تؤخذ من مستغلي أراضي الدولة ؟

(144) قام أحد عمال الجباية بتادلى بجباية إحدى القبائل ثم أخبر العامل بانجاز مهمته، (التشوف 466 ت. فور).

(145) التقاديم أرقام : 8، 9، 10، 11، 12، 16، 28، 46، 68، 71، 74، 76.

(146) التقديمان رقما : 14 و43.

(147) الرسالة رقم 6 (م ج)، وسيمنع نهائيا في عهد المنصور (28 م ر م) وفي رسالة شكاية إلى قاض تذكر تعاطي عامل للخمر في يوم الجمعة (العطاء 138–139) وهذا في عهد عز الدولة، بحيث لم يتحفظ كبار المسؤولين من الوقوع في المحرمات.

(148) الرسالة 23 (م ر م).

ــ محاربة الفساد الإداري مثل تسلط «الرقاصين» (وهم حاملو البريد الرسمي) على رقاب الناس (6 م ج)، والإشارة إلى الارتشاء ربما في ولاية إفريقية على عهد الخليفة يوسف.

ــ ومع بداية ضعف الدولة اشتد عيث القبائل العسكرية وتسلطها على رقاب الناس كما حدث بالأندلس بعد هزيمة العقاب، وربما لم يكن من حق هؤلاء الدفاع عن أنفسهم فهم «يخافون أن تحملهم الغيرة على حرمهم وبناتهم ونفوسهم وأموالهم على أن يدافعوا عن أنفسهم بأيديهم فيؤول ذلك إلى ما يكرهون»[150].

ــ ويبدو أن أحكام القتل كانت كثيرة مما جعل عبد المومن ثم يوسف يمنعان الولاة من تنفيذ مثل هذا الحكم قبل استشارتهما[151]، ولعل هذا ما يبين أن الجرائم كانت هي أيضا متعددة خاصة في الولايات البعيدة عن مركز الدولة.

ــ هناك بعض العادات التي تلمح إليها الرسائل مثل عادة التفاؤل والتشاؤم، والإشارة إلى عادة استعمال التمائم وتزيّن النساء بالحناء في بطون الأكف وظهور السواعد[152].

ــ وبالنسبة لبعض الإشارات حول الاستقرار البشري نجد في الرسالة الثالثة (م ج) إشارة إلى وجود قبيلتي هنكيسة وجزولة حول بلاد السوس، وأن من قبائل السوس تاجدانت ورقالة ! وكذلك استقرار عرب بني جابر بتادلة ومعهم مجموعات سفيان والخلط التي يبدو أنها استوطنت أيضا تامسنا (55 م ج). وهناك إشارة أيضا إلى أن من قبائل غمارة قبيلتي بني نال وبني بال (14 م ج). وبالنسبة لافريقية تشير الرسالة رقم 61 (م ج) إلى أهمية منطقة القيروان بالنسبة لتجمعات الأعراب وخاصة في حالات الجفاف، إلى غير ذلك من الإشارات.

4 ــ الجانبان المذهبي والقضائي :

أ ــ الجانب المذهبي :

نظرا لاعتماد الدولة منذ تأسيسها على إطار مذهبي معين، فإننا نجد في أكثرية الرسائل[153] التصريح **بعصمة المهدي**[153] وتسمية خلفائه **بالخلفاء الراشدين،** كما نجد في هذه الرسائل العبارات التي ترتبط بهذا المذهب للتعبير عن الموحدين أو عن السلطة ومذهبها مثل : حزب التوحيد، حزب الموحدين، طائفة التوحيد، طائفة الحق، الدعوة التوحيدية، هذا

---

(149) الرسالة (1) في الملحق الثاني.

(150) الرسالة 67 (م ج).

(151) الرسالتان 6، 13 (م ج).

(152) الرسالتان 11 و55 (م ج).

(153) وبعض هذه الرسائل ناقصة الصدر الذي يقع فيه عادة تمجيد المهدي والسلطة الموحدية.

الأمر العزيز، هذا الأمر الكريم، الأمر العالي... وتسمي الرسائل الهيأة الإدارية والعسكرية العليا في الولايات بالطلبة، وتقدم ذكرهم على غيرهم من الأشياخ والموحدين والأعيان.

وتركز الرسائل أيضا على **الدعاية** باعتبارها سلاحا فعالا لتغطية السلبيات ورفع معنوية قوات الموحدين، فتدّعي أن انتصاراتهم في المعارك هي أمر طبيعي وأن القدر يتصرف لمصلحتهم لأنهم يدافعون عن الدين الحق[154]، ومن هنا أمكنهم أن ينعتوا أعداءهم من الثوار عليهم بالكفار والمجسّمين[155] والشياطين والمنافقين ويدَّعون أن من كذّب بالدعوة الموحدية «فقد ردّ ما نطق به الوحي وكذّب بما جاء به الرسل»[156] باعتبار أن المهدي بشّر به الرسول ﷺ، أو «أن من شك في هذا الأمر العزيز فقد شك في وحدانية الجليل»[157]. وكانت الدعاية تتم أيضا بواسطة حمل الناس على تعلم ما كتبه المهدي وإن كان هذا يختلف حسب مستوى أهل العلم ومستوى العامة. ومن الوسائل الدعائية في المراسلات أن المنطقة التي يقدم عليها وال أو عامل يخاطب أهلها على أن منطقتهم تنال اهتماما خاصا من السلطة الخليفية، وأن من واجب السلطة المحلية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر... وقد تجاوزت الدعاية الموحدية المجال الداخلي إلى جهات أخرى من العالم الإسلامي[158].

ويمكن التمييز في المذهب الموحدي بين الجانبين العقيدي والتشريعي، فإذا كان الأول تأويليا فإن الجانب الثاني يبدو أنه ظل سلفيا، فابن تومرت نفسه يرى ألاّ مجال للعقل في أمور الشرع[159]. وإلى أوائل عهد المنصور كان المذهب المالكي هو الشائع[160]، غير أنه لم يلبث أن تخلى عن هذا المذهب إلى المذهب الظاهري (الحزمي) فارتفع شأن الظاهريين[161]، ويبدو أن خلفاءه استمروا على هذا النهج حتى أننا نجد الخليفة المرتضى يقول في إحدى رسائله التقديمية «ما تعبّدنا ربنا إلا بالظاهر»[162]. وتتضح الجوانب التشريعية في الوصايا التي

---

(154) على سبيل المثال مطلع ما بقي من الرسالة 59 (م ج) وكذلك الرسالة 100، وغيرهما كثير.

(155) انظر الرسالة 12 (م ج) عن بني مردنيش، ومثل هذا التعبير مقتبس عن المهدي انظر الرسالة رقم 2 (م ج) والرسالة الأولى الواردة في «أخبار المهدي..» (بروفنصال).

(156) الرسالة رقم 25 (م ج).

(157) الرسالة رقم 100 (م ج).

(158) انظر الفقرة رقم (5) الآتية في هذا الفصل.

(159) أعز ما يطلب ص 157 (ط. الجزائر 1985).

(160) قاضي فاس مثلا المعين في ذي الحجة 579 قاضي مالكي (التكملة 2/ ص 921 ط. القاهرة) انظر أيضا رأي الأستاذ الجراري في المناهل ع 1 ص (84-121).

(161) الكامل 9/ سنة 595.

(162) التقديم رقم (6).

يوجهها الخلفاء إلى الولاة وخاصة القضاة عند تقديمهم على الجهات[163].

ب ـ الجانب القضائي :

في هذا الجانب لا تعطينا الرسائل إلا معلومات نادرة ومتكررة تتمثل بالخصوص في مهمات القاضي مما يجعلنا نستعين بمصادر أخرى في بعض الإيضاحات :

* **بالنسبة لأصناف القضاة** : فأعلى مراتب القضاء هو منصب قاضي الجماعة أو قاضي الخلافة أو قاضي القضاة، **فقاضي الخلافة** هو ما كان يسمى بالشرق بقاضي القضاة حسب النباهي[164]، غير أن ابن سعيد (حسب المقري) يعتبر أن قاضي القضاة في المشرق هو نفسه قاضي الجماعة بالمغرب[165] (وان كان هناك من سمي بقاضي القضاة في شرق الأندلس أيام حكم ابن مردنيش)[166]. ويرجح النباهي أن المراد بالجماعة جماعة القضاة[167]. وفي العادة أن قاضي الجماعة يكون في المدن الكبرى خاصة مراكش وقرطبة...[168] ونجد أيضا **«قاضي المحلة»** أثناء حركة الخليفة يوسف يسمى قاضي الجماعة، فخلال حركته إلى غمارة استقضى أبا بكر بن زهر في محلته فكان يدعى حينئذ قاضي الجماعة[169]. وكان القاضي أبو موسى بن عمران يحمل لقب **قاضي المحلة والجماعة** خلال حركة يوسف الأولى إلى الأندلس، وربما أيضا لقب قاضي الخلافة[170]. وبهذه الصفة الأخيرة يصفه البلوي في العطاء الجزيل عندما أورد رسالة من إنشائه هي الرسالة رقم (10 م ج)[171]. وأثناء هذه الحركة إلى الأندلس كان لمراكش قاضي جماعتها وهو حجاج ابن يوسف[172] مما يرجح أن **قاضي الخلافة** ليس

---

(163) انظر هذه التقاديم من رقم 49 إلى نهايتها، وكان المطلوب أحيانا من المقدّمين حتي من غير القضاة الارتباط بالقرآن والسنة (مثلا الرسالة رقم 13 م ج).

(164) المرقبة العليا، ص 21.

(165) نفح 217/1، وهو ما ذهب إليه القلقشندي عند المقارنة بين المغرب ومصر (صبح 140/5)، والملاحظ أن ابن سعيد من رجال القرن 7هـ والنباهي من أهل القرن 8هـ.

(166) التكملة ج 64/1 (ترجمة ابن الحلال) ط. القاهرة.

(167) المرقبة (نفس الصفحة).

(168) من قضاة الجماعة بمراكش نجد في التكملة ج 1، ط. القاهرة أصحاب التراجم : 234 و292 و745، وفي ج 2 الترجمتين 1722 و1917، وط. كديرا ج 2 الترجمتين 1812 و1908، وفي الذيل (غرباء) في ص 4 و46 و112 و118 و167 (خ ع). ومن قضاة الجماعة بقرطبة *ابن رشد الحفيد : التكملة 2/ ع 149، ط. القاهرة، والمغرب لابن سعيد 162/1.*

(169) الذيل س 6 (398-401).

(170) المن ص 441 و495 و504، و(512-513) و(523-524).

(171) ترجمته في مقدمة البحث.

(172) البيان 99، ويسميه أيضا صاحب التشوف بقاضي القضاة (186)، ت. فور.

هو بالضرورة قاضي الجماعة[173]، ولم يكن قاضي الجماعة هو نفسه بالضرورة قاضي المظالم وانما قد تسند إليه هذه المهمة أيضا[174] أو إلى قاضي الخلافة.

وكان تعيين قاضي الجماعة يتم مباشرة من طرف الخليفة كما نفهم من تقاديم مخطوط (يحيى)، بينما يذهب النباهي إلى أن تعيين قاضي الجماعة يتم مباشرة من طرف قاضي الحضرة (أي قاضي الخلافة)[175]، غير أن الخليفة قد يسمح لبعض الولاة بتقديم عمال وقضاة على جهات تابعة لولايتهم كما حدث ذلك في فترة ضعف السلطة المركزية وانشغال الخليفة بمشاكل قرب عاصمته[176].

* وقاضي الجماعة هو المسؤول عن تعيين ومراقبة بقية القضاة والمسددين والعدول، فبعض التقاديم تشير إلى أن من حق القاضي اختيار من ينوب عنه أو من يستكتبه[177] ومن حقه أيضا أن يختار المسددين في النواحي[178]، **فالمسدد** هو قاض في مدينة صغيرة، حيث لا يسمى باسم القاضي إلا من هو وال للحكم الشرعي في مدينة جليلة[179]، فالمسدد لا يصدر أحكامه إلا في القضايا الصغيرة[180].

ويستعين القضاة **بالعدول** أو الشهود، وهؤلاء «لهم في سائر الأمصار دكاكين ومصاطب يختصون بالجلوس عليها فيتعاهدهم أصحاب المعاملات للإشهاد وتقييده بالكتاب»[181]، ويتم تعيين ومراقبة العدول من طرف القاضي كما يتضح من رسائل تقاديم القضاة[182].

ومن المناصب القضائية التابعة للقاضي : قضاء المناكح والنساء، وقضاء المواريث، والنظر في الأحباس، وأيضا الحسبة. **فالمحتسب** أو صاحب السوق يراقب مع أعوانه ما يجري في الأسواق من غش ونقص في المكاييل والموازين[183]، فمهامه تختص بالمعايش بتفاصيلها :

---

(173) يذكر المراكشي أبا عمران موسى بن عمران كأحد قضاة الناصر (315) ثم يذكر في موضع آخر أنه «قاضي الجماعة في الوقت الحاضر» أي عهد المستنصر ص (246 من المعجب).

(174) التكملة 1/ ع 292 (ط. القاهرة).

(175) المرقبة ص 21.

(176) التقديم رقم (1) حيث يفوض الخليفة للمقدم حق تعيين العامل والقاضي والحافظ.

(177) التقاديم 53، 57، 58، 65.

(178) التقاديم 49، 51، 52، 54، 56، 71، 74.

(179) نفح 217/1 (نقلا عن ابن سعيد).

(180) مقال «سبع وثائق جديدة» بصحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد، م 2، عدد 1-2، (ص 75-77) سنة 1954.

(181) العبر (المقدمة) 397/1-399.

(182) التقاديم : 29، 50 إلى 62، 64، 65، 67، 68، 69، 71 إلى 76.

(183) المرقبة العليا ص 5.

المحرمات، التسعير، النظافة، الحفاظ على الآداب العامة...[184] ولذا قد تضاف إليه شرطة المدينة[185]. فالمحتسب يعتبر من أعوان القاضي وهو الذي يعيّنه ويطلع صاحب البلد على ذلك، وهو لسان القاضي... يضرب له أجره من بيت المال، وهو الذي يحميه ويمضي أحكامه... وهو الذي يكفي القاضي الامتهان مع عامة الناس[186]. هذا بالنسبة لأسواق المدن أما أسواق البادية فلا يبدو أن لها محتسبا وإنما يتصرف القائد حسب العرف مستعينا بأمناء الحرف وشيوخ الفلاحين[187].

* **بالنسبة للمهام المطلوبة من القاضي عامة** : يحدد النباهي عشرة مهام منوطة بالقاضي مباشرة أو بواسطة مساعديه، منها : قطع التشاجر بين المتنازعين واستيفاء الحق لطالبه، وتفقد الشهود والأمناء واختيارهم، والتسوية بين القوي والضعيف...[188] وتركز رسائل مخطوط (يحيى) لتعيين القضاة على المهام الآتية موزعة في التقاديم على شكل وصايا لهم[189] :

- اتباع كتاب الله وسنة الرسول وأقوال الأئمة و اجماع الأمة.
- حسن اختيار المسددين المستعملين في الجهات، والنواب، والشهود أو العدول.
- المساواة في الحق بين القوي والضعيف والمشروف والشريف.
- تفحص السجلات والعقود.
- عدم الاعتماد على الظن وعدم الاستعجال في الأحكام.
- إلزام الناس ـــ أحيانا ـــ بإقامة الصلوات الجماعية.
- الحفاظ على المصالح العامة كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[190]، وأحيانا الأمر بإزالة المحدثات، ومحق المنكرات، وطمس آثار ذلك كله حيث كان في الأسواق وسواها، أو رفع المحدثات والردع لمخترعيها، أو إزالة المحدثات والمظالم...[191].

وهكذا فإن هذه الرسائل على الرغم من أنها لا توضح أصناف القضاء ومهمة كل صنف، فإنها تعطينا ما كان مطلوبا عمله من القاضي، وان كنا غير مطمئنين إلى أن هذه الوصايا كانت تنفذ في الفترة الأخيرة من الدولة الموحدية، وربما ظلت كثير منها نظرية، فتكرار هذه

---

(184) مجلة المعهد المصري، المجلد 2، سنة 1973، ع/ 1-2 ص 120.

(185) مثل المترجمين في صلة الصلة ص 9 (ن بروفنصال)، والمرقبة العليا ص 129، والإحاطة 158/3.

(186) «ثلاث رسائل في الحسبة» ص 11-16 (ن بروفنصال).

(187) علال الفاسي في مجلة البينة ع/ 19621 ص 74 وما بعدها.

(188) المرقبة ص 5-6.

(189) انظر في الملحق الأول " تاديم من 49 إلى نهايتها.

(190) التقديم رقم (54).

(191) التقديم رقم 92، ومثل هذه ابو سية كانت تقدم أيضا لبعض الولاة والعمال، راجع خصوصيات التقاديم في الفصل الرابع ص 156 وما بعدها.

الوصايا قد يكون لأحد سببين أو لكليهما وهما ادّعاء الموحدين بالتمسك بالعدالة، أو الانحرافات الكثيرة التي لم يستطع القضاء معالجتها، فالفترات الأخيرة من الدول تسوء فيها الأحوال العامة وخاصة الضغط المادي وانعدام العدالة... فتكون هذه الأوضاع من المبررات لقيام كيان سياسي جديد.

5 ــ العلاقات الخارجية :

فيما يهم هذه العلاقات سبق الحديث عنها مفصلا ضمن الفصول الثاني والثالث والرابع، ويمكن إعطاء صورة عامة تقريبية عن هذه العلاقات.

أ ــ مع الأيوبيين والعباسيين :

منذ إعلان الموحدين نظام الخلافة وهم يعتبرون أنفسهم أحق بالاشراف على العالم الإسلامي فدخلوا في منافسة مع الخلافة العباسية المتداعية في الشرق ومعاداة السلطات التي تعلن التبعية لها كالسلطة الأيوبية في مصر، ويبدو أنه كانت بمصر شبكة دعائية لصالح الموحدين منذ مرور المهدي بها عائدا من الشرق[192]، ويؤكد ابن جبير وجود هذه الشبكة بإشارته إلى انتظار الناس في مصر لقدوم الموحدين إليها، ويشير لمثل هذا عن بلاد الحجاز كضرورة لتطهيرهما من المفاسد[193]. ونجد في عدد من الرسائل إشارات إلى نوايا الموحدين التوسعية ــ ولو نظريا ــ مثل الدعاء للخليفة الحاكم بأن يعم ملكه «ما زوي لنبينا مما بين المشرق والمغرب»[194]، وكانوا حتى في أيام ضعفهم لازالوا متشبثين بمبدأ شرعية سيادتهم على جميع المسلمين والادعاء بأن الله كلفهم بالقيام بحقه في جميع بلاد الإسلام[195]، وهذا يتفق مع مذهبهم الذي يعتبر من لم يعتنقه كافرا أو منافقا أو فاسقا...

وهكذا فإن وصول الموحدين في توسعهم إلى إفريقية يعتبر كافيا لقيام الخلافة العباسية أو على الأقل السلطة الأيوبية نيابة عنها بإثارة المشاكل أمامهم في إفريقية بتوجيه المماليك الغزّ إليها ومناصرة حركة بني غانية واصباغ الشرعية عليها[196]، ولن تهدأ هذه الأحوال إلا بضعف الطرفين الأيوبي والموحدي. ورغم هذه الظروف فإن الحركة التجارية لم تتوقف بين المغرب والمشرق كما يتضح ذلك من أوصاف الجغرافيين كصاحب الاستبصار وابن سعيد

---

(192) انظر المقتبس من كتاب الأنساب (28–30).

(193) الرحلة ص 53 و(69–70)، وينسب صاحب المعجب إلى المنصور قوله عن المناكر والبدع بمصر : «نحن إن شاء الله مطهّروها» (284).

(194) انظر الرسائل رقم : 4، 30، 35، 55، 78، 82 (م ج).

(195) الرسالة 42، والتقديم رقم (12).

(196) راجع الفصل الثاني حول الصراع المسلح بافريقية بين أنصار الأيوبين والعباسيين من جهة وبين الموحدين من جهة أخرى.

والحميري[197]، ولا تقتصر هذه الحركة على التنقل البري وإنما بواسطة البحر أيضا حيث يمتزج العمل التجاري غالبا مع أداء فريضة الحج[198].

ب ــ مع بلاد السودان :

من الصعب الحديث في هذا الموضوع استنادا إلى الرسائل فلم نجد حتى الآن بين أيدينا غير مقطع من رسالة وحيدة عن والي سجلماسة إلى ملك غانة يعتب عليه تعويقه لعمل التجار المغاربة ببلاده، ويذكر أن الموحدين لا يعاملون بالمثل التجار الغانيين بالمغرب[199]، وهنا نتساءل : هل كان عمل مملكة غانة يهدف إلى التقليل من نشاطات المغاربة لصالح رعاياها وبالتالي منع احتكار المغاربة لمعظم النشاط التجاري بين شمال وجنوب الصحراء، أم إلى السيطرة الغانية على بعض الطرق في اتجاه المغرب مثلما ستفعل مملكة كانم (حول بحيرة تشاد) في دفع نفوذها نحو منطقة فزّان للسيطرة على الطريق التجاري بين هذه المنطقة وبلاد كانم ؟[200].

جـ ــ مع الاسبان :

لا تتحدث الرسائل التي بين أيدينا عن العلاقات التجارية بين مملكة الموحدين والممالك الاسبانية وإنما عن العلاقات السياسية وخاصة الحربية[201]، ويمكن الرجوع إلى تفاصيل هذه العلاقات في الفصلين الثالث والرابع، بحيث تواجه الاسبان مع الموحدين بعدة وسائل :

ــ التساهل القشتالي الأركوني في توجيه المرتزقة لدعم ابن مردنيش ضد الموحدين.
ــ محاولات القشتاليين لاستمالة بعض الأمراء الموحدين للتمرد على سلطة الخلافة[202].
ــ الحملات التي كانت تقوم بها الجمعيات العسكرية والدينية، فتصل إلى جنوب الأندلس حتى في بعض حالات الهدنة الرسمية بين الطرفين الموحدي والاسباني[203].
ــ الحملات النظامية لجيوش ممالك أركون وقشتالة وليون والبرتغال بشكل متفرق في حالات نزاع هذه الممالك فيما بينها، وهو ما كان سائدا في الغالب مما يجعل الموحدين يردون عليها بالقوة العسكرية، وقد يتوصلون إلى عقد هدنة من موقع القوة كما حدث سنة

---

(197) اشاراتهم غير مباشرة حيث لا يذكرون توقف الحركة بين المشرق والمغرب.

(198) الرسالتان 46 و51 (م ج).

(199) الرسالة رقم 45 (م ج) وهوامشها.

(200) يشير إلى هذا ابن سعيد المغربي في «بسط الأرض» ص 61.

(201) هذه الإشارات موزعة في الرسائل التي أرقامها 27، 28، 29، 34، 37، 42، 63، 67، 68، 77 إلى 85، 107، 5 ،1 126.

(202) انظر الرسالة رقم 37 (م ج) والصفحة 131 من الفصل الثالث.

(203) وهو ما كان يقوم به مثلا «[illegible]» لصالح ملك البرتغال، وما قام به فرسان آبلة. الرسالتان 27 و28 (م ج).

569[204]، أو يضربون أكبر قوة وهي قشتالة كما حدث في الأرك[205]، وهي المعركة التي أعادت التوازن العسكري بالمنطقة الأندلسية الاسبانية بعد ضغوط متعددة على سهول الوادي الكبير. وعندما تكتلت القوات الاسبانية بدعم الكنيسة البابوية ألحقت هزيمة فادحة بالموحدين في «العقاب»[206] ساهمت في دفع دولتهم نحو الانقسام والانهيار مما جعل القشتاليين يتجرأون على بلاد المغرب ويصلون إلى سلا ويحتلونها لمدة نصف شهر[207].

وربما أمكن القول أن الموحدين أمام ازدواجية مشاكلهم بافريقية والأندلس كانوا يسعون إلى الهدنة كخط رسمي في سياستهم مع الاسبان وإن كانوا يدّعون أن الطرف الآخر هو الذي يلح عليها، وربما كان هذا مبررا لاطلاق المنصور أسرى الأرك بعد الانتصار في المعركة والاستيلاء على هذا الحصن، وأيضا ما حدث بعد فتح الناصر لحصن شلبطرة...[208] أي تجنب تعميق الهوة بين الطرفين وبالتالي سهولة التوصل إلى ربط الهدنة. وعندما قام أحد المسؤولين بإثارة المشاكل على الثغور الشمالية الغربية بنواحي بطليوس في فترة الهدنة أيام المستنصر كان جزاؤه القتل بأمر من الخليفة[209].

ويبدو أن منطقة الوادي الكبير لم يؤخر سقوطها بيد الاسبان القشتاليين بالخصوص غير الفتنة الداخلية بعد موت الفونسو الثامن المنتصر في العقاب، والنزاعات بين الممالك الاسبانية من جديد، وريثما تخف هذه المشاكل وتتحد قشتالة وليون ستبدأ الزحف على هذه المنطقة، وتزحف أركون والبرتغال على الجهات القريبة منهما والمخطط للاستيلاء عليها من قبل.

د ـــ مع الايطاليين :

بالنسبة للعلاقة معهم يمكن الرجوع إلى الفصل الثاني من البحث[210]، غير أن هناك بعض الملاحظات العامة على هذه العلاقات :

- ان موقع افريقية وسط البحر المتوسط وقربها من الدويلات الايطالية التجارية في هذه الفترة فرض على الموحدين أن ينظّموا علاقاتهم مع هذه الكيانات وخاصة جنوة وبيزة (رغم وجود بعض العلاقات معها قبل الموحدين).
- كما أن وجود المرتزقة النصارى بالمغرب واستقرار التجار النصارى بفنادقهم في أهم المدن

---

(204) انظر الرسالة 29 (م ج) والفصل الثالث ص 119 وما بعدها.

(205) انظر أيضا الرسالة 42 (م ج) والفصل الثالث ص 130 وما بعدها.

(206) الرسالة 68 (م ج)، انظر عواقبها في الفصل الرابع ص 181 وما بعدها.

(207) انظر الرسالة 126 (م ج).

(208) انظر الرسالة رقم 67 (م ج) والهوامش عليها.

(209) الرسالتان 83 و84 (م ج).

(210) حول البحرية والعلاقات المغربية الايطالية (84-88).

الساحلية المغربية فرض وجود علاقات أو على الأقل اتصالات بين البابوية من جهة والمغرب من جهة أخرى، كما هو الشأن مثلا في عهد الخليفة المرتضى[211].

ــ ان المصلحة التجارية للكيانات السياسية الايطالية كانت تجعلها فيما يبدو لا تهتم بالعلاقات الخاصة العدائية بين الأطراف التي تتاجر معها، والمثال على ذلك : العلاقات التجارية بين الايطاليين وكل من بني غانية بالبليار أولا ثم بافريقية ثانيا[212]، والثائر بالمهدية ابن عبد الكريم[213] في الوقت الذي تتاجر فيه مع الموحدين.

ــ كما أن الأهمية التجارية لافريقية بالنسبة للموحدين فرضت تنظيم علاقات تطورت إلى مستوى أكبر تنظيما ولآماد طويلة أحيانا، فنجد تحديد الضرائب الجمركية، وتحديد مراسي التبادل، وبكل منها ديوان خاص لضبط التجارة الخارجية، كما أن الأحداث التي تقع بين رعايا الطرفين لم تعد تؤثر في فعالية الاتفاقات، ذلك أن المسؤولية في الحوادث أصبحت تعتبر شخصية[214]. وستستمر العلاقات بشكل أكثر تنظيما بين الحفصيين والإيطاليين بالنسبة لإفريقية، وستظل سبتة بالنسبة للمغرب الأقصى المركز الأهم في المبادلات البحرية...

وعادة ما يؤدي تطور المبادلات المنظمة إلى تراجع القرصنة البحرية مما يزيد في الرواج التجاري، وان كان المستفيد الأول منه هو الطرف الأوربي الذي أخذ يمتلك مؤسسات تستثمر الفوائد التجارية في المجالات الأخرى مدنيا وعسكريا مما سيساهم في ظهور عدم التوازن بين القوى المغربية والأوربية.

---

(211) الرسالة 126 (م ج) والتمهيد لها. والتقديم رقم (6) يشير إلى وجود النصارى بسبتة.

(212) الرسالتان رقم 4 و24 في مجموعة أماري (Diplomi).

(213) الرسالة رقم 53 (م ج).

(214) انظر اتفاقية المنصور مع بيشة (الرسالة رقم 35 م ج)، وعددا من رسائل أماري التي تحث تجارها على التردد إلى إفريقية رغم حادثة الاعتداء على بعض السفن الإسلامية بمياه تونس.

خاتمة عامة :

إن المتتبع لفصول البحث قد يشعر بتغطية رسائل «المجموعة الجديدة» لفترة الحكم الموحدي وخاصة النصف الثاني منه ــ ولو بشكل غير كثيف ــ بحيث تتكامل مع مجموعة رسائل بروفنصال التي تغطي النصف الأول من العهد الموحدي. غير أن عدم كثافة الرسائل حول موضوع معين في الغالب ــ باستثناء رسائل المخطوط الخاص ورسائل التقاديم ــ وميلها إلى التعميم لم يساعدا على الخروج بنتائج حاسمة. وهي أحيانا تصحح أو تدعم ما هو معروف في المصادر، وهذا مهم خاصة وأنها تتخذ صبغة رسمية ولو أنها ليست نسخا أصلية، وأحيانا أخرى تدعو ضرورة توضيحها إلى الاستعانة بغيرها من المصادر بما فيها رسائل بروفنصال.

ولما كانت بعض رسائل المجموعة الجديدة تتوفر على خصوصيات خاصة بها من حيث مشكل تأريخها أو بعض مضامينها أو مدى أهميتها... فقد تطلّب هذا إحداث موضوع أول في كل فصل من الفصول الأربعة الأولى لابراز هذه الخصوصيات، وهذا لا يعني أن جميع الرسائل وضعت لها هذه الخصوصيات، ثم موضوع ثان يعني دراسة تاريخية غير مفصلة أو شاملة لتاريخ الموحدين، ولكنها تعتمد على تحليل مضامين وإشارات رسائل هذه المجموعة دون ترك المسافات بين رسالة وأخرى فارغة، بل ملئت ببعض المعلومات المحدودة التي تجعل خيط الأحداث متصلا من بداية الدولة الموحدية إلى نهايتها، ولذا قد يشعر القارىء بالتزام التسلسل الزمني دون إثارة بعض القضايا التي لم تشر إليها الرسائل أو التي تحتاج إلى بحوث أخرى قد تبعدنا عن إطار البحث الحالي الذي يهتم بوضع مجموعة جديدة من الرسائل بيد الباحثين مع إعطاء توضيحات أولية عنها، بحيث يمكن دراستها من جديد وبشكل معمّق وفي إطار تخصصات مختلفة وبحوث متكاملة قد تساعد فقرات الفصل الخامس على إثارتها.

ومع هذا فقد تخللت البحث مجموعة من الملاحظات والاستنتاجات أو التساؤلات لابأس من التذكير ببعضها في هذه الخاتمة، ويمكن تصنيفها إلى صنفين : صنف متعلق بالأحداث، وآخر بالجانب الحضاري :

1 ــ فبالنسبة للصنف الأول، فإن من الإشكالات المطروحة **دوافع ثورة قبائل الجنوب** خاصة في بداية عهد الموحدين ومن ضمنها هسكورة، هل هي دوافع خاصة بهذه القبائل (عصبيا، سياسيا، اقتصاديا...) أم أنها ترجع إلى الطرف الموحدي (بسبب المذهب، العنف، الطبقية...) أم تعود إلى الجانبين معا، وهل هناك عامل معين يمكن أن يحتل مكان الصدارة على مختلف العوامل ؟[1] أي أن الدولة الموحدية واجهت مصاعب منذ بدايتها ــ وحتى أثناء

(1) انظر الفصل الأول خاصة الصفحة 33 وما بعدها.

فترة الدعوة ــ كان مصدرها أحيانا الكتلة المصمودية نفسها، خاصة وأن الخلافة استقرت في يد عبد المومن وسلالته من غير عصبية المصامدة.

ــ وكانت الفترات الانتقالية بين عهد خليفة وآخر تشكل مناسبة لقيام ثورات من طرف بعض القبائل كثورة غمارة وحلفائها في بداية عهد الخليفة يوسف، وثورات الجنوب الغربي للمغرب الأقصى في عهد الناصر وبداية عهد المستنصر...[2] أو قيام معارضة من طرف عائلة الخليفة أو بعض الأشياخ الموحدين كما حدث في بداية حكم الخليفة يوسف أيضا وفي بداية عهد المنصور، وبعد وفاة المستنصر... مما قد يبين عدم تنظيم وراثة الخلافة على أساس سليم[3].

ــ وقد استعمل الموحدون سلاحا آخر ــ إلى جانب السيف ــ وهو **الدعاية** سواء فيما يتعلق بتثبيت مبادىء المهدي في الأذهان أو باظهار الحرص على تطبيق أصول الشريعة (القرآن والسنة) ومنها سياسة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كلما دعت الضرورة إلى ذلك، مثلا عند تولّي خليفة جديد السلطة، أو المرور بأزمة سياسية أو اقتصادية اجتماعية (مجاعات...)[4].

ــ ونظرا لغرابة الأسرة المومنية الحاكمة عن الكتلة المصمودية وشعورها بعدم ارتياح بعض مجموعاتها لهذا الوضع فقد استقدمت جماعات من **كومية** عصبية عبد المومن لتعزيز نفوذ أسرته، كما استقدمت جماعات من **القبائل العربية** من افريقية بهدف خلق توازن عسكري في المغرب الأقصى بين هذه المجموعات والقبائل البربرية بما فيها المصمودية، زيادة على استخدامها في القتال بالأندلس وتخفيف ضغطها على إقليم بعيد عن العاصمة كافريقية، بحيث لم تعد التشكيلة العسكرية الموحدية مصمودية ــ كما كانت في الأصل ــ سواء بالمغرب أو الأندلس، وستحافظ هذه التشكيلة على الانضباط إلى حدّ ما مادامت القيادة سليمة ومهيبة، غير أن مشاكل إقرار العرب بالمغرب الأقصى ستظهر منذ عهد الناصر وبالأندلس ــ ومعهم كومية ــ بعد هزيمة العقاب[5].

ــ *ان امتداد نفوذ الموحدين إلى المغرب الأوسط وافريقية جعلهم في مواجهة مع العصبية* الصنهاجية بالمنطقة وبعض الزعامات المحلية وعلى الخصوص أصحاب السيادة الحقيقية سابقا في بوادي المنطقة وهم قبائل العرب، فلم يستقروا على الطاعة للموحدين وإنما كان بعضهم يظهرها عند تحرك الحملة الموحدية نحوهم، وقد يتراجعون عنها بعودة هذه الحملة إلى المغرب،

(2) انظر في الفصل الرابع ص (173-175).

(3) راجع في الفصل الأول ص (44-45).

(4) انظر في الفصل الأول ص (41-43).

(5) انظر الرسالة رقم 55 م ج، وخصوصياتها ص (144-146)، والدراسة التاريخية في الفصل الرابع ص (170-173) و(190-194).

فكانوا عنصرا مدعّما للزعامات السياسية مثل بني الرند بقفصة والغز ـــ خاصة فيما بين الجريد وطرابلس ـــ ثم بني غانية. وعندما اضطر الموحدون لعلاج مشكلة إفريقية بتعيين وال مفوّض في مطلع القرن السابع مهّدوا بذلك عن غير قصد لانفصال المنطقة عن مركز الخلافة الموحدية بظهور الدولة الحفصية (المصمودية القيادة)[6].

ـــ كان من نتائج امتداد النفوذ الموحدي إلى إفريقية تطوّر في العلاقات مع الأيوبيين والعباسيين من جهة، والكيانات السياسية الإيطالية من جهة أخرى : فالعلاقات مع الأيوبيين تميّزت بالتوتّر عموما نظرا لدعمهم أو دعم مماليكهم (الغز) بشرق افريقية لحركات الثوار بالمنطقة، وبالنسبة للإيطاليين تميّزت علاقاتهم مع الموحدين بالسلم والتجارة، غير أن الإيطاليين لم يكونوا يهتمون فيما يبدو بالتقلّبات السياسية بإفريقية وإنما يهمهم من يبسط نفوذه على مدن الساحل التي يتعاملون معها، فهم يتاجرون في نفس الوقت مع الموحدين ببجاية وبني خراسان بتونس (منتصف القرن السادس)، وأيضا مع الموحدين بتونس والثائر الركراكي بالمهدية ثم بني غانية سادة إفريقية حوالي سنة 600هـ[7].

ـــ ويمكن أن نتساءل عن مدى **أهمية البحرية التجارية الموحدية** ومساهمتها في حركة التجارة سواء الداخلية أي بين موانىء الدولة، أو في التجارة الخارجية بنقل البضاعة المغربية إلى موانىء المدن الإيطالية والمتوسطية عامة. وإذا كانت بعض الرسائل تشير إلى حمل الركاب المسلمين (حجاج مثلا) على سفن إسلامية (مغربية أندلسية) فإنها لا تحدثنا عن دورها في نقل البضائع، في حين أن عددا من رسائل أماري تشير إلى تحريض السلطة الموحدية للبيشانيين للقدوم إلى موانىء إفريقية، كما تشير إلى جلبها لبعض ما تحتاجه المنطقة كالقمح، وحملها منها المواد الإفريقية[8].

ـــ ويبدو أن البحر كان «جملا ذلولا» لأوربيي البحر المتوسط كما تذكر ذلك الرسالة العاشرة في المجموعة الجديدة، فهي تلمّح إلى نقص اهتمام المغاربة بالبحر، ويمكن أن نطرح هنا أيضا تساؤلا عما إذا **كان الأسطول الحربي الموحدي** يتجاوز ـــ حقيقة ـــ أهمية بقية الأساطيل المسيحية بالبحر المتوسط الغربي ؟[9] إن الإجابة على هذا التساؤل تقتضي نوعا من التخصص في الميدان أو على الأقل توفرا على الوثائق الكافية.

ـــ إذا كانت نقطة ضعف الموحدين تجلّت في وضعية إفريقية سياسيا وعسكريا فإنهم ركّزوا على المغرب الأقصى، وكذلك على **الأندلس** التي كانت ظروفها أنسب لهم من الحملات إلى إفريقية سواء من حيث القرب وتوفّر المؤن عادة أو من حيث ممارسة مبدأ «الجهاد» ضد

(6) انظر في الفصل الثاني ص (68–80)، وفي الفصل الرابع (ص (209–212).

(7) راجع الرسالة الأولى في مجموعة رسائل اماري، والرسالة 53 (م ج) والفصل الثاني ص (91–93).

(8) بعض هذه الرسائل في مجموعة أماري لم نُعِدْ نشرها وهي من رقم 14 إلى رقم 20 في مجموعته.

(9) راجع الرسالة رقم 10 (م ج) بالقسم الأول، والصفحات (84–88) في القسم الثاني.

النصارى وضد «المجسّمين» أي بني مردنيش على الخصوص الذين قاوموا طويلا الزحف الموحدي نحو شرق الأندلس، وكثيرا ما هددوا قرطبة وغرناطة واشبيلية[10]. كما أن جزر البليار التي كان بها بنو غانية لم تخضع للموحدين نهائيا إلا حوالي سنة 600 لتضيع منهم مع معظم الأندلس بعد حوالي ثلث قرن فقط. وإذا تتبعنا العلاقات بين الطرفين الموحدي والاسباني ظهر لنا فيما يبدو أن كلاّ منهما لم يكن يمانع في توقيع هدنة مع الطرف الآخر إلا إذا كان هذا الطرف أو ذاك منشغلا بفتن أو أحداث داخلية أو على أطراف الحدود، فبينما استغل الخليفتان يوسف ثم المنصور الحرب الأهلية بقشتالة والنزاع مع جيرانها لكسب حلفاء من هؤلاء أو تحصيل بعض الغنائم ثم توقيع هدنة من موقع القوة، كان الاسبان أيضا يستغلون انشغال الموحدين بفتن إفريقية على الخصوص التي كانت أخبارها على الأرجح تنتقل إليهم بواسطة التجار الإيطاليين وربما الميورقيين أيضا، فتنهك العساكر بين الحركة إلى إفريقية والحركة إلى الأندلس. وهنا يمكن أن نتساءل هل كانت جوازات الموحدين إلى الأندلس «جهادية» محضة أي لردّ اعتداءات النصارى أم كانت هناك دوافع أخرى أيضا[11]، وهل كانت انتصاراتهم هناك — وخاصة انتصار الأرك — تحقق لهم تفوقا عسكريا أم مجرد إعادة توازن القوى بين الطرفين، خاصة وأن معركة الأرك تَواجهَ فيها الموحدون مع قشتالة وحدها — كقوة نظامية — إذ كانت على عداء مع جيرانها، وهذا الوضع اختل بمعركة العقاب ؟ أي هل كانت قوة الموحدين بالأندلس أساسها ضعف خصومهم الإسبان ونزاعاتهم فيما بينهم فلا تلبث أن تصبح عكسية بعد توقف فتنهم الداخلية وقيام التحالف بين ممالكهم ؟ إن ما تؤكده الرسائل — بعد العقاب — هو حرص الموحدين على الهدنة مع النصارى والحفاظ على استمرارها[12]، فكأن الهدنة كانت — أو على الأقل أصبحت — هي الخط الرسمي للموحدين، بينما سوف لن يهتم بها الاسبان بمجرد خفة مشاكلهم في أواخر العشرينيات من القرن السابع وهي الفترة التي توازي تراجع الموحدين عن الأندلس ودخولهم في مسلسل الضعف داخل المغرب.

— ان بعض رسائل المجموعة الجديدة[13] تتوفر على إشارات حول **الهدنة** بين الموحدين (في عهد الناصر) وقشتالة، وإشارات عن الفتنة الداخلية بها والتي كانت ولاشك وراء بحثها عن الهدنة مع الموحدين، كما تتضمن المجموعة[14] ما كانت تعانيه الأندلس من عيث العناصر العسكرية العربية والكومية وضعف موقف السلطة إزاءها، زيادة على إشاراتها لمصير ثورة

---

(10) انظر في الفصل الثالث ص (109–110).

(11) راجع في الفصل الثالث ص (133–134).

(12) انظر الرسائل من رقم 77 إلى 85 (م ج)، وظروف الطرفين الاسباني والموحدي بعد العقاب ص (182 وما بعدها) في الفصل الرابع.

(13) هي نفس الرسائل من 77 إلى 85 (م ج).

(14) نفس المجموعة (90–96 م ج).

كزولة بالمغرب الجنوبي[15] مما يبيّن أن الطرفين الموحدي والقشتالي كانا في حاجة إلى الهدنة فيما بينهما[16]، ومثل هذه المعلومات محدودة وضعيفة في المصادر المغربية ــ خاصة ــ والتي انشغلت بأحوال المغرب الداخلية وعواقب هزيمة العقاب عليها.

ــ ومنذ موت المستنصر تفجرت **الأوضاع الداخلية** والصراعات بين هيئتي السادة والأشياخ، بل بين عناصر كل هيئة، وفشل المخلوع والعادل في مواجهة هذه الوضعية، وعندما حاول المأمون علاجها اعتمادا على عناصر عسكرية إسبانية وعلى تحطيم الأساس المذهبي لطبقة الأشياخ، كان يعمل ــ بدون قصد ــ على تحطيم الامبراطورية التي قامت على هذا الأساس المذهبي وتلك العصبية التي ينتمي إليها أولئك الأشياخ، وأخذت الحركات الانفصالية تظهر في الأندلس وافريقية والمغرب الأوسط كما ظهرت المزاحمة المرينية للموحدين بشمالي المغرب الأقصى[17]، وتقوقع الموحدون في مراكش وما حولها في أغلب الحالات رغم المحاولات التي قام بها الخلفاء الرشيد والسعيد ثم المرتضى. وحتى عندما أعلنت سبتة عودتها عن طواعية ــ ولأسباب اقتصادية فيما يبدو ــ[18] إلى التبعية الرسمية للموحدين لم يتجرّأ المرتضى على فرض مذهبه الرسمي عليها[19]، أي أن الدولة كانت في مرحلة احتضار بطيىء منذ هزيمتها في «العقاب» تقريبا، حيث بدأت القبائل المرينية تتسرب إلى إمالي المغرب، ولم تتمكن من القضاء على هذه الدولة إلا بعد حوالي نصف قرن، وهنا نتساءل، لماذا استغرقت مدة الاحتضار كل هذه الفترة، هل الأمر راجع إلى الموحدين ومن كان يدعمهم، أم يرجع ذلك إلى المرينيين ؟ يبدو أن الأمر يتعلق بهؤلاء الذين لم تكن لهم في البداية أهداف سياسية[20] وإنما دخلوا المغرب الأقصى كحركة قبلية تبحث عن الربح المادي، ولم يتحولوا إلى حركة سياسية إلا في نهاية عهد السعيد، وان كان الحفصيون حاولوا أن يوجهوهم قبيل ذلك نحو هذا الاتجاه.

ــ ولعل الاضطراب الذي أصبح المغرب يعرفه خلال النصف الأول من القرن السابع كان أحد العوامل المهمة المساعدة على تحول المسالك التجارية شرقا لفائدة المغرب الأوسط وقاعدته تلمسان ولفائدة إفريقية، مما يساعد على ظهور كيانين سياسيين مستقلين بهما عن الموحدين[21]، بينما كثر الحديث في هذه الفترة عن **الغلاء والمجاعات بالمغرب الأقصى**

---

(15) الرسالة من رقم 97 إلى 100 (م ج) والفصل الرابع (188–190)، انظر بنفس الفصل بعض التساؤلات عن هذه الثورة.

(16) راجع الهامش 13 قبله.

(17) الفصل الرابع ص 205 وما بعدها.

(18) الفصل الرابع ص (214–216).

(19) يتجلى ذلك في رسالته التي لم يذكر فيها ابن تومرت بصفة «المهدي» ولا بصفة «المعصوم» على غير عادة الرسائل الموحدية، انظر التقديم السادس في الملحق الأول.

(20) هذا زيادة على الاختلافات داخل العصبية المرينية.

(21) الفصل الرابع (207–212).

والأندلس وحتى سبتة أحيانا[22]. وإذا كنا نعلم من خلال المصادر المعروفة عن الفترة الموحدية الوضعية المضطربة داخل المغرب الأقصى فإن رسائل تقاديم الولاة والعمال والقادة ونظّار الجباية (الملحق الأول) تؤكد هذه الوضعية بإشاراتها إلى وجود الفساد والمفسدين وأن من مهامّ هؤلاء المقدّمين ردع أهل الشر والفساد[23].

ــ بالنسبة للصنف الثاني في هذه الخاتمة والمتعلق بالجوانب الحضارية نجد أن مخطوط الخزانة الحسنية المتعلق بالتقاديم[24]، يتوفر على أهم مواد هذه الجوانب كما هي موضحة في الفصل الخامس، ونحاول تركيزها في النقط الآتية :

ــ من الناحية **الإدارية**، تمثّل سلطة الخليفة السلطة العليا في البلاد، ويستمد منه الولاة في الأقاليم بعض هذه السلطة التي قد تكون محدودة[25]، وقد تحمل طابع التفويض في بعض الحالات[26]، ونلاحظ أحيانا نوعا من الازدواجية في السلطة أو الوصاية على الخليفة قد تظهر في ازدواجية المراسلات الرسمية عن الخليفة ووزيره أو إليهما معا[27]. وتصف رسائل التقاديم المقدّمين فتحدد أحيانا طبقتهم الاجتماعية (أشياخ) وخبرتهم الإدارية (مجرّبين)، وتحدد أحيانا ما إذا كانت سلطتهم مفوّضة أو مشرّكين مع غيرهم وتابعين لمراقبتهم... وتذكر المهام المطلوبة منهم خاصة من الناحية الأمنية (محاربة المفسدين) والمالية (جمع الجبايات) وأحيانا برفع المحدثات والرسوم غير الشرعية من الأبواب، ومن المجابي ما يشمل «المجابي المخزنية» و«المجابي المختصية» منها ما يشمل تنظيم مداخيل المراسي والمواريث والزكاة والإشراف على «السكة».

ولا تتوفر الرسائل على أيّ تحقير لوال معزول، ربما لما في ذلك من اضعاف للرأي عند اختياره أو لمكانته الاجتماعية بين طبقة الأشياخ، وظهر أن هناك إمكانية وراثة المنصب وخاصة في الميدان القضائي. ومن ألقاب الموظفين الكبار الواردة في الرسائل : الوالي والقائد (والنائب)، وقائد الأسطول أو المقدم والرايس، والطالب وطلبة الأسطول، والحافظ والناظر في المجبى والناظر في الديوان وصاحب أشغال المخزن، والقاضي (ومن يستنيبه) والمسدد... وقد حاولت جهد الإمكان إعطاء بعض التوضيحات حول هؤلاء الموظفين[28].

---

(22) نفس الفصل ص 205 وما بعدها.

(23) هذه الرسائل هي بالملحق الأول بقسم الرسائل، انظر خصوصياتها بالفصل الرابع (156 وما بعدها).

(24) الملحق الأول للرسائل.

(25) انظر الرسالة رقم 6 (م ج).

(26) مثلا في المراسلات بين ولاة إفريقية والأندلس مع ملوك وحكام النصارى المجاورين لهم، وكذلك حالة سبتة في تبعيتها للمرتضى.

(27) مثلا حالة الوزير عمر مع أخيه الخليفة يوسف بن عبد المومن (انظر الرسالتين 14 و15 في قسم الرسائل وخصوصياتهما في الفصل الأول (15–16)، ومثل وصاية الوزير ابن جامع على المستنصر (ص 190–194) من الفصل الرابع).

(28) راجع الجانب الإداري في الفصل الخامس (225–232).

ـ وبالنسبة **للجانب العسكري** هناك ما يتعلق بالجانب التنظيمي وبوسائل القتال : فمن الناحية التنظيمية، تتردد في الرسائل مصطلحات مثل «التمييز» الذي فسرناه على أنه يعني احصاء المقاتلين وانتماءاتهم القبلية والعرقية وحاجاتهم القتالية... ومصطلح «الساقة» الذي يعني القسم الرئيسي من الجيش والذي يتوسطه الخليفة أو الأمير أو القائد، ومصطلحات أخرى كالغزاة والمزوار[29]، والملاحظ أن عناصر الجيش كانت متنوعة، وتتكون من النظاميين والمستنفرين والمتطوعين... ويختلف نظام الرواتب حسب الحالات المادية للدولة وحسب أوقات الحركات أو التسريح وحسب الانتماءات العرقية أو الوظيفية (فرسان، رجالة)[30]، أما وسائل القتال فترد أحيانا عن قصد وأحيانا بشكل غير مباشر، فتذكر السيوف والنبال والدروع والبيضات والمجانيق و«سهام الحريق» و«الأبراج» في حالات الحصار... ونادرا ما يقع تصنيف أنواع القطع البحرية المقاتلة فهي عادة تذكر تحت اسم القطع أو المراكب أو الغربان. وتختلف معاملة الدولة للثائرين حسب درجة الثورة وحسب مكانة الثائر الاجتماعية والمنطقة الجغرافية لثورته[31].

ـ وكان الجهازان الإداري والعسكري يتعززان بالاتجاه **المذهبي**، فقد أقامت الدولة منذ البداية دعايتها على فكرة جهاد «المجسمين» والكفرة، واعتبرت الثائرين عليها مجسمين أو منافقين أو خارجين عن الجماعة... وتركز الرسائل على ترسيخ الفكر المهدوي بالتعليم وحتى في المراسلات حيث يتكرر ذكر «المهدي المعلوم» و«الامام المعصوم»، وأن خلفاءه «خلفاء راشدون» متبعون لما خطّه لهم من إعلاء كلمة «التوحيد»... غير أن الجانب المذهبي لا يمس أمور **الشرع** حيث يؤمر دائما بتطبيق كتاب الله وسنة رسوله ثم ما أجمعت عليه الأمة من العلماء، وهذه وصايا كانت تقدّم لكل قاض تمّ تقديمه على مدينة أو جهة من الجهات، وحتى بالنسبة لبعض الولاة فيما يتعلق بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[32]، ومما كان يوصى به القضاة أيضا الإلحاح على المساواة في الأحكام دون مراعاة للمرتبة المادية أو الاجتماعية، والحفاظ على المصالح العامة كالنهي عن المنكر ورفع المحدثات... مما قد يجعلنا نفهم أنه في العهد الأخير للدولة الموحدية ربما انحرف بعض القضاة عن مبدأ العدل والمساواة، وأن النظام الموحدي وقع في تناقضاته بالعودة إلى فرض المكوس التي كان ينتقد المرابطين بشأنها[33].

ـ ومن الناحية **الاقتصادية** نجد على الخصوص أن مجموعة رسائل أماري تركز على

---

(29) انظر الفصل الخامس، الجانب العسكري ص (232–234).

(30) انظر عن موضوع الرواتب الفصل الخامس ص (234–235).

(31) لاحظ الفرق بين سحق الماسي والغماري والجزولي والاعتناء ببني الرند وبني مردنيش واطلاق سراح أسرى حصن الأرك وأسرى حصن شلبطرة.

(32) انظر المهام المطلوبة من القاضي في الفصل الخامس ص (247–249).

(33) راجع في الفصل الخامس عن الجانب المذهبي والقضائي ص (245–249). بالنسبة لهذه الوصايا من المحتمل أنها عادية في مختلف الفترات أيضا ويعتبرها الخلفاء أساسية في ظهائر تعيينهم للقضاة.

موضوع العلاقات التجارية بين الموحدين وبيزة «بيشة»، وأهم ما يستخلص منها أن هناك تطورا نحو تنظيم التبادل التجاري على حساب القرصنة، رغم أن هذه لم تتوقف نهائيا حتى في حالة وجود اتفاق بين الطرفين، ويظهر تطور العقلية التجارية نسبيا في عدم تأثر الاتفاقات ببعض الحوادث التي لا يعتبر مسؤولا عنها غير مرتكبيها بشكل عام. أما رسائل الملحق الأول (مخطوط يحيى !) فإن ما فيها من جانب اقتصادي هو إشاراتها إلى أن من مهام عدد كبير من المقدّمين ضبط المجابي المخزنية وعلى «نظامها المعهود»!، وأحيانا الأمر بمحو الرسوم من الأسواق... ويشار أحيانا إلى أن هذه المجابي هي لمصلحة عموم المسلمين...

ــ وبالنسبة **للسياسة الخارجية** الموحدية فلها شقان، نحو العالم الإسلامي ونحو المسيحيين : فالموحدون كانوا يرون أنفسهم أحق بالإشراف على العالم الإسلامي ماداموا يعتبرون أنفسهم الموحدين الحقيقيين وأن بإمكانهم تطهيره من المفاسد، وهذه الفكرة ظلت مرافقة لهم رمزيا حتى في فترة ضعفهم وانقسام أجزاء دولتهم، وربما كان هذا الاتجاه أحد العوامل الأساسية في التوتر مع الأيوبيين. وبالنسبة للعلاقات مع الممالك الاسبانية بالخصوص يبدو أن الاتجاه العام للموحدين ــ منذ انهاء مشكل ابن مردنيش بالشرق الأندلسي ــ هو الميل إلى الهدنة إلا إذا اضطروا إلى الحرب، مما يجعلنا نتساءل إلى أي مدى كانت قوة الموحدين قوة حقيقية ؟ هل هذه القوة كانت لها ركائز سليمة داخليا، أم أنهم اعتمدوا على تناقضات وانقسامات الطرف الآخر فيكونون أقوياء مادام الآخرون ضعافا ومنقسمين فإذا تخلصوا من مشاكلهم الداخلية أو تحالفوا فيما بينهم انكشف ضعف الموحدين ؟ وهل كانت مشاكل الأندلس (أي تكرر الصطدام مع النصارى) عاملا أساسيا في اضعاف الدولة الموحدية، خاصة إذا صح اعتبار هزيمة العقاب منطلقا لهذا الضعف ؟ يبدو أنه من الصعب الفصل في أسباب الانهيار بين العوامل الداخلية والخارجية وان كانت الهزيمة زعزعت داخليا الثقة في هيبة الدولة كقوة «مجاهدة» وأسقطت قناع هيبة النصارى لقوة الموحدين[34].

وأخيرا فإنني لا أعتبر نفسي استخرجت كل ما يمكن استخراجه من رسائل المجموعة الجديدة، وانما قد أكون أعطيت توضيحا عنها وتمهيدا للباحثين على اختلاف تخصصاتهم لدراستها دراسة معمقة تفيد في كتابة التاريخ الموحدي خاصة إذا أمكن العثور على مجموعة أخرى من الرسائل التي تسد ثغرات هذه المجموعة أو تزيد معلوماتها توضيحا، ولعلّي بهذا أكون قد ساهمت بحصة متواضعة في بناء البحث التاريخي ببلادنا.

(34) ان ما سبق من تساؤلات عن مدى قوة الموحدين برا وبحرا لا يفسّر على أنه تحامل عليهم ولكنه محاولة تدخل في إطار البحث التاريخي. وما ذكر لا يهم الجوانب الحضارية العامة. وإنما القوة السياسية والعسكرية، فإذا كانت دولة الموحدين قائمة على أسس سليمة كيف يمكن أن نفهم انهارها بسرعة ؟

مصادر ومراجع البحث[1]

المصـادر[2] :

* القرآن الكريم :
ـ المصحف المطبوع بالقاهرة سنة 1964 (مراجع من طرف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر).
ـ والمصحف المطبوع بدار المعرفة، بالدارالبيضاء.
* ابن الأبار (محمد بن عبد الله القضاعي البلنسي) ت 658[3] :
ـ إعتاب الكتّاب، ط دمشق، ومخطوط خ ع.
ـ التكملة لكتاب الصلة، ط مدريد (كوديرا)، وط القاهرة، وخ ح رقم 1411.
ـ الحلة السيراء، جزآن، تحقيق حسين مؤنس، القاهرة 1963.
ـ المقتضب من كتاب تحفة القادم، (اقتضبه البلفيقي)، نشر إبراهيم الأبياري 1957، ثم 1983 (ط.بيروت) وكان قد نشر فيما قبل بمجلة المشرق لسنة 1941.
* ابن الأثير (أبو الحسن عز الدين) ت 630 :
ـ الكامل في التاريخ، ط دار الكتاب العربي (الجزآن 8 و9).
* ابن الأحمر (اسماعيل) ق 8 : بيوتات فاس الكبرى، دار المنصور ـ الرباط 1972.
* الادريسي (محمد بن عبد الله الحسني السبتي) ت 564 :
ـ وصف افريقيا الشمالية والصحراوية (من نزهة المشتاق) ن، هنري بيريس الجزائر 1957.
ـ النشر الايطاليتان لنزهة المشتاق : الثالثة والخامسة.
ـ نزهة المشتاق في اختراق الآافاق ـ جزآن ـ طبعة القاهرة 1994.
* الأزموري (محمد بن عبد العظيم) ح 900 :
ـ بهجة الناظرين وأنس الحاضرين خ ع/ د. 1343، خ ح/ 1358.

---

(1) وردت بعض المصادر والمراجع في الهوامش بشكل محدود، فلم يرد ذكرها في هذه اللائحة.
(2) رتبت المصادر حسب الأبجدية المغربية للمؤلفين، وحسب الترتيب الأبجدي للمصادر المجهولة المؤلفين.
(3) سنوات الوفيات أخذت في معظمها عن الأستاذ المنوني في «المصادر العربية لتاريخ المغرب» ج/ 1. 1983 (وهي بالتاريخ الهجري).

* البكري أبو عبيد عبد الله (487) :
ـ كتاب المغرب في ذكر افريقية والمغرب، طبعتا 1857 و1965.
* البلوي (أبو القاسم أحمد بن محمد القضاعي) ت 657 :
ـ العطاء الجزيل في كشف غطاء الترسيل، خ ح/ 6148/ (مخطوط).
* البيذق (أبو بكر بن علي الصنهاجي) :
ـ أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين، ط الرباط 1971.
* التجاني (أبو عبد الله محمد التونسي) حي سنة 717 :
ـ رحلة التجاني، تونس 1958 (ن حسن حسني عبد الوهاب).
* ابن تومرت (محمد المهدي) ت 524 :
ـ أعز ما يطلب، خ ع/ ق 1214 (بالنسبة للرسالتين 2 و4 م ج).
* ابن جبير (محمد بن أحمد الكناني) ت 614 :
ـ رحلة ابن جبير (أو «تذكرة الأخبار عن اتفاقات الأسفار»)، دار الكتاب اللبناني ـ دار الكتاب المصري.
* الحموي (شهاب الدين ياقوت الحموي) ت 626 :
ـ معجم البلدان.
* الحميري (محمد بن عبد الله... ابن عبد المنعم) ت 726 :
ـ الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس (1975).
* ابن الخطيب (لسان الدين محمد بن عبد الله السلماني الغرناطي) ت 776 :
ـ الاحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عنان، ط القاهرة.
ـ أعمال الأعلام... (القسم الأندلسي) خ ع/ 1552 د، المنشور بعناية بروفنصال تحت عنوان «تاريخ اسبانيا الاسلامية».
* ابن خلدون (عبد الرحمن أبو زيد) ت 808.
ـ كتاب العبر... ن دار الكتاب اللبناني 1967 ـ 1968 (أعيد طبعه سنة 1983).
* ابن خلدون (يحيى بن محمد الحضرمي، أخو المذكور قبله) ت 780 :
ـ بغية الرواد في أخبار بني عبد الواد، جزآن، ن ألفرد بيل، الجزائر 1903 و1910. والجزء الأول، ت، عبد الحميد حاجيات ـ الجزائر 1980.
* ابن خلكان (أحمد بن محمد : أبو العباس) ت 681.
ـ وفيات الأعيان... تحقيق ا، عباس ـ دار صادر، بيروت (1969 ـ 1972).
* ابن دحية (أبو الخطاب عمر الكلبي السبتي) ت 633 :
ـ المطرب من أشعار أهل المغرب، ط، القاهرة 1954.
* الرعيني (أبو الحسن علي) ت 666 :
ـ برنامج شيوخ الرعيني، تحقيق ابراهيم شبوح، دمشق 1962.

* ابن الزبير (أحمد بن ابراهيم الجياني) ت 708 :
ـــ صلة الصلة، ن ليفي بروفنصال ـــ الرباط 1938، وقطعة خاصة مرقونة (في ملك الأستاذ المنوني) عن نسخة دار الكتب المصرية (المجموعة التيمورية).
ـــ صلة الصلة (ق 3، 4، 5)، ت عبد السلام الهراس وسعيد أعراب (المحمدية 1993 ـــ 1995)
ـــ الزركشي (أبو عبد الله محمد بن ابراهيم) حي سنة 894 :
ـــ تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، ط حجرية وط تونس 1966 (تحقيق ماضور).
* ابن ابي زرع الفاسي، القرن الثامن :
ـــ الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، ط دار المنصور-الرباط 1973.
* ابن الزيات (يوسف بن يحي التادلي) ت 627 : التشوف إلى رجال التصوف ـــ الرباط 1958 (ت أدولف فور) وط الرباط 1984 (ت أحمد التوفيق).
* الكتبي (ابن شاكر) ت 764 :
ـــ فوات الوفيات، القاهرة 1951 (تحقيق محمد عبد الحميد).
* مجهول :
ـــ الاستبصار في عجائب الأمصار، تحقيق سعد زغلول عبد الحميد، القاهرة 1958. (عاش مؤلفاه في القرن السادس)
ـــ الحلل الموشية في الأخبار المراكشية، تحقيق زكار وغيره، ط البيضاء 1979. (عاش مؤلفه في القرن الثامن).
ـــ مجموع رسائل موحدية من إنشاء كتّاب الدولة المومنية، ن بروفنصال، الرباط 1941.
ـــ [مخطوط ضمن مجموع به رسائل موحدية] (مخطوط الأستاذ محمد المنوني).
ـــ مفاخر البربر، مخطوط خ ع/ك، 1275 (مجموع) ود، 1020 (ثلاثة أجزاء).
ـــ المقتبس من كتاب الأنساب في معرفة الأصحاب، ط دار المنصور، الرباط 1971. (القرن السادس).
* ابن المرابط (محمد بن علي المرادي) ت : 663 :
ـــ زواهر الفكر وجواهر الفقر، شريط خ ع/1114، (عن مخطوط الاسكوريال رقم 520 غزيري).
* المراكشي (ابن عبد الملك الأنصاري) ت 703 :
ـــ الذيل والتكملة على كتابي الموصول والصلة :
س 1 تحقيق بن شريفة، س 4 و5 و6 تحقيق إحسان عباس، وس 8 تحقيق بن شريفة وس 8 مخطوط خ ع/د، 3784 والمصور عنه بها د، 1705 (خاص بالغرباء).
* المراكشي (عبد الواحد التميمي) ت 625 :

ــ المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، القاهرة 1949.
* المقري (أبو العباس أحمد) ت 1041هـ :
ــ نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ت إحسان عباس، دار صادر، بيروت 1968.
* المقريزي (تقي الدين أبو العباس أحمد) ت 845 :
ــ كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار.
ــ السلوك لمعرفة دول الملوك، ج 1 ق 1 (تحقيق محمد زيادة)، القاهرة 1934.
* ابن مريم (محمد بن محمد المديوني التلمساني) حي 1014 :
ــ البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، تحقيق ابن شنب، الجزائر 1908.
* النباهي (أبو الحسن علي الجذامي) حي سنة 793 :
ــ المرقبة العليا في القضاء والفتيا، نشره بروفنصال تحت عنوان «تاريخ قضاة الأندلس» 1948.
* النويري (أحمد بن عبد الوهاب التيمي) ت 732 :
ــ نهاية الأرب في فنون الأدب، السفر 22 تحقيق، مصطفى أبو ضيف تحت عنوان «تاريخ المغرب الإسلامي في العصر الوسيط»، الدار البيضاء 1985.
* ابن صاحب الصلاة (أبو مروان عبد الملك الباجي) ت 594 :
ــ تاريخ المن بالإمامة... تحقيق الأستاذ عبد الهادي التازي، بيروت 1965. (أعيد طبعه).
ــ مخطوط أوكسفورد (نسخة مصورة عنه بالخزانة العامة تحت رقم 2649 د).
* الضبي أحمد بن عميرة) ت 599 :
ــ بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس.
* ابن عذاري (أبو العباس المراكشي) حي سنة 712 :
ــ البيان المغرب (المرابطي)، منشور على أساس أنه الجزء الرابع، ط بيروت.
ــ البيان المغرب (الموحدي) الجزء الثالث، ط تطوان 1960 ــ 1963 (وهي المعتمدة أساسا، أعيد طبعها سنة 1985 على يد جماعة من الأساتذة) ونسخ الخزانة الحسنية 336 و777 و6158 و334 و2150 و5212 ونسخة خ ع/ ق، 200.
* ابن العماد (عبد الحي الحنبلي) ت 1089 :
ــ شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ط القاهرة 1351هـ.
* ابن عميرة (أبو المطرف أحمد المخزومي الشقري) ت 658 :
ــ رسائل ابن عميرة، قطعة من السفر الأول خ ع/د، 4502 (مخطوط مصور)، قطعتان من السفر الثاني خ ع/ك 232 وك 233 (مخطوطان).
* ابن عسكر (محمد بن علي بن خضر الغساني) ت 636 :
ــ فقها مالقة وأدباؤها، خ ح/11055 (كان ابن عسكر أحد مؤلفي الكتاب).

* ابن غازي (محمد بن أحمد العثماني) ت 919 :
ـــ الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون، مطبعة الأمنية بالرباط 1952.
* الغبريني (أبو العباس أحمد البجائي، ت 714 :
ـــ عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، الجزائر 1970.
ابن القاضي (أحمد المكناسي) ت 1029هـ :
ـــ جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس، الرباط 1974 (دار المنصور).
* القبتوري (خلف الغافقي) ت 704 :
ـــ «رسائل ديوانية من سبتة في العهد العزفي» تحقيق محمد الهيلة، الرباط 1979.
* ابن القطان (حسن بن علي الكتامي)، القرن السابع :
ـــ نظم الجمان فيما سلف من أخبار الزمان، تحقيق محمود مكي، تطوان 1964. (أعيد طبعه في دار الغرب الاسلامي سنة 1990).
* القلقشندي (أحمد بن علي الفزاري) ت 821.
ـــ صبح الأعشى... الجزآن الخامس والسادس، المطبعة الأميرية بالقاهرة، اعيد طبع الكتاب في بيروت سنة 1987)
* ابن سعيد المغربي (علي بن موسى) ت 673 :
ـــ كتاب بسط الأرض في الطول والعرض، بيروت 1970 (أعيد طبعه تحت عنوان : كتاب الجغرافيا، ت اسماعيل العربي، ط بيروت 1970.
ـــ رايات المبرّزين وغايات المميّزين، ن كارسيا كوميث، مدريد 1942 (أعيد طبعه بالقاهرة سنة 1973).
ـــ عنوان المرقصات والمطربات (ط حجرية 1286هـ).
ـــ الغصون اليانعة في شعراء المائة السابعة، (ت الأبياري) ط دار المعارف.
ـــ المغرب في حلي المغرب. (ت، شوقي ضيف) ط. دار المعارف 1978 ـــ 1980.
* السلفي (أبو طاهر أحمد بن محمد الاصبهاني) ت 576 :
ـــ أخبار وتراجم أندلسية (من «معجم السفر»)، ن إحسان عباس، بيروت 1963.
* السيوطي (عبد الرحمن بن أبي بكر) ت 911 :
ـــ بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، ط القاهرة 1964 ـــ 1965.
ـــ أبو شامة الدمشقي (عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي) ت 665 :
ـــ كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ط القاهرة 1287هـ.
ـــ الذيل على الروضتين أو «تراجم رجال القرنين 6 و7». (ت، احسان عباس).
* ابن شدّاد (بهاء الدين) ت 632 :
ـــ النوادر السلطانية (منشور تحت عنوان «سيرة صلاح الدين الأيوبي» مع ذيل عليه).

* ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم) ت 697 :
ـــ مفرّج الكروب في أخبار بني أيّوب، ن جمال الدين الشيال، المطبعة الأميرية 1953 ـــ 1957.
* الوزّان (حسن) ق 10 هـ :
ـــ وصف افريقيا، ج 1، ط الرباط 1980.
* يحيى (؟) :
ـــ مخطوط به رسائل موحدية، بالخزانة الحسنية رقم 4752 (رسائل الملحق الأول).

المعاجم :

* البستاني : قطر المحيط.
* ابن منظور : لسان العرب.
* معلوف (لويس) : المنجد في اللغة.

المراجع العربية والمعرّبة :

* ابن عبد الله (عبد العزيز) :
ـــ البحرية المغربية والقرصنة (مقال بمجلة «تطوان»؛ سنة 1958 ـــ 1959).
* ابن شريفة (محمد) :
ـــ أبو المطرّف ابن عميرة (الرباط، 1966).
* جواد (مصطفى) :
ـــ المنصور الموحدي والناصر العباسي، صراع خفيّ (دعوة الحق، أبريل 1969).
* حمّوش (عبد الحق) :
ـــ القوة البحرية في الغرب الإسلامي بعد الفتح إلى قيام دولة الموحدين (دعوة الحق، ماي 1969).
* المنوني (محمد) :
ـــ المصادر العربية لتاريخ المغرب (الجزء الأول، البيضاء 1983).
* مصطفى أبو ضيف أحمد :
ـــ أثر القبائل العربية في الحياة المغربية خلال عصري الموحدين وبني مرين (البيضاء 1982).
* العباس بن إبراهيم (المراكشي) :
ـــ الإعلام بمن حلّ مراكش وأغمات من الأعلام.
* العروي (عبد الله) :
ـــ تاريخ المغرب (ترجمة قرقوط، بيروت 1977). أعاد المؤلف كتابته تحت عنوان : مجمل تاريخ المغرب.

* عز الدين أحمد موسى :
ـــ النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري (بيروت 1983).
* عنان (محمد عبد الله) :
ـــ عصر المرابطين والموحدين (القاهرة 1965).
* الغربي (أحمد) :
ـــ الموحدون سادة البحر (مجلة دعوة الحق، يناير 1972).
* الفاسي (محمد) :
ـــ أبو جعفر ابن عطية (مقال بمجلة «الباحث»، السنة الأولى، المجلد الأول، سنة 1972 وزارة الثقافة «المغربية»).
* سعد زغلول عبد الحميد :
ـــ العلاقة بين صلاح الدين والمنصور الموحدي (مقال بمجلة كلية الآداب ـــ جامعة الاسكندرية، سنة 1953).
* أرشيبالد (لويس) :
ـــ القوة البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط، ترجمة أحمد عيسى، ط القاهرة 1960.
* أشباخ (جوزيف) :
ـــ تاريخ الأندلس في عصر المرابطين والموحدين، تعريب : محمد عنان. (أعيد نسخه سنة 1996).
* برانشفيك (دوبير) : تاريخ افريقية في العهد الحفصي، جزآن، تعريب حمادي الساحلي، بيروت 1988.
* جوليان (ش.أ) : تاريخ افريقيا الشمالية، ج 2، تعريب محمد مزالي والبشير بن سلامة ط، تونس 1978.
* لوتورنو (روجي) :
ـــ حركة الموحدين في المغرب في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، تعريب أمين الطيبي، الدار العربية للكتاب، ليبيا ـــ تونس 1982.
* هوبكنز (ج، ف، ب) :
ـــ النظم الإسلامية في المغرب في القرون الوسطى، تعريب أمين الطيبي، الدار العربية للكتاب، ليبيا ـــ تونس 1980.

مراجع أجنبية :

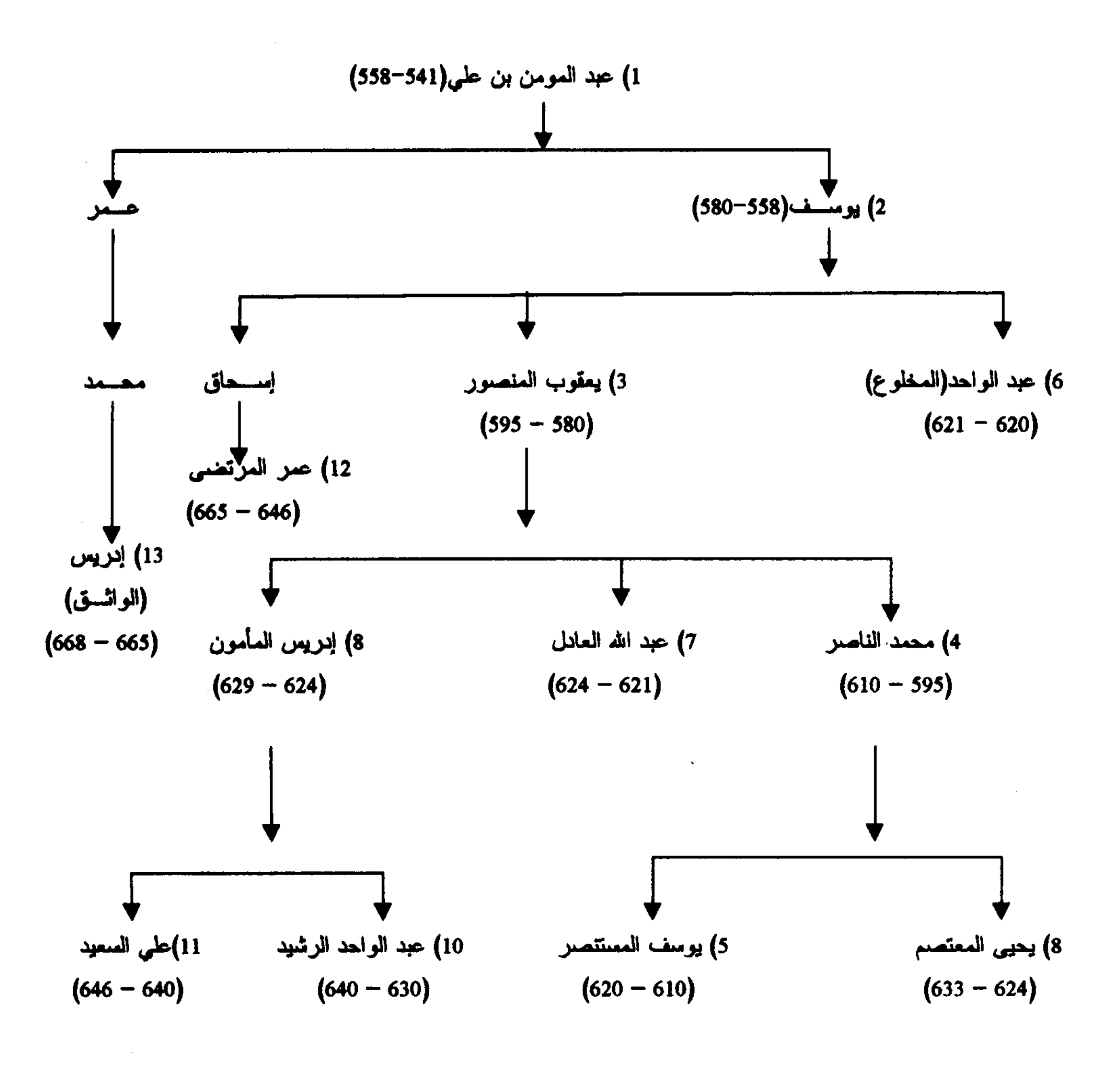
* AMARI (Michele) : Diplomi Arabi dell'Archivio Fiorentino, T. 1. 1863.
* BEL (Alfred) :
— Les Banou Ghânya 1903 (Paris).
— Contribution à l'étude des Dirhems de L'époque Almohade, Hespéris 1933 T. 16. F1-2.
* BRUNSCHBIG (R) :
— La berberie Orientale sous les Hafsides... (Paris 1940).
— Cahiers de Tunisie : (Faculté des Lettres) 1970 T : XVII, N 69 – 70, 1 – 2 tri
* CATTENOZ (H — G) :
— Tables de concordance des éres chrétienne et Hegirienne, éd 1961.
* Cênival (Pierre de)
— L'église Chrétinne de Marrakech au 13éme siècle. Hespéris 1927 1er tir.
* Dozy :
— Recherches sur l'histoire et la littérature dans l'Espagne musulmane pendant le moyen âge. T 2. 1965.
— Supléments aux dictionnaires arabes, éd 1968.
* DUFOURCQ (Ch.E) :
— L'Espagne Catalane et le Maghrib Au 13éme et 14éme siècle. Paris 1966.
— La question de Ceuta au 13 éme S. (Hespéris 1955 - 1 - 2 Tri.).
— les relations du Maroc et de la Castille pendant la première moitié du 13 éme siècle.
(بمجلة تاريخ وحضارة المغرب، كلية الآداب بالجزائر ع/ 5، يوليوز 1968).
* HUICI MIRANDA (A)
— Al - ARK, Ensyclopédie de L'Islam, Tome 1 Ed. 1975.
— La campana de Alarcos.
(مقال بمجلة المعهد المصري للدراسات الاسلامية بمدريد 1954).
— Historia politica del Ampério Almohade. Tetuan, 1956-1959.
* Le Tourneau (R) :
— La révolte des fréres d'Ibn Toumart de 1153 à 1956.
— Mélanges d'histoire et d'Archéologie de l'occident musulman, T 2. (G. MARÇAIS).
* PROVENÇAL Levi (E) :
— «Trente-sept lettres Almohades officielles» Hespéris T.29.1941 (Unique).
(دراسة لـ «مجموع رسائل موحدية من انشاء كتاب الدولة المومنية»).
* MASCARELLO :
— Quelques aspects des activités Italiennes dans le Maghreb médieval.
(بمجلة تاريخ وحضارة المغرب، كلية الآداب بالجزائر ع/5، يوليوز 1968).
* MAS—LATRI (DE) :
— Relations et commerce de l'Afrique septentrion ou Maghreb avec les nations chrétiennes au moyen âge. Paris 1886.
— Traités de paix et de commerce et documents divers concernant les relations des chrétiens avec les arabes de l'Afrique septentrional au moyen âge, Paris 1866.

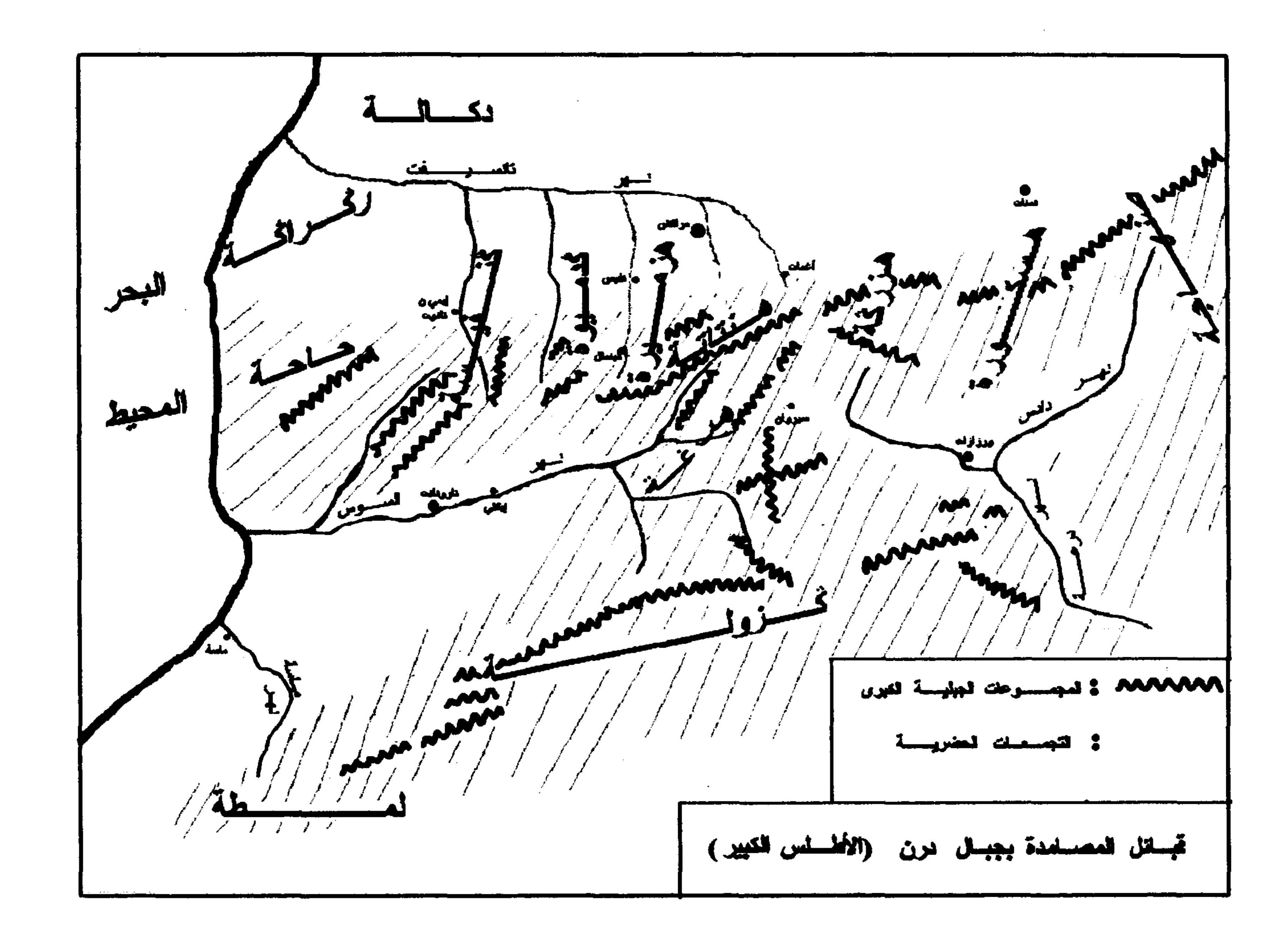
* MERAD ALI :
— Abd Al-Mu'min à la conquête de l'Afrique du nord... (Annales de l'institut des études orientales. Alger 1959).

* MONTAGNE (R) :
— Les berbères et le Makhzen dans le sud marocain - Paris 1930.

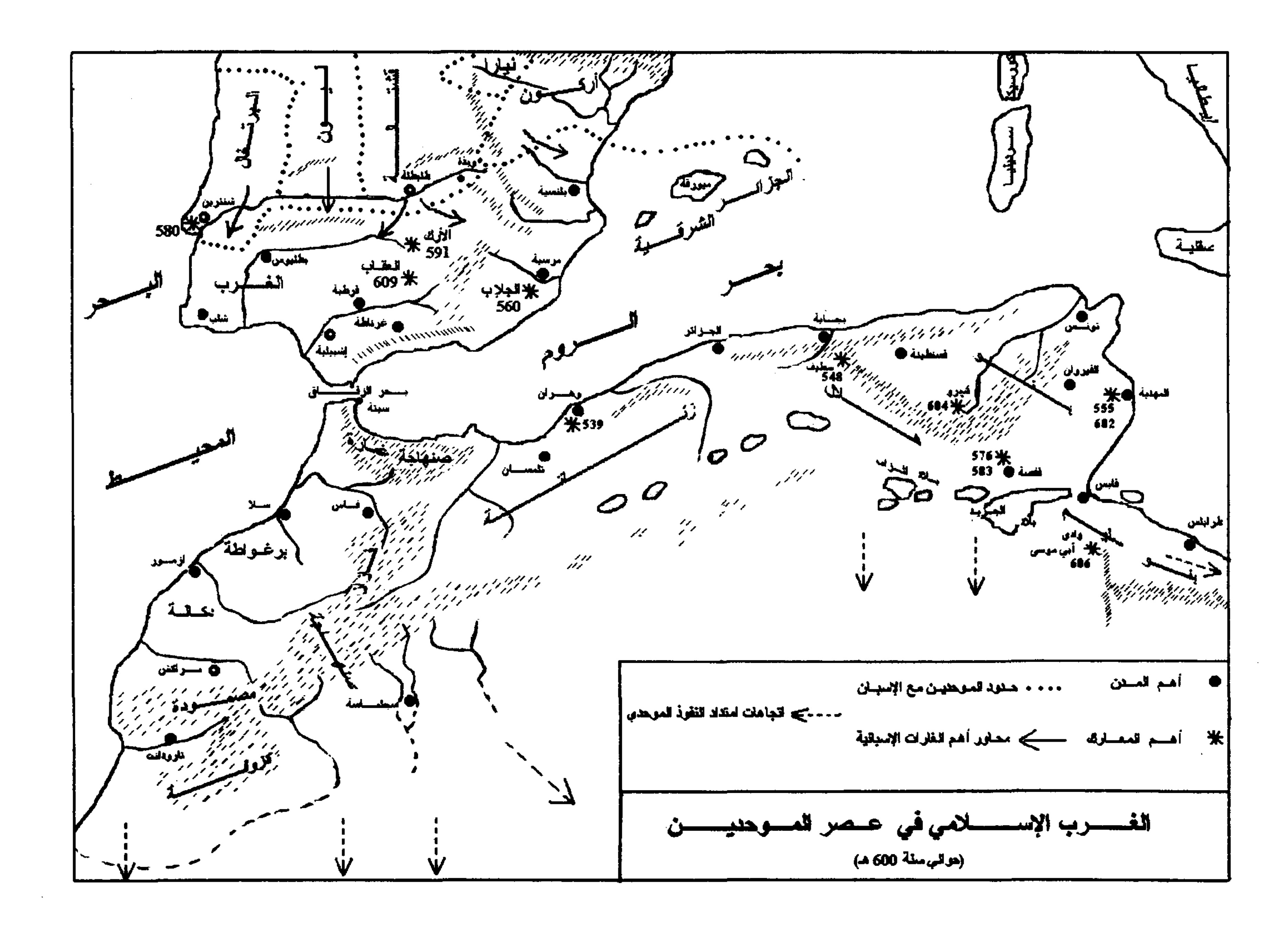
* TORRES : (Barcelo) :
— El Sayyd Abu Zayd, principe musulman, senor cristiano.
(مقال بمجلة «أوراق» ع 1980/3 — المعهد الاسباني العربي للثقافة، مدريد).

جدول للخلفاء الموحدين





دكالة
البحر المحيط
ركراكة
حاحة
لمطة
كزولة
نهر تانسيفت
نهر السوس
نهر
دادس
أغمات
مراكش
تارودانت
: المجموعات الجبلية الكبرى
: التجمعات الحضرية
قبائل المصامدة بجبال درن (الأطلس الكبير)


الغـــرب الإســـلامي في عـــصر المـــوحديـــن
(حوالي سنة 600 هـ)
أهم المدن
حدود الموحدين مع الإسبان
أهم المعارك
محاور أهم الغارات الإسبانية
اتجاهات امتداد النفوذ الموحدي
البحر المحيط
بحر الروم
الجزائر الشرقية
ميورقة
سردينيا
كورسيكا
صقلية
البرتغال
ليون
قشتالة
نبارا
أرغون
الغرب
شنترين
580
بطليوس
شلب
قرطبة
غرناطة
إشبيلية
العقاب 609
الأرك 591
طليطلة
بلنسية
مرسية
الجلاب 560
بحر الزقاق
سبتة
صنهاجة
غمارة
وهران
539
تلمسان
الجزائر
بجاية
سطيف 548
قسنطينة
تونس
القيروان
المهدية
555
682
قفصة
576
583
قابس
الجريد
طرابلس
أبي موسى
686
سلا
فاس
برغواطة
أزمور
دكالة
مراكش
مصمودة
سجلماسة
تارودانت
كزولة

تصحيح بعض أخطاء الجزء الأول
من كتاب «رسائل موحدية»

الصفحة	السطر أو الهامش	الخطــــأ	الصـــواب
3	س 17	بتر بعد «والوثائق التراثية»...	لم يعرف طريقه إلى النّشر لأسباب تجارية صرفة، وبقي مجهولا لدى العموم وخاصة في خارج بلادنا. إن اعتماد كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالقنيطرة نشر النصوص والوثائق بإمكانها....
14	س 12	تضاف إليها 73 رسالة.....	تضاف إليها 77 رسالة
33	س 12	وأحد الشعراء.............	واحِد الشعراء
33	س 15	مراميه......................	مرامه
49	س 3	إلى زوجها، والمناكر والفساد في الأرض[41]	إلى زوجها[41]... والمناكر والفساد في الأرض
49	هـ 41	يعوّض بما يلي...............	تعرّضت الرسالة لبتر كمّل بعضه صاحب «نظم الجمان» 67-68 (ط، دار الغرب الإسلامي).
56	هـ 3	انظر ترجمته في أول.........	انظر ترجمته في المقدمة
61	أعلى الصفحة	(بتر عنوان الرسالة).........	الرسالة السادسة : رسالة عبد المومن الحامعة لأنواع من الأوامر[1]
73	س 6	ورحمة الله تعالى وبركاته.....	ورحمة الله وبركاته
73	س 10	المحلة بفج قامرة............	المحلة المباركة بفج قامرة
73	س 11	حفظكم الله................	حفظهم الله
73	س 17	ومن ناواه قسم............	ومن ناوأه قُصم
74	س 4	نويناه إليكم................	نويناه لكم
74	س 6	المشكور والمرضي..........	المشكور المرضيّ

فهرس المواضيع

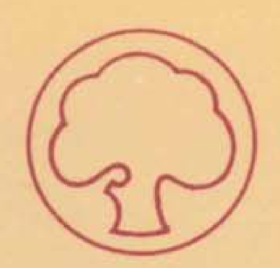
الفصل الرابع

التراجع الموحدي عن الأندلس والانقسام السياسي بالمغرب

الفصل الخامس

جوانب حضارية في رسائل «المجموعة الجديدة»

مطبعة النجاح الجديدة
الـدّار البيضـاء
الإيداع القانوني رقم 1995/1249



Université Ibn Tofail
Faculté des Lettres et des Sciences Humaines
Kénitra

Publications de la Faculté des Lettres et des Sciences Humaines de Kénitra
Série : Textes et documents
N° 2

NOUVELLES LETTRES ALMOHADES

Edition annotée et commentée par

Ahmed AZZAOUI

Tome II